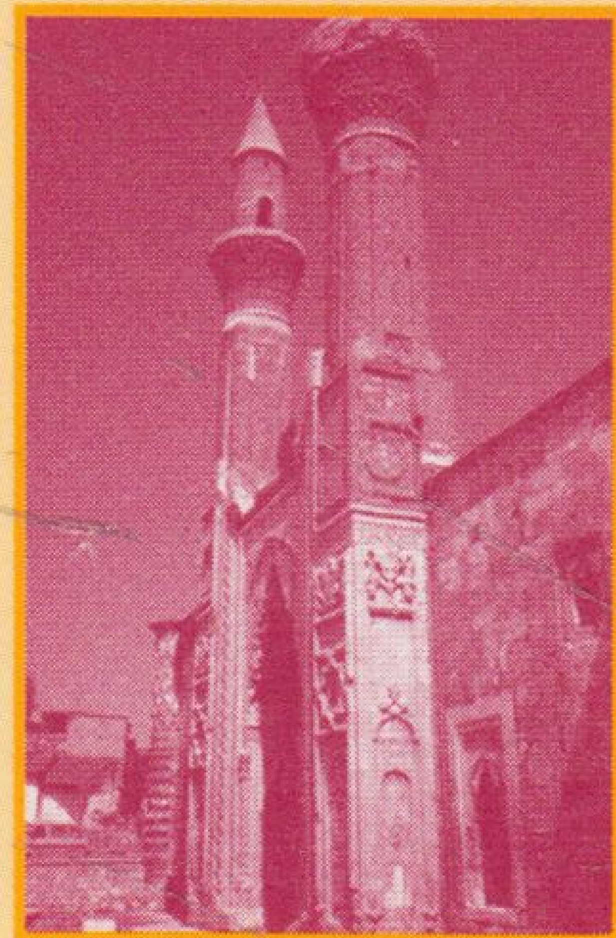
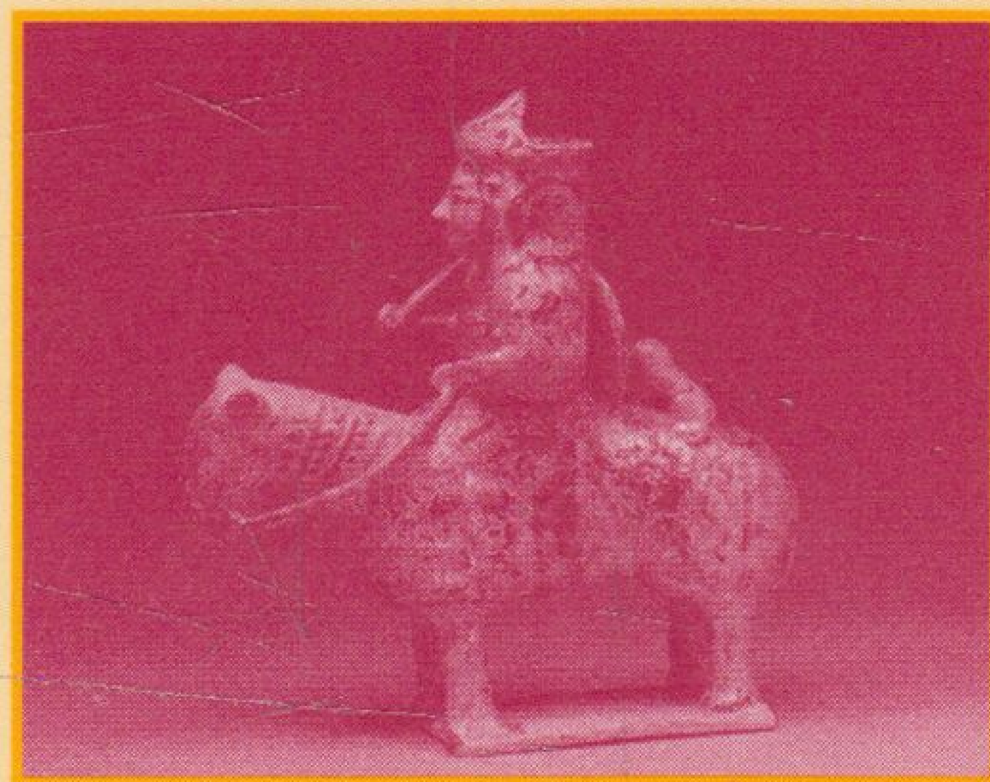
الدكتور محمد سهيل طقوش

تاريخ سلاجقة الروم

في آسيا الصغرى







دار النفائس

تاريخ
سلاجقة الروم
في آسيا الصغرى

٤٧٠ - ٧٠٤ هـ / ١٠٧٧ - ١٣٠٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف

تمثال يمثل نموذجاً من الفن السلجوقي ، القرن الثاني عشر ميلادي
مدرسة غؤك في سيواس (سيفاس) ، تركيا عام ١٢٧١ م
خارطة نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى وبلاد الشام

تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى

٤٧٠ ـ ٧٠٤ هـ/١٠٧٧ ـ ١٣٠٤م

مدخل إلى تاريخ العثمانيين

تأليف
الدكتور محمد سهيل طقوش

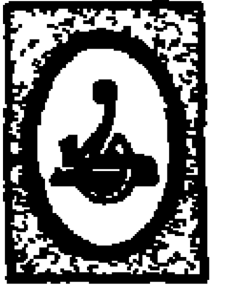
دار النفائس

تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى

تأليف : د . محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

ISBN 9953-18-047-4



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح

وصفي الدين - ص . ب ١٤-٥١٥٢

الرمز البريدي : ١١٠٥-٢٠٢٠

فاكس : ٨٦١٣٦٧ - ١ ٠٠٩٦١

هاتف : ٨٠٣١٥٢ - ٨١٠١٩٤

بيروت - لبنان



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-Distribution

P.O. Box 14-5152

Zip Code 1105-2020

Fax: 00961 1 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194

Beirut - Lebanon

Web Site :www.alnafaes.com

Email:books@alnafaes.com

الإهداء

الى حفيدتي احسان

هذه صفحات من التاريخ الإسلامي،

أهديها اليكِ بمحبة بالغة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

حفلت أحداث التاريخ بتحركات شعوب وجماعات خرجت من مواطنها الأصلية إلى أماكن جديدة استقرت فيها، وجعلت منها أوطانها، وحملت خلال انتقالها مقوِّمات حياتها الأولى، فاحتفظت منها بما ينفعها في حياتها الجديدة، واقتبست في الوقت نفسه مما وجدته صالحاً للبقاء والتطور من مقومات حضارة البلاد المفتوحة.

نذكر من هذه التحركات خروج الشعوب التركية من مواطنها الأصلية وتسربها حيناً واندفاعها أحياناً أخرى، إلى غربي آسيا وشرقي أوروبا ووسطها، وهي حركة ابتدأت منذ القرن الثامن الميلادي. وكانت نقطة التحول في حياة المهاجرين اعتناقهم الإسلام كدين، مما سبَّب في انهيار الحاجز بينهم وبين المسلمين. ثم بدأوا يتسرَّبون إلى الممالك الإسلامية يعرضون خدماتهم على ملوكها وأمرائها فأمدُّوا هذه الممالك بقوة دفع جديدة.

تقدم صفحات هذا البحث محاولة لدراسة تاريخ أسرة تركية سلجوقية هي الأسرة الرومية في آسيا الصغرى بين عامي (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) تاريخ تأسيس السلطنة و(٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) تاريخ زوالها على أيدي المغول الإيلخانيين.

ولا يعني هذا البحث دراسة أوضاع الشعوب التي جاورتهم كالبيزنطيين والأرمن والقبجاق والأيوبيين والأراتقة والخوارزميين، ولا تاريخ الحملات الصليبية التي اخترقت بلادهم في طريقها إلى بلاد الشام، ولا تاريخ المغول الذين جاسوا خلال الديار الإسلامية؛ إلا بما يتصل بهذا الغرض وحده.

والواقع أنه اعترضتني صعوبات جمَّة في استجلاء تاريخ هذه الأسرة السلجوقية، لشدة غموضه. إذ أن تاريخ آسيا الصغرى، منذ الفتح السلجوقي حتى

قيام الدولة العثمانية، هو دون شك من الأقسام الأقل وضوحاً في التاريخ الشرقي العام على الرغم من العلاقات التي نشأت بين السلاجقة وجيرانهم في العصور الوسطى.

لقد كثرت الدراسات الحديثة والمعاصرة التي تناولت تاريخ العالم الإسلامي في الشرق والغرب باستثناء آسيا الصغرى في العصر السلجوقي، لذلك فإن الصورة التي وصلت إلينا غير متكاملة لأن آسيا الصغرى تُعدُّ جزءاً من العالم الإسلامي بعد الفتح السلجوقي لها، وتكمن الصعوبة في اكتمال هذه الصورة من خلال تجميع بقية أجزائها وربطها بالجزء الأم، وبخاصة أن المؤرخين التقليديين لم يتطرَّقوا إلى تاريخ سلطنة سلاجقة الروم إلَّا عرضاً، وبقدر ما كان لهؤلاء من علاقات مع الشعوب التي يؤرخون لها، وعليه جاءت أخبار هذه الأسرة السلجوقية عرضية، بل نادرة.

أما مؤرخو سلاجقة الروم، فلم يظهروا على مسرح الأحداث إلَّا بدءاً من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فدوَّنوا تاريخ السلطنة السلجوقية بدءاً من ذلك القرن متجاهلين الأحداث قبل ذلك، حين كان السلاجقة يفتحون آسيا الصغرى ويوطدون حكمهم فيها.

أما المؤرخون الأتراك في العصر الحديث، فعلى الرغم من أنهم كتبوا مجلدات عديدة تتعلَّق بتاريخ الدولة العثمانية وسِيَر سلاطينها، إلَّا أنهم لم يدوِّنوا سوى بعض كتب تؤرخ لسلاجقة الروم الذين كان لهم الفضل الأول في قيام الدولة المذكورة.

وأبدى المؤرخون الغربيون اهتماماً أكبر في البحث عن جوانب من تاريخ سلاجقة الروم من خلال المقالات التي كتبوها في المجلات العلمية والموسوعات، مع الملاحظة بأن معظم أبحاثهم ظلَّت باللغات التي نُشرت بها.

وبقدر ما أُشبعت كافة المناطق الإسلامية بحثاً ودراسة، ظلت منطقة آسيا الصغرى تعاني نقصاً كبيراً في الدراسات السياسية والحضارية، في العصر السلجوقي، على الرغم من أنها تميزت في عهدهم بحيوية بالغة كان لها نتائج مهمَّة في التاريخ الإسلامي العام، وتاريخ المنطقة بخاصة، وذلك بفعل الموقع الذي تشغله والذي أتاح لها أن تشكِّل نقطة وصل سياسية وحضارية بين الشرق والغرب.

لقد فتح سلاجقة الروم آسيا الصغرى وانتزعوها من الأمبراطورية البيزنطية بعد أن فشل العرب المسلمون في الاستقرار في ربوعها على الرغم من توغلهم في أرجائها أكثر من مرة. وعلى أثر معركة مانزيكرت التي جرت في عام (٤٦٣هـ/

١٠٧١م) انساب الأتراك إلى الربوع الأناضولية، وفتحوا المدن بعد اصطدامات قاسية مع البيزنطيين استمرت حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وتمكَّنوا من تثبيت أقدامهم فيها بفضل الهجرات التركمانية المستمرة من الشرق. وبدأت تظهر، منذ نهاية القرن المذكور، المعالم السياسية والحضارية للسلطنة السلجوقية.

تجلَّت المعالم السياسية بقوة السلطنة التي أضحت مرهوبة الجانب. فاستغل السلاجقة هذا الوضع وتوسَّعوا على حساب جيرانهم وبخاصة البيزنطيين، وبسطوا سيطرتهم على مساحة واسعة، وتدخلوا في النزاعات التي كانت تنشب بينهم، وعبروا البحر الأسود، وفتحوا السوداك وفرضوا الجزية على القبجاق. وبلغت السلطنة أقصى اتساعها في عام (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) فشملت معظم أنحاء آسيا الصغرى وأرمينية الصغرى في الجنوب الشرقي والمناطق الأرمينية في أعالي الفرات وأجزاء من شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة الفراتية.

ازدهرت السلطنة بفضل سياسة التوسع، وعمَّ البلاد الرخاء، وانغمس أهل الحكم بالملذات، وشُغلوا باللهو، تاركين تصريف الأمور العامة لأمراء داخلهم الطمع، واتَّصفوا بالجشع والفساد.

وبفعل ما تعرَّض له العالم الإسلامي آنذاك من ازدواج في السلطة، وما رافق ذلك، وما أعقبه من صراع بين المذهبين السني والشيعي فقد أصاب الأناضول سهم هذا الصراع أسوة بالمناطق الأخرى، فقامت فيه حركة مناهضة للحكم المركزي متسترة باللباس الديني، على المذهب الشيعي، هي حركة بابا إسحاق التي أرهقت السلطنة ومواردها.

والواقع أن النظام السياسي الذي تبنَّاه السلاجقة، لم يرتكز على أُسس ثابتة وقوية، بل احتكرت العائلة المالكة الحياة السياسية، بمعاونة بعض الأمراء من أصحاب النفوذ، على حساب العامة، مما جعل السلطنة تهتز تحت ضربات المغول الذين بدأوا الزحف نحو المشرق الإسلامي، فوصلوا إلى أبواب الأناضول في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، ثم سيطروا على البلاد، وقضوا على السلطنة.

لم تخضع النظم الحضارية في سلطنة سلاجقة الروم لتغييرات جوهرية أو مفاجئة، بل إن الاستمرارية ظلَّت واضحة فيها. فالتأثيرات المجلوبة، بخاصة الفارسية، ظلت واضحة في حياة السكان في أوائل عهد السلطنة، فبدا الحكم وكأنه فارسي، لكن أخذ يتحول تدريجياً، منذ أواخر عهد السلطنة، إلى العنصرية التركية بفعل تأثير التركمان.

لقد تصديت لمعالجة هذا الموضوع بجدية وصبر، وحاولت أن ألمَّ بكافة أطرافه واتجاهاته، واتبعت في ذلك منهجاً علمياً قائماً على العرض والتحليل، ونظرت إلى القضايا الجانبية نظرة شمولية، في حين أشبعت القضايا الأساسية درساً مركَّزاً. وتبقى محاولتي هذه، إحدى المساهمات التي بدأها الباحثون من قبل، لكنها تبقى المحاولة الأولى من باحث عربي.

لا شك أن بحثاً يتناول تاريخ سلاجقة الروم بكل غموضه وتشعباته، يتطلَّب من الباحث العودة إلى الأصول العربية والفارسية والإغريقية واللاتينية والأرمينية والمغولية على حد سواء.

وبفعل عدم توفر المصادر السلجوقية التي تروي أحداث التاريخ السلجوقي الرومي في آسيا الصغرى خلال المائة عام الأولى من عمر السلطنة، وهي الأحداث التي ابتدأت في أواخر القرن الخامس الهجري، بالإضافة إلى عدم تطرق المؤرخين المسلمين آنذاك إلى الموضوع السلجوقي الرومي إلَّا عرضاً؛ اضطررت إلى الاعتماد على المصادر الإغريقية واللاتينية والأرمينية والسريانية لاستخراج تاريخ هذه الأسرة السلجوقية، في حين اعتمدت في معالجة أحداث المرحلة الثانية من عمر السلطنة، وهي المرحلة التي ابتدأت في أواخر القرن السادس الهجري، على مؤرخين سلجوقيين، ولم أتجاهل، بالطبع، المصادر الأخرى. ويرى القارىء هذه المصادر المتنوعة في ثبت المصادر. وآمل بما اعتمدت عليه، أن يُجلي الحقيقة التاريخية، كما آمل بأن يكون هذا البحث المتواضع قد استوفى الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، وقدَّم ما هو حيوي، ومفيد لأجيالنا الصاعدة.

أما تشكيلات الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها الكبيرة فقد قسَّمتها إلى أربعة عشر فصلاً.

تحدَّثت في الفصل الأول عن أصل السلاجقة وسبب هجرتهم من مواطنهم الأولى باتجاه العالم الإسلامي، وتأسيسهم دولة قوية في خراسان، ومن ثم تسربهم باتجاه العراق.

وتناولت في الفصل الثاني العلاقات السلجوقية ـ البيزنطية المبكرة بعد تسرب الأتراك إلى آسيا الصغرى على أثر معركة مانزيكرت، وتدخلهم في صميم الحياة البيزنطية.

وعالجت في الفصل الثالث أحداث فتح الأناضول من خلال سيرة سليمان بن قُتلمش، مؤسِّس سلطنة سلاجقة الروم، وبيَّنت الجهود التي بذلها في سبيل التأسيس،

ثم توسعه باتجاه شمال بلاد الشام إلى أن قتل نفسه في عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) أثناء صراعه مع عمه تُتُش حاكم الشام.

واحتوى الفصل الرابع سجلاً لتاريخ سلطنة سلاجقة الروم من خلال سيرة قلج أرسلان بن سليمان بن قُتلمش. فتحدثت عن الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى بعد وفاة سليمان، وبروز الدانشمنديين الأتراك على حساب السلاجقة والبيزنطيين معاً. ثم بسطت القول في تولية قلج أرسلان السلطة في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) وجهوده في إعادة توحيد السلطنة واعتراضه جموع الصليبيين أثناء زحفهم نحو بلاد الشام، واصطدامه بالقوى الإسلامية في إقليم الجزيرة وانهزامه أمام جاولي في معركة الخابور، وغرقه في النهر إثر خسارته المعركة في عام (٥٠٠هـ/ ١١٠٧م).

وجاء الفصل الخامس مقتضباً بسبب قلَّة المادة التاريخية المتعلقة بأَحداث التاريخ السلجوقي في عهد ملكشاه بن قلج أرسلان. وما نعلمه عن هذه الأحداث، مستقى من الينابيع الإغريقية لارتباطه بعلاقات عدائية سافرة مع الأمبراطورية البيزنطية. وكانت نهاية ملشكاه على يد أخيه مسعود في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م).

وتضمَّن الفصل السادس سجلاً للأحداث التاريخية والتطورات السياسية والعسكرية من خلال حياة مسعود بن قلج أرسلان. وشرحت كيف تولَّى العرش، وتحالف مع الدانشمنديين قبل أن ينقلب عليهم، ثم صراعه مع البيزنطيين ومع الأرمن. وتوفي في عام (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م).

وعالجت في الفصل السابع أعمال قلج أرسلان بن مسعود وهو قلج أرسلان الثاني. وقد كافح من أجل البقاء ضد أخيه شاهنشاه والدانشمنديين والزنكيين والأرمن والبيزنطيين، وخرج منتصراً. ودخل هذا السلطان في تحالفات مع أنماط مختلفة من الحكَّام والبلدان. ومما يلفت النظر في سيرته أنَّه كان سياسياً ماكراً سريع التحرك والتقلب، توسع في الجنوب، فاستولى على سلوقية ولارندا وقضى على الإمارة الدانشمندية ثم اصطدم بالبيزنطيين. وبدأ في عهده، عصر التقدم الاقتصادي والثقافي. وتوفي في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) بعد أن قسَّم السلطنة على أولاده.

وعالجت في الفصل الثامن أوضاع سلطنة سلاجقة الروم من خلال صراع الإخوة إلى أن استتب الأمر لركن الدين سليمان شاه. نجح هذا السلطان في إعادة توحيد البلاد وغزا قيليقية وبلاد الكرج، واستولى على أرزن الروم، إلَّا أنه خسر أخيراً أمام الكرج، فعاد إلى بلاده وتوفي إثر ذلك في عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م). خلفه ابنه قلج أرسلان، وكان صغيراً، فنازعه عمه كيخسرو وتغلَّب عليه وتولى عرش

السلطنة. خاض السلطان الجديد حروباً متعددة اتسمت بالطابع التجاري وتوفي في عام (٦٠٨هـ/ ١٢١٢م).

وتناولت في الفصل التاسع تاريخ سلطنة سلاجقة الروم من خلال أعمال عز الدين كيكاوس الأول الذي خلف أباه كيخسرو. كان من أبرز أعماله اهتمامه بالتجارة، فعمل على تأمين المنافذ البحرية للتجارة السلجوقية. ففتح ميناء سينوب وتوسع في قيليقية وبلاد الأرمن في أعالي الفرات، إلَّا أنه فشل في التمدد نحو الجنوب وتوفي في عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م).

وتضمَّن الفصل العاشر سجلاً حافلاً بإنجازات علاء الدين كيقباد الذي خلف أخاه المتوفى. ودخلت البلاد في عهده في المجال الحضاري الذي شغل كثيرا من اهتمامه. توسع هذا السلطان في الجنوب والشمال والشرق، وتصدَّى للزحف الخوارزمي باتجاه غرب آسيا بعد أن تحالف مع الأيوبيين، وخرج المغول في عهده من مواطنهم في جوف آسيا، وتمدَّدوا باتجاه العالم الإسلامي، ووصلوا إلى أبواب الأناضول. وتوفي كيقباد الأول في عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م).

استهليت الفصل الحادي عشر بإبراز ظروف تولي كيخسرو الثاني الحكم، وما واجهه من مشكلات أبرزها المشكلة المغولية، مما تسبَّب في ظهور الوهن على جسم السلطنة. توسع هذا السلطان في إقليم الجزيرة، وهاجم المغول في عهده آسيا الصغرى، وهزموا الجيش السلجوقي في معركة كوسى داغ في عام (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) التي أنهت دور السلطنة السلجوقية القوي على الساحة السياسية، وجعلت منها ولاية شبه مستقلة تابعة لإيلخانية فارس. وتوفي هذا السلطان في عام (٦١٤هـ/ ١٢٤٦م)، وقد بلغت السلطنة في عهده أقصى اتساعها.

توالت المشكلات على بلاد الروم بعد معركة كوسى داغ، فأفرزت تراجعاً عاماً في كافة مجالات الحياة. وهذا ما أوضحته في الفصل الثاني عشر من خلال مراحل الحكم المشترك بين الإخوة عز الدين كيكاوس الثاني وركن الدين قلج أرسلان الرابع وعلاء الدين كيقباد الثاني، كما أن تدخُّل الإدارة المغولية في شؤون السلطنة زاد الأمر سوءاً، وأحدث انقساماً في صفوف السلاجقة انعكس سلباً على أوضاع البلاد.

وعالجت في الفصل الثالث عشر أحداث مرحلة السنوات الأخيرة من عمر السلطنة. وقد تميزت بسرعة التقلبات السياسية؛ وتعددها، بفعل اشتداد الصراع في منطقة المشرق الإسلامي بين المغول والمماليك. وقد تعاقب على الحكم في بلاد

الروم، خلال هذه المدة وحتى زوال السلطنة، ثلاثة سلاطين هم غياث الدين كيخسرو الثالث، وغياث الدين مسعود الثاني وعلاء الدين كيقباد الثالث. كانت سلطاتهم معدومة، يملكون ولا يحكمون والأمر كله للولاة المغول. وبوفاة مسعود الثاني في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) أُسدل الستار على سلطنة سلاجقة الروم بعد أن عمَّرت أكثر من قرنين.

كان الفصل الرابع عشر هو الأخير، وعالجت فيه أسباب زوال السلطنة التي ترجع إلى عاملين: داخلي يتمثَّل في صراع السلاطين وتناحر الأمراء وفساد الإدارة والثورات الداخلية، وخارجي يتمثَّل بالاحتلال المغولي وما نجم عنه من صراعات على أرض الروم.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذا البحث متعة وفائدة، كما سيلمس فيه موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/٦/ ٢٠٠١

د. محمَّد سهيل طقوش

الفصل الأول

السلاجقة

أصلهم ـ تأسيس دولتهم في خراسان

أصل السلاجقة

عندما يدرس الباحث تاريخ آسيا الصغرى[1] يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى بتحركات الشعوب البدوية والحضرية داخل آسيا وأوروبا، ويرى في الوقت نفسه كيف نعمت هذه البلاد أو عانت عقب وصول كل موجة جديدة من الفاتحين. هذا ويخرج عن نطاق هذا البحث التصدي لكافة الموجات التي جاءت في مختلف العصور إلى البلد المذكور، إنما الغرض سينحصر بتبيان بعض ما حدث بعد قيام الإسلام، حيث نجد المسلمين الأتراك، بخاصة، كانوا أهم هذه الشعوب التي هاجرت إلى هذا البلد.

وإذا ما تفحصنا أحداث التاريخ في آسيا الوسطى منذ القرن السادس الميلادي، نلاحظ أنها تأثرت بالدور الذي كانت تؤديه العشائر البدوية التركية الذين عرفهم العرب والفرس باسمهم العرقي، الغز[2]. وقد سكنوا في الصحراء الواسعة والسهوب التي تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى شواطىء بحر الخزر[3]. وظلت

---

(١) آسيا الصغرى: تركيا الحالية.

(٢) الأوغوز، وفي اللغة العربية الغز: من القبائل التركية، على أن هذا اللفظ جرى إطلاقه فيما يبدو على القبيلة الكبيرة التي وحدت في القرن السادس الميلادي جميع القبائل في أمبراطورية واحدة امتدت من الصين إلى البحر الأسود، ودامت حتى القرن الثامن الميلادي. العريني، السيد الباز: المغول ـ ص ٣٠ ـ ٣١.

(٣) بحر الخزر: هو بحر قزوين، بحر واسع عظيم لا اتصال له بغيره، وهو بحر طبرستان وجرجان وآبسكون، وعليه باب الأبواب وهو الدربند، وعليه من جهة الشرق جبال موقان وطبرستان وجبل جرجان، ويمتد إلى قبالة دهستان وهناك آبسكون، ثم يدور مشرقاً إلى بلاد الترك، وكذلك في جهة شماله إلى بلاد الخزر، وتصب فيه أنهار كثيرة، وفي غربه اللان من جبال القبجاق. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان ـ ج ١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

هجرات هؤلاء الأتراك إلى شاطىء نهر جيحون[1] لا تنقطع، قبل وبعد الفتح الإسلامي[2]، وقد فرضت عليهم البيئة نوعاً من الحياة شبيهاً بحياة الصحراء. والجدير بالذكر أن معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي نهر جيحون ووراثه هم من أصل تركي أو مغولي. ولقد قامت فيما وراء النهر[3] مدن ذات أنظمة شبيهة بأنظمة دول المدينة، وكانت على شيء من الحضارة الاستقرار.

كان من العسير على سكان السهوب التسرب إلى هذه المدن وإقامة صلات وثيقة مع سكانها، لذلك اتجهوا نحو المناطق الإسلامية، وأقاموا علاقات تجارية مع المسلمين، وذلك قبل تحولهم إلى الإسلام، بفضل التجار ورجال الدين من المتصوفة[4]. ونتيجة لهذه العلاقات الجيدة، فقد توفر للمسلمين منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بعض المعلومات عن قبائل الأتراك وأجناسهم وممالكهم وعاداتهم.

ويبدو أن أهم المجموعات التركية التي عرفها المسلمون هم التغزغز أو الأوغوز كما دعوهم باسم الغز أيضاً[5]. والراجح أن هؤلاء الغز قد فقدوا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قوتهم الاتحادية التي شكّلوها في القرن السادس الميلادي[6] لذلك كانوا أقل شأناً من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية الأخرى.

---

(١) نهر جيحون: جيحون اسم وادي خراسان على وسط مدينة جيهان، يمر به هذا النهر الذي سمي باسمه. يجري في بلاد عديدة ويصب في بحيرة خوارزم، ويتجمَّد في فصل الشتاء. المصدر نفسه: ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى ص ١٢٧.

(٣) المقصود نهر جيحون.

(٤) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار وممالك الأمصار - ص ٣٩.

(٥) وردت الإشارة إليهم في نقوش أورخون في القرن الثامن الميلادي باسم التغزغز، أي القبائل العشر، كما تردد أيضاً ذكر الأوغوز، طوقوز، أي القبائل التسع. العريني: ص ٣١.

(٦) أسّس الأخوان تومين (ت ٥٥٢ م) وأستامي (ت ٥٧٦ م) في القرن السادس الميلادي، دولتين مستقلتين، عُرفت الدولة الأولى باسم دولة الترك الشمالية، وعُرفت الثانية بدولة الترك الغربية. وخاضت هذه الدولة الأخيرة غمار الحرب ضد المسلمين في حوض نهر سيحون. ويتألّف سكانها من عشر قبائل، أقام خمس منها في شمال نهر أيلة، وخمس منها أقامت في جنوبه. وأدّت الحروب المستمرة التي خاضها خانات الغرب ضد المسلمين إلى انقسام هذه الدولة التركية الغربية، وظلت بعد ذلك تغرق في الفتن والقلاقل حتى حلَّ محلها الأتراك القارلوق في عام ٧٦٦م. انظر حول هذا الموضوع: =

ثم حدث أن تحركت هذه القبائل الغزية على شكل هجرة نحو الجنوب الشرقي ازدادت كثافة في أثناء حكم السامانيين[١]، وكان الباعث الحقيقي على هذه الهجرة، ازدياد عدد السكان وضيق مساحة الأراضي العشبية[٢].

بدأ الإسلام ينتشر بين الأتراك على نطاق واسع، حين بسطت الدولة السامانية نفوذها على أواسط آسيا في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. وكان الجغرافيون المسلمون يتحدَّثون عن العنصر التركي بوصفه عدواً للمسلمين، إلَّا أن هذا الوضع أخذ يتغيَّر منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٣]. وتأسَّست أول إمارة تركية إسلامية في عام (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) ألا وهي دولة القراخانيين[٤]، وأسلم، خلال القرن المذكور، الأتراك الغز المقيمون عند مصب نهر سيحون[٥]، وافتتح أميرهم عهده بالإسلام بتحرير المدن الإسلامية التي كانت تدفع ضريبة للكفار[٦].

وعندما كان ألب أرسلان ما يزال أميراً شاباً، صُنِّف له كتاب اسمه «ملك نامه»، تحدَّث فيه كاتبه عن أخبار التركمان والسلاجقة، وذكر أنه استفاد، لدى تدوين

= بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش: تاريخ الترك في آسيا الصغرى ـ ص ٣٧.
سعد زغلول عبد الحميد في مقاله القيِّم: الترك والمجتمعات التركية، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية. مجلد ١، سنة ١٩٥٦.

(١) السامانيون: ينتسب السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة. أسلم جدهم سامان خداه في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وانضم إلى الدعوة العباسية في خراسان وعمل في صفوف أبي مسلم الخراساني. أسَّس السامانيون الدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م)، وامتدت إلى إيران وبسطت سلطانها على خراسان، وضمت طبرستان والري والجبل وسجستان، واتجهت إلى تبني النزعات الانفصالية الفارسية من خلال إحياء اللغة والثقافة الفارسية. وعيَّن الخليفة المأمون أولاد أسد في أهم مدن بلاد ما وراء النهر حيث واجهوا غارات الأتراك الوثنيين على مناطق الحدود. حرص السامانيون على التمسك بطاعة الخليفة العباسي، وكان يعتمد عليهم في إقرار سلطان الخلافة في المشرق. ولما ضعف السامانيون تقاسم الغزنويون وخانات الترك أملاكهم.

(٢) الراوندي، محمد بن علي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ـ ص ١٤٥.

(٣) بارتولد: ص ٥٧.

(٤) القراخانيون: أو الخانيون: حكام بلاد ما وراء النهر، وقد خلفوا السامانيين في تلك البلاد وكانوا مسلمين يعدون قبول أمر الخليفة العباسي فرضاً، كما يعدون أنفسهم أتباعاً له.

(٥) نهر سيحون: نهر كبير مشهور بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند، يجمد في الشتاء، وهو في حدود بلاد الترك. الحموي: ج ٣، ص ٢٩٤.

(٦) بارتولد: ص ٧٧.

أنسابهم وأحسابهم، من الأمير إينانغ بك، الذي كان أسنَّ القوم، وأعرفهم بأنسابهم. والواقع أن هذا الكتاب لم يصل إلينا سوى من خلال بعض النقول عنه، إذ اعتمدت عليه كافة المصادر في تأريخها عن أصل السلاجقة وعاداتهم.

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية التركية وينتمون إلى جد هو سلجوق بن دقاق[1]. وكان دقاق هذا وزيراً للخاقان بيغو[2] أحد خانات تركستان[3] وقائداً لجيشه[4]. ويبدو أنه حصل نزاع بينهما بسبب الغارات التي كان يقوم بها بيغو ضد الأراضي الإسلامية، غير أن هذا النزاع ما لبث أن سُوِّي باسترضاء دقاق الذي استمر في خدمة سيده حتى وفاته[5].

إن غيرة دقاق على الإسلام دفعته إلى الضغط على بيغو لوضع حد لغاراته على المناطق الإسلامية، ويدفعنا هذا إلى الاستنتاج بأن دقاق هو أول من دخل في الإسلام من قبيلة الغز، كما أن قبيلته تعدُّ من أوائل القبائل الغزية التي دخلت في الإسلام أيضاً[6]. لكن الواضح أن سلجوق هو أول زعيم غزي دخل في الإسلام حين ترك الخدمة في بلاط بيغو، كما سنرى، وغادر تركستان مع قومه، إلى مدينة جَنْد[7] عند مصب نهر سيحون وأقام صلات مع أهلها المسلمين. ويكاد يجمع المؤرخون أن السلاجقة أخذوا الإسلام عن السامانيين حكّام تلك المنطقة.

وخلف سلجوق أباه دقاق في رئاسة القبيلة، وبرزت عليه إمارات النجابة

---

(١) ورد في تاريخ ابن الأثير «تقاق»، وفي أخبار الدولة السلجوقية للحسيني «يقاق»، وفي بعض المصادر «دقاق»، وقد عُرف بـ تيمور يلغ أي ذي القوس الحديد. انظر حول ذلك: الحسيني، صدر الدين علي: أخبار الدولة السلجوقية ـ ص ١٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٨، ص ٢١. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة، ص ٤٣٤. خواند، أمير: حبيب السير جـ ٢ ص ٤٧٩. ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان ص ٨٧.

(٢) يجب قراءتها يبغو، لأنه لا يوجد في اللغة المغولية الاسم بيهو الذي يرتفع عادة إلى بيغو أو بايو. وبخلاف ذلك يوجد في اللغة التركية اللفظ بيغو وهو طير جارح أشبه بالعقاب. الحسيني: ص ١. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، هامش ص ٤٠٨.

(٣) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك.

(٤) خواند، أمير: جـ ٢ ص ٤٧٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠. الحسيني: ص ١ ـ ٢.

(٦) الحسيني: المصدر نفسه ص ١.

(٧) جَنْد: اسم مدينة عظيمة، في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نهر سيحون. الحموي: جـ ٢ ص ١٦٨.

والنباهة، فقرَّبه بيغو وعيَّنه قائداً للجيش ولقَّبه صوباشي[1]، فأطاعه أفراد القبيلة وانقادوا له، فأثار ذلك حفيظة زوجة بيغو، فأغرت زوجها بقتله وبالغت في ذلك. لكن الواقع أن بيغو كان عقيماً فخشيت زوجته بأن يستغل سلجوق هذا الوضع ويسعى إلى قتله والجلوس مكانه[2]. وعندما علم سلجوق بهذا الحوار الذي دار بين بيغو وزوجته، غادر تركستان مع قبيلته، وهاجر من سهوب القرغيز إلى المنطقة التي توجد فيا مدينة جَنْد في الوادي الأدنى لنهر سيحون.

كانت الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر ملائمة لدخول سلجوق وأتباعه في المعترك السياسي حيث السامانيون يقاتلون القراخانيين على السيادة. وأخذت قوة سلجوق تزداد يوماً بعد يوم، حتى أضحى شهيراً في المنطقة، وغدا بلاطه ملاذاً للمضطهدين. فطلب منه السامانيون أن يساعدهم في حربهم مع هارون بن أيلك القراخاني الذي استولى على بعض بلادهم. فاستجاب سلجوق وشارك في الحرب حليفاً للسامانيين، غير أنه كان ينتهز الفرص لتحصين أوضاع قبيلته. ويُعد هذا الاتصال الأول من نوعه بين السلاجقة والسامانيين، وتجربتهم الأولى في التدخلات السياسية[3].

كان لهذه المساعدة أثرها الحسن في نفوس السامانيين، فأذنوا لسلجوق وأتباعه بالمرور عبر بلادهم والاستقرار عند شواطىء نهر سيحون لقاء تعهده بحراسة المناطق الحدودية. واتخذ سلجوق من مدينة جَنْد قاعدة له ولأتباعه حيث راحوا ينتشرون في تلك المنطقة بعد أن اكتملت هجرتهم من التركستان. واعتنق سلجوق وأتباعه الدين الإسلامي وفق مبادىء المذهب الحنفي الذي أخذوه عن السامانيين كما سبق وذكرنا، حيث ساد في دولتهم بعد ذلك[4]. ومن جَنْد راح سلجوق يجاهد في سبيل دينه، فغزا الأتراك الوثنيين وطرد عمالهم من المنطقة، وبدت غيرته الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق المجاورة من غاراتهم[5].

لم يزل سلجوق بجَنْد يرعى مصالح قبيلته حتى توفي وله ثلاثة أولاد هم بيغو أرسلان المدعو إسرائيل، وميكائيل وموسى، وتضيف بعض الروايات ابناً رابعاً هو يونس[6].

---

(١) صوباشي معناها قائد الجيش. انظر: الحسيني ص ٢. خواند، أمير: جـ ٢ ص ٤٧٩.

(٢) الحسيني: المصدر نفسه.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢.

(٤) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص ١٠٨.

(٥) خواند، أمير: جـ ٢ ص ٤٨٠.

(٦) يلاحظ أن أسماء الآباء الأُوَل للسلاجقة وردت في الكتاب المقدس، حتى ليبدو أن سلجوق قد تأثر بالديانة اليهودية أو النصرانية. والمعروف أن القبائل الرعوية، ومنها الأتراك، كانت =

لا تتوفَّر لدينا تفاصيل دقيقة وموثوقة حول ما وصلت إليه أوضاع أولاد سلجوق بعد وفاته في بلاد ما وراء النهر، وكل ما نعلمه يقيناً أن القبيلة اتخذت اسم سلجوق لقباً لها وعُرف أتباعها بالسلاجقة. لكن يبدو أن أولاد سلجوق لم يستطيعوا العيش في وفاق مع المسلمين الذين حرَّروهم، فغادروا المنطقة متجهين نحو الجنوب. وتذكر الروايات أنه في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان حاكم جَنْد في حال عداء شديد مع أولاد سلجوق[1]. وقد أفسح السامانيون المجال لهم وأنزلوهم بنواحي نور بخارى[2] وذلك في عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)[3]، وما وافى القرن الخامس الهجري إلَّا وهم ينزلون بالقرب من موارد المياه حيث الأراضي الخصبة، وكانت منازلهم لا تزال في نور بخارى يقضون فيها فصل الشتاء، أما في الصيف فإننا نراهم في سمرقند[4] (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) .

ظل السلاجقة حلفاء للسامانيين حتى زالت دولتهم. فقد انضموا إلى قوات المنتصر إسماعيل بن نوح الساماني في حربه ضد القراخانيين، وكانوا يأملون، بالإضافة إلى المكاسب السياسية، الحصول على غنائم وافرة، على عادة القبائل البدوية. وقد مكَّنوه من هزيمة جيش صوباشي تكين على مقربة من ضفاف نهر زرفشان، ثم جيش الأيلك خان بعد ذلك قرب سمرقند في عام (٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م)، وأسروا ثمانية عشر قائداً من قادته. وقد مرَّت العلاقات بينهما بعد ذلك بمرحلة فتور مؤقتة حيث رفض السلاجقة تسليم أسراهم إلى المنتصر طمعاً في الفدية على ما يبدو، مما أثار شكوك الأخير، كما شعر بأنهم مالوا إلى التفاهم مع الأيلك، فقرَّر هجرهم. غير أننا نراهم مرة أخرى حلفاء للمنتصر حين هزم جيش الأيلك في عام

= تجوب المنطقة الشمالية لبحر قزوين امتداداً إلى جمهورية الخزر اليهودية، وأقامت علاقات تجارية معها، وأن السلاجقة ظهروا على مسرح الأحداث بعد القضاء على هذه الجمهورية على يد الروس في القرن التاسع الميلادي. وعليه، يُحتمل أن بعض الأتراك الغز، ومنهم السلاجقة، قد دخلوا في الديانة اليهودية في وقت مبكر متأثرين بيهود الخزر، قبل أن يتحولوا إلى الإسلام بعد انتقالهم إلى المناطق الإسلامية واتصالهم بالمسلمين. انظر: خواند، أمير: جـ ٢ ص ٤٨٠. Cahen. Cl: Pre-Ottoman Turkey - p 20 .

(١) البيهقي، أبو الفضل: تاريخ البيهقي ص ٧٤٩.

(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها، يُعبر إليها من آمل الشط، بينها وبين جيحون يومان، وكانت قاعدة ملك السامانية. ونور بخارى، إحدى قرى بخارى عند جبل. الحموي: جـ ١ ص ٣٥٣. جـ ٥ ص ٣١٠.

(٣) المستوفي القزويني: ص ٤٣٤.

(٤) الحسيني: ص ٢. الراوندي: ص ١٤٥. وسمرقند: بلد معروف ومشهور بما وراء النهر، وهو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد. الحموي: جـ ٣ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)، ثم تراجعوا بعد ذلك إلى معسكراتهم مكتفين بما حصلوا عليه من غنائم[١].

العلاقات السلجوقية ـ الغزنوية

في عهد السلطان محمود الغزنوي

بعد زوال السامانيين عن مسرح الأحداث في أواخر القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حلَّ الغزنويون[٢] محلهم. وكان السلاجقة خلال ذلك قد أنشأوا قوة عسكرية نظامية يُخشى بأسها ويُرهب جانبها. ويبدو أن إسرائيل، الابن الأكبر لسلجوق، قد تبوأ مركز الزعامة، حيث نجد له ذكراً بوصفه حليف علي تكين الذي كان قد استولى على بخارى متحدياً سلطة محمود الغزنوي وقدر خان يوسف زعيم القراخانيين وملك المشرق[٣]، مما دفع الزعيم الغزنوي للقيام بحملة عسكرية ضد بلاد ما وراء النهر، لخلع علي تكين، مبرراً حملته هذه بأن سكان بخارى ومدن ما وراء النهر استنجدوا به ليخلِّصهم من ظلم علي تكين، كما أن هذا الأخير رفض السماح لرسله بالمرور عبر أراضيه في طريقهم إلى ملوك تركستان الشرقية[٤].

كانت نتيجة الحملة أن هرب علي تكين دون أن يصطدم بالقوات الغزنوية. أما إسرائيل فقد دخل المفازة مع أتباعه للاحتماء من جيش محمود الغزنوي[٥].

أدرك محمود الغزنوي بعد هذه الحملة ما للسلاجقة من قوة وبأس، كما شعر بمدى الخطر الذي يمكن أن يشكِّلوه على دولته؛ فقرَّر القضاء عليهم، وشجعه قدرخان على ذلك. وعقد العاهلان اجتماعاً خارج سمرقند[٦] في عام (٤١٩هـ/ ١٠٢٨م) لتحديد أُسس التفاهم بينهما، وتحديد مناطق الحدود بين الدولتين الغزنوية

---

(١) بارتولد: تركستان... ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢) الغزنويون(٣٦٦ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٧٦ ـ ١١٨٦م): أسرة تركية أسَّست دولة إسلامية في المشرق واتخذت من غزنة عاصمة لها. يُعدُّ سبكتكين المؤسِّس الحقيقي لهذه الدولة التي سيطرت على خراسان وسجستان وبُست وهراة. وأشهر أمرائها محمود الغزنوي فاتح الهند والبنجاب. وأخضع الغور وبلاد ما وراء النهر كما استولى على أصفهان ونشر الإسلام في بلاد الهند والغور. ويمثِّل ظهور هذه الدولة أول انتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة. وزالت الدولة على يد الغوريين.

(٣) الراوندي: ص ١٤٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه.

(٦) تاريخ البيهقي: ص ٧٩. يذكر هذا المؤرخ أن اللقاء بين العاهلين تمَّ على باب سمرقند.

والقراخانية، واتفقا بنتيجة المباحثات على:

ـ توحيد قواتهما لانتزاع بلاد ما وراء النهر من يد علي تكين، وإعطائها لـ يغان تكين، الابن الثاني لقدرخان.

ـ التقارب الأسري بالزواج، فيتزوج يغان تكين كريمة محمود، زينب، ويزوج قدرخان كريمته لمحمَّد الابن الثاني لمحمود(١).

أما موضوع السلاجقة فقد جاء عرضاً فيما يبدو، خلال مباحثاتهما، حيث شكا قدرحان من ازدياد قوتهم وكثرة جنودهم واستيلائهم على المراعي الموجودة في نور بخارى والسغد وسمرقند، وطلب من محمود العمل على القضاء عليهم قبل نهوضه لغزو الهند. ويبدو أن محموداً لم يكن بحاجة إلى من يحثُّه على تحجيم قوة السلاجقة المتعاظمة لأنه كان قد وجَّه اهتمامه إليهم منذ بداية تواجدهم في المنطقة.

وهكذا فإن ظهور السلاجقة كقوة جديدة على المسرح السياسي أصبح يُحسب حسابها في تقدير الموقف الذي سيسود هذه المنطقة من جراء التوسع السلجوقي. وأخذ الغزنويون يتوجَّسون خيفة، من ذلك، لذا قرَّر محمود استعمال الحيلة للقبض على إسرائيل وتشتيت أتباعه. فأرسل إليه يدعوه للقائه بالقرب من شاطىء نهر جيحون لعقد اتفاق صداقة وتعاون بينهما(٢).

خُدع السلاجقة بهذه الحيلة، وصدَّقوا بما جاء في رسالة محمود، فهرع إسرائيل مع بعض خواصه وأعيان قومه إلى لقاء العاهل الغزنوي في المكان المحدد. وأحسن الأخير استقبالهم، وبالغ في إكرام إسرائيل، ثم عرض عليه عقد ميثاق تحالف وتعاون للقضاء على كل ثائر على الدولة الغزنوية في خراسان(٣). رحَّب إسرائيل بهذه الفكرة وهو يجهل ما يدبَّر له ولقومه، وتظاهر محمود بالمحبة وهو يُضمر الخديعة والشر، وأجابه «لن يكون منا تقصير في خدمتكم»(٤).

وأقام محمود الولائم لأعضاء الوفد مدة ثلاثة أيام، حتى أسرفوا في الشراب واستغرقوا في نوم عميق. عندئذ، قيدهم بالحديد وحملهم إلى السجون. أما إسرائيل

---

(١) تاريخ البيهقي: ص ٢١١.

(٢) الراوندي: ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزاذ وار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها. وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وباورد وسرخس، وما يتخلَّل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. الحموي: ج ٢ ص ٣٥٠.

(٤) الراوندي: ص ١٤٩.

فقد سُجن في قلعة كالنجر في بلاد الهند حيث بقي سبع سنوات رهينة تكفل لمحمود إخلاد السلاجقة إلى الهدوء والسكينة. ونكّب محمود ببعض أتباعه وهجَّر بعضهم الآخر إلى خراسان حيث وضع الخراج عليهم(١).

كان لتلك الحادثة أثرها المؤلم في نفوس السلاجقة الذين صمَّموا على الثأر لزعيمهم إسرائيل بالانتقام من الغزنويين، كما ازدادوا حذراً وحيطة.

خلف ميكائيل بن سلجوق أخاه إسرائيل في زعامة السلاجقة، وأَدرك بثاقب بصره أن قوة السلاجقة أضعف من قوة الغزنويين بعدما تفرَّقوا، وأن الصواب هو مهادنتهم. لذلك آثر التريُّث، وأخذ يجمع شتات قومه، وأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه الإذن بعبور نهر جيحون إلى نسا(٢) وباورد(٣)، لأن مقامهم ضاق بهم، وأن مراعيهم أضحت لا تفي بحاجة مواشيهم، وكان ذلك في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)(٤).

علم أَرسلان الجاذب حاكم طوس(٥) بالتماس السلاجقة، وكان له رأي آخر، فنصح محمود برفض التماسهم لأنهم سوف يشكِّلون خطراً على الدولة الغزنوية بسبب كثرة فرسانهم، ووفرة أعدادهم(٦).

تجاهل محمود نصيحة حاكم طوس ظناً منه أن السلاجقة قد ضعفوا بعد الأحداث الأخيرة، وبخاصة أنهم يفتقرون إلى قيادة قوية تؤمِّن استمرار مسيرتهم بعد أسر زعيمهم إسرائيل، وأنهم لم يثوروا احتجاجاً لما حلَّ بقادتهم، كما توقفوا عن مضايقة الدولة الغزنوية. ونتيجة لهذا الظن ردَّ على الحاكم قائلاً: «إني لا أهتم بأمرهم، ولا خشية لي من أمثالهم»(٧). ثم سمح لهم فعبروا النهر واستقروا في إقليم خراسان بين نسا وباورد(٨).

ويبدو أن أتباع إسرائيل هم الذين عبروا النهر، وأن أتباع ميكائيل ظلوا في إقليم ما وراء النهر. نلاحظ ذلك من سياق الأحداث التي ستجري بعد ذلك. وكان

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢. المستوفي القزويني: ص ٤٣٥. خواند، أمير: جـ ٢ ص ٤٨٢.

(٢) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام. الحموي: جـ ٥ ص ٢٨٢.

(٣) باورد: هي أبيورد، بلد بخراسان بين سرخس ونسا. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٣٣.

(٤) الراوندي: ص ١٥٣.

(٥) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، وهي مشهد الحالية. الحموي: جـ ٤ ص ٤٩.

(٦) المستوفي القزويني: ص ٤٣٥. (٧) الراوندي: ص ١٥٤.

(٨) المستوفي القزويني: ص ٤٣٥.

السلاجقة بعامة، منذ دخولهم في الإسلام، يحاولون تحت ضغط الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية، أن يجدوا لهم مخرجاً وأرضاً يهاجروا إليها، وقد حقَّقوا هدفهم بعبور النهر إلى خراسان.

والواقع أن محموداً أخطأ في الموافقة على السماح لجموع السلاجقة بعبور النهر إلى خراسان، وقد ندم فيما بعد على ذلك[1]، لأن هذا العبور، يسَّر لهم حرية الحركة والانتشار في مرج دندانقان[2]، وكان بداية لمرحلة جديدة في حياتهم سمحت لهم بتأسيس دولة ومضايقة الدولة الغزنوية.

لم يكد السلاجقة يستقرون في المناطق الجديدة حتى راحوا ينمُّون قدراتهم العسكرية، ويتحيَّنون الفرص للانقضاض على أراضي الدولة الغزنوية، ويبدو أنهم تخلوا عن حياة الهدوء والاستقرار، وعادوا إلى طبيعتهم البدوية. فقاموا بأعمال الشغب ومضايقة الناس والإغارة على المدن والقرى المجاورة، مما دفع سكّانها إلى الطلب من محمود العمل على إبعادهم.

ومهما يكن من أمر، فقد استجاب محمود لنداء الاستغاثة، وخرج من غزنة[3] في عام (٤١٩هـ/ ١٠٢٨م) على رأس جيش كبير قاصداً طوس عن طريق بُست[4]، واجتمع بحاكم المدينة الذي شرح له حقيقة الموقف، فأمره محمود بأن يخرج على رأس الجيش ويجلي السلاجقة عن المنطقة.

والتقى الجيشان الغزنوي والسلجوقي في رباط فراوة[5]، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة، انتصر فيها جيش محمود، وقُتِل من السلاجقة أربعة آلاف فارس، وأُسِر عدد كبير منهم، وفرَّ من نجا إلى بلخان[6] ودِهِستان[7].

وقُتِل ميكائيل في إحدى غزواته ضد الأتراك الوثنيين في إقليم ما وراء النهر.

---

(١) الحسيني: ص ٣.

(٢) دندانقان: بلدة بين سرخس ومرو. الحموي: جـ ٢ ص ٤٧٧.

(٣) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند. المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٠١.

(٤) بُست: مدينة بين سجستان وغزنة وهراة، من أعمال كابل، كثيرة الأنهار والبساتين. الحموي: جـ ١ ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٥) رباط فراوة: بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٤٥.

(٦) بلخان: مدينة خلف باورد. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٧) الكرديزي: زين الأخبار ص ٧٠ ـ ٧١. ودِهِستان: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المهدي. الحموي: المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٩٢.

ويبدو أن وفاته حصلت قبل وفاة محمود في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م). وكان له ثلاثة أولاد هم بيغو وجفري وطغرلبك، فخلفه الأخير الذي أعاد توحيد العشائر السلجوقية الضاربة في إقليم ما وراء النهر وتدعيم قوتها، وساعده أخوه جفري في تلك المهمَّة[١].

وكان طغرلبك وجفري فارسين مقدامين، نشئا تنشئة عسكرية حتى لنراهما يشتبكان في حروب متلاحقة مع أقوى الأمراء في آسيا الوسطى أمثال أيلك خان في بخارى، وبغراخان في كاشغر[٢]، وتمتعا بنفوذ كبير داخل العشائر السلجوقية وبدا من أمرهما ما ينبىء بأنهما سوف يبلغان بالسلاجقة ذروة القوة، ووضعا نصب أعينهما هدفاً هو إقامة دولة للسلاجقة، فمضيا متحدين في العمل على تنفيذه وراحا يتحينان الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية في منطقة خراسان وإقليم ما وراء النهر، وصرفا حياتهما الأولى في الهرب من وجه خصومهما اتقاء لعداوتهم. ولما آنسا من نفسيهما القوة، ارتدًا إلى مجابهة هؤلاء الأعداء[٣].

في عهد السلطان مسعود الغزنوي

معركة دندانقان وقيام السلطنة السلجوقية

استغل السلاجقة فرصة وفاة محمود الغزنوي وتراجع قوة الغزنويين بسبب التنافس على السلطة بين ولديه محمَّد ومسعود، لتوسيع دائرة نفوذهم، فسيطروا على المناطق المجاورة لمساكنهم، ونشروا نفوذهم في أرجاء إقليم ما وراء النهر.

شعر علي تكين، حاكم بخارى، بتزايد الضغط السلجوقي، فحاول تفرقتهم وضرْب بعضهم ببعض. فاستدعى يوسف بن موسى بن سلجوق وعيَّنه زعيماً على جميع الأتراك الموجودين في خدمته، وأقطعه إقطاعات كثيرة، ومنحه لقب الأمير إينانغ بيغو. ولما علم يوسف بنواياه تخلَّى عن هذا المنصب، مما حمل علي تكين على قتله. وعظمت هذه الحادثة على أولاد عمه، وبخاصة طغرلبك وجفري، فقرَّروا الأخذ بثأره.

---

(١) طغرلبك وجفري لفظان تركيان. الأول مصغَّر دوغراول أي القصَّاب وهو مشتق من فعل دوغرامق أي أن يذبح. أما الثاني فمعناه اللامع أو المتألق، من مصدر جقمق أي أن يلمع. انظر الراوندي هامش ص ١٢٩.

(٢) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق في وسط بلاد الترك. الحموي: ج ٤ ص ٤٣٠.

(٣) فامبري: ص ١٢٩.

كان علي تكين البادىء في مهاجمة السلاجقة، إلَّا أنه انهزم ورُدَّ على أعقابه وذلك في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م). وقَتَل الأخوان طغرلبك وجفري ألب قرا قائد جيشه مع ألف من رجاله.

لم ييأس حاكم بخارى، وأمل في تحقيق الانتصار، فأعاد تنظيم صفوف قواته، وكرَّ على السلاجقة وهزمهم واستولى على ممتلكاتهم، وأسر عدداً من نسائهم وأطفالهم، إلَّا أنه عفا عنهم واستمالهم بالقول الطيب والمال. ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه علاقته بالغزنويين.

ركن السلاجقة إلى الهدوء في شتاء عام (٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م)، ليستأنفوا بعد ذلك غاراتهم في الخريف على نطاق أوسع من ذي قبل. وتردَّد مسعود، الذي خلف أباه محمود، في الاضطلاع بقيادة الجيش، وعهد إلى صوباشيه الذي لم يكن بأكفأ منه، إذ عجز بدوره عن وقف الغارات المفاجئة التي كانت تفد من الصحراء، كما عجز عن منع انسحاب الأتراك المفاجىء من صفوفه. وظلت خراسان تتعرَّض، بلا انقطاع، للغارات السلجوقية مدة ثلاثة أعوام، تمكَّن جفري في نهايتها من طرد الغزنويين من المناطق الشمالية منها واستولى على مدينة مرو(١)، وأضحى الحاكم الفعلي على كل شمالي خراسان. ودخل الأخوان طغرلبك وجفري عاصمة خراسان القديمة في موكب النصر واقتسما الأعمال الحكومية، فاضطلع طغرلبك بشؤون الإدارة، وأخذ جفري على عاتقه مهمة الدفاع عن الإقليم(٢).

واستدعى، في هذه الأثناء، هارون بن التونتاش حاكم خوارزم(٣)، السلاجقة للانضمام إليه، وكان على عداء مع الغزنويين، وأراد أن يستقوي بهم. سارع السلاجقة إلى انتهاز هذه الفرصة، ولبُّوا دعوة هارون الذي منحهم أرضاً قرب شراه خان ورباط ماش، إلَّا أنه غدر بهم بعد ذلك واتفق مع شاه ملك، حاكم جَنْد، على القضاء عليهم، وكان على خصومة قديمة معهم(٤).

---

(١) مرو: مدينة عظيمة، وأشهر مدن خراسان وقصبتها، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً. الحموي: جـ ٥ ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) فامبري: ص ١٣٣.

(٣) خوارزم: ناحية واسعة في الشرق، عاصمتها الجرجانية، ويسميها أهلها كركانج. سكانها من أصل تركي، وهي ذات خيرات، ونهرها جيحون، وهو يصب في بحيرة تحمل اسمها. مناخها قاس شديد البرودة في الشتاء. الحموي: جـ ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٨.

(٤) بارتولد: تركستان ص ٤٤٢.

عقب هذه الأحداث، طلب السلاجقة من والي نيسابور[١] سوري بن المعتز، أن يسمح لهم بالإقامة بالقرب من المدينة متعهدين بالإخلاد للهدوء والسكينة، ووعدوه بأن يساعدوا الدولة الغزنوية في إخماد الثورات، وأن يكونوا عوناً للسلطان مسعود الغزنوي.

أرسل الوالي طلب السلاجقة إلى السلطان، وكان في مدينة جرجان[٢]، إلَّا أنه رفض طلبهم وردَّ عليهم رداً غليظاً، وراح يفكِّر بوسيلة للقضاء عليهم[٣]. فأرسل جيشاً برئاسة قائده بكتغدى، ليقهر أبناء الصحراء ويجليهم عن خراسان. إلَّا أن السلاجقة تمكَّنوا من إنزال هزيمة قاسية بالجيش الغزنوي، واضطر مسعود إلى القبول بعقد الصلح معهم، وكان بصدد التوجه إلى الهند، لكن مستشاريه عارضوا هذا التوجه السياسي وحذَّروه من عاقبة الاستهانة بقوة السلاجقة وطموحاتهم، ونصحوه بعدم ترك خراسان لهؤلاء المغامرين الجدد، إلَّا أنه لم يُصغ إليهم، وترك المنطقة ليتفرَّغ إلى ترتيب أمور الهند وإقرار الأوضاع فيها بعد أن شهدت بعض الفتن[٤].

وهكذا خلا الجو للسلاجقة في إقليم خراسان، وتهيأت لهم الأسباب لتدعيم نفوذهم، وبسط سلطانهم، وإقامة سلطنة لهم في ربوعه تكون نداً للغزنويين[٥].

كان انتصار السلاجقة، والفراغ الذي أحدثه خروج القوات الغزنوية من خراسان، حافزاً لأولئك على الإسراع بإعلان قيام سلطنتهم. فبادر طغرلبك إلى السير على رأس جيشه إلى نيسابور واستولى عليها في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) وجلس على عرش مسعود معلناً نفسه سلطاناً، وأمر بأن يُخطب باسمه فيها، كما خُطب باسمه في مرو، وكذلك في سرخس[٦]. وكانت مدينة بلخ[٧] أقوى قواعده في الشرق، في حين كانت نيسابور أهم مراكزه في الغرب[٨].

(١) نيسابور: مدينة عظيمة بخراسان بينها وبين سرخس أربعون فرسخاً. الحموي: جـ ٥ ص ٣٣١ ـ ٣٣٣.

(٢) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١١٩.

(٣) انظر نص الرسالة والرد عليها في تاريخ البيهقي: ص ٥٠٣ ـ ٥٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥١٧ ـ ٥٣١ حيث تفاصيل وافية. الراوندي: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٥) حسنين، عبد النعيم محمَّد: إيران والعراق في العصر السلجوقي ـ ص ٣٤.

(٦) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، الحموي: جـ ٣ ص ٢٠٨.

(٧) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٨) إن انتقال بلخ نهائياً إلى حكم السلاجقة، وبالتالي انقطاع الصلة بين الغزنويين وإقليم ما وراء النهر =

وهكذا أعلن طغرلبك قيام السلطنة السلجوقية، وكتب رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) يشرح له فيها ما آلت إليه الأوضاع السياسية، ويطلب منه الاعتراف بدولته الجديدة[١].

لم يستسلم مسعود الغزنوي للأمر الواقع في خراسان، كما لم يقبل بهيمنة السلاجقة على هذا الإقليم، لذلك قرَّر أن يقضي عليهم ويضع حداً لنفوذهم، لكن هؤلاء كانوا يتغلَّبون على جيوشه التي كان يرسلها بشكل متلاحق. وأخيراً قرَّر قيادة الجيش الغزنوي بنفسه، فغادر غزنة في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) على رأس جيش جرَّار يُقدَّر بمائة ألف جندي وثلاثمائة فيل، سالكاً طريق بُست ـ تكيناباذ، ودخل إلى خراسان[٢].

كان طغرلبك في هذه الأثناء في مدينة طوس بعيداً عن أخيه جفري. وقضت خطة مسعود بمنع اجتماع الأخوين وضربهما منفردين. فتوجَّه أولاً إلى طوس وهاجمها غير أنَّه فشل في اقتحامها، كما لم تنجح خطته العسكرية التي أعدَّها لمهاجمة معسكراتهم بالقرب من سرخس، إلَّا أنه استطاع استرداد مدينتي بلخ ونيسابور، ولكن إلى حين. ذلك أن هذين الأخوين جمعا شتات قواتهما واصطدما بالجيش الغزنوي في دندانقان، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة قاتل فيها السلاجقة ببسالة ورجحت كفَّتهم، وقد نفَّذوا خطة عسكرية محكمة كفلت لهم النصر في النهاية. فقد ردموا آبار المياه الموجودة خارج حصن دندانقان ثم خرجوا من الحصن وكمنوا للجنود الغزنويين خارجه، ولما وصل الجيش الغزنوي المنهك إلى المنطقة افتقر إلى الماء، ولم تكف الآبار الموجودة داخل الحصن لسقاية أفراده. ولما خرج هؤلاء إلى خارج الحصن بحثاً عن الماء هاجمهم السلاجقة بغتة، فاختل نظامهم القتالي، وتضعضعوا. عندئذ، حمل عليهم هؤلاء بشكل متلاحق حتى انتهى الأمر بهزيمتهم[٣]. وحصلت المعركة في (رمضان ٤٣١هـ/ حزيران ١٠٤٠م).

وعندما رأى مسعود الغزنوي تشتُّت عسكره انسحب من أرض المعركة قانعاً بالنجاة بنفسه بعد أن كاد يفقد حياته، تاركاً إقليم خراسان فريسة سهلة في أيدي السلاجقة[٤].

= لم يحدث إلَّا في عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) وذلك وفقاً لنصوص معاهدة تمَّت بين داوود والسلطان الغزنوي إبراهيم. انظر ابن الأثير: جـ٨ ص ٢٥ ـ ٢٦. بارتولد: ص ٤٥٠.

(١) المستوفي القزويني: ص ٤٣٦.

(٢) تاريخ البيهقي: ص ٦٦٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٦٣ ـ ٦٩٧ حيث تفاصيل وافية عن المعركة.

(٤) المصدر نفسه.

نتائج معركة دندانقان

ـ وضعت معركة دندانقان حداً نهائياً لحكم الغزنويين في خراسان، ونصَّب طغرلبك التخت في مكان المعركة وجلس عليه، وجاء الأعيان يسلِّمون عليه بإمارة خراسان.

ـ حرَّر طغرلبك الرسائل إلى الأمراء المجاورين لإعلامهم بخبر الانتصار.

ـ طاردت القوات السلجوقية، القوات الغزنوية المنهزمة حتى شواطىء نهر جيحون بهدف قسرهم على الهرب إلى ما وراء النهر، حتى يقدِّموا برهاناً ملموساً على النصر.

ـ أتاحت المعركة قيام سلطنة إسلامية جديدة، وانحسار ظل واحدة، كما تُعدُّ إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل إن نتائجها تعدَّت العالم الإسلامي وأثَّرت على عالم العصور الوسطى(١).

ـ أعرب مسعود من ناحيته، في رسالة أرسلها إلى القراخانيين، عن ثقته في قيامهم بمساعدته في حملته المقبلة لاستئصال شأفة السلاجقة، غير أن صدمة الخسارة قد أذهلته لدرجة فَقَدَ معها الرغبة في المقاومة. فخيل إليه أنَّه لا بد من ترك ليس بلخ وتوابعها بل وغزنة أيضاً، على الرغم من محاولات أركان حربه وكبار رجال دولته لإقناعه بانتفاء أُسس هذه المخاوف، وقرَّر الانسحاب نهائياً إلى الهند(٢).

ـ اقتسمت العشائر السلجوقية، بعد الانتصار، الأراضي التي استولوا عليها. فكان نصيب جفري مدينة مرو، فاستقر بها واتَّخذ منها عاصمة لملكه، كما ملك أكثر خراسان. وكان نصيب أَبو علي الحسن بن موسى كلان، ولاية بُست وهراة(٣) وسجستان(٤) وما يجاور ذلك من النواحي. وأخذ قاورد، أكبر أبناء جفري، ولاية

---

(١) زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٥٩.

(٢) تاريخ البيهقي: ص ٧٢٧ ـ ٧٢٨. على أثر إصرار مسعود على الهجرة إلى الهند، وثب عليه غلمانه في الطريق، وخلعوه عن العرش وعيَّنوا أخاه محمَّد مكانه. وظل مسعود مسجوناً في قلعة كبرى حتى قتله ابن أخيه الأمير أحمد في عام ٤٣٣هـ.

(٣) هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة. الحموي: جـ ٥ ص ٣٩٦.

(٤) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام وهي جنوبي هراة، وأرضها رملة سبخة. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٩٠.

الطَّبَس[1] ونواحي كرمان[2]. وحصل إبراهيم بن ينال على همذان[3]، كما حصل ياقوتي بن طغرلبك على أبهر[4] وزنجان[5] ونواحي أذربيجان[6]، وكان من نصيب قُتُلْمش بن إسرائيل جرجان ودامغان[7].

الواقع أن فكرة التقسيم هذه تتعارض مع الفكرة الإيرانية عن الملك بوصفه صاحب السلطة المطلقة في الدولة، وهي غريبة على السلاجقة الأوائل، إلّا أن المسؤولين السلاجقة هدفوا من وراء ذلك إلى إحاطة السلطنة الغزنوية ومنعها من محاولة استعادة خراسان، ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غز جدد.

ـ يُعدُّ عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) البداية الفعلية لقيام السلطنة السلجوقية في خراسان، لأن طغرلبك باشر، منذ ذلك التاريخ، مهامه السياسية والقيادية والإدارية. أما اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً والذي جاء متأخراً، في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م)، لم يغيِّر من الواقع. فاعتراف الخليفة هو بمثابة اعتراف بالأمر الواقع، كما أنه شكلي فقط لإضفاء الشرعية على السلطنة الناشئة حتى يرضى عنها الناس، ويقبلوا بحكمها، لأن الخلافة لم تكن تملك قوة مادية تسمح بالتدخل والمساهمة في الأحداث السياسية، وكان الخليفة يعترف عادة بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة[8].

ـ كان لقيام السلطنة السلجوقية أثر كبير في تاريخ المشرق الإسلامي وغربي آسيا بشكل خاص، والتاريخ الإسلامي بعامة. ذلك أن هذه السلطنة قد ساهمت في

---

(١) الطَّبَس: قصبة ناحية بين نيسابور وأصفهان. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٠.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. المصدر نفسه: ص ٤٥٤.

(٣) همذان: أكبر مدينة بالجبال. شتاؤها مفرط البرد. وتقع في منطقة الجبال شرق عراق العجم. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤١٠ ـ ٤١٧.

(٤) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٨٢.

(٥) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، قريبة من أبهر وقزوين، المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٥٢.

(٦) أذربيجان: إقليم واسع مشهور، يحده من الشمال بلاد الديلم والجيلو الطَّرم، ومن الشرق بردعة، ومن الغرب أرزنجان. أشهر مدنه تبريز. فيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة وفواكه جمَّة، ومياه غزيرة، المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٧) دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٣٣.

(٨) حسنين: ص ٣٦.

توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني، لنشر العقيدة الإسلامية[1].

- إن ما حقَّقه طغرلبك من نجاح، أغراه بالتمدد نحو العراق، قلب العالم الإسلامي للسيطرة على الخلافة العباسية وإقامة دولة سلجوقية مترامية الأطراف، ويُعدُّ هذا التوجه طبيعياً، فكل من سبقوه في السيطرة على خراسان تطلَّعوا إلى التمدد نحو الغرب للسيطرة على بغداد والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية، ولنا في محاولات السامانيين والصفّاريين والغزنويين أمثلة كافية. أضف إلى ذلك، فقد هدف طغرلبك إلى إنقاذ الخلافة، والمذهب السنِّي من السيطرة البويهية الشيعية[2].

التمدُّد السلجوقي باتجاه العراق

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في إيران ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق، فاستولوا على الري في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م)[3] ودخلوا جرجان وطبرستان[4] في العام التالي، كما استولوا على أصفهان[5] في عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) واتخذها طغرلبك عاصمة له[6]، ثم ضمَّ بعد أربعة أعوام إقليم أذربيجان[7]. وهكذا قامت دولة السلاجقة العظام في خراسان وإيران، وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

كان الوضع الداخلي في بغداد، آنذاك، مزعزعاً، تشوبه حالة من الفوضى

---

(١) Camb. History of Iran: vol V: p 23.

(٢) أسَّس البويهيون، وهم من أصل ديلمي، إمارات شيعية وراثية في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان، وهيمنوا على مقدرات الخلافة العباسية وشاركوها في حكم العراق. وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سمي باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية (٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ - ١٠٥٥م).

(٣) الحسيني: ص ١٠.

(٤) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم. والغالب عليها الجبال من بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل وهي قصبتها. وطبرستان في البلاد المعروفة بمازندران وهي مجاورة لجيلان وديلمان. وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل. كثيرة المياه متهدلة الأشجار كثيرة الفواكه. الحموي: جـ ٤ ص ١٣.

(٥) أصفهان أو أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها وهي من نواحي الجبل. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠، ٥٤.

(٧) ابن العبري: ص ٩٠.

وعدم الاستقرار مما ساعد على تمهيد الطريق أمام مهمة دخول السلاجقة إليها وضمّ العراق إلى دولتهم؛ وذلك بفعل الخلافات الأسرية داخل الأسرة البويهية. إذ اشتد التنافس بين الأمراء البويهيين من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى، كما انتشرت الفتن بين الجند[(١)].

ففي عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م) ظهر التنافس واضحاً بين جلال الدولة البويهي وبين ابن أخيه أَبي كاليجار، وخُطب لهذا الأخير في بغداد[(٢)]. وغدت المدينة مسرحاً للشغب والمنازعات المذهبية والأسرية.

ولما توفي جلال الدولة في عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م) لم يتمكَّن ابنه الملك العزيز من الاحتفاظ بالحكم طويلاً، مما دفع أَبو كاليجار إلى تثبيت أقدامه في الحكم، واستقر في بغداد في عام (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م)[(٣)].

نتيجة لهذا التنافس الأسري، وبفعل ثورات الجند المستمرة، فُقِد الأمن في بغداد وشعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بهذا التفكك والانحلال، ورأى أن الدولة البويهية عاجزة عن إقرار الأمور في العراق.

وحين شارف السلاجقة العظام على العراق، كان أَبو الحارث أَرسلان البساسيري، أحد قادة بني بويه الأَتراك المتشيعين، يسيطر على بغداد وما جاورها، ويتمتع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يُخطب باسمه على المنابر في العراق والأهواز[(٤)]، وفَقَد كل من الخليفة العباسي والملك البويهي القدرة على اتخاذ أي قرار يتعلَّق بأمور الدولة إلَّا بعد موافقته، مما شكَّل خطراً حقيقياً على الخلافة العباسية والدولة البويهية، وبخاصة بعد ارتمائه في أحضان الفاطميين واستعانته بهم[(٥)].

في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته. أما الخليفة

---

(١) سرور، محمَّد جمال الدين: سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٧٩.

(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص ٥. (٣) المصدر نفسه: ص ٣٧، ٤٠.

(٤) الأهواز: كورة واسعة بين البصرة وفارس. الحموي: جـ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص ٨٣. والفاطميون أسرة شيعية إسماعيلية يُرجعون نسبهم إلى علي بن أَبي طالب وفاطمة بنت النبي محمَّد. ظهرت الدعوة الإسماعيلية في أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. وبعد وفاته، انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أُطلق عليها فيما بعد «الإثنا عشرية». اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه، فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمَّد المستور وهو عندهم الإمام السابع وحجَّتهم في ذلك عدم جواز نقل الإمامة من الأخ إلى =

العباسي الذي فَقَدَ ثقته بمن حوله، فقد رأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بالقوة الغالبة، وبخاصة أنَّها كانت تدين بالمذهب السنِّي، وتحترم الخلافة، وتدين لها بالولاء، فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[1].

انتهز طغرلبك هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد، ودخلها في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة[2].

وهكذا دخل العراق ضمن دائرة نفوذ السلاجقة العظام، وجاور هؤلاء الدولة البيزنطية.

والواقع أن ما قام به السلاجقة تحت زعامة طغرلبك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني، أضفى عليه مكانة خاصة في العالم الإسلامي، واستطاع بذلك أن يحقِّق للمسلمين نوعاً من الوحدة كانوا بحاجة ماسَّة إليها، فأضحت إيران والعراق تؤلِّفان وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وبالزعامة السياسية للسلطان السلجوقي[3].

وخلاصة القول، إن السلاجقة استولوا على خراسان وإيران وكرمان والعراق، وتمدَّدوا إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد ذلك، وانقسموا إلى خمسة بيوت حكم كل بيت ناحية من النواحي. فحكم السلاجقة العظام خراسان والري والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، وحكم سلاجقة كرمان منطقة كرمان، وكان هناك سلاجقة العراق بعد انفصالهم عن السلاجقة العظام، وسلاجقة الشام، وسلاجقة الروم موضوع هذه الدراسة.

= أخيه بعد انتقالها من الحسن بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين. ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية أو الإسماعيلية أو الفاطميين فيما بعد لتميزهم عن الإثني عشرية. أسس الفاطميون دولة واسعة الأرجاء انطلاقاً من المغرب بعد أن سيطروا على ربوعه وذلك في عام (٢٩٧هـ/ ٩١٠م) حيث استدعي عبيد اللّه المهدي الذي آلت إليه أسرار الدعوة، من سلمية في بلاد الشام إلى المغرب وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية. توسَّع الفاطميون باتجاه المشرق الإسلامي فسيطروا على مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) ونقلوا دوائرهم إليها، وتطلعوا إلى السيطرة على بلاد الشام تمهيداً للتمدد نحو العراق والقضاء على الخلافة العباسية السنية. لم يعترف أهل السنَّة بصحَّة النسب الفاطمي، وسموا الفاطميين بالعبيديين نسبة إلى عبيد اللّه المهدي.

(١) الحسيني: ص ١٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧١.
(٣) Camb. Medieval History. Vol IV, pp 304-305.

الفَصْلُ الثّاني

العلاقات السلجوقية ـ البيزنطية المبكرة

تمهيد

تعاونت الدولة البيزنطية مع الأتراك منذ زمن طويل، إذ أن مشروعاً لقيام تحالف تركي ـ بيزنطي كان قائماً منذ القرن السادس الميلادي. وقد خدم الأتراك في الجيش البيزنطي كمرتزقة، كما التحقت أعداد كثيرة منهم في صفوف الجيوش الإسلامية المرابطة على الحدود الشرقية للأمبراطورية البيزنطية، إلّا أنه لم يكن للعنصر التركي أي نتيجة أو أثر على الأمبراطورية إلى حين ظهور السلاجقة على حدودها الشرقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فتبدّل الموقف السياسي والعسكري عندئذ. فبعد أن كانت بيزنطية تجد على حدودها في القرن السابق دولة إسلامية ضعيفة، منقسمة على نفسها مذهبياً وسياسياً، فإذا بها تجد سلطنة قوية متماسكة، مكّنت المسلمين من استئناف التوسع على حسابها، وكان ذلك في الوقت الذي دخلت فيه الأمبراطورية البيزنطية حالة من الركود والضعف بعد زوال الأسرة المقدونية في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) وما تبع ذلك من صراع بين الطبقتين العسكرية والمدنية(١).

كان الباعث على التوسع الإسلامي هذه المرة ثلاثة أسباب: ديني، اقتصادي وسياسي.

بما يتعلّق بالباعث الديني، فقد وضع السلاجقة العظام نصب أعينهم هدفاً راحوا يعملون على تحقيقه ألا وهو نشر الإسلام في أوسع رقعة ممكنة وبخاصة بين جيرانهم النصارى، وأعني بهم الأرمن والبيزنطيين، الأمر الذي يكسب حروبهم طابعاً جهادياً،

---

(١) Vasiliev: History of the Byzantine Empire - vol I, p 429. Setton: History of the crusades - vol I, p 136.

كما يكسبهم عطف المسلمين جميعاً، وأن اقترابهم من حدود الكُرْج[1] والبلاد الأرمينية[2] والبيزنطية، هيأ لهم الفرصة لأن يواصلوا حركة الجهاد المقدَّس الذي سبق أن قاموا به في الشرق. وقد حرص طغرلبك في أن يجعل أتباعه من الأتراك دائماً تحت تصرفه يوجههم في حملات مختلفة ويفيد منهم في الجهاد ضد الكفَّار[3].

وفيما يتعلَّق بالباعث الاقتصادي، فإن تدفق الأتراك من بلاد ما وراء النهر في أفواج جديدة بعد تأسيس الدولة السلجوقية في إيران والعراق، جعل الأرض تضيق بهم، فأخذوا يبحثون عن مراع جديدة وغنية، فوجدوا ضالتهم في أراضي الدولة البيزنطية. يؤكد ذلك ما رواه ابن الأثير في سبب غزو إبراهيم ينال أخي السلطان طغرلبك، للأراضي البيزنطية «أن خلقاً كثيراً من الغز مما وراء النهر قدموا عليه، فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا»[4].

أما فيما يتعلَّق بالباعث السياسي، فقد كان لبلاد الأرمن أهمية سياسية وعسكرية في علاقة المسلمين ببيزنطية. وكانت الدول الإسلامية على مر العهود لا تُفرِّط بهذه البلاد حتى انتزعتها الأسرة المقدونية من أيديهم في عهد الأمبراطور باسيل الأول (٢٥٣ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٦٧ ـ ٨٨٦م)[5]. فارتبطت أرمينية في عهد ملكها آشوط الأول من الأسرة البغراطية بنوع من التحالف والعلاقات الودية مع بيزنطية،

---

(١) الكُرْج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبْق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تُنسب إليهم وملك ولغة وشوكة وقوة وكثرة عدد. الحموي: جـ ٤ ص ٤٤٦.

(٢) أرمينية: تشتمل أرمينية على أوسط البقاع وأكثرها ارتفاعاً من المنطقة الجبلية الواقعة في غرب آسيا. وهي البلاد الجبلية الشاسعة التي تحدها غرباً آسيا الصغرى، وشرقاً هضبة أذربيجان والشاطىء الجنوبي لبحر قزوين، ومن الشمال والشمال الغربي البلاد الواقعة على البحر الأسود وبلاد القوقاز. وإذا نظرنا إلى أرمينية من الوجهة الجغرافية، فإن الجبال الوعرة التي تمتد بين بحيرة أرجيش شمالاً، وسهول آشور جنوباً يجب أن تُعد كذلك جزءاً من أرمينية. وتشكل هذه المنطقة فاصلاً بين الساميين في الجنوب والأرمن الذين ينتسبون للجنس الآري في الشمال. وأرمينية هي بلاد الأنهار التي تنساب في جميع الجهات وأشهرها دجلة والفرات والرس الذي يفصلها عن بلاد القوقاز، وأهم بحيراتها بحيرة أرجيش. وتقسم البلاد الأرمينية إلى قسمين: أرمينية الكبرى وتمتد من نهر الفرات غرباً إلى الإقليم المجاور لنهر كر شرقاً، وتتوسطه مدينة خلاط. أما أرمينية الصغرى فتشمل إقليم تفليس وما حوله. انظر: المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٥٩ ـ ١٦١.

(٣) Setton: I, pp 144 - 147.

(٤) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ٤٨.

(٥) العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

وأضحت دولة حاجزة ضد المسلمين في الشرق[١]، لكن هذه التبعية بقيت مزعزعة بسبب انقسام الأرمن فيما بينهم. وهكذا تناوب الطرفان الإسلامي والبيزنطي على البلاد إلى أن خضعت نهائياً للبيزنطيين في عهد باسيل الثاني (٣٦٥ ـ ٤١٦هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) حيث تنازل حنا سمباد في عام (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) للأمبراطور البيزنطي عن أملاكه بعد وفاته على أن يظل يحكمها أثناء حياته[٢]، وذلك نظراً لما تعرضت له بلاده من الغارات من قِبل السلاجقة والأبخاز[٣]، فضلاً عن تهديد أخيه أشوت له والحروب الداخلية التي شهدتها البلاد. وجرى على نهجه سنحاريب ملك فاسبوركان[٤] بعد أن أدرك أنه ليس بوسعه أن يقاوم السلاجقة، وذلك مقابل الحصول على سيواس[٥].

وعندئذ أدرك طغرلبك أهمية السيطرة على أرمينية لكسر الطوق البيزنطي من أمام المسلمين تمهيداً للتوغل داخل الأراضي البيزنطية لمواصلة حركة الجهاد وإشباع رغبة أتباعه.

وعلى هذا النحو يصح أن ندرك الأسباب التي من أجلها بدأ التوسع، بأن نفذ السلاجقة إلى الجهات الشمالية الغربية من إيران وقاموا بغارات ضد الكُرْج والأرمن والبيزنطيين سالكين الطُّرق التقليدية للغزو[٦].

ولا يبدو أن الحملات الأولى التي قام بها السلاجقة، اتخذت طابعاً مفاجئاً، لأن الدولة البيزنطية تعرَّضت سابقاً، وعلى مراحل متقطعة منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لغارات كان يقوم بها بعض المغامرين الأَتراك، غير أنها لم تشكِّل تهديداً فعلياً للأمبراطورية البيزنطية، إذ كان هدفها استطلاع أوضاع المنطقة

---

(١) Camb. Med. History: IV. p 140.

(٢) توفي سمباد في عام ١٠٤٠م فخلفه في الحكم ابنه كاجيك الثاني الذي تنازل نهائياً عن أملاكه لبيزنطية.

(٣) الأبخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهي جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان، يسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج، وفيها تجمعوا ونزلوا إلى نواحي تفليس. الحموي: جـ ١ ص ٦٤.

(٤) فاسبوركان: إحدى مقاطعات أرمينية.

(٥) Camb. Med. Hist: IV p 163. وسيواس: هي سبسطية، ولاية تركية تقع في شمال بلاد الروم، تحدها شمالاً قسطموني وطرابزون، وشرقاً أرزن الروم ومعمورة العزيز، وجنوباً حلب وأدرنة، وغرباً أنقرة وقسطموني.

(٦) Cahen: p 23. Setton: I p 147.

ونهبها. ولم تتعرَّض بيزنطية لغارات خطيرة من قِبل السلاجقة إلَّا منذ عهد الأمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس (٤٣٣ ـ ٤٤٧هـ/ ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م) حيث بدأ التهديد الفعلي الذي انتهى بفتح السلاجقة القسم الأكبر من آسيا الصغرى.

الغارات الأولى على أرمينية

ارتكب الأمبراطور قسطنطين التاسع خطأً فادحاً عندما استبدل الخدمة العسكرية في المناطق الحدودية الشرقية لآسيا الصغرى بضريبة سنوية، فقلَّ عدد الرجال في جيش الحدود، واضطر أن يلجأ في معالجة أمر السلاجقة إلى الأسلوب نفسه الذي لجأ إليه أسلافه في درء الخطر الفاطمي من قبل، وهو الامتناع عن مقاومة الغزاة[١].

وقام السلاجقة في عهد الأمبراطور المذكور بغارتين كبيرتين على الأراضي البيزنطية. قاد الغارة الأولى إبراهيم ينال في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، في حين قاد الثانية طغرلبك نفسه في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م). ونتيجة لتلك الغزوتين تهيأت الفرصة للمغيرين القيام بخطوات مستقبلية بهدف الاستيطان.

أغار إبراهيم ينال على الأبخاز وأرمينية، فوصل إلى مانزيكرت[٢] وتابع إلى أرزن[٣] وقاليقلا[٤]، ويبلغ طرابزون[٥] على شاطىء البحر الأسود[٦] ودمَّر خلال غاراته القرى والضياع والقلاع، وسبى وغنم كثيراً، غير أن الكارثة الكبيرة حلَّت بأرزن المدينة المعروفة بثرائها. ذلك أن إبراهيم ينال حاول انتزاع هذه المدينة التجارية الغنية، ولما جوبه بمقاومة ضارية، أضرم النار فيها الذي أتى على كامل المدينة، وهلك عدد كبير من سكَّانها وأُسر الباقون الذين بيعوا في أسواق الرقيق. وكان خراب المدينة أفدح كارثة حلَّت بأرمينية وتُعدُّ بداية انهيار الوطن الأرميني[٧].

---

(١) رستم، أسد: الروم... جـ ٢ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) مانزيكرت أو منازجرد أو ملازكرت: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُعدُّ في أرمينية وأهله أرمن وروم. الحموي: جـ ٥ ص ٢٠٢.

(٣) أرزن أو أرزن الروم: مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٥٠.

(٤) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٩٩.

(٥) طرابزون: ميناء بآسيا الصغرى يقع على البحر الأسود.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٨.

(٧) Chamichian: History of Armenia vol II p 138.
Finlay: Byzantine Empire p 522.

تردَّد الولاة البيزنطيون، في بادىء الأمر، فيما يتخذونه من إجراء، غير أنه لما انحاز إليهم أمير الأبخاز ليباريتس، الذي يُعدُّ من أتباع الأمبراطور البيزنطي، نهضوا لقتال إبراهيم، فاشتدت الحرب بين الفريقين، وأحرز المسلمون النصر، ووقع القائد ليباريتس في الأسر مع جماعة من البطارقة، «وغنم المسلمون كثيراً من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه إحصاء»[(١)].

ويبدو أن طغرلبك لم يكن راغباً في فتح باب العداء آنذاك مع القسطنطينية، فأمر بإطلاق سراح القائد البيزنطي بعد مفاوضات جرت بينه وبين الأمبراطور البيزنطي لعقد هدنة بين الطرفين[(٢)]، وردَّ الأمبراطور على هذه المجاملة بأن أمر بإصلاح مسجد القسطنطينية والدعاء فيه لطغرلبك. على أن غارات السلاجقة على الأراضي البيزنطية لم تنقطع، إذ استمر المغامرون منهم يشعلون نار الحرب، فاجتاحوا في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٥٢م) إقليم قارس[(٣)].

قاد طغرلبك الحملة الكبيرة الثانية إلى داخل الأراضي البيزنطية عندما سمع بموت الأمبراطور قسطنطين، فغزا الأراضي الأرمينية ووصل إلى أرزن[(٤)]، ونهبت عساكره الأقاليم الواقعة بين هذه المدينة وبحيرة ڤان، ومن بينها مدينة باركيري الواقعة على الطريق بين أرجيش وخوى في أذربيجان[(٥)]، ثم تقدم نحو مقاطعة باسين من أعمال أرزن، وحاصر مانزيكرت وضيَّق على سكانها، وأحرق جنود الحامية آلاته التي استعملها في الحصار، وقد قاد باسيليوس حاكم المدينة حركة المقاومة، ونجح في صد القوات السلجوقية. وانسحب طغرلبك عائداً إلى أذربيجان، ودمَّر أثناء تراجعه ما صادفه من قرى ومزارع، وترك في المنطقة جماعة من أتباعه الرواد لمواصلة الغارة[(٦)].

والواقع أن السلاجقة الذين أرادوا الاستقرار في الربوع الأرمينية والبيزنطية لم ينجحوا في تأمين قاعدة ثابتة ينطلقون منها، وما حدث من غارات في ذلك الوقت، يُعدُّ بداية سلسلة من الغارات التي سوف تزداد حدتها وتصبح مستمرة.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٨.

(٢) Grousset, R: Histoire de L'Armenie: pp 588 - 590.

(٣) Ibid: pp 596-597 قارس: مدينة بأرمينية من نواحي تفليس بينهما يومان. الحموي: جـ ٤، ص ٣٢٣ .

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٣.

(٥) Chamichian: II p 142.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٧. Chamichian: II pp 142-146.

تغيَّر الموقف العسكري لصالح السلاجقة بدءاً من عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) حينما تقرَّر سحب العساكر البيزنطية من المناطق الأرمينية لمساندة إسحاق كومنين في ثورته ضد ميخائيل السادس[١]، فشغرت المراكز الحدودية من أية مقاومة جديَّة، مما أغرى السلاجقة فاجتاحوا كبادوكية، وهاجموا ملطية[٢]، وأغاروا على الأقاليم الواقعة عند ملتقى فرعي نهر الفرات. وتوغَّل قُتلمش بن إسرائيل في جوف آسيا الصغرى ففتح قونية[٣] وآقسرا[٤] ونواحيهما[٥].

جدَّد السلاجقة هجماتهم على الأملاك البيزنطية في عهد الأمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس (٤٥١ ـ ٤٥٩هـ/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦٧م). ففي العام الأول من حكمه توغلوا في عمق الأراضي البيزنطية، وبلغوا مدينة سيواس، فقتلوا جماعة من أهلها ممن قاومهم، وعادوا محملين بالغنائم، بعد أن أحرقوا المدينة[٦].

الواضح أن غارات السلاجقة ظلَّت حتى وفاة طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) تستهدف غالباً السلب والنهب دون محاولة الاستقرار[٧] إنما كانت خطوة تمهيدية استطلعت خلالها القوات السلجوقية أوضاع وطبيعة المنطقة، هذا على الرغم من أن السلطان السلجوقي كان شديد الاهتمام بالطرف الشمالي الغربي لسلطنته، إلَّا أن ابن أخيه وخليفته ألب أرسلان، أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين، فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بالسيطرة على أرمينية والاستقرار في ربوعها قبل أن يمضي في تحقيق هدفه الأساسي وهو مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام. وبدا واضحاً أن الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين سوف يزداد عنفاً وبخاصة أن البيزنطيين أدركوا أخيراً مدى فداحة الخطر الذي يهدد الأمبراطورية من الشرق[٨].

---

(١) Grousset: pp 596-597.

(٢) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام. الحموي: جـ ٥ ص ١٩٢.

(٣) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم (آسيا الصغرى) وبها وبآقسرا سكنى ملوكهم. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤١٥.

(٤) آقسرا: مدينة مشهورة بالروم.

(٥) ابن خلدون، عبد الرَّحمن...: تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٦٢.

(٦) Psellus: Chronographia: pp 277-302. Grousset: p 608.

(٧) Grousset: Histoire des Croisades: vol I p 30.

(٨) عنان، محمَّد عبد اللَّه: موقعة ملازكرد. مجلة الثقافة العدد ٥٠٠ سنة ١٩٤٨ ص ٧.
Setton: vol I p 148.

ونتيجة لذلك، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الأمبراطورية البيزنطية في دور جديد، وكان ألب أرسلان قبل قيامه بغزو البيزنطيين قد وثَّق علاقاته بكل من السلطنتين الغزنوية والخانية عن طريق المصاهرة[١]، مما هيأ له أن يركِّز اهتمامه ويتفرَّغ لغزو البيزنطيين وهو مطمئن.

قام ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوب أذربيجان، ثم اتجه غرباً لفتح بلاد الكُرج والمناطق المطلَّة على بلاد البيزنطيين. وكان سكان الكرج يكثرون من الغارة على أذربيجان فأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة. وانضم إليه وهو في مدينة مرند في أذربيجان أحد أمراء التركمان ويدعى طغتكين، وكان دائم الغارة على تلك المنطقة، عارفاً بمسالكها. واجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس[٢] في طريقه إلى بلاد الكُرج، وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه، قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك هاجمت حصوناً ومدناً بيزنطية منها حصن سُرماري[٣] ومدينة مريم نشين الحصينة، وفتحها[٤].

ثم حدث أن استدعى ألب أرسلان ابنه ووزيره للانضمام إليه، وساروا جميعاً إلى سبيذشهر وفتحوها بعد قتال، وتابعوا سيرهم إلى مدينة أعال لال الحصينة، فقاتلهم أهلها، إلَّا أنهم تغلبوا عليهم وفتحوا المدينة وغنموا «ما لا يحد ولا يحصى»[٥]، ومضوا إلى قارس وآني[٦]، وحاصروا هذه الأخيرة وضيَّقوا على أهلها الذين قاوموا الحصار بضراوة، فاضطروا إلى رفع الحصار. وظن السكان أن الجيش السلجوقي إنما تراجع ليعيد تنظيم صفوفه ليكر ثانية على المدينة، فهرب قسم كبير منهم. ولما علم ألب أرسلان بذلك أمر بعودة الجيش إلى آني وجدَّد حصاره لها، ثم اقتحمها وسيطر عليها[٧]، وعيَّن عليها حاكماً من قِبله، كما ترك فيها حامية عسكرية كبيرة، وفي ذلك إشارة إلى بداية الاستقرار السلجوقي في الأملاك الأرمينية. ويبدو أن

---

(١) تزوج أحد أبناء ألب أرسلان ابنة السلطان إبراهيم الغزنوي، كما تزوج ابنه الأكبر ملكشاه ابنة طمغاج خان ملك الخانيين. حسنين: ص ٦٠.

(٢) الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران ثم يمر بورتان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو والكر وبينهما مدينة البيلقان، ويمر الكر والرس جميعاً فيصبان في بحر جرجان. الحموي: جـ ٣ ص ٤٤.

(٣) سُرماري: قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٥.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٩٨ ـ ٩٩. Grousset: Hist. de L'Armenie p 612.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) آني: قلعة حصينة، ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة. الحموي: جـ ١ ص ٥٩.

(٧) ابن العبري: ص ١٠٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٠. Chamichian: II pp 149 - 151.

ملك الكُرج هاله التوغل السلجوقي في عمق المناطق الأرمينية فهادن ألب أَرسلان وصالحه على دفع الجزية وذلك في عام (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)[١].

نتيجة لهذا التوغل السلجوقي أضحى الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول بعد أن سيطروا على قلب أرمينية، فأغاروا على المناطق الحدودية، واستولوا على دروب الأمانوس في عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م)، وهاجموا قيصرية[٢] حاضرة كبادوكية في العام التالي[٣]. جرى كل ذلك ولم يبذل الأمبراطور البيزنطي جهداً كبيراً لمقاومة هذه الغارات، مما شجَّعهم على التوغل في عمق الأناضول فوصلوا إلى نيكسار[٤] وعمورية[٥] في عام (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)، وإلى قونية في العام التالي، وإلى خونية القريبة من ساحل بحر إيجة في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)[٦].

معركة مانزيكرت

شكَّل فتح السلاجقة لبلاد الكرج، والقسم الأكبر من أرمينية، تحدياً لبيزنطية وبخاصة بعد أن أدرك الأمبراطور البيزنطي، أن ألب أَرسلان يصبغ غزوه للبلاد بصبغة الجهاد الديني، وهو يطبع المناطق المفتوحة بالطابع الإسلامي، مما جعل نشوب الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أمراً لا مفر منه.

حاول الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرَّابع ديوجينس (٤٦٠ ـ ٤٦٣هـ/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧١م)، الذي خلف قسطنطين العاشر دوكاس، أن يوقف تقدم السلاجقة بعد أن أدرك أن سلامة الأمبراطورية تقضي باسترداد أرمينية، فبذل جهداً كبيراً في حشد جيش من أجل هذه الغاية، وقام بثلاث حملات عسكرية ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة الفراتية في السنوات (٤٦١ ـ ٤٦٣هـ/ ١٠٦٩ ـ ١٠٧١م).

توجَّهت الحملة الأولى إلى إمارة حلب الواقعة تحت الحكم المرداسي[٧]. واستناداً إلى ما ذكره المؤرخ والفيلسوف البيزنطي بسللوس الذي عاش هذه

---

(١) Grousset: pp 613 - 615.

(٢) قيصرية: مدينة عظيمة في بلاد الروم هي كرسي ملك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢١.

(٣) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١ ص ١٠٥. Cahen: p 70.

(٤) نيكسار: إحدى مدن ولاية سيواس تقع حالياً شمال شرقي تركيا.

(٥) عمورية: مدينة في بلاد الروم.

(٦) Cahen: p 71. Laurent: Byzance et Les Turcs Seldjoucides pp 4 - 6.

(٧) المرداسيون عشيرة عربية أقامت إمارة وراثية في حلب في عهد صالح بن مرداس بدءاً من عام ٤٥١هـ ودامت حتى عام ٤٧٢هـ.

الأحداث وشارك فيها، وإن شاب حديثه كثير من التجنّي على الأمبراطور، أن رومانوس خرج من العاصمة بصحبة جيشه وزحف ضد البرابرة (الأتراك) دون تخطيط مسبق، لا يعرف أين سيمضي أو ماذا سيفعل، يخطط ليمضي في طريق لكنه يسير في آخر، توغل في أراضي الشام، وكل ما حقَّقه من نجاح كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الأراضي مكتفياً بأنَّه زحف ضد العدو(١). لكن الواقع أن رومانوس اعترض أثناء حملته هذه جماعة من الأتراك كانت قد هاجمت نيكسار، وأرغمها على أن تتخلَّى عن الغنائم التي ظفرت بها، بالإضافة إلى أنه شنَّ بعض الغارات على إمارة حلب واستولى على أرتاح الواقعة شرقي أنطاكية(٢) وترك فيها حامية عسكرية، كما استولى على حصني بالس(٣) وأرتاح، ثم انسحب من المنطقة، إثر ورود أخبار عن تقدم قوة من الأتراك بقيادة الأفشين باتجاه عمورية(٤). والجدير بالذكر أن ألب أرسلان أرسل قائده الأفشين على رأس قوة عسكرية للتوغل دخل أملاك الأمبراطورية البيزنطية.

وغزا رومانوس إمارة حلب أيضاً في حملته الثانية انطلاقاً من أراضي إقليم الجزيرة(٥)، فسلك طريق سيواس ـ قيصرية للوصول إلى مرعش على الحدود بين بلاد الشام ومنطقة كيليكية، ثم تابع طريقه إلى منبج الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات، فنهبها وقتل أهلها وضمَّها إلى أملاك الأمبراطورية، واصطدمت قواته بقوات محمود بن صالح المرداسي وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب، وانتصرت عليهم(٦).

الواضح أن رومانوس حقَّق بعض أمانيه في أطراف بلاد الشام، فحدَّ من تحركات

---

(١) Chronographia: p 532.

(٢) أرتاح: اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب. وأنطاكية: مدينة مشهورة في شمال بلاد الشام بينها وبين حلب يوم وليلة. الحموي: جـ ١ ص ١٤٠. ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠.

(٣) بالس: بلد بالشام بين حلب والرقة. المصدر نفسه: ص ٣٢٨.

(٤) العظيمي: تاريخ حلب ص ٣٤٧.

(٥) قسَّم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة، إلى إقليمين: الأسفل الجنوبي والأعلى الشمالي، وسَموا الإقليم الأعلى، الجزيرة، لأن أعالي دجلة والفرات تتخلل سهوله. وقسم هذا الإقليم بدوره إلى ثلاث ديارات هي: ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر. انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٢ ـ ١٢٣. ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض ص ١٨٩ ـ ٢٠٧. الهمذاني، المعروف بابن الفقيه: كتاب البلدان ص ١٧٦ ـ ١٨٢.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ص ٢٥٤.

الأتراك، بل إنه تابع مهماته العسكرية، فوصل إلى مانزيكرت وعاث في أطرافها وأطراف خراسان(١)، ثم انسحب من المنطقة عائداً إلى بلاده بسبب قلّة المؤن(٢).

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة، ولم ينجم عنهما أي تغيير في وضع الأراضي باستثناء الاستيلاء على أرتاح ومنبج وبالس. وما أحرزه الأمبراطور من انتصارات جزئية لم يكن حاسماً بدليل مواصلة الأتراك ضغطهم على أراضي الأمبراطورية وتوغلهم في أرجائها، مما اضطره إلى القيام بحملته الثالثة لوضع حد لتعدياتهم(٣).

لم يسع رومانوس بعد عودته إلى عاصمته من حروب الشام، إلّا أن يعود أدراجه لمواجهة السلاجقة وإخراجهم من المناطق التي استقروا فيها، وبخاصة حول قيصرية وكبادوكية، بالإضافة إلى السيطرة على بعض المواقع داخل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند ويتخذها مراكز أمامية تواجه كل تحرك تركي في المستقبل، فترك قسماً من جيشه بالقرب من ملطية تحت قيادة فيلاريت الأرميني، وأمره أن يعترض سبيل الأتراك. غير أن هؤلاء استطاعوا إنزال الهزيمة به وفتحوا ملطية، وانسابت جموعهم إلى قلب آسيا الصغرى، ونهبوا قونية. وعندما سمع رومانوس بما أصاب هذه المدينة، تابع تقدمه ليوقف زحف المغيرين إلّا أنه لم يكن بوسعه أن يهزمهم، فعاد إلى القسطنطينية في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) لتجهيز جيش آخر عهد بقيادته إلى مانويل كومنين، ولم يكن حظ هذا الجيش بأحسن حالاً ممن سبقه، إذ أنزل السلاجقة الهزيمة بالقائد البيزنطي قرب سيواس وأسروه(٤).

كان ألب أرسلان في غضون ذلك، يُعدُّ حملة ضد الفاطميين لطردهم من بلاد الشام، فزحف إلى حلب عن طريق ديار بكر وأخضعها، وأعلن أميرها رشيد الدولة محمود بن نصر المرداسي تبعيته له، فخلع عليه وثبَّته في حكم حلب(٥).

ومن جهته، قرَّر رومانوس القيام بمحاولة أخرى لاسترداد أرمينية ووقف غارات الأتراك على آسيا الصغرى، مستفيداً من توغل ألب أرسلان في بلاد الشام، لكن يبدو أن هدفه كان أبعد من ذلك، إذ إنه أراد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في عمق الأراضي الإسلامية، بدليل أنه أقطع بطارقته، الذين كانوا

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٦. (٢) سبط ابن الجوزي: ص ٢٥٤.

(٣) المصدران نفساهما. Psellus: pp 363 - 364. (٤) Grousset: p 624. Cahen: p 71.

(٥) سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٠، ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

يرافقونه، مصر والشام وخراسان والري والعراق مستثنياً بغداد، وأوصى بعدم التعرض للخليفة لأنه كان صديقه. واستناداً إلى ما أورده أحد المؤرخين المسلمين أن رومانوس أراد أن يشتّي في العراق ويصيّف في العجم، وعزم على تخريب بلاد المسلمين(١)، فخرج في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) على رأس جيش ضخم(٢) تألف معظمه من المرتزقة الروم والفرنج والنورمان والروس والبجناك والكُرج والكومان، لم يكن من بينهم جميعاً غير فئة قليلة من الجنود المحترفين، مما جعل هذا الجيش يفتقر إلى حسن التنظيم والقدرة القتالية(٣).

وضع رومانوس خطة تقضي بالاستيلاء على حصون أرمينية وشحنها بالجند قبل قدوم السلاجقة من جهة الجنوب، ومن ثَمَّ مهاجمة مؤخرة الجيش السلجوقي في محاولة لتطويقه، فتابع زحفه حتى وصل إلى قيصرية. وهنا بدأ يفكّر جدياً بالعودة إلى القسطنطينية تحت أي عذر، ولا تمدُّنا المصادر التي بين أيدينا عن سبب محدَّد لذلك، حتى أن بسللوس نفسه الذي رافق الأمبراطور في حملته لم يذكر سبباً معيناً حمل الأمبراطور على التفكير بالتراجع، وهو كان الأقوى على الساحة العسكرية، وحاول قبل انسحابه من المنطقة أن يتوصل إلى اتفاق ما مع ألب أَرسلان.

كان ألب أَرسلان آنذاك في وضع حرج، لأن قسماً من جيشه قد تقاعس عن المضي في الحرب بسبب تأخير أرزاقهم، واضطر أن يحاصر حلب، بعد أن رفض أميرها المرداسي تقديم الولاء له، ممن بقي معه من الجيش، وعددهم أربعة آلاف مقاتل. وبعد أن أخضع المدينة، غادرها إلى بلاده عن طريق الفرات، ووصلت رسل رومانوس وهو يتهيَّأ لمغادرة المدينة(٤).

لم يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها رومانوس من أجل التوصل إلى عقد

---

(١) سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٠.

(٢) اختلفت المصادر حول عدد أفراد جيش الأمبراطور. فقدَّره ابن القلانسي بستمائة ألف جندي في حين روى سبط ابن الجوزي أنه، أي الأمبراطور البيزنطي، كان في مائة ألف مقاتل ومائة ألف نشاب ومائة ألف جرجي ومائة ألف صانع وأربعمائة عربة يجرها ثمانمائة جاموس وألف عجلة عليها السلاح والمسامير وآلات الحصار وكثير من الذهب والثياب الفاخرة. أما ابن الأثير فقد قدَّر عدد الجيش بمائتي ألف جندي. وذكر أومان أن العدد هو ستون ألفاً. قارن: ابن القلانسي ص ١٦٧. سبط ابن الجوزي ص ٢٨٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٩.
Oman: History of the Art of War in the Middle Ages. vol I p 219.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. Psellus: p 352 Note 1.

(٤) سبط ابن الجوزي: ص ٢٨١.

اتفاقية الصلح[1]، في حين يذكر سبط ابن الجوزي، نقلاً عن غرس النعمة الذي عايش هذه الأحداث، أن رسل رومانوس حملت عرضاً إلى ألب أرسلان برد منبج وأرجيش ومانزيكرت إليه، وبحمل الهدية[2]؛ دون أن يوضح ما سيكسبه رومانوس مقابل ذلك.

ولئن لم يقدم لنا المؤرخان المذكوران، وهما ممن عايش هذه الأحداث، تفصيلاً لشروط الصلح، فإننا نجد عند ابن العبري رواية أكثر توضيحاً لكنها جاءت مخالفة لما رواه غرس النعمة، وتفيد بأن الأمبراطور عرض على السلطان ألب أرسلان أن يتنازل له عن منبج مقابل تخلي الأخير عن أرجيش ومانزيكرت كما يدفع له جزية سنوية، ويضيف بأن السلطان قَبِل مقترحات الأمبراطور وتنازل له عن جميع الأراضي حتى خلاط[3]. ويتبنى الباحث هنا، رواية ابن العبري لأن منبج كانت آنذاك تحت السيطرة البيزنطية بينما أرجيش ومانزيكرت كانتا تحت السيطرة السلجوقية[4].

والواضح أن ألب أرسلان كان مدفوعاً بثلاثة عوامل حين قَبِل مقترحات رومانوس:

الأول: كانت سياسته آنذاك تقضي بمد نفوذه إلى العالم الإسلامي، ولم تكن له أي أطماع سياسية في أراضي الأمبراطورية البيزنطية سوى كفالة جناح جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، ورأى أن هذه الاتفاقية تؤمِّن له ذلك. أما إرساله قوة عسكرية عقب ذلك بقيادة الأفشين إلى عمق الأراضي البيزنطية[5]، فلم تكن سوى قوة استطلاع، وربما هدف إلى إجبار الأمبراطور البيزنطي على سحب قسم من جيشه كي يخفف الضغط عن ساحة المواجهة في بلاد الشام.

الثاني: تأخُّر الأفشين الذي كان قد أرسله للتوغل داخل الأراضي البيزنطية فخشي أن يكون البيزنطيون قد قضوا عليه.

الثالث: إن قسماً من جيشه، وهو القسم القادم من العراقين[6]، وكان أفراده يعملون من قبل في جيش عمه طغرلبك، قد تقاعسوا عن المضي في الجهاد ومحاصرة حلب التي كانت هدفه التالي، وذلك بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر إلى

---

(1) Psellus: p 354. (2) سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٠.

(3) تاريخ الزمان: ص ١٠٩. خلاط: مدينة عامرة مشهورة، قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، مناخها بارد جداً في الشتاء، ولها بحيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(4) ابن القلانسي: ص ١٦٦. سبط ابن الجوزي: ص ٢٧٨.

(5) ابن العبري: ص ١٠٩ ـ ١١٠. (6) العراق العربي والعراق العجمي.

حصار المدينة بشرذمة من جنده الباقين الذين بلغوا أربعة آلاف مقاتل كما ذكرنا، فاختل بذلك نظام جيشه، واضطر إلى تغيير خططه العسكرية والسياسية، لأنه بهذا العدد لا يمكنه مواجهة الجيش البيزنطي الجرَّار، فجنح إلى السلم وعاد إلى الشرق عَن طريق الفرات شبه هارب.

إلَّا أن تسارع الأحداث عطَّل تنفيذ الاتفاقية المبرمة. ويروي بسللوس «إما في يأس أَو بسبب أنه، أي الأمبراطور، كان واثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي، زحف إلى القتال»[1]. إن في هذا الكلام بعض الغموض، لكن على الرغم من ذلك، فإنه قد فعل هذا بغرور[2]، وهو متيقن بأن النصر سيكون حليفه بعد الاستعدادات الضخمة التي اتَّخذها. وربما كان تصرفه هذا ناتجاً عن المعلومات التي نقلتها بعثته التي عادت من عند السلطان، فوصفت له رحيل ألب أَرسلان من حلب، وحالة الفوضى التي انتشرت في صفوف جيشه نتيجة تمرد بعض جنده؛ فسار باتجاه مانزيكرت وخلاط.

أما ألب أَرسلان، فإنه وصلت إلى مسامعه أنباء عن ضعف القوات البيزنطية، على الرغم من ضخامتها، فطمع في اغتنام الفرصة للحصول على قدر أكبر من التنازلات، لذلك قرَّر التصدي للزحف البيزنطي. ونظراً للفارق العددي بين الجيشين لجأ إلى خطة أخرى، فتابع انسحابه من المنطقة، وعبر الفرات، مما أغرى رومانوس فطارده، غير أنه توقف فجأة، وأعاد تنظيم صفوف قواته، وتأهب لملاقاة الأمبراطور، وبخاصة أنه عزَّز مقدرته القتالية بمن انضم إليه من الأكراد وسائر الناس، فأضحى عديد قواته خمسة عشر ألف مقاتل[3].

وعندما وصل رومانوس إلى أرزن، ارتكب خطأً عسكرياً عندما قسَّم قواته إلى قسمين: أرسل القسم الأول إلى حصن خلاط الواقع على شاطيء بحيرة ڤان، لمهاجمته، في حين سار بالقسم الثاني باتجاه مانزيكرت واستولى عليها[4]، فأضعف هذا التقسيم مقدرة الجيش البيزنطي القتالية. وتلقى وهو فيها أنباء عن اقتراب ألب أَرسلان، فانحرف إلى الجنوب الغربي ليلحق بالقسم الأول من الجيش قبل أن

---

(١) Psellus: p 355. (٢) ابن العبري: ص ١١٠.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦٦. سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٥. اختلفت المصادر أيضاً في تقدير عدد أفراد الجيش السلجوقي. فذكر ابن القلانسي أنه كان أربعمائة ألف مقاتل بينما قدَّره ابن كثير بعشرين ألفاً. أما أومان فقدَّره بمائة ألف. ابن القلانسي: ص ١٦٧. ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٠١. Oman: p 219.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٩.

ينقضَّ عليه الأَتراك[١]، غير أن السلاجقة كانوا قد هزموا مقدمة جيشه الذي هاجم خلاط[٢]، عندئذ وجد رومانوس نفسه وجهاً لوجه أمام الجيش السلجوقي في جنوبي مانزيكرت، وتحديداً بين مانزيكرت وخلاط في مكان يُعرف بالزهوة[٣].

حاول ألب أَرسلان استغلال نصره الجزئي كي يتفاوض مع رومانوس لتسوية الأمور العالقة بينهما بالتفاهم، فأرسل مبعوثاً من قِبله إِلى الأمبراطور البيزنطي يعرض عليه عقد هدنة[٤]، لم تذكر المصادر شروطها. لكن يبدو أن ألب أَرسلان عرض على رومانوس انسحاب الجيشين السلجوقي والبيزنطي من المنطقة، وعدم مهاجمة أي طرف للطرف الآخر، والإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلَّق بالأراضي التي يسيطر عليها كل منهما. إِلَّا أن رومانوس رفض العرض وأشاح بوجهه بكبرياء، ولم يحاول الاستماع إِلى رسالة ألب أَرسلان، وتمادى حين طلب إبلاغه أن «لا هدنة إِلَّا بالري»[٥]، مع ما يشكِّل ذلك من تحدٍّ واضح. ويذكر أومان أن الأمبراطور البيزنطي أبلغ السلطان السلجوقي بأنه يجب عليه الانسحاب من المنطقة دون شروط لينتشر فيها الجيش البيزنطي[٦].

أدرك ألب أَرسلان عندئذ، حقيقة الموقف البيزنطي الهادف إِلى القضاء على الدولة السلجوقية الناشئة، ومن ثَمَّ القضاء على دولة الخلافة الإِسلامية، وأن السبيل الوحيد لمنع البيزنطيين هو القضاء على جيشهم، فحرَّض جنوده على الاستماتة في الدفاع عن دين الله حفاظاً على دولة المسلمين[٧].

وفي المعركة الحاسمة التي دارت بين الجيشين حلَّت الهزيمة بالجيش البيزنطي ووقع الأمبراطور في الأسر بعد أن جُرح، «وقُتل من الروم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى»[٨]، كما غنم المسلمون كميات كبيرة من الذهب والفضة بحيث تقاسموها بالأرطال، وعاد المسلمون إِلى أذربيجان بعد انتهاء المعركة[٩].

---

(١) Oman: p 219.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٩.

(٣) ابن كثير: جـ ١٢ ص ١٠١.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) Art of war... p 220.

(٧) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٩.

(٨) المصدر نفسه: ص ١١٠.

(٩) الفارقي، ابن الأزرق: تاريخ ميافارقين ص ١٨٩.

نتائج معركة مانزيكرت

ـ تُعدُّ معركة مانزيكرت أقصى ما بذله البيزنطيون من جهد لوقف غارات السلاجقة، وقد أبلى الأمبراطور رومانوس بلاء حسناً وحارب بشجاعة، لكن الخيانة أدَّت دوراً مهماً في إضعاف قواته، فجيشه المرتزق الذي تألَّف من عناصر مختلفة ساد بينها العداء والكراهية، كالذي وقع بين اليونانيين والأرمن، والكومان الذين كان هواهم مع السلاجقة لانتمائهم إلى العنصر التركي، بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلَّوا عن أمبراطورهم في تلك اللحظة الحرجة، فقرَّر روسل بايليل ومن معه من الفرنج الغربيين عدم خوض المعركة، كما انسحب أندرونيقوس دوكاس من المعركة عندما أدرك أن القضية خاسرة، تاركاً الأمبراطور يواجه مصيره، دون أن يُخفي عداءه، وأشاع بعض القادة، أثناء احتدام القتال، خبر الهزيمة، ففرَّ الجند تاركين الأمبراطور في قبضة أعدائه[(١)]. ولا شك بأن الصراع الداخلي بين البيزنطيين، ثم بينهم وبين العناصر الغربية في الأمبراطورية لا سيما النورمان، انعكس سلباً على نتيجة المعركة، فكانت الهزيمة.

ـ عامل ألب أَرسلان رومانوس معاملة طيبة وهو في الأسر، قبل أن يُطلق سراحه مقابل فدية باهظة، وعلى أن يؤدي جزية سنوية، ويوافق على عقد معاهدة تنظم العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين. وفعلاً، عُقدت هذه الاتفاقية وجاء فيها:

١ ـ إطلاق سراح الأمبراطور رومانوس لقاء فدية[(٢)].

٢ ـ تدفع الحكومة البيزنطية للحكومة السلجوقية جزية سنوية[(٣)].

٣ ـ إطلاق سراح كل الأسرى المسلمين في بلاد الروم[(٤)].

٤ ـ يمد الأمبراطور البيزنطي السلطان السلجوقي بالعساكر اللازمة عند الطلب[(٥)].

وأرسل ألب أَرسلان، بعد عقد الاتفاقية، حاجبين ومائة غلام لمرافقة رومانوس، وشيَّعه فرسخاً[(٦)].

---

(١) Grousset: pp 628-629. Vasiliev: p 431. Oman: p 221.

(٢) حدَّدتها المصادر العربية بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٣. وعشرة آلاف ألف دينار. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ١١١.

(٣) حدَّدتها المصادر العربية بثلاثمائة وستين ألف دينار. سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١١٠.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) سبط ابن الجوزي: ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

ـ تم الاتفاق بين العاهلين على الإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلَّق بالأَراضي والمواقع، فيظل بأيدي السلاجقة آني وقارس وفاسبوركان ومانزيكرت بينما تحتفظ الأمبراطورية البيزنطية بأقاليم الأطراف لا سيما أرزن. ونتيجة لذلك، عين ألب أَرسلان، قبل مغادرته المنطقة، والياً من قِبله على خلاط ومانزيكرت(١).

ـ أثَّرت معركة مانزيكرت، تأثيراً بالغاً على أوضاع الجيش البيزنطي، إذ أن ما أصاب قوته الضاربة من دمار، أفقده القدرة على الدفاع عن حدود آسيا الصغرى، وبذلك لم تتمكَّن الأمبراطورية من مقاومة زحف الأَتراك السلاجقة في تلك المنطقة، مما هيأ لهؤلاء الفرصة كي ينسابوا إلى جوف آسيا الصغرى ويستقروا في أَراضيها(٢).

ـ على أن ثمة حقيقة أخرى أكسبت معركة مانزيكرت أهميتها الخطيرة في التاريخ، هي أن البيزنطيين لم يقدِّروا خطورة تلك الكارثة للوهلة الأولى، وأن انتصار السلاجقة لا يعني أكثر من امتلاكهم أرمينية ثم أنطاكية والرها(٣) وكبادوكية، غير أن هذه المقاطعات التي كانت موطن كثير من الأباطرة المشهورين، والمحاربين، والتي شكَّلت في وقت من الأوقات عماد الدولة؛ قد فُقدت للأبد، وأن الأَتراك أقاموا مضاربهم على أنقاض الأمجاد الرومانية القديمة(٤).

ـ تُعدُّ معركة مانزيكرت أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلَّت بالأمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وجاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإِسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين(٥). وتراءى للصليبيين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني، وبرَّرت هذه المعركة ما جرى من تدخل الغرب الأوروبي، لأن بيزنطية لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني في الشرق وأضحت عاجزة عن أن تُلقي بجيش في المعركة لأعوام عديدة(٦).

ـ كانت معركة مانزيكرت نقطة تحول هامة في تاريخ غربي آسيا بخاصة وفي

---

(١) الفارقي: ص ٨٩١. Grousset: p 629 (٢) Vaisiliev: p 431.

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ ٣ ص ١٠٦.

(٤) Vasiliev: p 432.

(٥) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٨.

(٦) رنسيمان: جـ ١ ص ١١٠.

التاريخ الإسلامي بعامة، لأنَّها يسَّرت القضاء على سيطرة البيزنطيين على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى، مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها، بعد ذلك، على أيدي الأتراك العثمانيين(١).

ـ لقد سبق لبيزنطية أن هُزمت أمام المسلمين أكثر من مرة، ومعركة مانزيكرت تبقى معركة عسكرية كان بإمكان العالم البيزنطي تجاوزها، وبخاصة أن السلاجقة لم يستثمروا انتصارهم بسبب توجههم في إخضاع العالم الإسلامي، ووفاة ألب أرسلان في العام التالي. لكن المجتمع البيزنطي لم يكن في ذلك الوقت، في وضع سليم يسمح له بتجاوز هذه الكارثة، فلقد استمر الصراع حول السلطة بين مختلف فئاته، وظل الجيش ألعوبة في أيدي الطامعين بالعرش.

ـ لم يكد السلاجقة ينتصرون في معركة مانزيكرت حتى عملوا على إزالة آثار المعالم البيزنطية من الطرق الرئيسية في أرمينية وكبادوكية، بالإضافة إلى الإدارة المدنية في المدن، بعد أن تخلَّى معظم السكان عن البيزنطيين واستسلموا للحكام الجدد، خوفاً من المجاعة. ومع ذلك، فإن السلاجقة تركوا المدن تحكم نفسها بنفسها ولم يتدخَّلوا في شؤونها الداخلية، إلَّا أن صورة الحياة فيها قد تغيَّرت عندما أخذت تصطبغ بالصبغة الإسلامية. إذ أن انحسار النفوذ البيزنطي عن المنطقة شجَّع السكان على الدخول في الإسلام دين الفاتحين الجدد، إلَّا أن اعتناقهم للإسلام اتسم بالطابع الظاهري، فقد ظل أغلبهم يشرب الخمر، كما كانوا يساقون إلى الصلاة، وخانوا المدن أثناء حصارها من قِبل النصارى كلما سنحت لهم الفرصة(٢).

ـ يُعدُّ الأتراك أكثر العناصر العسكرية الأجنبية إفادة من الأوضاع المضطربة التي سادت المجتمع البيزنطي والوضع السياسي بعد معركة مانزيكرت. فقد حاولت الأطراف المتنازعة في بيزنطية أن تستعين بالقوات التركية ضد بعضها البعض، مما أتاح للسلاجقة، التوغل في صميم الحياة البيزنطية.

ـ أقدمت السلطات البيزنطية في القسطنطينية على عزل الأمبراطور رومانوس الرابع وأجلست مكانه ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس (٤٥٢ ـ ٤٥٩هـ/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦٧م)، وحاول رومانوس في غمرة هذا الصراع أن يستعين بالقوات التركية، غير أن الهزيمة لحقت به وتقرر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه.

---

(١) حسنين: ص ٦٣.

(٢) Vasiliev: p 432. Osman Turan: L'Islamisation dans la Turquie du Moyen Age. Studia Islamica vol X 1959 p 148.

ـ انتهج معظم الأباطرة البيزنطيين بعد رومانوس الرابع، نهجه في الاستعانة بالأتراك كلما واجهتهم محنة. فعندما أعلن روسيل بايليل قائد قوات الفرنج المرتزقة العصيان على الدولة البيزنطية، استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمع حركته، كما استعان بالأخوين منصور وسليمان، من أقارب السلطان ألب أرسلان، للقضاء على ثورة نقفور بوتانياتس، على أن الأخوين لم يلبثا أن تخليا عن الأمبراطور ودخلا في خدمة بوتانياتس، فأنزلهما في مدينة نيقية[1]. وعلى هذا النحو استولى الأتراك على مقاطعتي جالاتيا في وسط بلاد الأناضول وفريجيا المجاورة.

ـ الواقع أن ما جرى من استخدام القوات التركية هيأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى وعلى الحدود الشرقية القديمة للأمبراطورية البيزنطية حيث للأرمن وسكّان كبادوكية علاقات حسنة معهم، نظراً لما يكنُّونه من الكراهية للبيزنطيين، بالإضافة إلى ذلك فقد أقام بعض حاميات الحدود علاقات ودية مع السلاجقة، فتعرَّض بذلك نظام الدفاع البيزنطي للتفكُّك.

ـ لقد حقَّق ألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه، وأزال خطر التقارب بين بيزنطية والفاطميين، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث قضى نحبه في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)[2]. ولم ينفذ ابنه وخليفته في الحكم، ملكشاه، إلى آسيا الصغرى، غير أن رعاياه من الأتراك كانوا دائماً متأهبين للمسير والتحرك، ولم يشأ أن ينزلهم الأراضي التي كانت تابعة للخلافة العباسية، غير أنَّه رأى أن خير ما يلائمهم هو سهول وسط آسيا الصغرى التي أخلاها البيزنطيون، حيث باستطاعتهم تحويلها إلى مراع تنتجعها الأغنام، فعهد إلى ابن عمه سليمان بن قُتلمش بأن يستولي على هذا الإقليم لصالح الأقوام التركية[3].

(١) نيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع فيها آباء الملة النصرانية، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر أباً، وهو أول المجامع لهذه الملة. الحموي: جـ ٥ ص ٣٣٣.

(٢) الحسيني: ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) Laurent: pp 9 - 11.

الفصل الثالث

سليمان بن قُتلمش
فاتح الأَناضول ومؤسِّس سلطنة سلاجقة الروم

٤٧٠ ـ ٤٧٩هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٨٦م

تأسيس السلطنة

أتاحت معركة مانزيكرت للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها، وتأسيس سلطنة عُرفت في التاريخ باسم «سلطنة سلاجقة الروم»[1]، أسَّسها سليمان بن قُتلمش[2] الذي يُعدُّ بحق جد سلاطين آسيا الصغرى.

أخذ سليمان على عاتقه إدارة شؤون المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل ألب أَرسلان عن آسيا الصغرى، وعزم على أن يقيم لنفسه سلطنة في قونية وآقسرا وغيرهما من المدن التي كانت تحت حكم أبيه قُتلمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملكشاه سلطان السلاجقة العظام الذي خلف أباه ألب أَرسلان، وكان الأول

(١) سميت سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى بذلك الاسم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سميت باسمهم فظلت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم. ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم تماماً كما أطلقوا على الفروع السلجوقية الأخرى اسم البلاد التي استقروا فيها مثل سلاجقة الشام وسلاجقة العراق.

(٢) شهاب الدولة قُتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، انشق على حكم السلطان طغرلبك في أواخر عهده، ونزح مع أتباعه إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي بحر قزوين، ولم يلبث قُتلمش أن أعلن الثورة على ألب أَرسلان بعد أن خلف طغرلبك، واحتمى بالحصون والقلاع العديدة التي كانت منتشرة في المنطقة، لكن ألب أَرسلان لم يمهله، وحاربه وتغلب عليه وقتله وذلك في عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م). انظر: الحسيني: ص ٣٠ ـ ٣٢.

قد عهد إليه بإدارة المنطقة لصالح الأَتراك[1].

من الخطأ الاعتقاد بأن امتداد السلاجقة غرباً في عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصيَّة، لأَنَّه من الحقائق التي تسترعي الانتباه أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأَناضول.

وقد ساعد سليمان في تحقيق غايته عاملان:

الأول: التغير الديمغرافي الناتج عن الفتوح، إذ أضحت المناطق الشمالية والشرقية شبه خالية بعد أن هجرها سكانها، ذلك أن القبائل التركية التي ساندت سليمان في فتوحه، كانت تطوف أرجاء الأَناضول تلتمس الماء والكلأ، فاضطر السكان الوطنيون إلى مغادرة قراهم ومزارعهم إلى مناطق أكثر أمناً فدخل إليها السلاجقة واستقروا فيها، وغيَّروا معالمها.

الثاني: الأوضاع البيزنطية المضطربة. استفاد السلاجقة خلال الأعوام التي انقضت بعد معركة مانزيكرت من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخَّلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع، وظهروا كحلفاء ومساعدين لبعضهم، مما يسَّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية في آسيا الصغرى[2].

والواقع أن التاريخ البيزنطي حفل آنذاك بحركات التآمر والتمرد. فحين وصل إلى القسطنطينية نبأ كارثة مانزيكرت، وأسر الأمبراطور رومانوس، أعلن ميخائيل دوقاس ابن زوجة رومانوس أنه بلغ سن الرشد، وتولَّى مقاليد الحكم باسم ميخائيل السابع (٤٦٠ ـ ٤٧١هـ/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٨م)، وعندما شعر بضغط الأَتراك جدَّد المفاوضات مع ملكشاه حول ترتيب الأوضاع في المنطقة، وقد هدف إلى وقف الزحف السلجوقي، وإبعاد خطر السلاجقة عن العاصمة.

لم تؤد المفاوضات إلى نتيجة إيجابية، كما أن ملكشاه لم يذهب بعيداً في إطلاق الحرية الكاملة لأتباعه الذين كانوا في مقاطعات أجنبية، بأن يتخلصوا من سلطته، لكنه لم يتخذ أي تدابير عملية تجاههم[3].

ولما فشلت خطة الأمبراطور لجأ إلى القوة العسكرية، فجهَّز قوة عسكرية بقيادة إسحاق كومنين، وأرسلها لمساندة روسل بايليل الذي كان قد أرسله لقتال

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٩٨.

(٢) Vasiliev: p 432.

(٣) Cahen: p 73.

السلاجقة. غير أن هذا الأخير خرج على طاعة الأمبراطور قبل أن يصطدم بهم، فأضحى موقف إسحاق كومنين حرجاً. فقد واجه السلاجقة منفرداً، وإذ تكاثر الجند عليه، وقع أسيراً في أيديهم(١)، وبذلك فشلت خطة ميخائيل السابع بوقف التمدد السلجوقي.

وكان روسل بايليل قد استغل الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى لتحقيق مكاسب خاصة على حساب القوتين معاً، فأعلن العصيان على الأمبراطور في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، وطمع بالاستقلال في مناطق قونية وأنقرة(٢)، وإقامة دولة نورمانية في القسم الشرقي من الأمبراطورية البيزنطية متتبعاً خطى مواطنيه عندما أقاموا إمارة في جنوبي إيطاليا على حساب الأمبراطورية. ثم تطلع للسيطرة على القسطنطينية، فخشي ميخائيل السابع أن يتمكَّن من تثبيت أقدامه في قلب الأمبراطورية وعلى حسابها؛ فاستعان بالسلاجقة لقمع حركته(٣). ومن أجل ذلك عقد اتفاقاً مع سليمان تعهَّد فيه هذا الأخير بتقديم المساعدة المطلوبة مقابل اعتراف الأمبراطور بسلطته على الأقاليم التي كانت بحوزته في شرقي الأناضول.

لم يستطع روسل بايليل الصمود في وجه السلاجقة، وحلَّت به الهزيمة، فهرب إلى أماسية الواقعة في الشمال الشرقي، واحتفظ برقعة ضيقة من الأرض. ومن هناك، حاول مجدداً محاربة البيزنطيين وتهديد موانىء البحر الأسود. عندئذ أرسل إليه ميخائيل السابع ألكسيوس كومنين للتفاوض معه، واستطاع هذا الأخير القبض عليه بمساعدة الأتراك، واستسلم أتباعه النورمان، وفشلت بذلك المحاولة النورمانية في إقامة دولة في الأناضول(٤).

وحدث في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) أن أعلن نقفور بوتانياتس، حاكم عمورية في إقليم فريجيا(٥)، الثورة على الأمبراطور مدفوعاً بطموحه الشخصي ونقمته على ضعف حكم ميخائيل السابع، ولم يتردد في إعلان نفسه أمبراطوراً باسم نقفور الثالث. وحاول ميخائيل السابع القضاء على تمرده بالاستعانة بالأتراك من أتباع سليمان، إلَّا أن هذا الأخير لم يلبث أن تخلَّى عن الأمبراطور ودخل في خدمة

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ١١٣.

(٢) أنقرة: عاصمة تركيا الحديثة.

(٣) Schlomberger: Racits de Byzance et des Croisades. vol II p 82.

(٤) Nicephorus Bryennius: Historia. in C.S.H.B. Bonn 1836. pp 73 - 96.

(٥) تقع فريجيا في قلب الأناضول وليس لها امتداد على البحر.

بوتانياتس الذي أغراه بمزيد من الامتيازات. واستخدم هذا الأخير، الأتراك لحراسة ما استولى عليه من المدن أثناء زحفه نحو العاصمة القسطنطينية مثل سيزيكوس ونيقية، ونيقوميدية وخلقدونية وسكودري الواقعة على الشاطىء الآسيوي لبحر مرمرة. ولأول مرة ألفت الجموع التركية نفسها داخل المدن الكبرى بغرب الأناضول، واستغلت هذه الفرصة للتوسع. وإذا كانت تلك المدن ظلت من الناحية الشكلية تابعة للأمبراطورية البيزنطية إلّا أن الحاميات الأمبراطورية الجديدة فيها كانت من نوع جديد، إذ تألفت من عنصر يدين بالإسلام، ويجد لذة في القيام بغارات على القرى والمدن المجاورة بهدف الاستقرار، فضلاً عن أن أفرادها قطعوا الاتصالات بين العاصمة البيزنطية وداخل الأناضول، ولن يكون من السهل على أي أمبراطور مهما كان قوياً أن يطردهم من مواقعهم.

وهكذا ازدادت الفوضى في بلاد الأناضول نتيجة استمرار الانتفاضات على الحكومة المركزية، بالإضافة إلى التوسع السلجوقي، وفقدت هذه الأخيرة سيطرتها على المنطقة، وتعطّلت طرق المواصلات بفعل تدمير البدو لها، ولم يكن ثمة سياسة بيزنطية مدروسة.

ويبدو أن ما جرى من استخدام القوات التركية هيَّأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف الأتراك بسليمان زعيماً لهم[١]. ولم تكد تنتهي سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) إلّا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد أعلنت العصيان على نقفور الثالث الذي أقامها في هذه المدينة[٢]، وبذلك فقدت الأمبراطورية البيزنطية أهم مدنها بعد أن سيطر عليها السلاجقة.

وكان السلطان ملكشاه يراقب تحركات سليمان ونشاطه في آسيا الصغرى عن بُعد، ورأى أن يعينه حاكماً على سلاجقة الروم بعد أن ضمَّ إليه قونية وآقسرا وقيصرية وتوابعها[٣].

وفي عام (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) ثار نقفور ميليسينوس على حكم الأمبراطور نقفور الثالث، وتحالف مع سليمان حيث تعهد هذا الأخير بمساعدة الثائرين في الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف كل مدينة وإقليم يُنتزع من نقفور الثالث أثناء الحرب[٤].

---

(١) Cahen: p 76.

(٢) Laurent: Byzance et les Turcs Saljucides p 98.

(٣) الحسيني: ص ٧٢. خواند، أمير: جـ ٢ ص ٥٣٨.

(٤) Laurent: p 98.

وبفضل هذا التحالف أضاف السلاجقة إلى أملاكهم جالاتيا وفريجيا، وفُتحت الطريق أمامهم إلى بيثينيا حتى بحر مرمرة، كما فتحوا ليديا وأيونيا حتى بحر إيجة[١].

ولما فشل ميليسينوس في الاستيلاء على القسطنطينية، وهوى عن العرش أمام ألكسيوس كومنين، رفض سليمان الاعتراف بأي حق للأمبراطورية البيزنطية في المدن والأراضي المفتوحة[٢]، بل إنه استقر في نيقية واختارها لتكون عاصمة له. وبذلك أضحت هذه المدينة التي تُعدُّ من أجلِّ المدن في العالم النصراني احتراماً، والتي لا تبعد أكثر من مائة ميل عن القسطنطينية، أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم[٣]، وذلك في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، كما إضاف سليمان مدينة نيقوميدية إلى أملاكه. وأصبح السلاجقة منذ ذلك التاريخ المسيطرين الفعليين على معظم مناطق آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً، كما مدوا نفوذهم من البحر الأسود شمالاً حتى البحر المتوسط جنوباً، وهدَّدوا بشكل خطر الأمبراطورية البيزنطية[٤].

ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو واضحاً أن البيزنطيين أنفسهم شجعوا الأَتراك على التقدم بعيداً في أراضيهم، وزوَّدوا رؤساءهم بالقوة الأساسية اللازمة عندما فتحوا المدن أمامهم.

إلَّا أنه لا يبدو واضحاً، من جهة أخرى، أن البيزنطيين عدُّوا الأَتراك أعداء بالمعنى نفسه الذي عدُّوا فيه العرب أعداء، لقد عرفوهم منذ زمن بعيد واستخدموهم في جيوشهم كمرتزقة. وبفضل السياسة البيزنطية غير المدروسة، استطاع سليمان أن يضع أساس سلطنة سلاجقة الروم.

لم يعدَّ سليمان انتصاراته تحدياً للبيزنطيين، كما أن اختياره لمدينة نيقية عاصمة لسلطنته يرجع إلى فوائدها الجغرافية، لأنها تقع على مفترق الطرق التي تربط القسطنطينية ببيت المقدس، مما يجعل منها مركزاً مناسباً كقاعدة انطلاق للسيطرة على آسيا الصغرى وبلاد الشام معاً.

الإمارات التركية الصغيرة في الأَناضول

وفي الوقت الذي كان فيه سليمان يؤسِّس دولته، حاول بعض الأمراء الأَتراك الذين استقروا في المنطقة بعد معركة مانزيكرت، أمثال دانشمند وزاخاس

(١) رستم: جـ ٢ ص ١١٤.

(٢) Grousset: Histoire de L'Armenie: p 629.

(٣) Grousset: p 629. Vasiliev: I p 432.

(٤) Vasiliev: Ibid p 433. Cahen: p 76. Setton: I p 213.

ومنكوكجك، تأسيس إمارات لهم في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى حول قيصرية وسيواس وأماسية، وحرص أتباعهم التركمان على مهاجمة المناطق المجاورة، وأرغموا حكام الأقاليم على أن يبقوا معزولين، بتدميرهم طرق المواصلات، كما هيأوا للزعماء الأتراك أن يحققوا رغباتهم بتأسيس إمارات مستقلة، وأضحوا بعد ذلك عنصراً أفسد كل محاولة بيزنطية لاستعادة البلاد.

كان كمشتكين(١) أحمد دانشمند(٢)، أحد قادة ألب أرسلان، واشترك معه في معركة مانزيكرت، ونظراً لبلائه منحه مدن توقات(٣) وسيواس والبستان(٤) وملطية ونيكسار يحكمها تحت إشراف السلاجقة العظام(٥).

وفي الوقت الذي ابتعد فيه السلاجقة العظام عن المسرح السياسي في آسيا الصغرى، استقلَّ أحمد دانشمند بالمناطق الواقعة تحت إدارته، وأسَّس الإمارة الدانشمندية (٤٧٧ ـ ٥٧٣هـ/ ١٠٨٤ ـ ١١٧٧م) واتخذ من مدينة سيواس عاصمة له.

ويبدو أن بيزنطية لم تركن إلى الهدوء، وهي لا تفتأ تحاول استعادة الأملاك التي خسرتها أمام الأتراك، وفي ظل الفوضى التي نجمت عن مصرع سليمان بن قُتلمش، استعادت بعض المدن من الدانشمنديين، لكن الأمير أحمد دانشمند استردَّ بعضها، وكانت نيكسار آخر مدينة استردها قبل وفاته في عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٦م).

والواقع أن بعض الممتلكات البيزنطية في الأناضول كانت واقعة تحت حكم كمشتكين أحمد دانشمند، خلال المدة من بداية قيام إمارته في سيواس وحتى اجتياح الصليبيين مناطق النفوذ الدانشمندية في الأناضول في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م).

وأسَّس زاخاس، وهو أحد الأمراء الأتراك، إمارة له في الجزء الغربي من الأناضول وسيطر على مدينة إزمير الواقعة على بحر إيجة، وأنشأ أسطولاً بحرياً مكَّنه من غزو الجزر القريبة، بل إنه هدَّد القسطنطينية نفسها(٦). واستقل هذا الأمير بحكم المدن التي سيطر عليها مستغلاً ضعف الأمبراطورية البيزنطية من جهة، وعدم

---

(١) كان الأتراك يطلقون اسمين على الشخص الواحد بحيث يكون أحدهما اسماً تركياً والآخر إسلامياً، لذلك فإن كمشتكين هو الاسم التركي للأمير دانشمند، أما أحمد فهو اسمه الإسلامي.

(٢) دانشمند: لفظ فارسي معناه عالم، وهو يتألف من مقطعين: «دانش» بمعنى علم، والمقطع «مند» بمعنى ذو أو صاحب.

(٣) توقات: مدينة بأرض الروم بين قونية وسيواس ذات قلعة حصينة. الحموي: جـ ٢ ص ٥٩.

(٤) البستان أو أبلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أفسوس. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٧٥.

(٥) منجم باشي: صحائف الأخبار جـ ٢ ص ٥٧٥.

(٦) Ostrogorsky: A History of the Byzantine States. p 39.

تعرُّض سليمان له من جهة أخرى[1]، لأنه كان منهمكاً في تثبيت أقدامه في المدن التي فتحها.

وأسَّس بنو منكوكجك (٤٦٤ ـ ٦٥٠هـ/ ١٠٧١ ـ ١٢٥٢م) وهم أسرة تركية، إمارة لهم في المنطقة الواقعة غربي الفرات تضم مدن أرزنجان، كماخ وديوركي. وكان جد هذه الأسرة وهو منكوكجك غازي، أحد القادة الأتراك الذين خاضوا معركة مانزيكرت إلى جانب ألب أرسلان، واتخذ من مدينة أرزنجان عاصمة له.

والجدير بالذكر أن هؤلاء الأمراء ظلوا مستقلين بإماراتهم عن الدولة السلجوقية. فزاخاس أمير أزمير، ودانشمند في كبادوكية لم يعترفا بالطاعة لسليمان، وبذلك ظلت آسيا الصغرى التركية دون سلطة موحدة حتى قيام سلطنة قونية في عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) على يد قلج أرسلان بن سليمان[2]. ولا شك بأن هذه الإمارات التي نشأت في ظل حركة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى، والتي أخذت تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقي عام؛ جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام البيزنطيين.

أما سواحل آسيا الصغرى الشمالية على البحر الأسود بما فيها طرابزون، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية؛ فقد ظلّت تحت سيطرة البيزنطيين، كما بقيت بعض المدن الداخلية في الشرق وفي بلاد الشام، مثل أنطاكية وشرقي الفرات مثل الرها، تابعة للأمبراطورية البيزنطية، فقامت فيها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالتبعية للقسطنطينية.

الإمارات الأرمينية في قيليقية

عندما أعلن سليمان نيقية عاصمة لسلطنته، انتاب الفزع السكان النصارى في آسيا الصغرى وبخاصة الأرمن، فرفضوا البقاء تحت الحماية السلجوقية، فنزح كثير منهم إلى المقاطعات الأرمينية في طوروس، في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، بعد أن اتضح لهم أن هذه المقاطعات بعيدة نسبياً عن الطُرق الرئيسية للتوسع السلجوقي. وفي قيليقية بالذات غدا الأرمن قوة كبيرة حتى أطلق المؤرخ غروسيه عليها في ذلك العصر «أرمينية الجديدة»[3].

والواقع أن هجرة الأرمن من بلادهم حول بحيرة ڤان إلى قيليقية بعد معركة

---

(١) Rice. T: The Seljuk in Asia Minor. p 47.

(٢) Camb. Med. History: IV pp 331 - 332.

(٣) Histoire de L'Armenie: p 522.

مانزيكرت، ترتَّب عليها تغيير في معالم المنطقة، فضلاً عن أن الدولة البيزنطية وجدت أن الأرمن جنوداً اعتمدت عليهم أحياناً في مواجهة الخطر السلجوقي. واستطاع فيلاريت الأرميني أن يؤسِّس دولة أرمينية في تلك المنطقة(١). ولما كانت دولة أرمينية الصغرى في قيليقية ستؤدي دوراً بارزاً في حياة الدولة السلجوقية، فلا بد لنا من أن نتطرَّق بإيجاز إلى تاريخ الهجرة الأرمينية إلى أرمينية الصغرى تاركين تفاصيل علاقاتهم بالسلاجقة إلى وقتها من البحث.

هاجر الأرمن من أرمينية بعد أن استولى السلاجقة العظام على مواطنهم الأصلية في منابع نهر الفرات واستقروا في الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية. رحَّبت الأمبراطورية البيزنطية في بادىء الأمر، بالمهاجرين الجدد ومنحتهم ضياعاً واسعة في كبادوكية، وقد أدَّى ذلك إلى ازدياد هجرتهم لهذا الوطن الجديد. ونتيجة للتوسع السلجوقي في آسيا الصغرى، راح الأرمن يبحثون عن موطن آخر، فاتَّجهوا إلى أراضي قيليقية الجبلية في جنوب شرقي آسيا الصغرى وتركوا الجهات التي كانوا قد استقرُّوا فيها(٢). وشيئاً فشيئاً، راح هؤلاء المهاجرون الريفيون ينزلون إلى سهل قيليقية الفسيح بعد أن حصَّنوا معاقلهم الجبلية بالأبراج حتى تمكَّنوا من السيطرة تماماً على هذا الإقليم الجبلي، والجدير بالذكر، أن هذه المنطقة تضم عدداً من البلدات والقلاع التي تتحكَّم في الطريق من آسيا الصغرى إلى بلاد الشام، منها أذنة(٣)، طرسوس(٤)، المصيصة(٥) وعين زربى(٦)، وهي التي عُرفت بالثغور الإسلامية(٧)، وشكَّلت خط الدفاع الأمامي عن الأمبراطورية

---

(١) Grousset: Histoire des Croisades: vol I p 43. (٢) عاشور: جـ ١ ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور. الحموي: جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٤) طرسوس: بلد من الثغور بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، بينها وبين أذنة ستة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٨.

(٥) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وتقارب طرسوس. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٦) عين زربى: بلد بالثغر من نواحي المصيصة. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٧٧.

(٧) الثغور: كل موضع قريب من أرض العدو، وهي في مواضع عديدة، منها ثغور الشام وهي الجنوبية الغربية وأشهرها، بغراس، بيّاس، المصيصة، عين زربى، أذنة، طرسوس. ومنها ثغور الجزيرة وهي الشمالية الشرقية وأشهرها زبطرة، وكيسوم، وسميساط، وملطية، ومرعش، والحدث. وكانت الثغور عبارة عن حصون مزودة بحاميات دائمة خاصة بها مخصصة للدفاع عن الداخل الإسلامي. فثغور الشام مخصصة للدفاع عن الشام وثغور الجزيرة مخصصة للدفاع عن شمالي العراق، بالإضافة إلى أنها شكَّلت قواعد انطلاق إلى الداخل البيزنطي.

البيزنطية، وسيكون لاستيلاء الأرمن عليها أثر كبير على أمن الأمبراطورية، وعلى أوضاع الدولة السلجوقية الرومية.

برز عدد من القادة الأرمن الذين أدوا دوراً مميزاً في تاريخ هذه المنطقة من خلال استغلال الصراع السلجوقي ـ البيزنطي، فاستقلوا بأماكنهم على حساب القوتين معاً، كان من بينهم فيلاريت الذي استقل بمرعش ورعبان[١] والبستان وملطية التي انتزعها من أيدي الأتراك، فقويت شوكته ودخل في طاعته الأمراء الأرمن المجاورون له الذين يسيطرون على طرسوس والمصيصة وعين زربى، ثم توسع فاستولى على الرها التابعة للأمبراطورية البيزنطية في عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) كما انتزع أنطاكية في العام التالي وهي المدينة التي سلَّمها له أهلها مختارين خشية استيلاء السلاجقة عليها. وبذلك أضحى فيلاريت يسيطر على الأراضي الممتدة من طوروس غرباً حتى فيما يلي نهر الفرات شرقاً، وجاورت أملاكه الأتراك السلاجقة من الشرق والشمال، كما جاورت الأمبراطورية البيزنطية من الغرب[٢].

وأسَّس أوشين بن هيثوم، بيت هيثوم الشهير، الذي حكم المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب من أبواب قيليقية، واتَّخذ قلعة لامبرون المنيعة والمطلَّة على جبال طوروس وسهل قيليقية مقراً له، مما جعل هذه الأسرة أكثر ارتباطاً بالبيزنطيين. ويبدو أن أوشين تعاون مع الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨م) الذي منحه لقب نائب قيليقية، ثم استغل الفرص المتاحة له نتيجة انهماك السلاجقة في التصدي للصليبيين؛ فاستولى على جانب من مدينة أذنة وبعض المناطق الواقعة شرقي الأبواب القيليقية التي كانت تحت سيطرة قسطنطين بن روبين[٣].

واستقر روبين، من أسرة بقراط، في المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من سيس[٤] وذلك في عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)، مما جعل هذا الفرع من الأرمن أكثر ارتباطاً بقوى متعددة ظهرت فيما بعد في بلاد الشام، وخلفه ابنه قسطنطين الأول الذي اتخذ قلعة بارتزربرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس، مقراً له، ثم توسع نحو الشرق، وانتزع قلعة ڤاهكا الواقعة على نهر جاكسو في جبال طوروس الأمامية،

---

(١) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات. الحموي: جـ ٣ ص ٥١.

(٢) رنسيمان: جـ ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤. عاشور: جـ ١ ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ١٢٣.

(٤) سيس: أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس وعين زربى. الحموي: جـ ٣ ص ٢٩٧.

من البيزنطيين. والجدير بالذكر أن هذه الأسرة كانت من أشد أنصار الكنيسة الأرمينية الانفصالية فيما تكنه من عداوة لبيزنطية. وتطلع روبين أيضاً إلى التوسع في جميع أنحاء قيليقية من خلال استغلال الفرص المتاحة له، على حساب السلاجقة والبيزنطيين[(١)].

وانتشر قسم من الأرمن في شمالي جبال طوروس خارج قيليقية، بدليل ما جاء في بعض المصادر اللاتينية من أن رجال الحملة الصليبية الأولى ما كادوا يقتربون من مدينة قيصرية في إقليم كبادوكية، حتى دخلوا بلاد الأرمن، وأن الأرمن في الجهات المجاورة رحَّبوا بهم[(٢)].

علاقة السلاجقة بالبيزنطيين بعد تأسيس السلطنة

اعتلى ألكسيوس كومنين عرش الأمبراطورية البيزنطية في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) مؤسِّساً أسرة جديدة في التاريخ البيزنطي. اتصف هذا الأمبراطور بالحنكة السياسية والبراعة العسكرية، فاستخدمهما للتخلص من المشكلات التي واجهت حكمه، ولعل أهمها المشكلة السلجوقية. ذلك أن سليمان راح يشن الغارات من عاصمته نيقية والتوسع في إقليم بيثينيا، وحاول أتباعه اجتياز بحر مرمرة إلى الشاطىء الأوروبي[(٣)]، غير أن ألكسيوس استطاع أن يطردهم من بعض المواقع التي سيطروا عليها على الضفة الشرقية للبحر المذكور. ويبدو أنه اتبع في ذلك نوعاً من حرب العصابات وحقَّق بعض النجاح حيث اضطر السلاجقة إلى التخلّي عن بعض مواقعهم.

لكن هذه المحاولات ضد السلاجقة قد توقفت تماماً مع وصول الحملة النورمانية إلى البلقان، وإذ قدَّر أن طرد الأتراك من آسيا الصغرى يتطلب جهداً شاقاً وطويلاً لم يتهيأ له بعد، رأى من الضروري الانتقال إلى الغرب لرد هجوم النورمان. وحتى يحمي ظهره عقد معاهدة مع سليمان تقضي بأن:

- يحصل السلاجقة على الأراضي الممتدة حتى منابع نهر سنغاريوس على البحر الأسود ونيقوميدية الواقعة على الخليج الشمالي لبحر مرمرة بحيث يصبح دراكون، وهو الرافد الصغير للنهر، حداً فاصلاً بين الأملاك السلجوقية والأملاك البيزنطية.

---

(١) Mathew of Edessa: Chronique. in R.H.C Arm Doc. vol I p 216.

(٢) المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٥٥.

(٣) Comnena, Anna: The Alexiad p 93.

ـ يتعهد سليمان بتقديم سبعة آلاف مقاتل لمساعدة الأمبراطور في حربه ضد النورمان، ويمتنع عن مهاجمة مقاطعة بيثينيا وغيرها من المقاطعات الواقعة تحت الحكم البيزنطي.

واضطر الأمبراطور بموجب هذه الاتفاقية إلى إخلاء بعض المناطق للسلاجقة(١).

ساد الهدوء بين سليمان وألكسيوس بعد عقد الاتفاقية، واستنجد الثاني بالأول في عام (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) بعد تعرضه للهزائم في أوروبا على يد بوهيموند ابن جويسكارد، فأمدَّه سليمان بسبعة آلاف مقاتل. وبفضل هذه المساعدة، استطاع الأمبراطور أن يوقف تقدم النورمان، وانتصر عليهم في تساليا(٢).

وما إن أنهى ألكسيوس مشكلاته في البلقان، حتى تفرَّغ للمشكلة السلجوقية في الشرق، إذ لم يستطع كبح جماح أتباع سليمان على الرغم من المعاهدة المبرمة معه، وقرَّر الزحف حتى قونية للقضاء على القوة السلجوقية.

تراجع السلاجقة أمام الزحف البيزنطي، وطبَّقوا أثناء تقهقرهم خطة البدو بتدمير وإحراق حقول الذرة(٣)، لكن ألكسيوس توقف فجأة عن الزحف، ولعله خشي أن يقع فريسة المجاعة إن هو توغل بعيداً، كما داخله شيء من الانزعاج والريبة من بعض حلفائه الأتراك(٤)! واضطر أن يتفاهم مجدداً مع سليمان، فأذن له أن يتولى بالنيابة عن بيزنطية إدارة قيليقية وأنطاكية وملطية، على أن يضبط أتباعه. وبذلك أضحى سليمان يسيطر على أهم طريقين يجتازان آسيا الصغرى من الشرق إلى الغرب، وجاور أملاك السلطان ملكشاه في بلاد الشام والجزيرة(٥).

وحتى يكسب ثقة سكان البلاد المفتوحة، الذين لم يهجروا قراهم ومساكنهم، اتبع سياسة تحررية منفتحة تجاه الفلاحين. إذ أن الحروب المستمرة أدَّت إلى تخريب الأراضي الزراعية، فهجرها ملاكها، فمنحها للفلاحين لقاء جزية محدودة، فاكتسب بذلك ولاء تلك الفئة التي طالما قاست من الاستعباد والظلم. ولعل هذه السياسة جعلت من الصعب على آل كومنين، وعلى رجال الحملة الصليبية الأولى التي أخذت تفد من الغرب الأوروبي منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي

---

(١) Comnena, Anna: The Alexiad, p 95. Rice: p 49.

(٢) Camb. Med. Hist: Byzantine Empire. vol IV part I p 213.

(٣) Alexiad: p 399. (٤) Ibid.

(٥) Setton: I pp 150 - 151.

عشر الميلادي؛ استرداد أراضي الأَناضول من الأَتراك بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان، وضربوا خيامهم فيها حتى غدت وكأنها منطقة من مراعي القرغيز(١).

التوسع السلجوقي نحو الجنوب

فتح أنطاكية

تطلع سليمان، بعد أن انتهى من حل مشكلات السلطنة مع الأمبراطورية البيزنطية، إلى التمدد نحو الجنوب، إذ أنه لم يستطع السكوت على ازدياد نفوذ الإمارة الأرمينية التي أسَّسها فيلاريت في قيليقية وشمالي بلاد الشام، وبخاصة أنَّها اعترضت طريق توسعه نحو بلاد الشام وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه. ويُذكر أن فيلاريت شاب اعترافه بحكم ألكسيوس بعض الحذر مما دفعه إلى أن يبذل الولاء لأمراء حلب من العرب وللسلطان ملكشاه، حتى يؤمن على سلامة ممتلكاته، ويؤكد ابن الأثير أن الزعيم الأرميني اجتمع بالسلطان ملكشاه، وأسلم على يديه، وأن هذا الأخير أمَّره على الرها فلم يزل بها حتى مات(٢). ويذكر ميخائيل السرياني أن فيلاريت كان مستعداً، إذا دعى الأمر، لاعتناق الإسلام في سبيل خدمة مصالحه الخاصة(٣).

نتيجة لسياسة التقارب مع القوى الإسلامية، وانغماس فيلاريت في النزاعات بين الأَتراك، وبينهم وبين بيزنطية، وما حدث من النزاعات بين الكنائس الأرثوذكسية واليعقوبية والأرمينية، تعرَّض حكمه في أَنطاكية للاهتزاز، فثار سكان المدينة ضد حكمه، فقمع الثورة بالقوة، وقبض على زعماء المدينة، وصادر أموالهم وممتلكاتهم، وأضحى مكروهاً. وأدَّت هذه الأوضاع المضطربة إلى زيادة الفوضى في شمالي بلاد الشام، وضياع الأقاليم الشرقية التي سقطت بيد الأَتراك، وتداعت سلطة بيزنطية.

ومهما يكن من أمر، فقد أزعج تقارب فيلاريت وملكشاه، سليمان، وعدَّه موجَّه ضده، كما أنه يحد من أطماعه، لذلك قرَّر القضاء على دولة فيلاريت.

وحدث أن غادر فيلاريت أَنطاكية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) على أثر الانتفاضة ضد حكمه، وترك فيها حامية عسكرية، فعيَّن السكان عليها والياً فارسياً هو إسماعيل. وانتهز أعداء فيلاريت وبخاصة ابنه، الذي كان مسجوناً في المدينة، فرصة خروجه منها

(١) Grousset: L'Empire du Levant. p 73.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص ٢٤٠.

(٣) La Chronique de Michel Le Syrien. III p 173.

واتفقوا مع الوالي على تسليم المدينة لسليمان، واستدعوه من أجل ذلك[1].

أسرع سليمان إلى أَنطاكية، مستغلاً فرصة الاضطراب الذي حصل في دولة فيلاريت، وعيَّن مساعده أبا القاسم حاكماً على مدينة نيقية خلال غيابه، وخرج من عاصمته على رأس قوة عسكرية تألفت من ثلاثمائة فارس وكثير من المشاة. وبعد أن عبر الدروب القيليقية، واستولى في طريقه على بعض مدن قيليقية مثل طرسوس وطوروس وأذنة والمصيصة وعين زربى[2]؛ وصل إلى أنطاكية وعسكر أمام أسوارها، ثم نصب السلالم عليها وصعد إلى السور حيث عقد اجتماعاً مع الوالي رتَّب بموجبه أمر دخول الجيش. وفعلاً دخل الفرسان السلاجقة إلى المدينة بعد أن فُتحت الأبواب في (شهر شعبان عام ٤٧٧هـ/ شهر كانون الأول عام ١٠٨٤م)، لكنهم جوبهوا بمقاومة من بعض السكان. وجرى قتال في الأزقة والشوارع انتهى إلى إخضاعهم، ثم حاصر الجيش السلجوقي القلعة المعروفة بالقسيان قرابة شهر إلى أن سقطت. ونادى سليمان بالأمان «وحرَّم على جنوده استخدام القوة أَو دخول أي بيت أَو مصاهرة السكان». وهكذا اطمأن سكان أَنطاكية، ونعموا بالأمان في ظل السيطرة السلجوقية[3].

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة حول فتح أَنطاكية، يستنتج منها أن العداء كان مستحكماً بين فيلاريت والسكان، وأن القتال الذي جرى سببه توهم هؤلاء بأن جنود الفيلاريت هم الذين يهاجمونهم، كما ينفي الاتفاق المسبق الذي تمَّ بين سليمان وبعض أعيان المدينة[4]. وأرسل سليمان بعد سيطرته على أَنطاكية رسالة، إلى ملكشاه يخبره فيها بما فتح الله عليه، ومظهراً طاعته[5]، وذلك حتى لا يعرقل مشاريعه في بلاد الشام، على الرغم من أن فتح أَنطاكية سيمكِّن سليمان من إعلان استقلاله عن السلاجقة العظام، وهذه الخطوة في حال حدوثها، ستثير الفزع بين الأمراء المسلمين في بلاد الشام الذين وجدوا أنفسهم في جواره[6].

التمدد نحو حلب ـ نهاية سليمان بن قُتلمش

بعد توطيد مركزه في أَنطاكية، أخذ سليمان يعمل على التمدد باتجاه المناطق التابعة لإمارة حلب، تمهيداً للاستيلاء على حلب نفسها. وقد انضم إليه وهو في

---

(١) سبط ابن الجوزي: ص ٤٢٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٦.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. العظيمي: ص ٣٥٢. Alexiad: p 152 .
(٣) سبط ابن الجوزي: ص ٤٢٢.
(٤) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣١٣.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٦.
(٦) Cahen: p 77. Rice: p 49.

أَنطاكية عدد من الأمراء المرداسيين، وبعض عساكر شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي حاكم حلب الذين شجعوه على ضمِّ حلب، ويدل ذلك على انقسام الحلبيين فيما بينهم. ويذكر بأن سيطرته على أنطاكية، سبَّبت تهديداً لوضع شرف الدولة، إذ ما كاد هذا الأخير يعلم بخبر سقوط أنطاكية بيد سليمان، حتى راح يُعدُّ العدة لمقاومته، فعقد حلفاً على عجل من أجل التصدي له، ضمَّه والأمير التركماني جبق، وجموع أخرى من العرب[1]. ومما زاد في الإسراع بعقد الحلف أن سليمان اتخذ من مدينة أنطاكية قاعدة انطلاق للسيطرة على الحصون المجاورة طوعاً أو كرهاً. وتوضحت نيته في ضمِّ حلب، بدليل أنَّه جنَّد جماعة من بني كلاب وأرسلهم مع عسكره للقيام بغارات على حلب وسرمين[2] وبزاعة[3]. وأرسل إليه شرف الدولة كتاباً يطلب منه دفع ما كان يحمله إليه فيلاريت من المال بوصفه تابعاً له، ويخوِّفه في الوقت نفسه من معصية السلطان.

لم يكن مطلب شرف الدولة سوى ذريعة لمباشرة الحرب والضغط على سليمان لإخراجه من المنطقة، إلَّا أن هذا الأخير أجابه أن شعاره طاعة السلطان وأنه يخطب باسمه على المنابر في بلاده ويضرب السكة باسمه، وأن المال الذي كان يدفعه فيلاريت هو جزية رأسه وأصحابه، أما هو فمؤمن ولا جزية عليه[4].

الواضح أن ضم أَنطاكية إلى سلطنة سلاجقة الروم أثار الخلافات في صفوف المسلمين، إذ دخل سليمان وشرف الدولة في صراع مكشوف بعد أن رفض الأول مطلب الثاني. وأغار شرف الدولة على ضاحية أَنطاكية ونهبها، فردَّ سليمان بنهب ضاحية حلب. ولما اشتكى إليه السكان، برَّر عمله بتعدي شرف الدولة عليه أولاً، إلَّا أنَّه ردَّ عليهم أموالهم وقال لهم: «لم تجر عادتي بنهب مال مسلم ولا آخذ ما حرمته الشريعة»[5]. ثم التحم الطرفان في رحى معركة طاحنة يوم السبت في (٢٣ صفر ٤٧٨هـ/ ٢٠ حزيران ١٠٨٥م)، في طرف من أعمال أَنطاكية على بئر راحل قرب نهر عفرين[6] يقال له قرزاحل، أسفرت عن انتصار سليمان، ولم يصمد مع

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٧.

(٢) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٥.

(٣) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٠٩.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٦.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٧.

(٦) عفرين: اسم نهر في نواحي المصيصة، يخرج من أعمال حلب. الحموي: جـ ٤ ص ١٣٢.

شرف الدولة سوى ستمائة من أحداث حلب، ولما ازداد ضغط القتال عليه، حاول الانسحاب من أرض المعركة، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه، إلَّا أنه فشل في شق طريق له للنجاة وتلقى ضربة أفقدته حياته(١).

ويبدو أن عدة عوامل أدَّت دوراً واضحاً في انتصار سليمان لعل أهمها:

- ابتدأت المعركة عند الظهر، ولما مالت الشمس قليلاً نحو المغيب ضربت عيون قوات شرف الدولة، لأنها كانت في وجوههم، فأثَّر ذلك على مقدرتهم القتالية(٢).

- انسحب، عند ابتداء المعركة، تركمان جبق الغزية وانضموا إلى صفوف سليمان بوصفهم من العنصر نفسه، مما رجَّح كفَّته(٣).

- تخلى بعض حلفاء شرف الدولة عنه والمعركة دائرة وتركوه يواجه مصيره بنفسه، كان من بينهم بنو عقيل.

زحف سليمان بعد انتصاره إلى حلب وهو يحمل جثة شرف الدولة، فطرحها أمام سور المدينة، وكان يأمل بأن تستسلم له، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، عندئذ ضرب الحصار عليها(٤).

اهتز الوضع الداخلي في حلب بعد مقتل شرف الدولة، فاستولى ابن عمه سالم بن مالك على القلعة وامتنع بها، بينما استولى أحداث حلب، بقيادة الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي، على المدينة، وطلب سليمان من هذا الأخير الذي أضحى مصير حلب بين يديه، أن يسلمه المدينة، فرفض وأصرَّ على المقاومة، فشدَّد سليمان عندئذ الحصار عليها(٥).

كان وضع الحتيتي حرجاً، فقد افتقر إلى المقومات الضرورية للتصدي للقوة السلجوقية ومقاومة حصار قد يطول أمده، وبخاصة أن سليمان بنى قاعدة له في مدينة قنسرين المجاورة لحلب، واتخذ منها قاعدة انطلاق لشن الغارات على الأراضي والبلدات الجنوبية للإمارة، فاستولى على مدن النعمان(٦) وكفرطاب(٧)

---

(١) العظيمي: ص ٣٥٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٧.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه. (٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٧.

(٤) ابن القلانسي: ص ١٩٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٥) المصدران نفساهما.

(٦) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة. الحموي: جـ ٥ ص ١٥٦.

(٧) كفرطاب: بلدة بين المعرة وحلب. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٧٠.

ولطمين[1]، لذلك أرسل كتاباً إلى السلطان ملكشاه يعلمه فيه بمصرع شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، ويدعوه للقدوم إلى حلب ليتسلمها[2].

استجاب ملكشاه لطلب الحتيتي وخرج على رأس قواته باتجاه المدينة، لكن تحركه كان بطيئاً مما أعطى الفرصة لسليمان لتشديد حصاره للمدينة. واضطر الحتيتي تحت ضغط الأحداث إلى مراسلة تاج الدولة تُتُش، أخي ملكشاه وصاحب دمشق، يستدعيه ويعده بتسليم المدينة[3].

وإذ أظهر تُتش مطامعه وحسده، اغتبط باستدعاء الحلبيين له، وكان يأمل بالاستيلاء على أَنطاكية بعد حلب ويتوسع باتجاه الشمال. وطالما عدَّ سليمان ثائراً على سلطة السلاجقة العظام في خراسان عندما احتفظ بأَنطاكية لنفسه، لذلك أسرع على رأس جيش لمساعدة المدينة المحاصرة، وساندة الأمير أرتق، وهو أحد الأمراء التركمان. ولما علم سليمان بذلك فكَّ الحصار عن حلب وسار نحو الدمشقيين وهو على غير تعبئة. والتقى الجيشان السلجوقيان في (شهر محرم ٤٧٩هـ/ أيار ١٠٨٦م) في مكان يُعرف بعين سليم بين أَنطاكية وحلب، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت عن خسارة سليمان وفرار عسكره، بعد أن أبدى شجاعة نادرة وثبت في القلب مع بعض أتباعه ولكن إلى حين، ثم خرج من أرض المعركة إلى مكان آمن، فخلع درعه واستلقى على الأرض[4].

وأرسل إليه عمه تُتُش يستدعيه للمثول أمامه، إلَّا أنه رفض دعوته بعد أن اشتمَّ منها رائحة الخطر على حياته. ولما أصرَّ عليه أركان حربه لتلبية الدعوة، أخرج خنجراً وقتل نفسه به. واستولى تُتُش على معسكره وملك حلب، إلَّا أنه رحل عنها بعد ذلك، عندما اقترب منها ملكشاه، متجنباً الاصطدام به أَو حتى الاجتماع به[5].

وهكذا انتهت حياة سليمان بن قُتلمش فاتح الأَناضول ومؤسِّس دولة سلاجقة الروم.

---

(١) لطمين: كورة بحمص. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ١٧.

(٢) سبط ابن الجوزي: ص ٤٢٢.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٤٠. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٩.

(٤) ابن القلانسي: ص ١٩٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٤٠. منجم باشي: صحائف الأخبار جـ ٢ ص ٥٦٠.
Alexiad: pp 153 - 154.

(٥) ابن القلانسي: المصدر نفسه. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة: ص ٤٨١، ابن العبري: ص ١١٩ ـ ١٢٠.

الفصل الرابع

قلج أرسلان داوود بن سليمان

٤٨٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م

الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى بعد وفاة سليمان

ترتَّب على مقتل سليمان حرمان آسيا الصغرى من رجل قوي يتزعم السلاجقة، مما جعل البلاد في حال فوضى واضطراب وانقسام. فعندما شاع خبر الوفاة استغل حكام المدن والأطراف ذلك واستقلوا بإقطاعاتهم، ونشأ نزاع بين الأمراء السلاجقة بسبب التنافس على العرش الشاغر(١).

ظهر ملكشاه، في هذا الجو المضطرب، بمظهر الموحِّد للأسر السلجوقية، لأنه كان يعدُّ نفسه سلطاناً على كل السلاجقة بمختلف فروعهم في الشرق والغرب. وعلى الرغم من أنه لم تراوده أي رغبة في ضمِّ بلاد الروم، إلّا أنه كان يتدخل في كل مرة يحاول فيها أي فرع من فروع السلاجقة، الظهور بمظهر المستقل(٢)، فرتَّب شؤون حلب وأنطاكية والرها وآسيا الصغرى، فمنح حلب لحاجبه قسيم الدولة آق سنقر مؤسِّس البيت الزنكي(٣)، وعيَّن أحد ضباطه، وهو ياغي سيان التركي، حاكماً على أنطاكية بعد أن تسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان، ومنح الرها لقائد تركي آخر هو بوزان، وعيَّن الأمير برسق حاكماً على أملاك السلاجقة في آسيا الصغرى(٤)، ثم دخل في مفاوضات مع الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين لتسوية الأوضاع العامة في آسيا الصغرى، عارضاً عليه أن:

ـ يسحب الأتراك من الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى.

---

(١) Rice: p 51. (٢) Cahen: p 88. Setton: vol I p 163.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٨. انظر فيما يتعلق بقسم الدولة آق سنقر، كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٣ ـ ٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧. ابن القلانسي: ص ١٩٦.

- يصلح كافة القلاع المدَّمرة.
- يساعد الأمبراطور عندما تدعو الحاجة.
- يتزوج أميرة بيزنطية[١].

الواقع أن المفاوضات لم تستكمل بسبب مغادرة ملكشاه المنطقة إلى الشرق، وقد أخذ معه قلج أرسلان داوود بن سليمان بن قُتلمش رهينة، وكان آنذاك في الحادية عشرة من عمره. وظل هذا الأخير شبه أسير في فارس حتى عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) تحت رقابة السلطان المباشرة[٢].

وتنازعت في آسيا الصغرى عدة قوى هي: قوة الأمبراطورية البيزنطية صاحبة البلاد والطامعة في استعادة أملاكها وطرد الأتراك، وقوة الأمراء الدانشمنديين الطامعين في تثبيت أقدامهم في ممتلكاتهم والتوسع على حساب جيرانهم، وقوة الأمير التركي زاخاس أمير إزمير الطامع في التوسع باتجاه الغرب واعتلاء عرش الأمبراطورية البيزنطية، وقوة الأمراء السلاجقة في نيقية.

وجد الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في ظل هذه الأجواء، فرصة ذهبية لاستعادة أملاكه في آسيا الصغرى وطرد الأتراك منها، فتدخَّل في الشؤون الداخلية لهؤلاء، وأجَّج ما بينهم من خلافات وأحقاد، وراح يعرض على بعضهم الرشاوى، ويعد الواحد منهم بعد الآخر بالتحالف المبني على المصاهرة، فاستطاع بذلك أن يوطِّد مركزه في المناطق الخاضعة لسيطرته، إلَّا أنه لم يتمكَّن من إضافة أي مدينة باستثناء سيزيكوس، كما فشل في استرداد قسطموني في مقاطعة بافلاجونيا. ويمكننا القول بأن الحدود البيزنطية لم تكن تتجاوز خلقدونية ونيقوميدية ومنطقة الساحل الغربي لآسيا الصغرى، بالإضافة إلى بعض المدن المعزولة على ساحل البحر الأسود مثل سينوب وطرابزون[٣].

وتوسَّع الدانشمنديون باتجاه الغرب، واستقرُّوا في سيواس وقيصرية وبعض مدن البحر الأسود. واستغل غازي بن دانشمند الفراغ السياسي لدى السلاجقة، فاستقل بما تحت حكمه، كما استولى على مدينة قسطموني من البيزنطيين[٤].

ولعل أخطر الأمراء الأتراك في ذلك الوقت، كان زاخاس أمير إزمير الذي اتصف بالطموح السياسي، فاستخدم البيزنطيين في جيشه بدل الأتراك، واستفاد من

---

(١) Alexiad: p 154.

(٢) سبط ابن الجوزي: ص ٤٤٣. Setton: vol I p 163.

(٣) Oman: vol I p 238. (٤) ابن العبري: ص ١١٨.

خبرتهم البحرية، فهاجم جزائر بحر إيجة واستولى على بعضها، نذكر منها لسبوس، خيوس، ساموس ورودوس؛ مما ضايق ألكسيوس كومنين ودفعه إلى توجيه ضربة قاضية له وبخاصة أنه كان على أبواب صراع آخر في البلقان، فأرسل جيشين، لمحاربته، الأول: بحري بقيادة يوحنا دوقاس، والثاني: بري بقيادة دلاسينوس، على أن يجري تنسيق كامل بينهما. وتمكّنت قوات الجيشان من إلحاق هزيمة قاسية بقوات زاخاس عند بحر مرمرة، واستعادت عدداً من الجزر البحرية، لكن خطره ظل باقياً حتى لقي زاخاس مصرعه على يد قلج أَرسلان[١] كما سنرى.

واستقل أَبو القاسم في نيقية، وعيَّن أخاه بولكاس حاكماً على كبادوكية، وعزم على التوسع باتجاه الغرب، فأرسل قوة عسكرية استولت على بيثينيا، كما ثبَّت أقدامه على شاطىء بحر إيجة، وبنى أسطولاً لمهاجمة القسطنطينية والاستيلاء عليها، فاضطر الأمبراطور البيزنطي أن يرسل قوة عسكرية بقيادة تاتيكيوس، هاجمت أبا القاسم في نيقية، غير أنها منيت بهزيمة قاسية، واضطر تاتيكيوس إلى الانسحاب وعاد إلى القسطنطينية[٢].

لم ييأس ألكسيوس كومنين نتيجة الهزيمة التي مني بها قائده، وأرسل حملتين جديدتين لمهاجمة نيقية، الأولى برية بقيادة تاتيكيوس نفسه، والثانية بحرية بقيادة مانويل بوتوميتس. ونجحت الحملتان في هزيمة أَبي القاسم، وأعقب ذلك توقيع معاهدة صلح بين الطرفين، زار على أثرها أَبو القاسم العاصمة البيزنطية تلبية لدعوة الأمبراطور[٣].

استرعت أطماع أَبي القاسم ملكشاه، فأرسل حملة عسكرية لتأديبه بقيادة برسق بوصفه الحاكم الرسمي لبلاد الروم. وعندما وصلت الحملة إلى نيقية في عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) أغلق أَبو القاسم أبواب المدينة في وجه أفرادها، واضطر برسق إلى فرض الحصار عليها. استنجد أَبو القاسم بالأمبراطور البيزنطي، فأمدَّه بفرقة من أفضل قواته العسكرية. واضطر برسق إلى فك الحصار عن المدينة[٤].

نتيجة لفشل برسق، أرسل ملكشاه حملة أخرى إلى بلاد الروم بقيادة بوزان أمير الرها، للقضاء على أَبي القاسم وانتزاع نيقية منه[٥]. وأرسل السلطان مع قائده رسالة إلى ألكسيوس كومنين تتضمن ما يلي:

---

(١) Alexiad: pp 215 - 217.

(٢) Ibid: pp 155 - 156.

(٣) Alexiad: pp 156 - 157. Cahen: p 80.

(٤) Alexiad: Ibid p 158.

(٥) Ibid. Chalandon: Alexis Comnene p 120.

- إحلال السلام في آسيا الصغرى.
- يوقف ألكسيوس كومنين المساعدة التي يقدِّمها لأبي القاسم.
- يعيد ملكشاه أنطاكية وبعض أجزاء آسيا الصغرى إلى الأمبراطور.
- التقارب الأسري، عن طريق زواج ابن ملكشاه الأكبر من ابنة ألكسيوس.
- يضع ملكشاه قوة عسكرية بتصرف ألكسيوس لضبط تعديات التركمان.

وافق ألكسيوس كومنين على عرض ملكشاه، وأرسل إليه وفداً لتبليغه تلك الموافقة، إلَّا أنه استمر في دعم أبي القاسم، ولعله كان يفضل مجاورة أمير ضعيف مثل أبي القاسم على مجاورة السلطان القوي. وبفضل هذا الدعم تمكَّن أبو القاسم من الدفاع عن نيقية، واضطر بوزان إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى الرها، لكنه ضايق أبا القاسم حتى اضطره إلى طلب العفو(١).

ولم يلبث أبو القاسم أن قرَّر الدخول في طاعة السلطان، فذهب إليه يطلب عفوه، لكن السلطان نزل على حكم بوزان القاضي بالتخلص منه. وكان أبو القاسم قد عيَّن أخاه بولكاس حاكماً على نيقية أثناء غيابه(٢).

أما فيما يتعلَّق بالمفاوضات بين السلطان والأمبراطور فلم تتحقَّق، لأن أعضاء الوفد البيزنطي علموا بوفاة السلطان وهم في طريقهم إلى المقر السلطاني، فعادوا أدراجهم إلى القسطنطينية.

تولي قلج أرسلان السلطة

أطلق السلطان بركياروق، الذي خلف السلطان ملكشاه بعد وفاته، سراح قلج أرسلان، فتوجه مباشرة إلى نيقية، وسلَّمه بولكاس مقاليد الحكم بوصفه الوريث الشرعي لسليمان. وهكذا تربَّع قلج أرسلان على دست الحكم في نيقية بعد مدة شغور دامت ستة أعوام(٣).

كان أول عمل قام به قلج أرسلان هو عزل بولكاس، وعيَّن مكانه الرجل الداهية محمَّد، كمساعد له في نيقية(٤).

أدرك زاخاس، في هذه الأثناء، أهمية قيام تحالف بين الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى للتصدي لمؤامرات الأمبراطور بعد أن حرص هذا الأخير على انتهاج

---

(١) Alexiad: Ibid p 160.

(٢) Ibid: pp 160 - 161. Camb. Med. Hist: IV p 331.

(٣) Alexiad: Ibid pp 162 - 163.

(٤) Ibid.

سياسة ماكرة للتفريق بينهم. فأجرى اتصالاً مع قلج أرسلان من أجل هذه الغاية، وزوَّجه ابنته كي يضمَّه إلى جانبه. إلَّا أن ألكسيوس كومنين استطاع أن يفرِّق بين قلج أرسلان وحميه بما بذل له من نصائح، كما خوَّفه من منافسة زاخاس له في المستقبل. تقبَّل الحاكم السلجوقي النصيحة، وقد خشي من ظهور أمير تركي آخر يطغى على شخصيته. وفي الوقت الذي كان فيه زاخاس يحاصر أبيدوس، مفتاح الدردنيل، اتفق ألكسيوس كومنين مع قلج أرسلان على تنفيذ خطة التخلص منه، فبادر الزعيم السلجوقي إلى استدراجه إلى وليمة أعدَّها له في نيقية وقتله أثناءها بيده(١).

وبوفاة سليمان من قبل ومصرع زاخاس، أضحى بوسع ألكسيوس كومنين أن يفكِّر في اتِّباع وسيلة أكثر جنوحاً نحو الاعتداء، وبخاصة أن القسطنطينية أضحت بنجوة من الأخطار الأوروبية، فدخل في مفاوضات مع قلج أرسلان لترتيب أوضاع المنطقة وإقامة سلام في أرجائها، لكن هذه المباحثات لم تكن لصالح السلاجقة بقدر ما كانت لصالح البيزنطيين الذين استعادوا بعض المدن الساحلية.

ومع حلول عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) نجد أن الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أضحى في أيدي السلاجقة بينما كان تحت سيطرة البيزنطيين خلقدونية، ونيقوميدية وبعض مدن ساحل البحر الأسود وشاطىء مقاطعة ميسيا(٢).

كانت سياسة ألكسيوس كومنين تقضي بطرد المسلمين من آسيا الصغرى بمختلف الوسائل المتاحة، وما المعاهدات التي أبرمها مع قلج أرسلان ومع غيره من الأمراء الأتراك، وحتى مع الصليبيين بعد ذلك، سوى مطية لضرب الأمراء المسلمين بعضهم ببعض حتى تضعف قواهم، ومن ثَمَّ ينقضُّ عليهم، وقد سُرَّ باستجابة الغرب الأوروبي لندائه من أجل حرب المسلمين. وهكذا لم يستهل عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) حتى وصلت طلائع الحملات الصليبية إلى القسطنطينية.

صراع قلج أرسلان مع الصليبيين

ماهية الحركة الصليبية

لا بد لنا قبل الشروع في تصوير الصراع السلجوقي ـ الصليبي، من إعطاء فكرة عن طبيعة الحركة الصليبية التي هاجم أفرادها الشرق الإسلامي، بهدف الاستيلاء

---

(١) Alexiad: pp 219 - 220.

(٢) Oman: vol I p 238.

على الأَراضي المقدسة، وتأسيس إمارات نصرانية في أرجائها.

والواقع أن أحداث الحركة الصليبية التي سيطرت على تاريخ العصور الوسطى، لا تهمنا في هذه الدراسة إلَّا في نطاق صلتها بالسلطنة السلجوقية ومدى تأثيرها على أوضاعها.

وإذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة هذه الحركة ودوافعها، نستطيع القول إنها، في حقيقة أمرها، استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ في كل عصر شكلاً معيناً يتلاءم ومقتضيات الظروف، وإن اتحد في الهدف والغاية.

فقد كان في العصور القديمة صراعاً سياسياً وعسكرياً في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، في حين اتخذ الغرب في العصور الوسطى الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية، بعد أن اعترف الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير بالديانة النصرانية بموجب مرسوم ميلان في عام ٣١٣م[١]، واعتنقها قبل وفاته.

وبظهور الإِسلام في القرن السابع الميلادي، وبعد انتشاره في الجزيرة العربية، توسَّع المسلمون خارج جزيرتهم بهدف نشر مبادىء الدين الجديد، ففتحوا العراق وبلاد الشام بعد أن اصطدموا بالفرس والبيزنطيين، وحقَّقوا في أعوام قلائل انتصارات مذهلة، فقضوا على الأمبراطورية الفارسية وسيطروا على الولايات الشرقية التابعة للأمبراطورية البيزنطية.

أسباب الحروب الصليبية

تمثِّل الحركة الصليبية في العصر الوسيط روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتين: الدين والحرب. نتج عن الدين ظاهرة الحج، ونتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة.

يُعدُّ الحج ظاهرة التوبة والاستغفار بما تهيأ للحاج أن يسعى إلى الأَراضي المقدسة، ازدادت اتساعاً وأهمية بتأثير الحركة الكلونية التي دعت في القرن العاشر الميلادي، إلى أسبقية كنيسة روما على سائر الكنائس الشرقية، وتجديد الدعوة البطرسية للسيادة البابوية العالمية، فارتفع شأن البابوية بفعل عدد من الباباوات

---

(١) انظر نص مرسوم ميلان في كتاب: تاريخ أوروبا العصور الوسطى للسيد الباز العريني ص ٥٠ ـ ٥١.

الأقوياء أمثال جريجوري السابع وأوربان الثاني[1]، الذين حضُّوا على نبذ الحرب الداخلية بين أمراء الإقطاع وتوجيهها ضد المسلمين لانتزاع الأَراضي المقدسة منهم.

لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي متنفسه من الأزمات التي كان يمر بها. فالباحث في تاريخ الحركة الصليبية يستطيع أن يلمس بوضوح أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، في توجيهها، وتحكُّمها بمصائرها، وأن الدين قد استُغل استغلالاً واضحاً للدعاية لها والعمل على إنجاحها، تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمت إلى الدين بصلة.

لقد أدَّى العامل الاقتصادي دوراً مهماً في الحركة الصليبية، وكان حلاً لكثير من المشكلات التي عانى منها المجتمع الغربي الذي شهد في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي أزمة اقتصادية حادة، وبخاصة في فرنسا. وأدَّت كثرة الحروب الداخلية بين أمراء الإقطاع، إلى ازدياد سوء الأوضاع الاقتصادية، فتعطَّلت طرق التجارة، وانعدم الأمن، وازداد عبء الالتزامات الإقطاعية على الأقنان ورقيق الأَرض، فأصابت آثار هذه الأزمة مختلف فئات الشعب.

من هنا، كانت الحركة الصليبية متنفساً لهؤلاء الجياع للهجرة، وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة. ولا عجب أن ضمَّت الجموع الصليبية الأولى، الغالبية العظمى من أقنان ورقيق الأرض، وعامة الشعب من الفقراء والمعدمين، وهدفهم التخلص من قيود الإقطاع والتزاماته، وقد عادت تلك الحروب عليهم بفائدتين:

الأولى: أنها حرَّرتهم من عبودية الإقطاع.

الثانية: خلَّصت نفوسهم من الخطايا، وفقاً لما وعدتهم به الكنيسة.

وما دمنا نتحدَّث عن العامل الاقتصادي للحركة الصليبية، فلا بد أن نشير إلى طائفتين ساهمتا في تلك الحركة، هما المدن التجارية، والجماعات الرهبانية المسلَّحة.

كان هدف المدن التجارية الإيطالية والفرنسية التي اشتركت في الحروب الصليبية، الكسب المادي الذي يعود عليهم نتيجة السيطرة على الحركة التجارية مع

---

(١) أوربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) كان تلميذ جريجوري السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) حامل لواء حركة الإصلاح الكلونية.

الشرق، على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً، لذلك قامت أساطيل هذه المدن بدور فعَّال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في بلاد الشام، كما ساهمت في قيام الدويلات الصليبية في الأراضي المقدَّسة مقابل معاهدات عقدتها معها وحصلت بمقتضاها، هذه المدن، على امتيازات اقتصادية هامَّة.

أما الجماعات الدينية المسلحة مثل الداوية[1] والأسبتارية[2] والتي كان من أولى مبادئها الفقر والطاعة والحرمان والتقشف والبُعد عن ملذات الحياة، فقد تحوَّلت هي أيضاً، إلى جمعيات كسبية، لها جيوشها، ومتاجرها، ومواردها المالية، وسياستها الخارجية الخاصة، فخرجت بذلك عن مبادئها الأساسية، وهي حماية الحجاج، وإغاثة الجرحى والمرضى من الصليبيين في ساحات القتال.

وأدَّى العامل الاجتماعي دوراً في الحركة الصليبية، إذ المعروف أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كان يُقسم إلى ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين. أما الطبقتان الأولى والثانية، فكانتا تمثِّلان الهيئة الحاكمة والثرية، في حين مثَّلت طبقة الفلاحين جموع العاملين المحرومين من النفوذ والثروة، الذين كان عليهم أن يعملوا في ظروف قاسية، ليسدُّوا الحاجات المادية للطبقتين السابقتين، وقد ارتبطوا بالأرض التي يعملون عليها، ارتباطاً وراثياً، وعاشوا حياة شاقة مليئة بالذل ومثقلة بالالتزامات التي كان عليهم أن يقدموها إلى السيد الإقطاعي.

وجدت هذه الطبقة المعدومة في الحروب الصليبية الفرصة للخلاص مما

---

(١) الداوية: Templiers، طائفة عسكرية دينية، تطلق على جماعة فرسان المعبد. تأسَّست هذه الطائفة في عام ١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا وبيت المقدس، ثم تحوَّلت بعد ذلك إلى هيئة عسكرية. وقد منح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس أفرادها خاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان، ولذلك سموا بفرسان المعبد. أدَّت هذه الطائفة دوراً كبيراً في الحروب الصليبية. انظر فيما يتعلَّق بهذه الطائفة: وليم الصوري: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار جـ ١ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٨.

(٢) الأسبتارية: Hospitalliers، طائفة عسكرية من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديراً في بيت المقدس بجوار دير سان ماري، وقد أُقيم بجواره بيمارستان (مستشفى) في المدة قبل الحروب الصليبية بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم. ولما اندلعت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في الحرب ضد المسلمين، وكانوا موضع احترام جودفري، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم الأموال، ثم أصبحوا يؤلِّفون قوة حربية كبرى، واشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. انظر فيما يتعلَّق بتأسيس هذه الطائفة المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٨٣٠ ـ ٨٣٤.

كانت ترزح تحته من ذل العيش، وقد استهانت بأخطارها التي لا تُقارن من حيث شدَّتها، بالمذلة التي كان يعيش فيها أفرادها دون أمل بالخلاص، وعلى أمل أن يجدوا منفذاً لحياة أفضل.

أما من حيث الدافع السياسي، فقد داعبت الآمال الكبيرة، الحكَّام ورجال الإقطاع، في توسيع رقعة أملاكهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم في الشرق، بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم، ويمكن أن نستثني الملوك الأباطرة الذين خرجوا بإلحاح من البابوية أو مدفوعين بعاطفة دينية. ولا عجب إذا علمنا أن البابوية كانت على رأس هذه الطوائف والجماعات، وهي التي أخذت تحثُّ الجميع باسم الدين، متسترة تحت قناعه لتحقيق أهدافها السياسية بالتخلص من مضايقات أمراء الإقطاع لها، والسيطرة على الحكّام الزمنيين، كما وجدت في الحروب الصليبية مجالاً لتحقيق حلمها القديم بفرض سلطانها الديني والدنيوي على العالم النصراني بشقيه الغربي والشرقي، والعمل على توحيد الكنيستين اللاتينية واليونانية على المذهب الكاثوليكي التي تدين به، وذلك على أثر الانشقاق الديني في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)[١]. ولا أدلّ على تغليب النزعة السياسية عند أمراء الإقطاع الغربيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية؛ الخلافات التي كانت تدب بينهم. ففي الحملة الصليبية الأولى على سبيل المثال، برز اسم الزعيم النورماني بوهيموند الذي تطلَّع إلى تأسيس إمارة نورمانية في الشرق. والجدير بالذكر، أنَّه كلما توغَّلت الجيوش الصليبية في رقعة الشرق الإسلامي، كلما توضَّحت نوايا الأمراء الدنيوية، وتمثَّل ذلك في النزاع الدائم والمستمر بين القادة والرجال البارزين في الحملة الأولى أيضاً حول السيطرة على المدن التي يستولون عليها، وبخاصة مدينة أنطاكية. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم أسَّسوا إمارتين لهم قبل أن يستولوا على بيت المقدس وهو الهدف الأسمى لهم، مما يدل على أنه سيطرت عليهم رغبة جامحة في التوسع وامتلاك الأَراضي.

كانت الحروب الصليبية سبباً مباشراً لاحتكاك نصارى الشرق الأرثوذكس بنصارى الغرب الكاثوليك، مما أثَّر في تاريخ وقوع وتطور العلاقات بين الشرق والغرب النصرانيين. والمعروف أن العلاقات بينهما لم تكن في ذلك الوقت، طيبة، وسادها الشك وعدم الثقة، كما كانت أوجه الخلاف بينهما في شتى المجالات

---

(١) انظر فيما يتعلق بالانشقاق الديني كتاب: روما وبيزنطية لإسحاق تاوضروس عبيد ص ٢١ ـ ٣٩.

الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، عاملاً آخر في توسيع شقة البغضاء بين الطرفين، مما تسبَّب بانعكاسات سلبية على الحركة الصليبية في بداية عهدها على الأقل.

وعندما أسَّس سلاجقة الروم سلطنتهم في نيقية بعد معركة مانزيكرت، واصلوا حركة توسعهم في آسيا الصغرى، وفتحوا معظم بقاعها، كما سيطر الأتراك بعامة على بعض الجزر القريبة منها، وقد حاول الأمبراطور ألكسيوس كومنين، دون جدوى، وقف الزحف التركي الذي أخذ يهدِّد عاصمته القسطنطينية، لذلك اضطر إلى التوجه نحو الغرب والبابوية لطلب النجدة.

وما نشب من القتال بين المسلمين والنصارى في إسبانيا، اتخذ أيضاً صفة الحرب المقدَّسة، وتدخَّل فيها البابوات يوجهونها الوجهة الدينية الخالصة. ويُعدُّ استيلاء الإسبان على مدينة طليطلة المنيعة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، خطوة تشجيعية لطرد المسلمين من البلاد، وتلي معركة الزلاَّقة التي حدثت في العام التالي، حركة صحوة إسلامية بعثها المرابطون[١]، اشتدت بعدها دعوة الفرسان النصارى للذهاب إلى إسبانيا لمحاربة المسلمين، بعد أن تبيَّن للإسبان مدى ضعفهم، وأدَّى ذلك إلى خلق شعور داخل المجتمع الأوروبي بتشجيع من البابا أوربان الثاني، إلى تحويل هذه الجهود العسكرية إلى الشرق لمحاربة المسلمين وانتزاع الأراضي المقدسة منهم، وتأسيس إمارات نصرانية.

ولم ينته القرن الحادي عشر الميلادي حتى تحوَّلت الحرب المقدَّسة إلى اتجاه عملي. فأبدى الفرسان في المجتمع الأوروبي، استعدادهم للاستجابة لدعوة الكنيسة والقتال من أجل استرداد الأماكن المقدسة في الشرق، في حين وقف الأمراء، في بادىء الأمر، بعيداً عن هذا المناخ. على أن فكرة امتلاك الأراضي جعلتهم يُقبلون، بعد ذلك، على الاشتراك في الحرب المقدَّسة.

وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي قد استجاب لنداء بيزنطية من أجل حرب المسلمين، إلَّا أنه لم تكن هناك فكرة عن أي حرب صليبية في بيزنطية، وكانت قضية استعادة الأراضي المقدَّسة خيالية إلى حد بعيد، كما أنَّها لم تكن حيوية في سياسة بيزنطية الخارجية، التي رأت نفسها وقد انغمست في غمرة الحروب الصليبية.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٨، ١٤١ ـ ١٤٢. Dozzy: Moslems in Spain pp 694 - 695.

الواقع أن بيزنطية هدفت إلى الحصول على بعض المساعدات العسكرية من مرتزقة في حربها ضد السلاجقة، ولم يكن لهذا الأمر علاقة بالحملة على فلسطين، كما أن أباطرة الدولة البيزنطية، لم يتخيلوا ما سوف يتهددهم من أخطار نتيجة تدفق القوات الصليبية التي راحت تهدِّد كيان الأمبراطورية. والمعروف أن سياسة بيزنطية الخارجية كانت قبل مجيء الصليبيين، تعتمد على إقامة نوع من التوازن مع جيرانها المسلمين وغير المسلمين، بما يكفل لها المحافظة على كيانها، وحافظت بيزنطية على هذه السياسة بعد مجيء الصليبيين، وحدَّدت علاقتها بهم بما كان يربطها من علاقات سلمية أَو عدائية مع إمارات ودول الشرق الإسلامي ومع أوروبا والقوى الإيطالية بما كانت تدَّعيه من حقوق حماية النصارى في الشرق.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، توجهت أربع منها إلى الأَراضي المقدَّسة وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان إلى مصر، هما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية، هي الرابعة، ونزلت الثامنة في شمال إفريقية. وتخلَّلت هذه الحملات النظامية، حملات أخرى كان يقوم بها العامة، وإن فاق بعضها، إن في الإعداد أَو في التجهيز والأهمية، ما قامت به بعض الحملات النظامية المعروفة.

الحملة الصليبية الأولى

الزحف نحو الشرق

تلى إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت، في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)[1]، استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان الغرب الأوروبي لتعبئة العامة، واعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة، وقيادة عسكرية موحدة؛ ستكفل للحملة التقدم والنجاح، لكن دعاته الذين بثَّهم في أرجاء بلدان أوروبا، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأَراضي المقدَّسة، فانتابت المجتمعات الأوروبية، نتيجة ذلك، موجة عارمة من الحماس

---

(١) انظر فيما يتعلق بمؤتمر كليرمونت: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ص ٣١ ـ ٣٧.
Robert the Monk: Historia Hierosolymitana. in R.H.C. occ vol III pp 727-729.
الصوري، وليم: جـ١ ص ١٦٧ ـ ١٧٥.
تضمَّن خطاب البابا أوربان الثاني تهجُّماً على المسلمين وتحريضاً على الذهاب إلى الشرق لقتالهم واستئصال شأفتهم، وهو يقدم في سبيل ذلك كافة المغريات للمجتمع الغربي ومن بينها غفران الذنوب.

الديني، أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمَّت تشكيلة متنوعة من فئات مختلفة، ومن جهات عديدة مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا، واحتشد آلاف من فقراء الرجال والنساء وقطّاع الطرق واللصوص والغوغاء، الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وانضمَّ إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

خرجت الحملة الشعبية هذه على شكل مجموعات عديدة، تحت زعامة عدة أشخاص، منهم جوتييه، وبطرس الناسك، ووالتر المفلس وغيرهم. واصطدموا أثناء زحفهم بشعوب البلدان التي مرُّوا بها في باڤاريا والمجر وبلغاريا، وبخاصة النصارى الأرثوذكس المخالفين لهم في المذهب، واليهود الذين اشتهروا بمعاملاتهم المالية المتعسفة التي طالت مختلف فئات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، كما قاموا بأعمال السرقة والسلب والنهب والقتل وحرق المدن، ولم تنج ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم مما حمل الأمبراطور البيزنطي على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى على وجه السرعة، مدركاً في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة أن هذا الجمع الصليبي غير المنظم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى آسيا الصغرى، فسوف يدمره الأتراك بسرعة[1].

ونظراً إلى ما اتصفت به الحملة منذ البداية من عدم التنظيم والتجانس، وعدم وجود قيادة موحدة؛ يُفسِّر ما حدث عقب الانتقال مباشرة إلى آسيا الصغرى، إذ أن جموع الألمان والإيطاليين والفرنسيين راحت تتسابق وتتنافس في شن الغارات على المناطق الزراعية، فسلبوا سكان القرى دون تفرقة بين المسلمين والنصارى واقتربوا من مدينة نيقية عاصمة قلج أرسلان، كما أنهم لم يستجيبوا لنصيحة الأمبراطور البيزنطي بوجوب البقاء في قلعة كيفيتوت حيث المعسكر الصليبي، وعدم القيام بأي تحرك قبل وصول الحملة النظامية. ووصل في هذا الوقت، إلى القسطنطينية، والتر المفلس، فانضم مع أتباعه إلى جموع بطرس الناسك[2].

الاصطدامات الأولى

ابتدأت الاصطدامات الأولى بين الجموع الصليبية والسلاجقة عندما قرَّر الصليبيون الزحف باتجاه نيقية. وتجاوز رينالد النورماني هذه المدينة ووصل إلى

---

(١) Albirt d'Aix: Liber Christianne Expedition pro Eroptione... in: R.H.C occ vol IV pp 283-284.

(٢) Grousset: vol I p 8. Camb. Med. Hist: vol IV p 276. Alexiad: pp 250 - 251.

قلعة اكسيريجوردون واستولى عليها، واتَّخذ منها قاعدة انطلاق للإغارة على الأراضي الزراعية المجاورة والقرى القريبة(١).

أثارت هذه التعديات حفيظة قلج أرسلان، فأرسل القائد إيلخانوس على رأس جيش كبير لاسترداد القلعة، فضرب الحصار عليها، ومنع عنها الماء بعد أن استولى على النبع والبئر اللذين يغذّيانها، فاستبد اليأس بالمحاصَرين(٢).

وقرَّر رينالد أن يستسلم، ففتح أبواب القلعة للجيش السلجوقي بعد أن حصل على وعد من قائده بالإبقاء على حياته إذا اعتنق الإسلام. وسيق رينالد وأتباعه ممن اعتنق الإسلام إلى أنطاكية وحلب وخراسان، وقُتل من بقي على نصرانيته(٣).

بلغت أنباء استيلاء النورمان على القلعة مسامع الصليبيين في كيفيتوت، ولجأ السلاجقة إلى خطة ذكية كي يستدرجوهم إلى كمين سبق إعداده، فأشاعوا نبأ استيلاء القوات النورمانية على نيقية، وأنهم بصدد اقتسام الغنائم(٤)، فاشتد الاضطراب في المعسكر، وطلب الجنود السماح لهم بالزحف إلى نيقية ليشاركوا النورمان حصصهم من الغنيمة.

وهكذا راحت جموع الصليبيين تتوغل عبر آسيا الصغرى في الطريق إلى نيقية وهم على غير تعبئة ودون تقدير لمقدرتهم القتالية، إلى أن جرى اكتشاف صدق ما حاق برينالد، فتحولت الإثارة إلى ذعر(٥). وما إن اقتربت هذه الجموع البالغ عددها نحو عشرين ألفاً، من رافد نهر دراكون، حتى تلقَّفتهم القوات السلجوقية وأبادتهم، ولم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف(٦). وعندما سمع الأمبراطور البيزنطي بنبأ الكارثة، بادر إلى إرسال بعض السفن نقلت الناجين إلى القسطنطينية(٧).

غادر قلج أرسلان عاصمته نيقية، بعد انتصاره على حشود الصليبيين، إلى ملطية لينازع الدانشمنديين ملكيتها، دون تقدير لجدِّية الغزو الصليبي. إذ لم يهتم بأنباء وصول مجموعة صليبية جديدة، وظنَّ أن الأمر لا يعدو كونه وصول بعض

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ١٩ ـ ٢٠. Alexiad: p 251.

(٢) يروى أن الصليبيين داخل القلعة حاولوا أن يطفئوا ظمأهم، بعد أن اشتد بهم العطش، بامتصاص الرطوبة من الأرض، وبما لجأوا إليه من شق عروق خيولهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل إن كلاً منهم كان يشرب بول الآخر.

(٣) Alexiad: p 251. Grousset: vol I p 8.

(٤) Alexiad: Ibid.

(٥) رنسيمان: ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٦) رنسيمان: ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٧) Alexiad: pp 251 - 252.

جموع أخرى من العامة غير المدربين الذين قضى عليهم بسهولة تامَّة[1]، ولم يدرك ما يتهدَّده من أخطار من جهة الغرب. ومما زاد في طمأنته، الأسلوب البارع الذي انتهجه ألكسيوس كومنين، عندما بثَّ جواسيسه بين صفوف السلاجقة، وأشاعوا أنباء غير حقيقية عن خلافات مستحكمة بينه وبين الأمراء الصليبيين، مما جعل السلطان السلجوقي يعتقد أن هؤلاء لن يتوغلوا بعيداً حتى نيقية، بدليل أنه ترك زوجته وأطفاله وأمواله في المدينة[2].

سقوط نيقية

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا. وطبيعي أن يكون أفراد هذه الحملة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسِّلاح والأموال والرجال والعتاد، والاتصال مسبقاً بأمراء وحكَّام النواحي الذين سيمرون بأراضيهم، حتى يمدوا لهم يد المساعدة.

تعدَّدت قيادات هذه الحملة النظامية، فلكل أمير رجاله وجنده، كما اختلفت أهواؤهم، فهم على تباين في نظرتهم إلى مفهوم الحركة الصليبية. وتكوَّنت من أربعة جيوش:

تألَّف الجيش الأول من قوات نورمانية بقيادة بوهيموند وابن أخيه تانكرد، وتضمَّن الجيش الثاني قواتٍ بروفنسالية بقيادة ريموند الرابع كونت تولوز، وتألَّف الجيش الثالث من قوات فرنسية بقيادة إتيين كونت بلوا وهيو كونت فرماندوا الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وقاد جودفري دي بوايون وأخوه بلدوين قوات اللورين السفلى التي شكَّلت الجيش الرابع[3].

زحفت هذه الجيوش إلى الشرق عبر أربعة طرق مختلفة، واتفق قادتها على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية، وبلغ عدد أفرادها حوالي ثلاثين ألف مقاتل. لم يجد ألكسيوس كومنين صعوبة في التعرُّف على نفسيات هؤلاء الغربيين، وتمكَّن بسياسته وحنكته من استغلال فكرة اليمين الإقطاعي المعروفة في المجتمع الغربي، لتثبيت حقوقه على كثير من الأراضي التي سيتم انتزاعها من أيدي الأتراك، فاشترط عليهم

---

(١) Setton: vol I pp 288 - 289. (٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) ذكر صاحب أعمال الفرنجة أسماء زعماء الجيوش الصليبية النظامية: ص ٢٢ ـ ٢٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ١٩٥ ـ ٢٢٧.

مقابل مساعدتهم، أن يبذلوا له يمين الولاء والتبعية كأمبراطور، وأن تُعطى له كل الأراضي التي يتم انتزاعها من الأتراك، إذا كانت تابعة للأمبراطورية البيزنطية من قبل. قَبل القادة الصليبيون، بعد مفاوضات مضنية هذه الشروط، وبعد أداء القسم سمح لهم الأمبراطور بالعبور إلى آسيا الصغرى[1].

اندفعت الجيوش الصليبية بعد العبور، باتجاه نيقية للاستيلاء عليها نظراً لموقعها الجغرافي، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام. وتوحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية، وقد رأى الأمبراطور البيزنطي أنه لا بد من القيام بعمل حاسم لتحطيم قوة السلاجقة المتعاظمة بانتزاع عاصمتهم نيقية.

وصلت القوات الصليبية إلى العاصمة السلجوقية في (٢١ جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ ٦ أيار ١٠٩٧م) وعسكرت حول أسوارها، وضربت الحصار عليها باستثناء منطقتها الغربية حيث توجد البحيرة، وساعدهم جيش بيزنطي بقيادة تاتيكيوس، كما كان الأمبراطور يمدهم تباعاً بالإمدادات والمؤن عن طريق البر والبحر. وحالت مناعة استحكاماتها بينهم وبين مهاجمتها فوراً، إذ أن أسوارها التي امتد طولها أربعة أميال، والتي ارتفع عليها مائتان وأربعون برجاً، بالإضافة إلى المياه الضحلة التي أحاطت بالأسوار؛ شكَّلت عائقاً، وحالت دون مهاجمتها فوراً[2].

لم يرسل قلج أَرسلان، في بادىء الأمر، قوة من جيشه نحو الغرب للتصدي للزحف الصليبي، وآثر البقاء في الشرق، ولم يبدِّل رأيه إلَّا عندما طلبت منه الحامية الإسراع لنجدة المدينة. إذ على الرغم من ضخامة الحامية المرابطة داخل المدينة، فإنَّها احتاجت إلى إمدادات خارجية سريعة، فأرسل قوة عسكرية كطليعة ثم لحق بها بعد أن فكَّ الحصار عن ملطية[3].

لم تصل طلائع الجيش السلجوقي إلَّا بعد أن أحكم الصليبيون الحصار على المدينة، فلم تتمكَّن من الدخول في معركة، وانسحبت بعد مناوشات فاشلة، تترقب وصول السلطان مع جيشه الرئيسي الذي أخذ يقترب من المدينة[4].

حاولت الحامية بعد أن اشتد الحصار على المدينة، وتأخرت القوة السلجوقية

---

(١) انظر تفاصيل المفاوضات بين الأمبراطور البيزنطي وقادة الجيوش الصليبية: وليم الصوري: المصدر نفسه.

(٢) وليم الصوري: ج ١ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢. رنسيمان: ج ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥. Grousset: vol I p 29.

(٣) Grousset: Ibid. (٤) Alexiad: pp 258 - 260.

المساندة؛ تسليمها إلى الأمبراطور البيزنطي، على أثر مبادرة قام بها هذا الأخير، فأرسل القائد بوتوميتس ليتفاوض في أمر التسليم، إلّا أن المفاوضات توقفت عندما علمت الحامية بنبأ قرب وصول السلطان[١].

وصل قلج أرسلان إلى المدينة من جهة الجنوب، فبادر فوراً بمهاجمة القوة الصليبية المحاصِرة، محاولاً بذلك أن يشق له طريقاً ينفذ فيه إلى الداخل. ودارت بين الطرفين بعض المناوشات، استمرت يوماً واحداً دون أن يتمكّن من شق طريق له. عندئذ رأى أن يترك المدينة تواجه مصيرها، ثم انسحب إلى الجبال المجاورة تاركاً للحامية حرية التصرف[٢].

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع تعرَّض الصليبيون خلالها لخسائر فادحة في الأرواح نتيجة المناوشات اليومية مع الحامية، وحتى يرفعوا معنوياتهم ويضعفوا معنويات الأتراك، عمدوا إلى اجتزاز رؤوس عدد كبير من الأسرى، وثبّتوها على الحراب، ثم رفعوها وطافوا بها حول أسوار المدينة، ثم قذفوها إلى الداخل[٣].

أدّت استحكامات المدينة البالغة المناعة دوراً بارزاً في إطالة أمد الحصار، كما أن المؤن التي كانت تدخل إليها عبر البحيرة بموافقة الأمبراطور البيزنطي رفعت معنويات المحاصَرين[٤]. والراجح أن هذا الأخير أدرك صعوبة موقف الصليبيين، فأراد أن يثبت لقادتهم أن تعاونهم معه، ضروري، وفعلاً اضطر هؤلاء أن يطلبوا مساعدته. وبناء على طلبهم أمدَّهم بأسطول صغير، منع وصول المؤن إلى داخل المدينة عبر البحيرة[٥]، وراح في الوقت نفسه، يخطِّط للاستيلاء عليها بمعزل عن الصليبيين.

أدرك أفراد حامية المدينة، بعد أن شاهدوا السفن العسكرية البيزنطية في البحيرة، أن الأمبراطور البيزنطي عدَّل سياسته تجاههم، وأنّه بدون وصول المؤن إلى داخل المدينة عبر البحرة، سيتعرَّض السكان للمجاعة، لذلك قرَّروا تسليم المدينة إلى الصليبيين، لكن السكان خشوا عنف هؤلاء إذا دخلوا إليها، وفضّلوا تسليمها للأمبراطور البيزنطي، فجرت مفاوضات بين أفراد الحامية وممثلين عن الأمبراطور بقيادة بوتوميتس[٦].

---

(١) Alexiad: pp258 - 260..

(٢) وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤. Alexiad: p 270 .

(٣) المؤرخ المجهول: ص ٣٥. فوشيه الشارتري: ص ٤٧ Ibid. .

(٤) فوشيه الشارتري: المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٥) المؤرخ المجهول: ص ٣٦. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٢٣٧.

(٦) المؤرخ المجهول: ص ٣٦. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٢٤٢.

سُرَّ الأمبراطور البيزنطي بهذه المبادرة من جانب حامية المدينة، لأنه خشي أن يمتنع القادة الصليبيون عن تسليم المدينة إليه إذا سقطت في أيديهم، وتقرَّر في النهاية تسليمها مقابل تأمين حياة السكان[١].

شحن ألكسيوس كومنين المدينة بقوات بيزنطية، وفوجىء الصليبيون بالأعلام الأمبراطورية ترفرف فوق الأسوار دون أن يعلموا يقيناً بتفاصيل المحادثات السرية[٢] التي دارت بين أفراد الحامية من جهة والأمبراطور من جهة أخرى.

وتنفيذاً للاتفاق المبرم، خرج الأتراك من المدينة مع عائلاتهم وأمتعتهم تحت حراسة مشدَّدة إلى القسطنطينية أو إلى المعسكر البيزنطي في بيلكانوم، ومن بينهم أخت السلطان وزوجته وأولاده، ولم يلبث الأمبراطور أن أعادهم إلى الزعيم السلجوقي دون فدية، وكافأ بوتوميتس بأن عيَّنه حاكماً على نيقية[٣].

إن الباحث في مؤلَّفات مؤرخي الحروب الصليبية اللاتين، يجد أن الوسيلة التي لجأ إليها ألكسيوس كومنين للاستيلاء على المدينة؛ أغاظتهم. ويضيفون بأن الأمبراطور عندما وجد الصليبيين يستعدون لأخذ نيقية عنوة، خشي أن تقع في أيديهم ويرفضوا تسليمها إليه طبقاً للاتفاقية المبرمة بينهما، ولما كان هدفه العمل على إعادتها إلى حظيرة الأمبراطورية، ورغبة منه في ألاَّ تصاب بسوء على أيديهم؛ بادر إلى التفاوض مع الأتراك لتسليمها إليه دون قتال، ولهذا السبب وافق على شروطهم في أن يخرجوا سالمين.

ويبدو أن تعليلهم هذا صحيح. إذ ذكرت آنا كومنين أن الأمبراطور كان يود الاشتراك شخصياً مع القوات الصليبية في قتال الأتراك، لكنه خشي من أعدادهم الكثيرة التي كانت مصدر قلق له، كما أن احتمال فشله في إحراز نصر عسكري في هذه الظروف الحرجة، يُعدُّ ضربة قاسية له، لذلك فضَّل الانتظار في مدينة بيلكانوم ومراقبة تطور الأحداث، وهي لا تخفي أن أباها كان يرغب باستعادة نيقية دون مساعدة الصليبيين لأنه خشي من أنهم إذا امتلكوها قد لا يفون بتعهداتهم، ولذلك أخفى نواياه طي الكتمان وانتهج خطة مزدوجة، فأرسل بوتوميتس الذي يثق به إلى المدينة لإقناع الحامية بتسليمها له مقابل الأمان، وكلَّفه أن يحذِّرهم في الوقت نفسه، سوء العاقبة إذا وقعت المدينة بأيدي الصليبيين[٤].

---

(١) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه. Alexiad: p 273.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٤٧.

(٣) Alexiad: pp 273 - 275.

(٤) وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣. إنه يصف تاتيكيوس بالرجل العظيم الدهاء. Alexiad: p 268.

من الثابت أن عملية التسليم تمَّت وفقاً للاتفاق المعقود بين ألكسيوس كومنين وزعماء الصليبيين، على الرغم من تلك الاتصالات السرية التي جرت بين السلاجقة والبيزنطيين بشأن ذلك، وأن ألكسيوس كومنين وفى بكل تعهداته التي نص عليها الاتفاق، حتى أن زعماء الحملة الصليبية زاروه في اليوم التالي لشكره وتهنئته قبل أن يستأنفوا زحفهم، ولم يعارض أحد منهم في تسليمه المدينة، كما جدَّدوا له القسم، باستثناء تانكرِد وصنجيل اللذين أصرَّا منذ البداية على عدم التعهد بأي قسم للأمبراطور(١).

ومهما يكن من أمر، فقد سقطت نيقية في أيدي البيزنطيين في (١٦ رجب ٤٩٠هـ/ ١٩ حزيران ١٠٩٧م) بعد ستة عشر عاماً من فتح السلاجقة لها، وأضحى بوسع الأمبراطورية التنفس بحرية بعد إجلاء السلاجقة عن هذا المعقل الأمامي الحصين(٢).

توجه قلج أَرسلان بعد سقوط عاصمته، نحو قونية، واتخذها عاصمة جديدة لسلطنته، وقاعدة عسكرية للانطلاق منها والدفاع عن أراضيه. ثم أجرى مفاوضات مع الأمير الدانشمندي من أجل تجميد خلافاتهما والتعاون، لمواجهة الغزو الصليبي الذي يهدِّدهما سوياً. لقد زاد سقوط نيقية من خوفه على المستقبل، كما أن ضياع أمواله وكنوزه كان أمراً سيئاً(٣).

أسفرت المفاوضات بين البيتين التركيين، السلجوقي والدانشمندي، عن عقد هدنة بينهما، كما اتحدا للتصدي للزحف الصليبي الذي وصل إلى كبادوكية، وتناسيا، مؤقتاً، تنافسهما بشأن ملطية. وهكذا اتحد جميع الأتراك في آسيا الصغرى للتصدي للصليبيين في سهول دوريليوم(٤).

معركة دوريليوم

استأنف الصليبيون سيرهم بعد استراحة أسبوع على سقوط نيقية، عبر فريجيا، متخذين الطريق الروماني الذي يمر في دوريليوم وفيلوميليوم وقونية وصولاً إلى طرسوس، وصحبتهم سرية من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس المشهور بخبرته وتجربته(٥)، ثم توقفوا في قرية لويكي حيث عقدوا مجلساً عسكرياً حدَّدوا خلاله

---

(١) وليم الصوري: المصدر نفسه. Grousset: vol I p 30 - 31.

(٢) Oman: vol I p 239. (٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٢٧٨.

(٤) عاشور: جـ ١ ص ١٦٦. Camb. Hist. of Islam: vol I p 238.

(٥) Alexiad: p 276. Oman: vol I p 272.

خطة الزحف، وتقرَّر تقسيم الجيش إلى قسمين لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف، والقضاء على المقاومة السلجوقية في أكبر مساحة ممكنة(١).

تألف القسم الأول من نورمان جنوبي إيطاليا، وشمالي فرنسا أتباع بوهيموند وتانكرد، وجنود كونت فلاندر، وستيفن بلوا، فضلاً عن الأدلاء البيزنطيين، وقاده بوهيموند. وتألَّف القسم الثاني من جنود جنوبي فرنسا واللورين أتباع جودفري وريموند دي تولوز، وجنود كونت فرماندوا، وترأسه ريموند. وتقرَّر أن يلتقيا في دوريليوم بعد أن يسيرا بشكل متواز على بُعد سبعة أميال، وأن يفصل بينهما مسيرة يوم واحد(٢).

تقدم الجيش الصليبي بقسميه إلى منطقة السهول التي يسقيها أحد روافد نهر سنغاريوس حيث الأَتراك يتربَّصون بهم، ويُعد هذا المكان مناسباً لممارسة فرسانهم تكتيكهم العسكري. فانطلقوا عبر السهل بخيولهم الخفيفة وراحوا يلتفون حول القسم الأول المتقدم دون أن يصطدموا به. وحرص الصليبيون من جانبهم على ألا يفرِّقهم الأَتراك أَو يفاجئونهم بخوض معركة لم يستعدوا لها، لذلك عسكروا في (٢٧ رجب/ ٣٠ حزيران) قرب خرائب مدينة دوريليوم(٣).

ظهر الأَتراك في صبيحة اليوم التالي، وباشروا فوراً بتطويق الصليبيين والضغط عليهم. وجرى اشتباك بين الطرفين أسفر عن انتصار الصليبيين. ورجحت كفة الأَتراك في بداية المعركة التي استمرت عدة ساعات قبل أن يصل القسم الثاني ويشترك في القتال. وانسحب قلج أرسلان إلى داخل هضبة الأناضول. بلغت الخسائر في الأرواح أقل مما توقع أي من الطرفين، وعانى الأَتراك في آخر عشر دقائق من المعركة عندما حاصر الصليبيون جناحهم الأيسر، وأصيب بوهيموند بجراح، واستولى الصليبيون على المدينة(٤).

نتائج معركة دوريليوم

ـ كان لمعركة دوريليوم، التي يمكن وصفها بمعركة الحظ(٥)، تأثير بالغ السوء على أوضاع السلاجقة. إذ بهزيمتهم خسروا بعض ما كسبوه خلال أكثر من عشرين

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٣٨. Alexiad: Ibid. (٢) Alexiad: p 276.

(٣) Oman: vol I p 273.

(٤) المؤرخ المجهول: ص ٣٩ ـ ٤١. وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩. فوشيه الشارتري: ص ٤٧ ـ ٥٠. Alexiad: pp 276 - 277. Oman: vol I pp 276 - 277.

(٥) Oman: vol I p 277.

عاماً منذ معركة مانزيكرت[1]، إلَّا أنهم كسبوا احترام الصليبيين وإعجابهم بما تحلوا به من شجاعة وبما اتبعوه من أساليب علمية في فنون الحرب[2]. وأدرك قلج أرسلان أن لا جدوى من المحاولة لوقف الزحف الصليبي، فلجأ مع أتباعه إلى التلال بعد أن خربوا القرى لحرمان الصليبيين من الاستفادة من خيراتها. ولم يعد قلج أَرسلان يجرؤ بعد ذلك، على مواجهة الصليبيين منفرداً وجهاً لوجه[3].

ـ ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى هي قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوُّقهم العسكري على القوة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية، ألا وهي قوة السلاجقة[4].

ـ فتحت هذه المعركة الطريق للصليبيين إلى بلاد الشام، وكفلت لهم سلامة المرور عبر آسيا الصغرى[5].

ـ شكَّل سقوط نيقية وخسارة دوريليوم طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها في الأَناضول، وكانتا نقطة تحوُّل في الشؤون السلجوقية بسبب أن الخسارة التي تكبدوها، إن في الأرواح أَو في الممتلكات، كانت فادحة بحيث وضعت حداً لأحلامهم التوسعية.

ـ نجحت بيزنطية في استرداد الجزء الغربي من الأَناضول التي خسرته بعد سقوط نيقية بأيدي السلاجقة في عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، مع الملاحظة أن هذا النجاح إنما جاء نتيجة مباشرة للحملة الصليبية الأولى.

ـ أدَّت عملية الاسترداد إلى تغيير مهم في خريطة الأراضي، إذ بينما كانت الحدود السلجوقية ـ البيزنطية تمر في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) في مدينتي نيقية ونيقوميدية على مسافة قصيرة من بحر مرمرة ومضيق البوسفور، نرى أن هذه الحدود قد تغيَّرت بعد أن تمَّ طرد الأَتراك من بيثينيا وأيونيا وليديا وفيريجيا، ومن ثمَّ عادت هذه المقاطعات بيزنطية[6]، وبذلك تكون الأمبراطورية قد ثأرت لنفسها مما حلَّ بها على أيدي السلاجقة منذ معركة مانزيكرت[7].

ـ حرمت الخسارة السلاجقة من امتلاك هرقلة وقيصرية، بالإضافة إلى أن مملكة بلدوين التي أسَّسها في الرها، ومملكة غودفري في فلسطين، وضعتا حداً

(١) Rice: p 55.
(٢) المؤرخ المجهول: ص ٤١ ـ ٤٢.
(٣) Alexiad: p 277.
(٤) Grousset: vol I p 35.
(٥) Oman: vol I p 279.
(٦) عاشور: جـ ١ ص ١٧١.
(٧) Grousset: vol I pp 42 - 43.

لتوسعهم شرقاً، كما أن وجود قوة نورمانية على شاطىء البحر المتوسط، حرمهم من الاستفادة من الشواطىء الجنوبية الغربية، وإذا كان عليهم أن يستمروا فإنهم لا بد أن يعيدوا سيطرتهم على الأناضول ويصبحوا أسياده مجدداً.

- بعد اندحار السلاجقة في معركة دوريليوم، تسلَّم الدانشمنديون زمام مبادرة التصدي للصليبيين، كما استغلُّوا ضعف أولئك ونزول الكوارث بهم، فشدَّدوا ضغطهم على ملطية التي نازعهم عليها قلج أَرسلان يوماً[1].

- بالإضافة إلى تراجع قوة السلاجقة، فقد ساءت علاقتهم بسلاجقة الشرق، لأن قلج أَرسلان لم يعترف لهم بالسيادة، إلَّا أنه كان أمامه بصيص أمل، فعرف كيف يستغل استمرار تدفق المهاجرين من الأَتراك إلى آسيا الصغرى، بأعداد متزايدة، فجنَّدهم في صفوف جيشه، وخلق منهم جيلاً محارباً قوياً مدرَّباً ومنظَّماً[2].

استئناف الزحف الصليبي باتجاه بلاد الشام

تابع الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا إلى قونية، بعدما عانوا من صعوبة الأرض وقلَّة الزاد وندرة المياه وارتفاع درجة حرارة الصيف، فوجدوا المدينة خالية من السكان إلَّا من بعض الأرمن المقيمين بالقرب منها، ويُذكر بأن الأَتراك أخلوا مدينتهم واحتموا بالجبال[3]، فاجتذبتهم خصوبتها وبخاصة أن المدينة كما وصفها المؤرخ المجهول «منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والأطايب وتزخر بشتى أنواع الحياة»[4]، فاستجمُّوا بها، قبل أن يواصلوا تقدمهم إلى مدينة هرقلة القريبة منها، وأشار عليهم الأرمن أن يحملوا معهم كميات وفيرة من المياه[5].

وجدَّد الأَتراك خلال ذلك محاولاتهم لعرقلة التقدم الصليبي، وكانت القيادة هذه المرة بيد كل من الأميرين حسن وكمشتكين أحمد دانشمند، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام تصميم الصليبيين على اختراق المنطقة. ولما وصلوا إلى هرقلة، انشق كل من تانكرِد وبلدوين عن الجيش الرئيسي وتوجها إلى قيليقية، في الجزء الجنوبي الشرقي في آسيا الصغرى، ليرويا ظمأهما بتأسيس إمارات فيها[6]، في حين تحرَّك الجيش الرئيسي نحوقيصرية واستولى عليها بعد أن هجرها الأَتراك، كما استولى الصليبيون على كومانا وهي قلعة أرمينية في جبال طوروس

---

(1) Michel le Syrien: vol III p 187.
(2) Rice: pp 55 - 56.
(3) المؤرخ المجهول: ص ٤٣.
(4) المصدر نفسه: ص ٤٤.
(5) المصدر نفسه.
(6) فوشيه الشارتري: ص ٥١.

ذات موقع هام، وكان الدانشمنديون يحاصرونها، ولما اقترب الصليبيون منها اختفى الأتراك[١].

تقدم الصليبيون بعد ذلك إلى كوكسن، وهي مدينة خصبة سكانها من الأرمن، فاستُقبلوا بالمودة البالغة، وتزودوا منها قبل أن يتقدموا إلى مرعش ويستولوا عليها[٢]. ولم تتغيَّر أوضاعهم نحو الأفضل إلّا عندما وصلوا إلى منطقة أرمينية الصغرى، إذ مدَّ لهم سكانها من الأرمن، يد المساعدة، وأحسنوا استقبالهم، وزوَّدوهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤن.

الواقع أن الأتراك بمختلف فروعهم فشلوا في وقف الزحف الصليبي وبدا لهم أن النهاية أضحت قريبة. فالمدن مهجورة، والقرى مدمَّرة، والقوى مشتَّتة، واستعاد البيزنطيون معظم ما فقدوه من أراضٍ ومدن، كما تسلموا بعضها من الصليبيين بعد أن انتزعها هؤلاء من المسلمين، مثل كومانا ومرعش.

سيطرة الصليبيين على قيليقية

شكَّل التواجد الأرميني الكثيف في قيليقية عاملاً رئيسياً، سهَّل مهمة الصليبيين في الاستيلاء على هذا الإقليم، إذ أن معظم سكان المدن والقلاع كانوا من العنصر الأرميني مع وجود حاميات سلجوقية وضعها السلاجقة في المدن الكبرى مثل طرسوس وأذنة والمصيصة منذ أيام سليمان بن قُتلمش[٣].

توجَّه تانكرِد نحو مدينة طرسوس، بناء لاستدعاء أهلها من الأرمن، فتصدَّت له الحامية التركية، غير أنه انتصر عليها، وتراجع الأتراك إلى داخل المدينة وتحصَّنوا بها. ووصل في هذه الأثناء، بلدوين على رأس قوة صليبية أخرى اشتركت في حصار المدينة، عندئذ أدرك الأتراك أنَّهم يواجهون جموعاً صليبية كثيفة لا قِبل لهم بها، فآثروا الخروج من المدينة والانسحاب منها وبخاصة أن اتصالاتهم مع الحكم المركزي كانت مقطوعة، ولا سبيل إلى المقاومة. وفتح الأرمن أبواب المدينة للصليبيين الذين دخلوا إليها دون قتال[٤].

أدَّى سقوط طرسوس بيد تانكرِد إلى نشر الرعب والرهبة في قلوب أفراد

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٥١. Grousset: vol I p 40. ومرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. الحموي: جـ ٥ ص ١٠٧.

(٣) Albirt d'Aix: p 342.

(٤) فوشيه الشارتري: ص ٥١ ـ ٥٢. Grousset: vol I p 46. Ibid: p 344.

حاميات المدن الأخرى الذين فضَّلوا الخروج من تحصيناتهم والانسحاب إلى الشمال. وهكذا سقطت أذنة والمصيصة بيد تانكرِد. ويروي ابن القلانسي أن الصليبيين استولوا في طريقهم على بعض الثغور والدروب(١).

أقام الصليبيون بعد سيطرتهم على قيليقية حاميات صليبية في طرسوس وأذنة والمصيصة، لم يكن بوسعها مقاومة هجوم تركي واسع، إنما تمكَّنت من منع الفرق السلجوقية المتفرقة في أنحاء المنطقة من استخدام قيليقية قاعدة لشن الهجمات على الجناح الصليبي أثناء مهاجمة أَنطاكية.

لا يهمنا في هذا المقام، تفصيل ما نشب من خلاف بين تانكرِد وبلدوين، كان دامياً أحياناً، بشأن السيطرة على قيليقية، إنما يكفي أن نعلم أن كلاً من الزعيمين لم يجد ضالته في منطقة قيليقية. فغادر بلدوين المنطقة ولحق بالجيش الصليبي الرئيسي في مرعش. أما تانكرِد فقد وافى الصليبيين عند أَنطاكية(٢). والمؤكد أن التواجد السلجوقي في هذه المنطقة قد انتهى، وسيستقل الأرمن بها.

تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، وسيطروا نظرياً على قيليقية، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا مدينة أَنطاكية، وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل مجدداً عن الجيش الرئيسي عند عينتاب(٣)، وتوجه نحو الشرق علَّه يوفق في منطقة الفرات حيث فشل في قيليقية، وبخاصة أنَّه تلقَّى دعوة من الأمير ثوروس حاكم الرها(٤) لمساعدة المدينة أمام الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا، حاكم الموصل، القادم لنجدة أَنطاكية.

وكانت فرصة استغلها بلدوين بذكاء في تأسيس إمارة له في الرها حيث تبنَّاه صاحبها وأشركه معه في الحكم. ولم تمض مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين امرأته وتسلَّم الحكم، وذلك في (ربيع الآخر ٤٩١هـ/ آذار ١٠٩٨م). وهكذا تأسَّست أول إمارة صليبية في ربوع الشرق الأدنى الإسلامي(٥).

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص ٢١٩.

(٢) Albirt d'Aix: pp 342 - 350. Grousset: vol I pp 46 - 47.

(٣) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك، ودلوك رستاقها. الحموي: جـ ٤ ص ١٧٦.

(٤) فوشيه الشارتري: ص ٥٢.

(٥) المصدر نفسه: ص ٥٢ ـ ٥٣. Mathew of Edessa: pp 37-38 .

توسع بلدوين، فاستولى على تل باشر[1] والراوندان[2] وسميساط[3] وسروج[4]، بالإضافة إلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة الفراتية، فامتدت رقعة هذه الإمارة الصليبية فوق مساحة من الأرض تقع شرق نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهدَّدت مدن ديار بكر، مثل نصيبين وماردين[5] وحرَّان، بل شمالي العراق كله، كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل.

تمثَّلت أهمية هذه الإمارة في أنَّها أدَّت دور الحاجز في الشمال الشرقي بحيث تلقَّت الهجمات الإسلامية الأولى، بدلاً من الإمارات الأخرى. وهنا قبع بلدوين فرحاً بما حقَّقه؛ ولم يعد يهتم بمساعدة الجيش الصليبي الرئيسي الذي كان لا يزال يحثُّ الخطى نحو أنطاكية.

كانت إمارة الرها من أوسع الإمارات الصليبية وأشدها أذى للمسلمين بسبب أطماع حكَّامها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات، ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرُّضها بالضرورة لردود أفعالهم، بالإضافة إلى عدم تلقِّيها دعم الحجاج، ولا إمدادات التجار الإيطاليين.

تأسيس إمارة أنطاكية

وصل الصليبيون إلى أَنطاكية في شهر (ذي القعدة ٤٩٠هـ/ تشرين الأول ١٠٩٧م) وضربوا الحصار عليها. استمر هذا الحصار مدة سبعة أشهر بدت خلالها معاناة الصليبيين واضحة، فتفشَّت المجاعة في معسكرهم، ولم تجد فرق السلب والنهب التي شكَّلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة، ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي.

وفي المقابل، كان المسلمون في داخل المدينة ينظمون صفوفهم، ويعزِّزون

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينهما يومان، وأهلها نصارى أرمن. الحموي: جـ ٢ ص ٤٠.

(٢) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٩.

(٣) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. المصدر نفسه: ص ٢٥٨.

(٤) سروج: بلدة قريبة من حرَّان من ديار مضر. المصدر نفسه: ص ٢١٦.

(٥) ماردين: قلعة مشهورة على قنَّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيسر ودارا ونصيبين. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٣٩.

وسائل الدفاع عن أملاكهم. أما المسلمون في خارج المدينة، فقد فشا بينهم التنازع والشقاق، على الرغم من أن جيشاً إسلامياً بقيادة كربوغا أمير الموصل كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، لكنه وصل بعد فوات الأوان.

إذ في غمرة البؤس الصليبي، حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، أي بناء إمارة نورمانية في الشرق الإسلامي، فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها.

ونتيجة للذعر الذي انتاب الصليبيين، وافق الزعماء على طلبه. وكان بوهيموند قد دبَّر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح البرج الذي يتولَّى حراسته، فدخل الصليبيون إلى المدينة. واستولى بوهيموند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أَنطاكية الصليبية في شهر (جمادى الآخرة ٤٩١هـ/ أَوائل حزيران ١٠٩٨م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسِّسها الصليبيون بعد إمارة الرها(١).

تأسيس مملكة بيت المقدس

تقدَّم الصليبيون خلال شهر (صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٩م) إلى بلاد الشام بعد تردُّد طويل. وأدرك أمراء المدن الإسلامية خطورة الموقف لعدم وجود قوة إسلامية كبرى تجاورهم وتحميهم من ذلك الخطر، لذلك آثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدَّموا به من عروض، ولنا في سلطان بن منقذ صاحب شيزر(٢)، وبني عمار في طرابلس مثلاً على ذلك.

وسلك الصليبيون طريق الساحل الشامي، وتوغلوا جنوباً حتى تركوا الطريق الساحلي عند أرسوف(٣) المؤدي إلى يافا(٤)، ثم شقوا طريقهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة، وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار مدة خمسة أسابيع بين شهري (رجب وشعبان/ حزيران وتموز)، وتمكَّنوا من اقتحامها يوم الجمعة (٢٢

---

(١) انظر فيما يتعلق بتأسيس هذه الإمارة: ابن القلانسي: ص ٢٢٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٥ ـ ١٨٦. ابن العبري: ص ١٢٣ ـ ١٢٤. المؤرخ المجهول: ص ٥٣ ـ ٧٠. فوشيه الشارتري: ص ٥٣ ـ ٦٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٨٠ ـ ٣٣٢.

(٢) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ ٣ ص ٣٨٣.

(٣) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٥١.

(٤) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤٢٦.

شعبان/ ١٥ تموز)، وأحدثوا فيها مذبحة مروعة، ولم ينج من السكان سوى قائد الحامية الفاطمية، افتخار الدولة، وعدد من رجاله، ونصَّبوا عليها جودفري دي بوايون الذي اتَّخذ لقب «حامي القبر المقدَّس»[١]. لكن هذه الإمارة لم تلبث أن تحوَّلت إلى مملكة في شهر (رمضان ٤٩٣هـ/ تموز ١١٠٠م) على أثر وفاة جودفري واستدعاء بلدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس، وتمَّ تتويجه في شهر (صفر ٤٩٤هـ/ كانون الأول ١١٠٠م)[١].

التنازع حول ملطية

لم تلبث الأحداث السياسية أن تطورت نحو الأفضل بعد أن تبين أن الصليبيين لم يهدفوا من وراء هجماتهم الاستقرار في المنطقة، في الوقت الذي قامت فيه الأمبراطورية البيزنطية بمحاولات لاستعادة أملاكها السابقة، غير أنَّها لم تنجح إلَّا في استعادة الجزء الغربي والسيطرة على الساحل.

وتجدَّدت في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) محاولات كمشتكين أحمد دانشمند لفتح ملطية، فاستنجد حاكمها جبريل بـ بوهيموند أمير أنطاكية، وتعهَّد له بتسليمه المدينة إذا نجح في إنقاذها، فهبَّ الأمير الصليبي لمساعدته[٢]، وهو يدرك أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في المسائل المتعلِّقة بتاريخ المنطقة، وبخاصة في الأزمة الناشبة بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية بشأن التنازع حول ملكية أنطاكية بعد انتزاعها من أيدي المسلمين، لذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم معتقداً أن النورمان والأرمن تجمعهم مصلحة مشتركة، هي معاداة كل من البيزنطيين والأتراك[٣].

غادر بوهيموند أنطاكية في شهر (ذي القعدة ٤٩٣هـ/ أيلول ١١٠٠م) على رأس قوة عسكرية قليلة العدد[٤] متوجهاً إلى ملطية، دون اكتراث للكمائن التركية التي نصبوها للإيقاع به بعد أن علموا بوجهته بواسطة الجواسيس، وقد صحبه ابن عمه ريتشارد أمير سالرنو، ولم يلبث أن وقع في إحدى هذه الكمائن وانتهى الأمر

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ٧١ ـ ٧٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٥٦. ابن القلانسي: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٩. ابن العبري: ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) ابن العبري: ص ١٢٥. Mathew of Edessa: p 51.

(٣) Grousset: vol I p 378.

(٤) يقدر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ فيه كما يبدو من تطور الأحداث التي أدَّت إلى أسره. الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ١٤٥.

بأسره مع ابن عمه من قِبل كمشتكين أحمد الدانشمند فنقلهما إلى قلعة نيكسار الواقعة في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى قرب شواطىء البحر الأسود[1].

مما لا شك فيه أن وقوع بوهيموند في الأسر جاء كارثة على الصليبيين نظراً لنشاطه وبلائه في حرب المسلمين، مما حمل أحد مؤرخي الأرمن على القول إن اسم بوهيموند كان يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان[2]. كما أثار أسره موجة من الحماسة المؤقتة بين صفوف المسلمين ظهر أثرها في النكسة التي مُنِي بها الصليبيون. من ذلك أن النورمان أسرعوا عقب كارثة الأسر إلى الانسحاب من إقليم حلب، في حين تشجَّع رضوان، صاحب حلب، فأغار على مزارع الغلال المجاورة متخذاً معسكره قرب سرمين. أما جناح الدولة أمير حمص، فإنه استرد قلعة أسفونا الواقعة غربي سرمين وشمالي معرة النعمان[3].

استغل كمشتكين أحمد الدانشمند هذا النصر ليشدِّد الحصار على ملطية. وحتى يثير الرعب في نفوس أهلها علَّق رؤوس الضحايا من الصليبيين والأرمن من أتباع بوهيموند على أسنة الرماح وطاف بها حول الأسوار، كما ساق أمامه الأسرى مكبلين بالأغلال.

وكان بوهيموند، عندما أدرك أنه واقع في الأسر، قد أرسل رسالة إلى بلدوين حاكم الرها يستنجد به. لم يتردَّد هذا الأخير، الذي كان أكثر اهتماماً بسلامة إمارات الصليبيين، بالخروج على رأس قوة عسكرية قاصداً ملطية. ولما علم الأمير الدانشمندي باقترابه رأى أن من الحكمة أن ينسحب إلى بلاده بما يحمله من غنائم وأسرى[4]، حتى لا يقع بين فكي الكماشة، عاقداً العزم على مهاجمة ملطية في فرصة أخرى أكثر ملاءمة، وهذا دليل على وعي سياسي في التخطيط العسكري لدى أَتراك آسيا الصغرى بعامة.

اقتفى بلدوين أثر كمشتكين أحمد دانشمند إلى الجبال وهو يمنِّي النفس بالقبض عليه وتدمير قوته العسكرية. ولما كان هذا الأخير قد توغَّل بعيداً داخل البلاد، خشي بلدوين متابعة مطاردته حتى لا يقع في كمين، فتوقف عن المطاردة، وعاد إلى ملطية، فاستقبله السكان بالحفاوة، وأعلن جبريل حاكم المدينة، تبعيته له،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤. ابن الأثير: المصدر نفسه. فوشيه الشارتري: ص ٨٤
Albirt d'Aix: p 525.

(٢) Mathew of Edessa: p 52. (٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٦، ٣٥٨.

(٤) فوشيه الشارتري: ص ٨٥. Albirt d'Aix: p 525.

ثم غادرها عائداً إلى مركز إمارته في الرها بعد أن ترك فيها حامية عسكرية قليلة العدد للدفاع عنها، غير أن تلك الحامية لم تكف لحماية المدينة من هجمات الدانشمنديين المتواصلة[١].

تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق

لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حقَّقته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمَّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران. ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسَّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.
- استئناف عملية التوسع.
- حراسة ما حقَّقوه من مكاسب.
- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعثت منه صحوة صليبية أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكَّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) بقيادة أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بياندرات، وجيوبرت كونت بارما، وهيو كونت مونتيبلو[٢].

ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها[٣] لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنَّها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، وتألَّفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام[٤]، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الأمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في (جمادى الأولى/ آذار)، واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى[٥].

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ٨٥.

(٢) Albirt d'Aix: p 559.

(٣) يقدر ألبرت العدد بمائتي ألف. Ibid.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨.

(٥) Albirt d'Aix: pp 561 - 562.

وفعلاً، لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا، وهيو كونت بروي، وبلدوين كونت جراندبريه، وهيو بييرفون أسقف سواسون، بالإضافة إلى سرية ألمانية بقيادة كونراد، كندسطبل الأمبراطور هنري الرابع[(١)].

عبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل[(٢)]، وعيَّن الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند كونت تولوز قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس[(٣)].

معركة مرسيفان

تحرَّك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم بهدف الوصول إلى الأَراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الأمبراطور ستيفن بلوا بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأَراضي المقدسة إلَّا بعد فك أسر بوهيموند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصرُّوا بأن تتوجه الحملة إلى كبادوكية[(٤)]. ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر[(٥)].

وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء، فقد توجَّه أفراد الحملة إلى الأَراضي الدانشمندية عبر أنقرة التابعة لقلج أَرسلان، فاستولوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار. وحتى يعرقل التقدم الصليبي، عمد قلج أَرسلان إلى الانسحاب التدريجي من أمام القوة الصليبية، واتَّبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه، وحرَق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين[(٦)]. وفي الوقت

---

(١) Albirt d'Aix pp 562 - 563.

(٢) يذكر ابن الأثير أن العدد هو ثلاثمائة ألف، في حين قدَّرته آنّا بخمسين ألفاً من الفرسان وعشرة آلاف من المشاة. الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ١٩٨. Alexiad: p 289 .

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٤) Albirt d'Aix: pp 563 - 564.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ١٩٥.

(٦) رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٨. Alexiad: p 289 .

نفسه، أخذت القوى التركية تتجمَّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي. فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود[١].

وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأَتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة، لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأَتراك. واقترح ريموند، حتى يجنِّب الجيش الدمار المحقَّق، أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاد المؤن وتدمير الأَتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار. وتعرَّض الصليبيون لهجوم تركي مفاجىء، فتفرَّقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لمَّ شعثهم.

ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمبارديين أصرُّوا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل باقي الأطراف على رأيهم مرغمين[٢].

اجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمنديين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية[٣]. وعندما أدرك الأَتراك أن القوة الصليبية أضحت منهَكة تقدَّموا نحوها واصطدموا بها. ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفرُّوا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم. ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأَتراك[٤]. تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلَّا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش[٥]، واستولى الأَتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً. ولم يلبث ريموند أن وصل إلى

(١) رنسيمان: ج ٢ ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه: ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) المرجع نفسه: ص ٤٤. Oman: vol I p 241.

(٤) Ibid.

(٥) يذكر أومان أن الخسائر بلغت تسعة أعشار الجيش، Ibid: p 240. Albirt d'Aix: pp 569.

بافرا، الميناء البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلّته من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية[1].

يشير المؤرخ اللاتيني ألبرت أوف أكس، أن ريموند تلقى رشوة من الأَتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبَّع سير الحملة وما رافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمبارديين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمنديين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المآزق التي أوقع نفسه فيها ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلّا نتيجة لما تعرَّض له الجيش من متاعب. أما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعد أن ولّى اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة.

معركة هرقلة الأولى

محت الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في مرسيفان، الشهرة التي اكتسبها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم، وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ، في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة[2]. وحرص وليم على اللحاق باللمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة، فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلّا أن توجه نحو قونية. ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل، فتركها[3].

كان السلاجقة وحلفاؤهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم قلج أَرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند بقدوم هذا العدو الجديد، وإذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة.

سارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبدَّ بهم، هاجمهم الأَتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء

---

(١) Albirt d'Aix: Ibid pp 564 - 567.

(٢) Setton: vol I p 358. Oman: vol I p 242.

(٣) Albirt d'Aix: pp 576 - 578.

الكونت وستة من أتباعه[1].

معركة هرقلة الثانية

في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق باڤاريا، ويبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل.

خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه بوهيموند من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طبّقوها من قبل، بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار.

ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية، وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جرّدت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين[2].

لم يمكث الصليبيون في قونية، وغادروها إلى هرقلة على طريق يبلغ طوله خمسة وخمسون ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش، وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر، ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة[3].

تربّص المسلمون، في هذا الوقت، بالصليبيين، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة. وإذ اضطرب نظامهم، انقضّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلّة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية[4].

نتائج معارك عام ٤٩٤هـ/ ١١٠١م

انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثّرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة، وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة، من جهة أخرى، وأهم هذه النتائج هي:

ـ ثأر السلاجقة لما حلّ بهم في دوريليوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٠. Albirt d'Aix: pp 575 - 578.

(٢) Setton: vol I pp 361 - 362. Oman: vol I p 242.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٢. Oman: Ibid pp 242 - 243.

(٤) Ibid. Albirt d'Aix: pp 580 - 582.

الأَناضول، كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.

ـ ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء، على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه. فخشي المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، ما لم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلّا بحراً مع ما يتطلّب ذلك من مصاريف إضافية لم يكن يتمكّن من دفعها إلّا القليل. وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام(١).

ـ ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلَّ بهم من مصائب، وحمَّلوهم مسؤولية ما حدث. وتردَّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفِّذ تعاليم الأمبراطور عندما أخرج الجيش الذي يقوده عن طريقه المرسوم ليلقى أفراده حتفهم في كمين سبق إعداده(٢). والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عما حَّل بهم من كوارث.

ـ لم يلبث قلج أَرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات، وشاركه سائر أَتراك الأَناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينية ببلاد الشام(٣).

ـ استأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق، وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها جبريل في (٢٣ ذي الحجة ٤٩٥هـ/ ١٨ أيلول ١١٠٢م)(٤).

ـ أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام، الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملطية وفدية بوهيموند، فتفكَّكت بذلك جبهة الأَتراك في المنطقة(٥).

---

(١) عاشور: جـ ١ ص ٣٥٢. رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٧.

(٢) Albirt d'Aix: pp 564 - 567.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٧.

(٤) ابن العبري: ص ١٢٦. Cahen: La Syrie du Nord: p 232.

(٥) Camb. Hist. of Byzantine Empire vol IV prt 1 p 741.

إحجام السلاجقة العظام وسلاجقة الشام

قبل اختتام صفحة الصراع السلجوقي ـ الصليبي في عهد قلج أَرسلان، ثمة ظاهرة ملفتة للنظر وهي أن السلاجقة العظام في خراسان وإيران وأتابكتهم في الموصل، وسلاجقة الشام، أحجموا عن التحرك في تلك المرحلة لمساعدة إخوانهم سلاجقة الروم ضد الصليبيين، كما لم يحاولوا الحد من توسعهم في شمال الشام والعراق، ولا الاستفادة من الوضع السيء الذي باتوا فيه عقب أسر بوهيموند؛ لتحويل مسار الحركة الصليبية في الشرق الإسلامي، وطرد الصليبيين، على الرغم من أن السلاجقة العظام كانوا يشكلون القوة الإسلامية الرئيسية في العالم الإسلامي السنِّي، آنذاك.

لقد وقف السلاجقة العظام يشاهدون زحف الجموع الصليبية إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى، وارتضوا أن تقوم القوى التركية القوية أَو الضعيفة المبعثرة، بمحاربتهم، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك الجموع التي ربضت في شمالي بلاد الشام، وشمالي العراق، وهدَّدت سلامة الخلافة العباسية في بغداد.

الواقع أن انشقاق السلاجقة العظام، وانقسام صفوفهم، والنزاع الداخلي بين زعمائهم وقادتهم، هو السبب الذي أدَّى بهم إلى هذا التصرف. إذ ترافق انتصار الصليبيين مع انحلال السلطة المركزية، وضعف سيطرة السلطان بركياروق على مختلف حكام الأقاليم، ولم يلبث أن اشتد النزاع بين أمراء السلاجقة وقادتهم مما زاد في ضعف قوتهم، فتعذَّر عليهم بالتالي، القيام بأي عمل ضد الصليبيين في آسيا الصغرى وشمالي بلاد الشام. نذكر من بين النزاعات الداخلية المسلَّحة، النزاع الذي نشب بين السلطان بركياروق وأخيه السلطان محمَّد[(1)]، والقتال الذي جرى بين القادة العسكريين وولاة الأمور حول حكم الموصل عقب وفاة حاكمها كربوغا في (ذي القعدة ٤٩٥هـ/ أيلول ١١٠٢م)[(2)]، فتأثَّرت سائر الأقاليم التابعة للدولة السلجوقية بهذه الأحداث، فعمَّ الفساد، وانتهبت الأموال، وأُحرقت القرى، وتداعت الحكومة المركزية، في حين علا شأن أمراء الإقطاع.

ولا تقل الخصومات بين أفراد البيت السلجوقي في بلاد الشام حدَّة عن الانقسامات بين أفراد البيت السلجوقي في خراسان وإيران، فانقسمت بلاد الشام

---

(١) انظر حول هذه النزاعات: ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٩٦ ـ ١٩٧، ٢٠٥ ـ ٢٠٨.

(٢) انظر حول هذا الصراع: المصدر نفسه: ص ٢١٠ ـ ٢١١.

نتيجة ذلك إلى قسمين. فحكم رضوان بن تُتش حلب، وحكم أخوه دقاق دمشق، وشُغل الأخوان بالمنازعات الأسرية، فكل واحد يتربَّص بالآخر وينوي السيطرة على أملاكه، حتى تبادلا الحرب الدامية. فهاجم رضوان دمشق أكثر من مرة، وبادله دقاق بمهاجمة حلب إلَّا أنه فشل في دخولها[1]، كما كانت لكل من الأخوين مطامع إقليمية على حساب جيرانه المسلمين. فقد أراد رضوان السيطرة على منطقة شمالي الشام على حساب الأراتقة، فهاجم سروج واستولى على الرها، وكذلك كانت نية دقاق عندما هاجم الرحبة[2] واستولى عليها[3]، كما استولى على ديار بكر، وتسلَّم ميافارقين وحمص[4]. ومما زاد في حدة الانقسامات والتفتت الداخلي، النزاعات التي نشبت بين أمراء الإقطاع، ومناصرتهم لكل من الأخوين. من ذلك الخلاف الذي نشب بين الأميرين جناح الدولة أيتكين زوج والدة رضوان وأتابكه، وبين ياغي سيان صاحب أنطاكية، مما دفع رضوان إلى التخلي عن مواصلة التوسع في شمالي بلاد الشام، وعاد إلى حلب[5]. وأدَّى هذا الخلاف إلى تحوُّل ياغي سيان في ولائه السياسي، فترك رضوان وساند دقاق[6]. أما جناح الدولة، فقد دخل في صراع مع رضوان واستقل بحكم حمص في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) متخذاً موقفاً أكثر تحرراً.

والواضح أن سلاجقة الشام لم يعوا خطورة الوضع السياسي الناجم عن الغزو الصليبي إلَّا عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية، حيث اشترك رضوان في الجيش الإسلامي الذي أرسل لنجدة المدينة المحاصَرة[7].

صراع قلج أَرسلان مع الدانشمنديين

اندلعت شرارة الحرب بين البيتين التركيين في آسيا الصغرى في عام (٤٩٦هـ/

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٤. ابن القلانسي: ص ٢١٥. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٠.

(٢) الرحبة: هي رحبة مالك بن طوق بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً، وهي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسياء. الحموي: جـ ٣ ص ٣٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٧٦. ابن القلانسي: ص ٢٢٩.

(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٢٢٣، ٢٣٠. وميافارقين أشهر مدينة في ديار بكر. الحموي: جـ ٥ ص ٢٣٥.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٦) المصدر نفسه: ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٤.

(٧) ابن العديم: المصدر نفسه: ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

١١٠٣م) على أثر إطلاق سراح بوهيموند من الأسر. ذلك أن زعماء الصليبيين في كل من إمارة أنطاكية وإمارة الرها، ارتابوا في أطماع تانكرِد الذي نُصِّب وصياً على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهيموند، وذلك حين حاول التدخل في الشؤون الداخلية للإمارتين، مما هدَّد أنطاكية بحرب أهلية. ولم يجد بلدوين أمير الرها سبيلاً لمنع ذلك سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته، لذلك أجرى مفاوضات مع كمشتكين أحمد دانشمند لإطلاق سراحه اشترك فيها البطريرك برنارد.

ويبدو أن نبأ المفاوضات وصل إلى مسامع الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين فتدخَّل في القضية بهدف فضِّ التحالف بين قلج أرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند، ومعاقبة بوهيموند الذي نكَّل باتفاقية القسطنطينية عندما احتفظ بأنطاكية لنفسه ولم يسلمها إليه. والواقع أنه أراد أن يعاقب النورمان من خلال بوهيموند مستغلاً الظروف التي أعقبت فشل جموع الصليبيين في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، فعرض على الأمير الدانشمندي مبلغاً سخياً قدره مائتان وستون ألف دينار مقابل تسليمه بوهيموند[1].

وصل نبأ هذا العرض المغري إلى مسامع قلج أرسلان، فطلب من كمشتكين أحمد دانشمند أن يعطيه نصف المبلغ بوصفه سيداً على جميع الأتراك في آسيا الصغرى من جهة، وثمناً للمساعدة التي قدَّمها له في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) ضد اللمبارديين، من جهة أخرى. رفض الأمير الدانشمندي هذا الطلب وتراجع عن قبول العرض البيزنطي حتى لا يشاركه الزعيم السلجوقي نصف الفدية.

ويبدو أن بوهيموند قد علم وهو في الأسر بهذه المفاوضات، فأرسل إلى كمشتكين أحمد دانشمند يذكِّره بأن كلاً من السلطان السلجوقي والأمبراطور البيزنطي عدو مشترك لهما، وأن مصلحتهما تتطلَّب منه أن يطلق سراحه دون أن يسلمه لأحد، ويتعهَّد في هذه الحالة أن يحالفه ضدهما، واستطاع أن يُقنع آسره بفائدة تحالفه مع الصليبيين في أنطاكية ضد العدو المشترك. فوافق كمشتكين أحمد دانشمند على إطلاق سراحه مقابل الحصول على مائة ألف دينار[1].

وحدث أثناء المفاوضات أن هاجم الدانشمنديون مدينة ملطية، فاستنجد حاكمها جبريل بصهره بلدوين صاحب الرها، فرفض تقديم العون له، ولعله شاء أن لا يسيء في هذه اللحظة الحرجة، إلى الأمير الدانشمندي حتى لا تتعثَّر المفاوضات،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٣١. ابن الأثير: جـ٨ ص ٢١١. ابن العبري: ص ١٢٦.

كما أن اتجاه جبريل المذهبي نحو الأرثوذكسية، وكراهية الشعب له، كانا دافعين آخرين، فالسريان بخاصة لم يسامحوه مطلقاً على ما أقدم عليه من قتل أحد مطارنتهم وهو سعيد بن صابوني بتهمة الخيانة[١].

شدَّد الجيش الدانشمندي الحصار على المدينة حتى سقطت ووقع جبريل في الأسر، واستعصت عليه القلعة، فطلب قائد القوة الدانشمندية منه بأن يصدر تعليماته إلى القلعة بالاستسلام، ولما عصت الحامية هذا الأمر تمَّ تنفيذ حكم الإعدام به أمام أسوارها[٢].

كان قلج أَرسلان، في ذلك الوقت، في طريقه إلى أَنطاكية لفتحها، فلما وصل إلى مكان قريب من مرعش، علم بخبر الفدية، فعاد إلى بلاده لتدبر أمر الأمير الدانشمندي بعد أن عزَّ عليه أن يحرمه من مبلغ ضخم كهذا، فأعلن الحرب عليه. وهكذا تفكّكت جبهة الأتراك في آسيا الصغرى، وهي الجبهة التي أمكنها أن تقضي على الجموع اللمباردية. وحتى يدعم موقفه إسلامياً، أرسل إلى كل من السلاجقة العظام والخليفة العباسي يستعديهما على كمشتكين أَحمد دانشمند، بينما استنجد هذا الأخير بالأمبراطور البيزنطي[٣].

واصطدم الجيشان التركيان في رحى معركة ضارية في شهر (ذي القعدة/ آب) انتصر فيه الجيش السلجوقي. لم يحاول قلج أَرسلان استثمار انتصاره بمهاجمة ملطية، وتابع تقدمه باتجاه بلاد الشام، وأرسل رسولاً إلى رضوان حاكم حلب «يلتمس الإذن للسفار بالوصول إلى عسكره بالمير والأزواد، وما يحتاج إليه سائر العسكرية والأجناد، فسرَّ الناس بذلك وتباشروا به»[٤].

ومهما يكن من أمر، فقد استمرت الحرب بين الزعيمين التركيين حتى وفاة كمشتكين أَحمد دانشمند في عام (٤٩٩ ـ ١١٠٥م)[٥] واستؤنفت في عهد خلفائه.

انقسمت الإمارة الدانشمندية بعد وفاة كمشتكين أحمد دانشمند بين ولديه. فحكم ابنه الأكبر غازي (٤٩٩ ـ ٥٢٩هـ/ ١١٠٥ ـ ١١٣٥م) سيواس وأملاك والده في

---

(١) ابن العبري: المصدر نفسه ص ١٢٢.

(٢) Michel le Syrien: vol III pp 185 - 189.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٣١. Albirt d'Aix: pp 613 - 614.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن العبري: ص ١٢٨.

الأناضول، بينما كانت ملطية وأملاك الدانشمنديين في بلاد الشام من نصيب ابنه الأصغر ياغي سيان (أغوسيان)[1].

ظل قلج أَرسلان، منذ أيام كمشتكين أَحمد دانشمند، يتطلع إلى إزاحة الدانشمنديين عن حكم قيصرية وسيواس والسيطرة على ممتلكاتهم، وحانت له الفرصة الآن لتحقيق ذلك. فإن صغر سن ياغي سيان، وافتقاره إلى الخبرة والتجربة؛ أغراه بأن يتوجه نحو الشرق، ويهاجم ملطية، وبخاصة أنه عقد اتفاق صلح مع الأمبراطور البيزنطي، فأمِن جانبه، ولما وصل إلى المدينة ضرب عليها حصاراً مركزاً، ونصب المجانيق على البرج الدائري في الجهة الشرقية الشمالية، ثم استولى عليها بعد أن ضربها بالمجانيق[1].

اتخذ قلج أَرسلان لنفسه بعد ذلك لقب سلطان، وحاول انتزاع اعتراف الأَتراك في آسيا الصغرى وخارجها به، وأبدى استعداده بأن يعادي كل من يعارضه في ذلك. غير أن المؤرخين المسلمين حرصوا على أن ينعتوه بالملك. وأشار متى الرهاوي وميخائيل السرياني إلى لقبه السلطاني، كما نعتته آنّا في الألكسياد بالسلطان، وكذلك فعل ابن العبري[2].

التمدد السلجوقي باتجاه الجزيرة الفراتية والفرات الأعلى ـ وفاة قلج أَرسلان

بلغت شهرة قلج أَرسلان كافة أرجاء العالم الإسلامي، وتطلَّع المسلمون إليه آملين أن يقود حركة الجهاد ضد الصليبيين، فاستغل هذا الموقف ليوسِّع حدود سلطنته بالتمدد نحو الشرق، فكانت سيطرته على ملطية مناسبة استغلها أهالي ميافارقين ليسلِّموه المدينة، فاستدعاه وزيرها ضياء الدين محمَّد في عام (٤٩٨هـ/ ١١٠٥م) وسلَّمه المدينة، كما انتزع الرحبة من الأمير جاولي. واعترف أمراء ديار بكر بسلطته، ثم عيَّن مملوك أبيه خمرتاش السليماني، وهو أتابكه[3]، والياً عليها، وأقطع الوزير ضياء الدين محمَّد مدينة البستان، وعاد إلى ملطية حيث أقام فيها[4].

---

(١) Michel le Syrien: vol III p 192.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٤٠. ابن العبري: ص ١٢٢. Mathew of Edessa: p 28. Alexiad: p 163. Ibid.

(٣) أتابك: لفظة تركية مركبة من كلمتين، آتا معناها أب وبك معناها مؤدب ومربي، وكانت تطلق على الوصي أو المؤدب لأمراء الأتراك الذين كان يعهد بأمر تربيتهم، بالنسبة لحداثة سنهم في أيام السلاجقة، إلى بعض الأمراء البارزين الذين يمتون بصلة القرابة من جهة الأب. دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٤٢٣.

(٤) الفارقي: تاريخ ميافارقين: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣. العظيمي: تاريخ حلب ص ٣٦٢. ابن شداد: الأعلاق =

تطلع قلج أَرسلان بعد ذلك إِلى فتح الرها، فسار إِليها في عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) في عسكر كثيف، وعسكر قريباً منها، إِلّا أنه فشل في اقتحامها نظراً لمناعة أسوارها، فغادر إِلى حرَّان بناء لدعوة أتباع جكرمش المقيمين فيها، فتسلمها منهم، وأقام فيها أياماً مرض أثناءها مما استوجب نقله إِلى ملطية، في حين بقي أتباعه بحرَّان[1].

قرَّر السلطان السلجوقي بعد إبلاله من المرض إِلى ضمِّ الموصل[2]، والتوغل شرقاً باتجاه أملاك السلاجقة العظام في خراسان وإِيران وتزعم السلاجقة بكامل فروعهم. كانت الموصل آنذاك تحت سيطرة السلاجقة العظام، يحكمها جكرمش الذي وجد نفسه مضطراً للانغماس في النزاعات السلجوقية في الشرق. إذ عندما اضطر السلطان بركياروق أن يقتسم أملاكه مع أخيه السلطان محمَّد، كانت الموصل من نصيب هذا الأخير، فبادر إِلى الذهاب ليأخذها، فامتنع عليه جكرمش، فحاصرها. وحاول حاكمها، في ظل الصراع الأسري السلجوقي، أن يستقل بها، فأعلن ولاءه للسلطان بركياروق وقطع علاقاته بالسلطان محمَّد. غير أنه حدث أن توفي بركياروق في (٢ ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ ٢٢ كانون الأول ١١٠٤م)، والسلطان محمَّد يحاصر الموصل، فلم يعد لجكرمش من عذر أمام هذا السلطان، فبادر إِلى الخضوع له. واكتفى محمَّد بإعلان صداقته له ولم يغامر بدخول المدينة[3].

ويبدو أن السلطان محمَّد أزعجه ما كان لجكرمش من نزعات استقلالية، وقوة عسكرية متزايدة، وبخاصة بعد أن استطاع دفع الحصار الذي فرضه عليه حلف مكوَّن من الملك رضوان بن تُتش صاحب حلب وإِيلغازي بن أرتق والإصبهذ صباوة وألبي بن أَرسلان تاش صاحب سنجار[4] وذلك بهدف الاستيلاء على نصيبين[5]. كما ارتاب في نواياه تجاهه عندما عقد اتفاقاً سريا مع قلج أَرسلان

= الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة جـ ٣ قسم ٢ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(١) ابن القلانسي: ص ٢٤٢.

(٢) الموصل: هي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يُقصد إِلى أذربيجان. وسميت بالموصل لأنها وصلت الجزيرة والعراق أو أنها وصلت بين دجلة والفرات، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة. والموصل مدينة قديمة على طرف دجلة تقابلها نينوى في الجانب الشرقي. الحموي: جـ ٥ ص ٢٢٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٤) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. وهي في لحف جبل عال. الحموي: جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣. نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من =

لمناوأته، بدليل أن أتباع جكرمش سلموا مدينة حرَّان إلى السلطان السلجوقي. بالإضافة إلى ذلك، فإن جكرمش لم يف بما تعهد به للسلطان محمَّد من حمل المال إليه[١].

نتيجة لذلك لم يسع السلطان محمَّد إلَّا أن ينتزع الموصل والأعمال التي بيد جكرمش، ويُقطعها لجاولي سقاوة[٢]. وسار جاولي إلى الموصل ليتسلمها، فامتنع عليه جكرمش وخرج للقائه، غير أنه انهزم إثر المعركة التي حدثت بينهما خارج مدينة الموصل، في قرية باكلبا من أعمال إربل، ووقع أسيراً في يد خصمه. ولما كان لجكرمش من محبة ومكانة عند سكان الموصل، بادر هؤلاء إلى تنصيب ابنه زنكي، وله من العمر إحدى عشرة سنة، وخطبوا له على المنابر[٣].

راسل زنكي، في هذه الظروف الضاغطة، قلج أَرسلان، وطلب منه المساعدة، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها. سُرَّ السلطان السلجوقي بطلب المساعدة، وقد قرَّر أن يتوسَّع على حساب الأمراء المتنازعين، وكان آنذاك في ملطية. ولما كانت قواته قليلة العدد؛ استدعى القوة العسكرية التي كان قد أرسلها إلى القسطنطينية مدداً للأمبراطور البيزنطي في حربه ضد بوهيموند أمير أَنطاكية[٤] لذلك أقام في نصيبين بانتظار وصولها. غير أن تسارع الأحداث عطَّل تكتيكه هذا، فغادر نصيبين متوجهاً إلى الموصل. ولما علم جاولي بمسيره انسحب من المدينة، لا سيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي استعماله كأداة للمساومة، ومن جهة أخرى أدرك أن قلج أَرسلان من القوة ما لا يستطيع مجابهته في معركة سافرة، لذلك عزم على تكوين حلف مناهض له، ليقوِّي موقفه[٥].

نتيجة لهذه التطورات، رحل جاولي إلى سنجار ثم إلى الرحبة، واستقر في وادي الفرات، استعداداً للمواجهة المسلَّحة. وحتى يدعم موقفه أجرى مفاوضات مع رضوان صاحب حلب، واتفقا على أن يجري طرد قلج أَرسلان من الموصل

= الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، وعليها سور. الحموي: المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢٨٨.

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٦، ٢٣٨.

(٢) كان جاولي قبل ذلك قد استولى على البلاد الواقعة بين خوزستان وفارس، وأقام هناك مدة سنتين، لكنه أساء السيرة في أهلها. ولما تمكَّن السلطان محمَّد من السلطنة انتدبه لقتال الصليبيين، وأقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٩.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٤١.

ثم شنُّ هجوم مشترك على الصليبيين لطردهم من البلاد التابعة لرضوان[1].

وصل قلج أرسلان، في غضون ذلك، إلى الموصل التي فتحت أبوابها له، واستقبله السكان بالحفاوة، فوعدهم باحترام حرياتهم، وأجرى بعض التغييرات الإدارية؛ منها أنه أسقط اسم السلطان محمَّد من الخطبة، وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى الجنود، ورفع الرسوم المحدثة عن الناس، وعدل فيهم، وأقرَّ القاضي أبا محمَّد عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء، وجعل الولاية لأبي البركات محمَّد بن خميس[2].

وقرَّر السلطان السلجوقي، بعد أن فرغ من ترتيب أوضاع الموصل، محاربة جاولي، فغادر الموصل على رأس جيشه ونزل الشمسانية[3]، وترك ابنه ملكشاه في دار الإمارة، وله من العمر أحد عشر عاماً، مع الأمير أيدبر، وقوة عسكرية لحفظ الأمن.

ويبدو أن قلج أرسلان لم يكن ينوي خوض معركة فورية، نظراً لقلة عدد جنوده من جهة، وقوة خصمه من جهة أخرى. أما جاولي، فقد عسكر في ماكسين[4]، استعداداً للتوجه إلى الموصل لاستعادتها، إلَّا أنه اغتنم فرصة قلَّة عدد جنود خصمه، وتأخُّرَ وصول القوة العسكرية من بلاد البيزنطيين، لِخوض المعركة، فتقدم نحو الخابور[5] على رأس أربعة آلاف مقاتل. وشهدت جبهة قلج أرسلان آنذاك تصدُّعاً خطيراً بسبب الاختلاف في وجهات النظر حول خوض المعركة. فانسحب إبراهيم ينال صاحب آمد[6]، وصاحب ميافارقين، وحجتهما أن المعركة ستكون خاسرة بدون وصول النجدة السلجوقية من بلاد البيزنطيين؛ مما أثَّر سلباً على معنويات القوة السلجوقية. واضطر قلج أرسلان، الذي لم يجد سبيلاً إلى التراجع، إلى خوض المعركة بما تبقَّى من جيشه. وحتى يثير الحماس في نفوس جنده، اقتحم صفوف أعدائه، وأبدى بسالة نادرة في القتال، ووصل إلى جاولي نفسه

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٤١.

(٢) المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية. المؤرخون الشرقيون جـ ٣ ص ٥٣٣.

(٣) الشمسانية: بلدة بالخابور. الحموي: جـ ٣ ص ٣٦٢.

(٤) ماكسين: بلدة بالخابور. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤٣.

(٥) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٣٤.

(٦) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلّها قدراً وأشهرها ذكراً. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٥٦.

وضربه بالسيف، لكن الضربة لم تنفذ إلى جسمه. وباءت جهوده القتالية بالفشل حيث انجلت المعركة عن انتصار واضح لجاولي. وبعد أن أدرك أنه خسر المعركة، حاول الفرار، فألقى بنفسه في نهر الخابور، فانحدر الفرس به إلى ماء عميق، وغرق، وطفت جثته بعد أيام، ودُفن بالشمسانية وذلك في عام (٥٠٠هـ/ ١١٠٧م). عاد جاولي إلى الموصل بعد انتهاء المعركة واستولى عليها، وأرسل ملكشاه بن قلج أرسلان إلى السلطان محمَّد، وأعاد الخطبة له[١].

أثر وفاة قلج أَرسلان الأول

وهكذا أُسدل الستار على حياة السلطان قلج أرسلان الأول الذي يُعدُّ من الشخصيات الفذَّة التي أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثَّر الشرق الأدنى، بمختلف فئاته، بموته.

ـ فسلاجقة الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلج أَرسلان، تعرَّضوا لضغط متزايد من جانب الأمبراطورية البيزنطية التي جدَّدت تدخلها في شؤونهم الداخلية. واستطاع ألكسيوس كومنين أن يعيد، باطمئنان، سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى، وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.

ـ أطالت وفاة قلج أَرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء، للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم، بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشية[٢] والخطر الصليبي؛ شجَّع قلج أَرسلان على التدخل في

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ٢٤١.

(٢) انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي في مصر في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) إلى فرقتين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالحكم، وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصبَّاح الذي أسس في إيران ما يُعرف بالفرقة النزارية وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية التي اعترف أتباعها بإمامة الابن الثاني للمستنصر وهو المستعلي. هذا وقد أطلق المؤرخون على الفرقة الأولى عدة تسميات، منها:

ـ الحشيشية أَو الحشاشين: جاءت هذه التسمية إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها، لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجهه لتنفيذ مهمة ما. ونحن نعلم من مؤرخي الحروب الصليبية أن جماعة الحشاشين استعملت الحشيش استثارة للقتل واحتقاراً للموت =

شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحِّد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق وكان باستطاعته تحقيق حلمه هذا. فالظروف السياسية الداخلية والخارجية كانت موآتية غير أن وفاته أنقذت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.

ـ تُعدُّ وفاة قلج أَرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخُّل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى. والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلَّا في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) بعد زوال هذه الدولة على يد القراخطائيين[(١)].

ـ حرم موت قلج أَرسلان، سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم. ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلَّص سريعاً، لأن ابني تُتش، رضوان ودقاق، لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكّنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي. ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي لا تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي، وظهرت من تلك البيوت، وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك[(٢)].

= في سبيل تحقيق أغراضهم السياسية، ومن ثَمَّ انتقل الاسم، حشاشون، وهو أصل لكلمة «Assasin» إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة له باللفظ الأصلي.

ـ السبعية: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الإثني عشرية.

ـ الإسماعيلية: لانتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

ـ الباطنية: لأنهم يقولون إن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة، كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بالملاحدة.

وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإننا اعتمدنا تسميتهم بالحشيشية.

انظر: دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٧ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨، ٤٣٤ ـ ٤٣٧. كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص ٩٥ ـ ٩٧.

(١) Camb. History of Byzantine Empire. vol IV prt I p 741.

(٢) عاشور: جـ ١ ص ١٩٦.

ـ أزالت وفاة قلج أَرسلان خطراً شديداً عن صدر الأمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيموند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٧م) انطلاقاً من حصن دورازو المنيع(١). وقد ضحى ألكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلّا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرَّغ، وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذي انهزم أمامه في عام (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)(٢).

ـ جعلت وفاة قلج أَرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً، إذ أن أكبر أولاده الأربعة، وهو ملكشاه، أضحى أسيراً في يد السلطان محمَّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أَرسلان، أصغر أولاد قلج أَرسلان، على بلاد الروم. أما الأخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قونية(٣).

ـ لم يكن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شنِّ الغارات على أراضي الأمبراطورية. وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكَّن الأمبراطور البيزنطي من الاستيلاء على بعض الحصون في المناطق الحدودية(٤)، على أنه لم يشأ أن يغامر بالقيام بحملة إلى قيليقية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرَّغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية.

---

(١) Alexiad: p 320.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٥٤. Alexiad: pp 346 - 347.

(٣) ابن العبري: ص ١٣١ ـ ١٣٢. Michel le Syrien: vol III pp 194 - 195.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٢٣.

الفَصْلُ الخَامِسُ

ملكشاه بن قلج أَرسلان

٥٠٣ ـ ٥١٠ هـ/ ١١٠٩ ـ ١١١٦م

الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى عقب وفاة قلج أَرسلان

اعتلى ملكشاه بن قلج أَرسلان السلطة في قونية بعد أن هرب من معتقله في بلاط السلطان محمَّد في (أوائل ٥٠٣هـ/ منتصف ١١٠٩م)، واتخذ عدَّة تدابير لتثبيت أقدامه في الحكم، فقتل ابن عم له كان قد نازعه على السلطة، لم تذكر المصادر اسمه، وخلع أخاه الصغير طغرل أَرسلان، وسجن أخويه مسعود وعرب لإبعادهما عن المسرح السياسي[(١)].

اهتم السلطان السلجوقي في بادىء الأمر، بإعادة بناء العاصمة قونية على طراز المدن الإسلامية، ثم التفت إلى المشكلات التي واجهته حيث كانت أوضاع السلطنة في حالة ترد. فكل أمير يسعى إلى الاستقلال بما يملكه حتى كادت شمس السلطنة تغيب بعد أن انحصرت سيطرة الحكم المركزي في وسط الأَناضول. كما استغل البيزنطيون هذا الفراغ السياسي وهاجموا المناطق الساحلية، واستولوا على الأَراضي الأكثر خصوبة في غرب البلاد، وعلى شواطىء البحر الأسود والسواحل الجنوبية على البحر المتوسط حتى مدينة أَنطالية[(٢)]، وتشدَّدوا في مراقبة الحدود والدفاع عنها، كما أعادوا إصلاح أسوار مدينة دوريليوم التي سبق أن خربها زاخاس. وحكم الدانشمنديون المنطقة الشمالية الشرقية لآسيا الصغرى. أما في الجزيرة العليا فحكم الأراتقة[(٣)]،...

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٥٤. ابن العبري: ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) أنطالية: بلد كبير من مشاهير بلاد الروم على شاطىء البحر المتوسط. الحموي: جـ١ ص ٢٧٠.

(٣) الأراتقة: ينتسب الأراتقة إلى أرتق بن أكسك، وينتمون إلى قبيلة الدقر التركية، وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إلى الغز. أسَّسوا إمارات لهم في ديار بكر وماردين وحصن كيفا بين عامي =

والزنكيون[1] في ديار بكر والموصل وآمد.

إنجازات ملكشاه

وضع ملكشاه نصب عينيه هدفاً هو توحيد السلاجقة في آسيا الصغرى، وتنظيم صفوفهم لمواجهة التحديات الخارجية، واستعادة ممتلكات والده، فاستفاد من استمرار تدفق التركمان إلى داخل هضبة الأناضول بأعداد متزايدة، وكوَّن منهم جماعة محاربة استغلها في تحقيق طموحه.

كان الأمير حسن، حاكم كبادوكية، أقوى الأمراء الأتراك آنذاك، في آسيا الصغرى، فحاول في عام (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) أن يغير على أملاك الأمبراطورية البيزنطية، وتقدَّم في زحفه نحو فيلادلفيا عاقداً العزم على الاستيلاء على إزمير. تصدَّى الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين لهذا الزحف التركي، فعيَّن يوستاتيوس قائداً عاماً على القوات البيزنطية البرية في منطقة الجنوب الغربي من آسيا الصغرى، وعهد إليه بطرد الأتراك من هذا الإقليم. لم يستطع الأمير حسن الصمود في وجه القائد البيزنطي، وبخاصة أنه جزَّأ قواته حتى تشمل غاراته أكبر مساحة ممكنة من أراضي الدولة البيزنطية، فتعرَّض لعدة هزائم وتراجع إلى داخل هضبة الأناضول[2].

لم يلبث ملكشاه أن حاز على معظم أملاك أبيه في قلب الأناضول، ثم اصطدم بالأمير حسن، فهزمه وضمَّ بلاده إلى أملاكه[3]. وبعد أن وحَّد صفوف السلاجقة، ونظَّم دولته، وآنس من نفسه القوة، نهض لاسترداد أملاك أبيه التي فقدها أثناء الحملة الصليبية الأولى، وإذ استفاد مما حاق بوالده من كوارث، تجنَّب الانغماس في مشكلاته في الشرق.

بدأ ملكشاه منذ (أوائل عام ٥٠٦هـ/ منتصف عام ١١١٢م) بالإغارة على أملاك الدولة البيزنطية، فهاجم فيلادلفيا، وبعض المقاطعات الساحلية، ولم يوقف تقدمه إلَّا القائد البيزنطي قسطنطين جابراس حاكم المدينة الذي فاجأه عند مدينة

= (٤٦٥ ـ ٨١٢هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٤٠٩م) فعاصروا مرحلة من أهم مراحل التاريخ الإسلامي، شهدت ظهور السلاجقة والأيوبيين والصليبيين والمماليك والمغول والجلائريين. انظر: خليل، عماد الدين: الولايات الأرتقية في الجزيرة والشام.

(١) الزنكيين: انظر الفصل السادس.

(٢) Alexiad: pp 360 - 362.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٢٤.

سوبليانوم وهزمه. ومال ملكشاه إلى عقد هدنة مع ألكسيوس كومنين معرباً له عن تطلعه منذ زمن إلى إقامة علاقة سلمية بين المسلمين والبيزنطيين[١].

لم تسجل لنا المؤرخة آنّا كومنين التي أوردت هذا الخبر، شروط الصلح، إلَّا أنه من الواضح أن ملكشاه لم يتخلَّ عن أي منطقة من المناطق الواقعة ضمن أملاكه أو تحت سيطرته، ويبدو أنه اضطر لعقد الصلح حتى يكسب بعض الوقت ليعيد تنظيم صفوف قواته، وليستعد لجولة أخرى من المعارك العسكرية، بدليل أنه استأنف غاراته على الأراضي البيزنطية، وتعجَّل بإرسال حملة عسكرية اجتازت بيثينيا وبلغت أسوار نيقية، فأسرع حاكم المدينة يوستاتيوس كميتزس، بإبلاغ الأمبراطور بذلك. وتوغَّل في الوقت نفسه، قائده محمَّد في أقصى الغرب، فبلغ بومانيوم حيث هزم قائداً بيزنطياً وأسره مع عدد من جنوده، في حين أن قائداً سلجوقياً آخر هو مانالوك أغار على أبيدوس الواقعة على الدردنيل، واستولى على سيزيكوس التي فرَّ حاكمها دون أن يُبدي أي مقاومة، وهاجم ملكشاه نفسه مدينة برجاموم وفتحها[٢].

نتيجة لهذا الانتشار السلجوقي على الأرض، قرَّر الأمبراطور البيزنطي التصدي للسلاجقة، فأمر حاكم نيقية بالخروج من المدينة، ومطاردة الأتراك لكن دون أن يشتبك معهم في معركة سافرة، ويبدو أنه خشي من كثرة أعدادهم. فاجأ كميتزس الأمير محمَّد وهزمه، فتفرَّق أتباعه في التلال المجاورة حيث أعادوا تجميع صفوفهم وكروا على القوات البيزنطية وهزموها، وكان القائد كميتزس من بين الأسرى[٣].

لم يركن ألكسيوس كومنين إلى الهدوء وهو يرى تراجع قواته العسكرية أمام الزحف السلجوقي، فنهض بنفسه ليتولَّى العمليات العسكرية، فهاجم السلاجقة عند أكروكوس وتغلَّب عليهم، وبعد أن وزَّع قواته حتى ملأت السهل والوادي، سدَّ عليهم طريق الفرار، وقتل منهم عدداً كبيراً، وأسر البعض الآخر[٤]. إلَّا أن القائد محمَّد، استطاع أن يُحقِّق انتصاراً جزئياً ويقتل القائدين البيزنطيين تسيبوراس وأبيلاس، بينما تمكَّن كميتزس من الإفلات والتحق بالأمبراطور[٥].

---

(١) Alexiad: p 375. (٢) Ibid: p 368.

(٣) Ibid: p 376.

(٤) تذكر آنّا تفاصيل وافية عن هذه المعركة، وتشيد بالخطة التي وضعها الأمبراطور ونفذها ضباطه، حيث أخرجوا الأتراك من المستنقعات المجاورة. Alexiad: p 377.

(٥) Alexiad: p 378.

استأنف الأمبراطور البيزنطي العمليات العسكرية في عام (٥٠٨هـ/ ١١١٤م)، فخرج من عاصمته لتأديب الأتراك الذين استغلوا اشتداد المرض عليه، وراحوا يغيرون على أملاك الأمبراطورية، ويشدِّدون ضغطهم عليها، فكمن لهم قرب كوتاهية، ثم هاجمهم وهم في طريق عودتهم من غارة على منطقة دوريليوم، وانتصر عليهم واستعاد منهم كل ما استولوا عليه من غنائم وأسرى(١).

قرَّر ملكشاه في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) مهاجمة نيقية لاستعادتها من أيدي البيزنطيين، فخرج من عاصمته قونية، وأرسل فرقة استطلاعية دارت حولها، ورصدت تحركات البيزنطيين في منطقة دوريليوم. والواقع أن الأمبراطور البيزنطي جهَّز قوة عسكرية على وجه السرعة وخرج من عاصمته القسطنطينية للتصدي للزحف السلجوقي، وأرسل فرقة عسكرية إلى لوباديوم لمراقبة الطريق الذي سيأتي منه الجيش التركي، ولتوافيه بكل جديد يطرأ على الموقف العسكري، ثم توجه إلى نيقوميدية، وأمضى معظم السنة يطوف بين تلال بيثينيا، ويتفقدها(٢)، دون أن يشتبك مع الجيش التركي في معركة سافرة.

ازدادت الغارات السلجوقية حدَّة بمرور الوقت مما دفع الأمبراطور إلى اتخاذ قرار بمهاجمة الأتراك في عقر دارهم والقضاء على سلطنتهم. فتحامل على نفسه من شدة المرض، وقاد جيشه الذي انطلق من نيقية، والتقى بالجيش التركي قرب فيلوميليوم، وأجبره على خوض معركة قاسية، فَقَد فيها الأمبراطور ابنه أندرونيكوس الذي كان يتولى الجناح الأيسر للجيش البيزنطي(٣)، وأسفرت عن انتصار بيزنطي يكاد يكون تاماً، وفرَّ السلطان السلجوقي من ساحة المعركة واختبأ في التلال المجاورة حيث أعاد تجميع صفوف قواته وكرَّ على الجيش البيزنطي.

الواقع أن الاصطدامات بين الجانبين السلجوقي والبيزنطي لم تؤد إلى نتائج حاسمة، ووجد كل من ملكشاه وألكسيوس كومنين نفسه مضطراً لعقد الصلح. فقد استشعر الأول بالخطر الذي أخذ يُهدِّده من ناحية أخيه مسعود بعد أن أخرجه أمراء ملطية من السجن ونادوا به سلطاناً على السلاجقة، كما قوَّى سلطته بتحالفه مع الدانشمنديين(٤)، واشتد المرض على الثاني، فعجز عن مواصلة الحرب.

وهكذا نلاحظ أنه كان لكل من الزعيمين من المبررات، ما جعله يُقبل على

(١) Alexiad: pp 391 - 392.

(٢) Ibid: p 394.

(٣) Ibid: p 403.

(٤) Michel le Syrien: vol III p 195.

التفاوض في عام (٥١٠هـ/ ١١١٦م) لإقامة سلم بينهما. وفعلاً وقَّع كل منهما المعاهدة التي انبثقت عن اجتماعهما والتي نظَّمت العلاقات المستقبلية بين الدولتين السلجوقية والبيزنطية، وأهم ما تضمنته:

- الإبقاء على الوضع الراهن فيما يتعلَّق بالأراضي التي فتحها السلاجقة قبل اعتلاء رومانوس ديوجينوس العرش البيزنطي.

- يعيش السلاجقة في هذه الأراضي، آمنين، لا يتعرَّض لهم أحد.

- يتعهد ملكشاه بوقف اعتداءات الأتراك على النصارى، كما يوقف غارات أولئك على أملاك الدولة البيزنطية، ويحترم حدودها[١].

نتيجة لهذا التفاهم، استقرت الأوضاع في آسيا الصغرى على الشكل التالي:

تركَّز الوجود السلجوقي في هضبة الأناضول في وسط آسيا الصغرى، على الرغم من فشل ملكشاه استرداد كامل ممتلكات والده، في حين سيطر البيزنطيون على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية فقيليقية، بالإضافة إلى الإقليم الداخلي الواقع إلى الغرب من أنقرة، والصحراء المالحة، أي كل ما يقع غرب خط يمتد من سينوب من الشمال حتى فيلوميليوم وشواطىء الأناضول الجنوبية[٢].

نهاية ملكشاه

بلغ مسامع ملكشاه، أثناء اجتماعه مع ألكسيوس كومنين لتوقيع معاهدة السلام، نبأ قيام أخيه مسعود بثورة داخل الكيان السلجوقي في محاولة للاستيلاء على الحكم، فأسرع، بعد توقيع المعاهدة، عائداً إلى بلاده لمواجهة ثورة أخيه، ورفض عرضاً من الأمبراطور بمساعدته وإمداده بعساكر أمبراطورية[٣]، وأرسل أثناء عودته بعض الكشافة لاستطلاع أخبار أخيه. ولما شاهد هؤلاء، مسعود وهو يقترب على رأس جيش كبير أدركوا أنه سينتصر على السلطان، فانضموا إليه واتفقوا معه على كتمان ما شاهدوه، وعندما عادوا، أخبروا ملكشاه بأنهم لم يشاهدوا أي أثر لجيش أخيه. صدَّق السلطان أقوال كشافته، وسار مطمئناً دون تعبئة، ففاجأه أخوه، يساعده الأمير الدانشمندي غازي، وكان مسعود قد تزوج من ابنته. والتقى الجيشان السلجوقيان في رحى معركة قاسية اقتحم خلالها الأمير غازي صفوف قوات

---

(١) Alexiad: p 404.

(٢) رستم: جـ ١ ص ١٣٢. Chalandon: Les Comnenes Jean II et Manuel. pp 265 - 271.

(٣) Alexiad: p 406.

ملكشاه، ووصل إليه وضربه بالحربة، لكن أخطأه. كانت قوة ملكشاه ضعيفة بالمقارنة مع قوة أخيه، فانسحب من ميدان المعركة إلى مدينة تيراجيوم قرب فيلوميليوم، وذلك بناء على نصيحة أحد قادته وهو بوخاز، فرحَّبت به الحامية البيزنطية بوصفه صديق الأمبراطور[١]، ولحق مسعود بأخيه وحاصر المدينة. وخان بوخاز سلطانه، فأغرى الحامية بفتح أبواب المدينة لجيش مسعود. وهكذا حصل، فقد دخلت القوات المسعودية إلى المدينة، وقبض بوخاز على ملكشاه وسمل عينيه ومن ثَمَّ قتله مسعود واستلم عرش السلطنة[٢]. فانتهت بذلك حياة ملكشاه الذي كافح من أجل وحدة السلاجقة واستعادة أملاك والده من البيزنطيين وقضى مكافحاً وهو شاب.

---

(١) Alexiad: p 407. (٢) ابن العبري: ص ١٣٢ .Ibid .

الفَصْلُ السَّادِسُ

ركن الدين مسعود بن قلج أَرسلان

مسعود الأول

٥١٠ ـ ٥٥٠هـ/ ١١١٦ ـ ١١٥٥م

الوضع السياسي في الأَناضول التركي بعد مقتل ملكشاه

نشأ مسعود وترعرع في البلاط الدانشمندي بعدما تمكَّن من الهرب من سجن أخيه بواسطة أحد القادة الأصدقاء، واتصل بالأمير غازي بن كمشتكين أحمد دانشمند صاحب سيواس، الذي أدرك أن مصلحتهما المشتركة، وهي مناوأة ملكشاه، تفرض عليهما أن يتعاونا في المستقبل، وسمح لهما هذا التعاون بأن يؤديا دوراً مميزاً في شؤون آسيا الصغرى[١]. ويُذكر بأن غازي الدانشمندي كان يطمع في ضمّ مرافىء البحر الأسود لإعطاء إمارته منفذاً بحرياً بعد أن امتدت من نهر هاليس إلى نهر الفرات، ومن أجل ذلك اشتد ضغطه على الأَراضي البيزنطية في بافلاجونيا.

استقر مسعود في قونية بعد أن قتل أخاه ملكشاه، وحكم منها الشطر الجنوبي من آسيا الصغرى الممتد من نهر سنغاريوس حتى جبال طوروس، تحت وصاية عمه غازي الدانشمندي[٢]. وحكم الأخ الثالث لمسعود، وهو عرب، أنقرة وقسطموني على أثر فراره من قونية بعد مقتل أخيه ملكشاه، في حين استقر الأخ الرابع، وهو طغرل أَرسلان، في ملطية تحت وصاية والدته وزوجها الثاني بلك الأرتقي كما مرَّ معنا.

وهكذا نلاحظ أن السلطنة السلجوقية قد تقلَّصت فانقسمت إلى ثلاث إمارات صغيرة حول قونية تحت حماية الدانشمنديين، الذين كانت لهم الكلمة العليا في كافة أرجاء المناطق التركية في آسيا الصغرى، وهيمنة سياسية على كافة الأَتراك.

---

(١) Michel le Syrien: vol III p 219.

(٢) Camb. Hist. of Islam: vol I p 239.

ركَّز مسعود اهتمامه، بعد جلوسه على عرش السلاجقة في قونية، في تثبيت أقدامه في إمارته الصغيرة. وبعد أن فرغ من ذلك، قرَّر التوسع على حساب البيزنطيين لإيواء رعاياه وإيجاد المراعي الغنية لماشيتهم، وضمِّ الإمارات التركية الصغيرة المنتشرة في قلب الأناضول، تمهيداً لتحقيق الوحدة السياسية للأتراك بعامة، وهو الهدف المستقبلي الذي وضعه نصب عينيه. فراح يهدِّد وادي الماندر، وقطع الطريق المؤدي إلى أنطالية، على البيزنطيين، واستعاد مقاطعة فريجيا، ومدينة لاذيق، ولم يعد للبيزنطيين طريق إلى الشرق سوى طريق البحر، ثم راح يبتلع الإمارات التركية الصغيرة المنتشرة حول إمارته. فسيطر نظرياً على عدد من الأمراء الأتراك ومارس هيمنة شكلية على عدد كبير من هؤلاء، الذين نعموا باستقلال مؤقت، لكنهم لم يشكِّلوا قوة ضاغطة على مسرح الأحداث.

وبذلك، اقتسم سلطان قونية وأمير سيواس منطقة آسيا الصغرى التركية، وغيَّرا بشكل واضح صورة الوضع السياسي فيها.

التنازع الأسري

أثار انقسام المملكة بين إخوة ملكشاه، التنازع فيما بينهم، كلٍ يريد التوسع على حساب الآخر. جاءت الضربة الأولى لمسعود من أخيه طغرل أرسلان حاكم ملطية الذي ما انفك يغير على سواحل أذنة وسائر قيليقية، ونجح في الاستيلاء على بعض مدنها، من بينها البستان مما ضايق مسعود فعلاً.

وانفجرت النزاعات بين الإخوة في عام (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، على أثر مقتل بلك الأرتقي وهو يحاصر قلعة منبج[1] للقضاء على ثورة قامت فيها ضد حكمه. إذ استغل غازي الدانشمندي هذه الحادثة وأغار على ملطية واستولى عليها بمساعدة صهره مسعود، وأضافها إلى ممتلكاته، ولما طالب بها صهره بوصفها من ممتلكات السلاجقة، رفض أن يعيدها إليه[2]. وخرج طغرل أرسلان من المدينة، والتمس مساعدة الصليبيين الذين كانوا يحاصرون آنذاك، مدينة حلب، غير أنه لم يلق التأييد منهم، عندئذ قرَّر التخلي عن ملطية بعد أن التمس العفو من غازي الدانشمندي. لكننا نراه يهاجم ملطية مرة أخرى في عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، إلَّا أنه لم يحقِّق أي

---

(١) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، وهي من العواصم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. الحموي: جـ ٥ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) Michel le Syrien: Vol III p 219.

نجاح، فرحل عنها واختفى عن مسرح الأحداث[1].

أثار التعاون السلجوقي المسعودي والدانشمندي ضد طغرل أَرسلان، حفيظة عرب، وقد استشاط غضباً لخسارة ملطية، ولما آلت إليه أوضاع الأسرة من تفرُّق وتشرذم، وضياع أملاكها، فعقد العزم على محاربة أخيه مسعود الذي اتهمه بالخيانة، والجلوس مكانه على العرش، وإعادة توحيد القوى السلجوقية تحت سلطانه.

حشد عرب قوة عسكرية تقدر بثلاثين ألف جندي، وزحف في عام (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) إلى مدينة قونية للاستيلاء عليها مستغلاً ابتعاد غازي الدانشمندي الذي كان منصرفاً لمواصلة فتوحه في وادي الفرات الأعلى جنوب شرقي الأَناضول، وانضم إلى عرب، بعض أمراء الأَناضول الذين خشوا من طموحات مسعود وعمه[2].

تهيَّب مسعود الدخول في مواجهة عسكرية مع أخيه، ولما كان عمه بعيداً عن المنطقة، اضطر إلى اللجوء إلى القسطنطينية لطلب المساعدة من الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين الذي خلف والده ألكسيوس في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م)، فاستقبله بالترحاب وأنعم عليه بهدايا كثيرة، وقد سُرَّ بنشوء خلافات بين الأَتراك كي يتدخَّل في شؤونهم[3].

ونتيجة للمباحثات السياسية التي جرت بينهما، نصح الأمبراطور الزعيم السلجوقي، بالتعاون مع غازي الدانشمندي لمحاربة أخيه عرب لاستعادة عرشه.

استجاب مسعود لنصيحة الأمبراطور، فغادر القسطنطينية إلى سيواس، واجتمع بعمه ووضعا الخطط لمهاجمة عرب، ثم حشدا قواتٍ كثيفة زحفا بها إلى قونية. ويبدو أن عرب عجز عن المقاومة، فخرج من المدينة لاجئاً إلى الأمير الأرميني ثوروس الأول، (٤٩٤ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٠٠ ـ ١١٢٩م)[4] في قيليقية، وأقنعه بمساعدته، فهاجم قونية في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، وخاض معركتين ضد أخيه وعمه، وكان مسرح الأحداث غربي آسيا الصغرى[5].

تمكَّن عرب، في إحدى هجماته على القوات الدانشمندية، من أسر الأمير محمَّد بن غازي الدانشمندي، وسجنه في أنقرة، كما هزم أخاه ياغان عندما حاول أن يُنقذه[6].

رفع هذا النصر الذي حقَّقه عرب من معنوياته بشكل كبير، فتقدَّم ناحية غازي

---

(١) ابن العبري: ص ١٤١. Michel le Syrien Vol III p 220.

(٢) Ibid: p 223.

(٣) ابن العبري: ص ١٤١.

(٤) Michel le Syrien: vol III pp 223 - 224.

(٥) ابن العبري: ص ١٤١.

(٦) Michel le Syrien: vol III pp 223 - 224.

الدانشمندي، واصطدم به، وحقَّق انتصاراً أولياً، واضطر غازي إلى التراجع، لكنه ما لبث أن جمع شتات قواته، وصعد بها إلى ربوة مرتفعة، حيث نصب معسكره، ونفخ في الأبواق، وكأن عرباً قد هُزم. وكانت خدعة منه انطلت على قوات الأخير الذين انفضوا من حوله وتفرَّقوا لا يلوون على شيء. وطاردت القوات الدانشمندية قوات عرب حتى أنقرة، وضربت الحصار على المدينة بعد أن دخل عرب إليها. وجرى قتال بين الطرفين من وراء الأسوار، أُسر خلاله الأمير ياغان، الابن الثاني لغازي الدانشمندي، مما دفعه إلى تخريب بعض القرى المجاورة انتقاماً[1]. وعلى الرغم من انتصاره الجزئي، فقد هُزم عرب واضطر إلى وقف القتال، ثم التجأ إلى القسطنطينية، فرحَّب الأمبراطور البيزنطي به. ويبدو أن حياة العاصمة قد أعجبته فأمضى فيها بقية حياته، حيث توفي بعد ذلك بأعوام عديدة[2].

وهكذا خلا الجو لمسعود بعد نزاع أسري دام ثلاثة أعوام، تعرَّضت السلطنة خلاله إلى التصدُّع والوهن، فسارت في ركاب الدانشمنديين. وظل مسعود يحكم تحت حماية عمه غازي القوي حتى وفاة هذا الأخير في عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٥م).

العلاقات السلجوقية ـ الدانشمندية

توفي الأمير غازي في ملطية مخلفاً وراءه أربعة أولاد هم: محمَّد الذي أوصى له بالإمارة من بعده، ياغي أَرسلان (يعقوب أَرسلان) وعين الدولة وياغان[3]، فنشبت النزاعات الأسرية بينهم على عادة الإمارات التركية في الأَناضول، لكن محمَّداً تمكَّن من إثبات جدارته في الحكم، إذ عندما طالب أخواه، عين الدولة وياغان، باقتسام أملاك إمارة سيواس فيما بينهم، رفض ذلك، وأعلن الحرب عليهما، ونجح في القبض عليهما، فسجن الأول وقتل الثاني، وتفرَّد في حكم الإمارة (٥٢٩ ـ ٥٣٧هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٤٢م)[4].

استغل مسعود نزاعات الإخوة الدانشمنديين، وراح يتحرَّك وفقاً لمصلحته. إنه أراد الانعتاق من الحماية الدانشمندية والتوسع على حساب الدانشمنديين والتفرد بحكم آسيا الصغرى، إذ لم يكن محمَّد بن غازي من القوة ما يؤهله أن ينافسه، ووضع نصب عينيه ثلاثة أهداف راح يعمل على تحقيقها وهي:

---

(١) ابن العبري: ص ١٤١. Michel le Syrien p 224. (٢) Ibid.

(٣) ابن العبري: ص ١٤٧. Michel le Syrien: vol III p 224.

(٤) المصدر نفسه. Ibid.

ـ الاستيلاء على أملاك الدانشمنديين.

ـ توسيع رقعة إمارته باتجاه الشرق.

ـ مقاومة البيزنطيين الطامعين في الأراضي السلجوقية.

كانت القضية الدانشمندية أكثر إلحاحاً في مشاريعه التوسعية، وحتى يتفرَّغ لها، عقد صلحاً مع الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين لتبريد الجبهة البيزنطية، لكن الدانشمنديين تعرَّضوا آنذاك للضغط البيزنطي نتيجة ما قام به محمَّد من أعمال توسعية في المناطق الحدودية وقيليقية العليا. والمعروف أن محمَّداً هذا تمكَّن من فتح قلعة ڤاهكا، وقاد حملة باتجاه الغرب حتى وصل إلى نهر سنغاريوس، وهاجم قسطموني واستردها بالقوة، وتحالف مع قسطنطين غابراس حاكم طرابزون لحماية جناح جيشه من الشمال أثناء توغله في الأراضي البيزنطية[١].

كان على يوحنا كومنين أن يجهِّز حملة عسكرية لمهاجمة محمَّد الدانشمندي، وقد ساعده في حملته هذه أمران:

الأول: بروز بوادر صراع داخلي بين الأمراء الدانشمنديين.

الثاني: استقطابه لمسعود السلجوقي.

ويبدو أن الأمير محمَّد أدرك أن قواته لن تتمكَّن من مواجهة القوات السلجوقية والبيزنطية المشتركة، فراح يتودَّد لمسعود لاستقطابه وفك تحالفه مع الأمبراطور البيزنطي، وقد نجح في ذلك، واتفق الزعيمان التركيان على نبذ خلافاتهما والاتحاد سوياً ضد البيزنطيين، وتعهد محمَّد بالتنازل لمسعود عن بعض المدن التي كان قد انتزعها من أخيه عرب في الماضي مثل أنقرة وكومانا وجانجري[٢].

هاجم يوحنا كومنين، في عام (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م)، مدينة قسطموني فاستسلمت له، وأذعن له قسطنطين غابراس حليف محمَّد الدانشمندي، ثم توجَّه إلى جانجري واستولى عليها، وترك فيها حامية عسكرية[٣]، وطرد الدانشمنديين من بيثينيا وبافلاجونيا، وتابع زحفه على امتداد البحر الأسود باتجاه الشرق.

ويبدو أن العلاقات السلمية بين مسعود ومحمَّد استمرت حتى وفاة الأخير،

---

(١) ابن العبري: ص ١٥٤. Nicetas Coniates: Historia pp 25 - 27.

(٢) Kinnamos, J: Epitom Historiarum: pp 20 - 21.

(٣) Nicetas: pp 25 - 27.

بدليل تعاونهما في صدِّ الحملة البيزنطية التي هاجمت نيكسار التابعة للدانشمنديين في عام (٥٣٥هـ/ ١١٤٠م)[١].

تعرَّضت الإمارة الدانشمندية للانقسام مرة أخرى عقب وفاة الأمير محمَّد الذي أوصى لابنه ذي النون قبل وفاته، لكن امرأته الخاتون استدعت أخاه ياغي أَرسلان بن غازي وتزوجت به وولَّته على سيواس، فخرج منها ذي النون إلى قيصرية واستقر بها، كما استقر عين الدولة بن غازي في ملطية. وهكذا انقسمت الإمارة الدانشمندية إلى ثلاثة أقسام[٢].

هيَّأ هذا التقسيم الفرصة لمسعود لتوطيد سيطرته على بلاد الأناضول، وبسط سلطانه على سائر الأقاليم الممتدة شرقاً حتى نهر الفرات. ولا شك بأن هذه الخلافات الأسرية فتَّتت في عضد الإمارة وأرهقت قواتها ومواردها وسهَّلت مهمة مسعود.

ابتدأ مسعود يتدخَّل في الشؤون الداخلية للأمراء الدانشمنديين باحثاً عن مظاهر الضعف عندهم. فزرع بذور الخلاف بين عين الدولة صاحب ملطية وياغي أَرسلان صاحب سيواس، فوعد الأول بمنحه بعض الامتيازات إذا تحالف معه. لم يرفض عين الدولة ذلك، غير أن الاتفاق بينهما لم يدم طويلاً. إذ لم يلبث مسعود أن هاجم ملطية في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) وحاصرها، إلَّا أنه تراجع عنها بفعل مناعتها، وظل بعد ذلك يغير عليها مدة ثلاثة أعوام في غارات صيفية، دون أن يتمكَّن من ضمِّها[٣]، إلَّا أنه نجح في ضمِّ البستان، وهاجم سيواس، وجاور أملاك عماد الدين زنكي، مؤسِّس الدولة الزنكية في الموصل، الذي كان آنذاك يحاول القضاء على الأراتقة في ديار بكر. ويدل هذا التوغل في المناطق الشرقية على نية مسعود في أداء دور مهم في نواحي الفرات[٤].

ويبدو أن إرادته لم تتحقَّق بسبب موقف عماد الدين زنكي، غير أنه بسط سيطرته على سائر الأقاليم الممتدة شرقاً حتى نهر الفرات التي كانت تابعة للدانشمنديين. واستناداً إلى ما ذكره ابن الأثير، فإن مسعود ضمَّ بلاد الأمير محمَّد بعد وفاته[٥].

---

(١) ابن العبري: ص ١٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٣) Michel le Syrien: vol III p 254.
(٤) Ibid. Chalandon p 245.
(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٦.

وحدث بعد ذلك، أن غادر مسعود المنطقة دون أن يوطد نفوذه فيها، وعاد إلى قونية، ليواجه حلفاً مكوَّناً من الدانشمنديين والبيزنطيين. ذلك أن أمراء بني دانشمند حاولوا أن يتحدوا لمواجهة أخطار مسعود لكنهم أدركوا أنهم غير قادرين على مواجهته دون الاستعانة بمساعدة خارجية. لذلك لجأوا إلى الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، الذي كان قد خلف والده يوحنا كومنين في عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٣م)، وعقدوا معه معاهدة تحالف[١].

ونتيجة لهذه المعاهدة التي انعقدت في (أوائل عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) وقع مسعود بين شقي الرحى، فأسرع بالعودة إلى الأناضول للتصدي للحلف الجديد، بينما أضحى الأميران الدانشمنديان عين الدولة وياغي أرسلان من أتباع الأمبراطور البيزنطي، ويأتمران بأمره[٢].

العلاقات السلجوقية ـ البيزنطية

في عهد يوحنا كومنين

توفي الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين في القسطنطينية في (ربيع الآخر ٥١٢هـ/ آب ١١١٨م) بعد مرض أليم لازمه زمناً طويلاً[٣]، وخلفه ابنه يوحنا (٥١٢ ـ ٥٣٨هـ/ ١١١٨ ـ ١١٤٣م)، بعد مؤامرات شهدها البلاط البيزنطي بشأن وراثة العرش.

اهتم يوحنا بالشؤون الشرقية مثل أبيه، وكان يهدف إلى:

ـ إعادة الحدود الآسيوية للأمبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي، أي حتى أنطاكية والفرات.

ـ طرد الأتراك من آسيا الصغرى.

ـ إعادة فتح طريق الشرق أمام البيزنطيين.

ـ إرغام كل من الأرمن في قيليقية والإمارات الصليبية في بلاد الشام على قبول سيادته[٤].

والواقع أنه كان لا يستطيع القيام بهذا العمل إلَّا بالقضاء على القوة السلجوقية أولاً. والمعروف أن ممتلكات بيزنطية في آسيا الصغرى، عند وفاة ألكسيوس

---

(١) Kinnamos: pp 39 - 40.
(٢) Chalandon: pp 247 - 248.
(٣) عمران، محمود سعيد: السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل الأول ص ٥٢.
(٤) توفيق، عمر كمال: ص ١٣٩.

كومنين، كانت تضم طرابزون وكل ساحل البحر الأسود، وكل الساحل الجنوبي على البحر المتوسط حتى أنطاكية في بلاد الشام، وجميع المدن الواقعة غرب الخط الذي يمر بمدينة سينوب وجانجري وأنقرة وعمورية وفيلوميليوم(١). وكان مسعود قد استغل الفرصة التي أتاحها الصراع على العرش البيزنطي، فأعاد سيطرته على بعض المناطق الممتدة من وادي نهر المياندر حتى أنطاكية، وقطع اتصال الأمبراطورية بممتلكاتها الواقعة شرقي هذه المنطقة إلَّا عن طريق البحر.

أعاد الأمبراطور سيطرته على فيلادلفيا في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م)، واستولى في العام التالي على سوزوبوليس(٢)، وتقدم نحو أنطاكية، وسيطر على حصونها الأمامية، وفتح طريقاً يربط الممتلكات البيزنطية بأيسوريا وقيليقية(٣).

ويبدو أن الحملة التي قام بها حاكم طرابزون قسطنطين غابراس ضد القوى الإسلامية في عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م)، كانت بتحريض ومساندة الأمبراطور، بدليل أن هذا الأخير أغار بنفسه في تلك السنة على المناطق الحدودية، بعد هزيمة غابراس أمام تحالف ضمَّ طغرل أرسلان السلجوقي حاكم ملطية، وبلك الأرتقي، وغازي الدانشمندي أمير سيواس، ومسعود السلجوقي، فاخترق فريجيا ووصل إلى حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهزم من تصدَّى له من الأتراك واستولى على لاذيق، وبنى فيها حصناً منيعاً يسيطر على وادي نهر المياندر الذي يؤدي إلى البحر المتوسط مروراً بدوريليوم وفيلادلفيا ولاذيق، كما استولى على ثلاث قلاع أخرى من السلاجقة(٤).

وهكذا تحسَّن وضع البيزنطيين على الأرض، وأضحوا في مركز أفضل بعدما أعادوا سيطرتهم على الثلث الغربي لآسيا الصغرى، واخترقت خطوط مواصلاتهم شبه الجزيرة. غير أن الأمبراطور اضطر للعودة إلى القسطنطينية عقب الاستيلاء على لاذقية الأناضول، ولم تؤد حملته هذه كامل أهدافها، وهي الاستيلاء على أنطاكية وفتح الطريق إلى الشرق(٥).

ونتيجة للوضع الجديد، انحصر السلاجقة في قلب شبه الجزيرة، وتركَّزوا

---

(١) توفيق، عمر كمال: ص ١٣٩.

(٢) سوزوبوليس هي أوبرولو الحالية في الأناضول.

(٣) Ramsay: Historical Geography of Asia Minor p 381.

(٤) ابن العبري: ص ١٣٧ ـ ١٣٨. Ibid .

(٥) Chalandon: pp 247 - 248.

حول قونية، إلَّا أن المسلمين في لاذقية الأَناضول ظلوا محتفظين باتصالات سهلة مع العاصمة(١).

استغـل مسعـود عـودة الأمبراطـور إلى عـاصمتـه، فجدَّد غـاراتـه على أمـلاك الأمبراطورية في عام (٥١٧هـ/ ١١٢٣م)، فاضطر يوحنا كومنين للعودة إلى آسيا الصغرى لإخضاعه وإتمام ما بدأه في حملته الأولى. فهاجم القبائل التركمانية البدوية بخاصة، وأجبر عدداً كبيراً منها على الدخول في طاعته، وألزمهم بإمداد الجيش الأمبراطوري بعدد من القوات العسكرية. واضطر بعد ذلك إلى التوقف عن التدخل في الشؤون الداخلية للأَتراك، لعدة أعوام، بسبب انهماكه بمشكلاته في أوروبا. وحتى يُبَرِّد جبهة الأَتراك، عقد اتفاق صلح مع مسعود بقيت شروطه مجهولة، إلَّا أن مسعود استعاد أنقرة وجانجري اللتين كان البيزنطيون قد سيطروا عليهما بعد وفاة غازي الدانشمندي. وبهذا التفاهم يكون يوحنا كومنين قد قوَّض التحالف الذي كان قائماً بين سلطان قونية والأمير الدانشمندي، وتفرَّغ للقضاء على هذا الأخير الذي كان قد بدأ يهدِّد الأراضي البيزنطية كما أشرنا.

تخلَّى مسعود، في غمرة التحركات السياسية المتقلبة لأطراف النزاع في آسيا الصغرى، عن معاهدة التفاهم المبرمة بينه وبين يوحنا كومنين، وتحالف مع محمَّد الدانشمندي. ويبدو أن هذا الانقلاب المفاجىء للسلطان السلجوقي أقلق الأمبراطور البيزنطي، لأنه كان بصدد القيام بحملة إلى بلاد الشام لمعاقبة الأرمن والتنازع مع الصليبيين، فخشي من أن يغتنم مسعود فرصة غيابه ويغير على الأَراضي البيزنطية الخالية من الدفاعات أو ذات الدفاعات الضعيفة.

وفعلاً استغل مسعود هذه الفرصة، وهاجم كيسوم(٢)، وحاصرها، فاستنجد حاكمها الصليبي بلدوين بالأمبراطور الذي كان آنذاك في طريقه إلى الجنوب. وعندما علم مسعود بوجود القوات البيزنطية في المنطقة، رفع الحصار عن المدينة. ولما وصلت هذه القوات إلى بلاد الشام، هاجم مسعود أذنة، الأمر الذي دفع يوحنا كومنين إلى القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد السلاجقة، أثناء عودته من بلاد الشام، فاستولى على كنغري، وأجبر مسعود على طلب الصلح متعهداً بدفع التعويض(٣).

---

(١) Chalandon: pp 247 - 248.

(٢) كيسوم: قرية من أعمال سميساط وفيها حصن كبير على تلة. الحموي: جـ ٤ ص ٤٩٧.

(٣) Kinnamos: p 21. Michel le Syrien: vol III pp 238 - 239. Nicetas: pp 44 - 49.

ويبدو أنه اكتفى بهذا القدر من الإنجاز العسكري، ربما لأن قواته كانت تعاني من الإرهاق بعد حملته على بلاد الشام. وكان آخر ما قام به في آسيا الصغرى هو مهاجمة أمراء دانشمند انتقاماً لمهاجمتهم لأملاكه في عام (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) كما ذكرنا.

توفي الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين في (شوال ٥٣٧هـ/ نيسان ١١٤٣م) في قيليقية وهو يستعد لمهاجمة أنطاكية[١]. إذ حدث عندما عاد يوحنا كومنين إلى قيليقية لقضاء فصل الشتاء والاستعداد للمسير إلى أنطاكية مرة أخرى، في فصل الربيع؛ أن مارس هواية الصيد المفضَّلة لديه، فجرح نفسه بسهم مسموم توفي على أثره، وعيَّن قبل وفاته ابنه مانويل خلفاً له وكان يتوسم فيه خيراً، ويتنبأ له بمستقبل باهر، كما سانده الجيش[٢].

في عهد مانويل كومنين

ظروف تولي مانويل العرش البيزنطي

خلف مانويل كومنين والده يوحنا بعد وفاته، وهو أصغر أبنائه الأربعة، وكان يبلغ من العمر آنذاك عشرين عاماً[٣]. وتعود ظروف توليه العرش إلى مرافقته والده في حملته على أنطاكية. أما إخوته الآخرين، فقد توفي أكبرهم وهو ألكسيوس الذي عهد إليه والده بولاية العرش، في أنطاكية في عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) أثناء زحف والده على أنطاكية. وتوفي الابن الثاني أندرونيكوس على ظهر السفينة التي كانت تنقل جثمان أخيه في طريقها إلى العاصمة، فقد كان مرافقاً للجثمان. أما الابن الثالث إسحاق فقد كان موجوداً في العاصمة. فأضحى صاحب الحق الشرعي في وراثة العرش الأمبراطوري[٤].

كان على مانويل أن يتصرَّف بسرعة قبل وصول خبر وفاة والده إلى العاصمة ليضمن ولاء البلاط والشعب، وبخاصة أنه كان يخشى من ثورة قد يقوم بها أخوه إسحاق بوصفه الوريث الشرعي، كما خشي من عدم موافقة الشعب البيزنطي على اختياره أمبراطوراً، ورفض عمه إسحاق كومنين مساندته وهو الطامع في تولي العرش الأمبراطوري[٥].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٢٥ ـ ٧٢٧. (٢) المصدر نفسه: ص ٧٢٧.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٢٧. Kinnamos: p 21 .

(٤) Ibid: p 24. Nicetas: p 51. المصدر نفسه. عمران: ص ١٠١.

(٥) عمران: ص ١٠٢.

فأرسل أكسوخوس التركي الأصل وصديق والده الذي كان موجوداً معه، إلى العاصمة على الفور، ومنحه سلطات مطلقة لمنع أي محاولة لاغتصاب العرش[١]. نجح أكسوخوس في مهمته، فألقى القبض على إسحاق، شقيق مانويل، وسجنه في أحد الأديرة، كما اعتقل عمه إسحاق، فضمن بذلك عدم إثارة الفتن من جانبهما.

وما لبث أن وصل مانويل إلى العاصمة بعد حوالي الشهر، ومعه جثمان والده، فوجد الظروف مهيأة له، وتمَّ تتويجه أمبراطوراً للدولة البيزنطية[٢].

حملة مانويل الأولى ضد السلاجقة

اتسمت بداية حكم مانويل بالتحالف مع الأمراء الدانشمنديين وتفرُّغه لقتال السلاجقة، وضمن له هذا التحالف كسب بعض التسهيلات في وادي الفرات، والعمل على مواصلة سياسة والده في ضرب السلاجقة وتقليص نفوذهم في آسيا الصغرى[٣]، وبخاصة أن هجماتهم على المناطق الحدودية تسبَّبت بزرع الفوضى فيها، فنُهبت عدة قرى بعد أن هجرها سكانها نتيجة الضغط السلجوقي، ولجأوا إلى المدن الأكثر أمناً أَو إلى المناطق الساحلية البعيدة عن الغارات السلجوقية.

وحتى يمتص الغارات السلجوقية، عمد مانويل إلى تعيين خط ثابت للحدود، وبنى عليه سلسلة من الأبراج وثيقة الارتباط فيما بينها، كما شيَّد استحكامات على الطُّرق التي يسلكها الجيش السلجوقي خلال غاراته، مما قلَّص نشاط السلاجقة إلى غارات صيفية تجتاح الممتلكات البيزنطية متجنِّبة الحصون الكبيرة، والجيوش الأمبراطورية[٤].

وتوغَّل السلاجقة في مناطق الرعي البيزنطية في إقليم ملاجنة الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليوم، فقام مانويل بحملته الأولى في (أواخر عام ٥٣٩هـ/ ربيع عام ١١٤٥م) لطردهم، ولم تتعدَّ ذلك، لأن مانويل اضطر إلى العودة إلى القسطنطينية بسرعة إما لاعتلال صحته أَو بسبب تدهور الحالة الصحية لأخته ماريا التي كانت مريضة في هذا الوقت[٥].

---

(١) عمران: ص ١٠٢ ـ ١٠٣. Nicetas: p 66 .

(٢) Ibid: p 70. Kinnamos: p 33. المرجع نفسه: ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣) Diehl, C: Histoire de L'Empire Byzantine p 149.

(٤) Kinnamos: p 36. Nicetas: p 71.

(٥) Ibid.

ترتَّب على انسحاب مانويل السريع من المنطقة عدة نتائج كانت لصالح السلاجقة منها: أنهم شعروا بأن الأمبراطور لم يكن على استعداد للدخول في حرب طويلة الأمد. وربما فكَّروا بأن هذا الانسحاب يعود إلى قيام بعض الاضطرابات داخل العاصمة، فاستغلُّوا هذا الفراغ العسكري وراحوا يغيرون على أَراضي الأمبراطورية. ومن العوامل التي شجَّعتهم أيضاً، ازدياد نفوذ المسلمين في بلاد الشام على حساب الصليبيين بعد استعادتهم مدينة الرها[1].

تقدم مسعود بقواته على ثلاثة محاور:

استهدف **المحور الأول** المنطقة الشمالية الغربية من آسيا الصغرى، فتسلَّل السلاجقة إلى وادي نهر سنغاريوس وتقدَّموا حتى مدينة بيثكاس الواقعة بين نيقية وملاجنة، وهاجموا المدينة الساحلية أفسوس[2].

استهدف **المحور الثاني** المنطقة الغربية، ففتح السلاجقة حصن براكانا الصغير في أيسوريا. ومن هذا الموقع، راحوا يهدِّدون الطرق التي تصل بيزنطية ببلاد الشام، ثم لم يلبثوا أن هاجموا وادي نهر الميانذر ووصلوا إلى حوضه الأعلى، وفتحوا كلبيانوم وأوغلوا في غاراتهم حتى كادوا يبلغون البحر. ولم يكن فتح حصن براكانا المهم، الضربة الوحيدة التي تلقَّتها الأمبراطورية في هذه المنطقة، ذلك أن السلاجقة هاجموا، خلال تجوالهم العسكري، ممتلكات الدانشمنديين حلفاء الأمبراطور، وبخاصة الأَراضي التابعة لياغي أَرسلان[3].

استهدف **المحور الثالث** جنوبي آسيا الصغرى حيث سلكت الفرق العسكرية السلجوقية الطريق الذي يمر في لارندا وهياربوليس، وتخطَّت طوروس وتوغَّلت في كيلودوبوليس الواقعة على طريق سلوكية التي يمكن أن تكون مهدَّدة[4].

مما لا شك فيه أن هذا الانفلاش السلجوقي أثار فزع الأمبراطور، وخشي أن يقطع السلاجقة الطريق المؤدي إلى قيليقية على البيزنطيين فتنقطع بالتالي الاتصالات بينهم وبين الشرق الإسلامي، ويذكر بأن الأمبراطورية حرصت، منذ خمسين عاماً ولا تزال، على عدم إغلاقه بوجهها. ودفعه هذا الوضع العسكري الجديد للقيام بحملات مضادة[5].

---

(١) عمران: ص ١١٧.

(٢) Kinnamos: p 38. Nicetas: p 71. Chalandon: p 248.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

(٥) Chalandon: p 249.

حملة مانويل الثانية ضد السلاجقة ـ حصار قونية

غادر مانويل عاصمته في عام (٥٤٠هـ/ ١١٤٦م) في حملته الثانية على آسيا الصغرى، ولم يكن على استعداد لتوزيع قواته لمهاجمة السلاجقة وفضَّل تجميعها في المنطقة الواقعة غربي نهر سنغاريوس ومطاردة القوات السلجوقية المنتشرة في هذه المنطقة، غير أنه اضطر إلى ترك مواقعه، تحت الضغط السلجوقي والاحتماء بالجبال المجاورة. وحتى يخفِّف الضغط، قرَّر ضرب مسعود في عقر دره، فتوجَّه إلى لوباديوم عاقداً العزم على مهاجمة قونية لإجباره على سحب قواته المنتشرة في الأراضي البيزنطية، للدفاع عن العاصمة، إلَّا أنه اضطر في وقت ما إلى ترك مواقعه في لوباديوم لمهاجمة العدو المنطلق من الوادي، وجُرح في إحدى الهجمات، واضطر إلى ترك القيادة لمدة من الوقت ثم أعاد الجيش إلى لوباديوم(١). وبعد استراحة قصيرة، غادر لوباديوم في (أواخر عام ٥٤٠هـ/ ربيع عام ١١٤٦م) متوجهاً إلى قونية على امتداد الطريق الذي يجتاز دوريليوم إلى فيلوميليوم فكوتاهية(٢).

ومن جهته، توجَّه مسعود نحو فيلوميليوم التي تحدَّدت ميداناً للمعركة، وربما يعود السبب في هذا الاختيار إلى أنَّها أضحت خالية من السكان بعد أن هجرها أهلها بسبب كثرة الحروب التي دارت بين السلاجقة والبيزنطيين من قبل(٣). وأرسل أمامه بعض السرايا لمناوشة الجيش البيزنطي المتقدم، إلَّا أنها ارتدَّت على أعقابها. كانت خطة مسعود تقضي بمضايقة الجيش البيزنطي وتأخير تقدمه بسبب قلَّة عدد جنوده، وبانتظار تعزيزات من الشرق كان قد طلبها على وجه السرعة، لذلك اقتصرت عمليات السلاجقة على محاولة إيقاع الجيش البيزنطي في بعض الكمائن أثناء مروره في المناطق الوعرة، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل. وانسحب الجيش السلجوقي إلى العاصمة قونية للتحصُّن فيها استعداداً لمواجهة أخرى مع القوات البيزنطية(٤).

واصل الجيش البيزنطي تقدمه، وراح أفراده يهاجمون القوات السلجوقية المنسحبة، ورجحت كفتهم في ذلك، وكبَّدوهم عدداً من القتلى كان من بينهم القائد خاريس. وعبر الجيش البيزنطي الجسور الشرقية التابعة لجبال السلطان التي تصل

---

(١) Chalandon: pp 249 - 250.

(٢) Kinnamos: p 40.

(٣) Finlay, G: History of Greece from its Conquest by the Romans to the present time: vol III p 188.

(٤) Kinnamos: pp 40 - 42.

إلى فيلوميليوم حيث استولى على المدينة وأحرقها، ثم اجتاح أدريانوبوليس وعسكر في غايتا على مسافة قصيرة من المعسكر السلجوقي. وهنا تمكّن مانويل من إلحاق هزيمة أخرى بجيش مسعود، وتقدَّم نحو كابالا بينما ركن مسعود إلى الجبال التي تفصل كابالا عن قونية وصمد بعض الوقت أمام الزحف البيزنطي[1].

نتيجة لهذه التطورات العسكرية، رأى مسعود أن يغيِّر خطته العسكرية، فبدلاً من التحصُّن في قونية نشر قواته على طول الطريق إلى قونية في الجبال والغابات المنتشرة على جوانبها ليوهم البيزنطيين أن أعداداً كثيرة من الجنود متمركزة في المنطقة لحماية العاصمة من جهة، وليقاومهم خارج أسوار المدينة من جهة أخرى، لأن ذلك يضمن له حرية الحركة والانتشار.

والواقع أن انسحاب مسعود، أعطى مانويل فرصة أكبر للتقدم دون صعوبة حتى وصل قريباً من العاصمة وضرب عليها حصاراً غير مركَّز، وظل الجيش البيزنطي معسكراً حولها مدة أربعة أشهر.

وقسَّم مسعود قواته، في غضون ذلك إلى أربع مجموعات، وزَّعها في نقاط متعدِّدة بعد أن ترك عدداً كافياً من الجنود داخل العاصمة للدفاع عنها.

تمركزت المجموعة الأولى في شمال العاصمة على الطريق من أكساريا أمام بحيرة تاتا، ويبدو أنها اختصت بنصب الكمائن خلف خطوط العدو.

واختصَّت المجموعة الثانية بحماية العاصمة، ولم يكن لها مركز ثابت.

وتمركزت المجموعة الثالثة حول العاصمة وفي ضواحيها.

وتمركزت المجموعة الرابعة على طريق كابالا، للتصدي للجيش البيزنطي أثناء تقدمه إلى العاصمة.

وأخلى كافة الطرق المؤدية إلى العاصمة حتى يغري الجيش البيزنطي بالتقدم ثم يطبق عليه.

وفعلاً، ما إن تقدمت القوات البيزنطية نحو قونية، حتى واجهتها المجموعة الرابعة، بينما قامت المجموعة الأولى بالهجوم على مؤخرتها. والواضح أن القوات السلجوقية أطبقت على القوات البيزنطية وكبَّدتها خسائر فادحة، عندئذ اضطر مانويل، تحت هذا الضغط، إلى إرسال إمدادات على وجه السرعة بناء على تعليمات قادته، وعلى الرغم من ذلك فإن القتال كان ما يزال سجالاً.

---

(١) Chalandon: pp 249 - 250.

وحتى يتخلَّص من هذا المأزق الحرج، أشاع مانويل خبر مقتل مسعود ليشيع الاضطراب في صفوف السلاجقة، ولا شك بأن مثل هذا الخبر قد فتَّ في عضد القوات السلجوقية، فانسحبت بكاملها إلى داخل العاصمة(١).

نجحت القوات البيزنطية، بعد ذلك، في تطوق العاصمة، وقامت بأعمال السلب في ضواحيها، ولم يكن بوسع القوات السلجوقية إلَّا مناوشة الجيش البيزنطي عبر أسوار المدينة. وأظهر مانويل، خلال ذلك، دماثة في معاملة أعدائه، فحاول أن يمنع جنوده من نبش قبور المسلمين الموجودة في خارج المدينة، كما طمأن زوجة مسعود بأن زوجها ما يزال على قيد الحياة(٢). لكن القوات البيزنطية فشلت في اقتحام المدينة، وطال أمد الحصار، وفجأة أمر مانويل رجاله بالانسحاب من أمام المدينة. فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي حتى أقدم على هذا العمل؟

الواقع ليست لدينا معلومات دقيقة عن سبب تراجع مانويل الذي كان في موقف قوي، إنما يمكن رصد العوامل التالية، استناداً إلى تطور الأحداث بعد ذلك:

ـ تردَّد القول أن مانويل سمع شائعات عن حملة صليبية جديدة، فحرص قبل مغادرة المنطقة التفاهم مع مسعود على أن يلتزم بالهدوء لمدة عامين(٣)، ويرى أحد المؤرخين(٤) عدم الأخذ بهذا السبب لأن إرسال الحملة الصليبية تقرَّر في ڤيزيلاي في (٢٦ شوال ٥٤١هـ/ ٣١ آذار ١١٤٧م)، ولم يكن هناك وقت كاف ليصل الخبر إلى مانويل. لكن الحقيقة أن فكرة إرسال حملة إلى الشرق تقرَّرت في (١١ ربيع الأول ٥٤٠هـ/ أيلول ١١٤٥م)، ولم يكن اجتماع ڤيزيلاي إلَّا للدعاية وإعداد الترتيبات اللازمة لقيامها، وأن المدة بين التاريخين كانت كافية لوصول خبر الحملة الصليبية إلى مانويل(٥). والواضح أن مانويل لم يتمكن من مواصلة القتال عندما علم بأخبار الحملة الصليبية، وبالتالي فهو لا يستطيع محاربة السلاجقة إلَّا بعد أن يحدِّد موقفه من الحملة الصليبية، فإذا اتخذ الصليبيون موقفاً عدائياً منه، فلا قِبَل له بالصليبيين والسلاجقة معاً. وبناء على ذلك فإنه يكون قد خطَّط مسبقاً لقيادة الحملة بالتحالف مع قادتها أو استغلالها لحرب السلاجقة في العام التالي(٦).

ـ كان على مانويل أن يعود إلى عاصمته بسرعة ليواجه موقف عمه إسحاق

(١) Kinnamos: pp 42 - 44. Nicetas: p 72.

(٢) انظر عن حصار قونية: Kinnamos: pp 40, 42, 46. Nicetas: p 72. Chalandon: pp 253 - 254.

(٣) Michel le Syrien: vol III p 275.

(٤) Chalandon: p 254.

(٥) عمران: ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٦) المرجع نفسه: ص ١٢٢.

الذي كان يتمنى أن يلقى الأمبراطور مصرعه أثناء حروبه مع السلاجقة، ليثب إلى العرش، ويُذكر أن إسحاق كان يرافق الأمبراطور في حملته. وفعلاً، عندما سرت شائعات عن موت مانويل، أسرع إسحاق إلى خيمة الأمبراطور ليتولى زمام السلطة، ولكنه فوجىء عندما وجده داخل خيمته[١].

- الدمار الذي ألحقه السلاجقة بالمدن البيزنطية أثناء غاراتهم عليها، وقد وصف المؤرخ الفرنسي أودو أُف دويل الذي رافق الحملة الصليبية الثانية، الخراب الذي لحق بمدينة نيقوميدية نتيجة غارات السلاجقة[٢].

- وصلت إلى مسامع مانويل أخبار عن وصول تعزيزات تركية ضخمة، وأن مسعود نجح في إغلاق المدينة أمامه، كما عزَّز من دفاعاته حولها، فخشي أن يقع بين فكي الكماشة التركية، بين الجيش التركي في داخل المدينة، والجيش التركي في خارجها، وبخاصة أن خطوط مواصلاته الطويلة شديدة التعرض للخطر.

ومهما يكن من أمر، فقد ارتدَّ مانويل ببطء عائداً إلى بلاده سالكاً الطريق الجبلية المتجهة نحو بحيرة كراليس، ومن ثَمَّ اتخذ طريق كراليه[٣]. وتعرَّض أثناء انسحابه، لهجمات القبائل التركمانية البدوية والقوات السلجوقية النظامية الذين يجيدون حروب الكمائن في الممرات الجبلية، فانقضوا على القوات البيزنطية، وكبَّدوها خسائر ملموسة في الأرواح، وبخاصة القسم الأوسط من الجيش بقيادة كريتوبوليس. ولا شك بأن هذه الضربة قد شطرت الجيش البيزنطي إلى شطرين، وسبَّبت حالة من الذعر والفوضى والارتباك في عناصر المؤخرة الذين انتشروا في شكل فوضوي للبحث عن الملاجىء التي تحميهم من السلاجقة، ولم يجدوا غير الأمتعة يحتمون بها ويختبئون فيها[٤]. وحاول مانويل أكثر من مرة، إعادة تجميع قواته وتنظيمها، غير أن كثافة الغارات السلجوقية حالت دون ذلك. ولم ينجح أخيراً في الخروج من الممرات الجبلية إلَّا بصعوبة بالغة، وبعد أن تكبد خسائر فادحة في صفوف قواته، ووصل إلى ضفاف بحيرة كراليس، ثم اتخذ طريقه بعد ذلك مباشرة إلى عاصمته[٥].

أرسل مانويل أثناء انسحابه رسالة إلى مسعود مع خيال تركي يُبدي فيها رغبته في إجراء مفاوضات بشأن الصلح. تململ السلطان السلجوقي لدى استلامه رسالة

---

(١) Kinnamos: p 52.

(٢) The Journey of Louis VII to the East. p 89.

(٣) كراليه: هي آق شهر.

(٤) Kinnamos: pp 44 - 47. Chalandon: p 255.

(٥) Chalandon: Ibid. p 256. Ramsay: pp 330 - 331.

الأمبراطور لأنه كان قد سمع أخباراً عن الحملة الصليبية الجديدة، وراوده الأمل بأن يصطدم الصليبيون مع البيزنطيين فتخلو له الساحة السياسية، فيتوسع عندئذ على حساب البيزنطيين، لذلك تمهَّل بعض الوقت في الرد على الأمبراطور حتى تتوضح له الأمور، وانتظر سنة كاملة حتى أرسل ردَّه في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) بعد أن علم بنية مانويل القيام بحملة أخرى ضد قونية. ولعل ما دفع مسعود إلى قبول الصلح بعد تلك المدة هو خوفه من قيام تحالف بيزنطي ـ صليبي جديد، فأراد بهذه الهدنة أن تتاح له فرصة إعداد قواته[(١)].

قدَّم مسعود عرضه، إلى مانويل، وهو يتضمَّن بأن يعيد إليه حصن براكانا وسائر ما فتحه حديثاً من بلاد. قَبِل الأخير هذا العرض بعد تردُّد لأنه كان يطمع بأكثر من ذلك. وتوقفت المفاوضات بعض الوقت بسبب الاختلاف في وجهات النظر، ثم استؤنفت مع وصول الحملة الصليبية الثانية، إذ جمعت كلًّا من العاهلين مصلحة مشتركة هي الخوف من الصليبيين، فاتفقا على أن يقوم مسعود باعتراضهم أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى[(٢)]. ويشير المؤرخ ميخائيل السرياني، أن مانويل عقد الصلح مع الأتراك خوفاً من الصليبيين، على أن يلتزم هؤلاء بالهدوء مدة عامين[(٣)]، في حين حدَّد أودو أُف دويل الهدنة باثني عشر عاماً[(٤)].

وبهذه الهدنة الطويلة الأمد، تهيأ لمسعود أن يتفرَّغ للمشكلات الأخرى التي واجهت سلطنته، وأهمها وصول الحملة الصليبية الثانية.

صراع مسعود مع الصليبيين

تمهيد

يمثِّل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حلقة من أخطر حلقات الصراع بين الشرق والغرب. فقد ألقى الغرب بكل ثقله في المنطقة الإسلامية، وتمكَّن من إقامة إمارات صليبية في بلاد الشام وفلسطين. وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى الإسلامية تستعيد قواها وتتَّحد لطرد الصليبيين من المنطقة، برزت الأمبراطورية البيزنطية التي حاولت السيطرة على الشرق الإسلامي، وبسط نفوذها في المنطقة.

---

(١) Kinnamos: p 66. Chalandon: Ibid p 257.

(٢) إسحاق، أرملة: الحروب الصليبية في الآثار السريانية ص ١٢٥.
Chalandon: p 257. Camb. Hist. of Islam vol I p 241.

(٣) Michel le Syrien: vol III p 275.

(٤) The Journey... p 55.

وهكذا بات يتنازع على منطقة الشرق الإسلامي، ثلاث قوى هي، القوى الإسلامية صاحبة البلاد، والقوى الصليبية الغربية التي نجحت في فرض سيطرتها على بعض أجزاء المنطقة، والأمبراطورية البيزنطية التي خرجت سابقاً، وتحاول الآن العودة مرة أخرى.

وتشعبت المشاكل الشرقية نتيجة صراع القوى، وزاد في تعقيدها أن المسلمين لم يكونوا متحدين. فكثيراً ما نجد الصراع بين سلاجقة الروم وآل دانشمند وحكام بلاد الشام المسلمين حيناً، والتقارب الظاهري بين هذه الأطراف حيناً آخر، وما نجده أيضاً من خلاف بين الأمراء الصليبيين في وقت، ثم اتفاقهم في وقت آخر. يضاف إلى ذلك، ما دار من صراع بين حكّام الأرمن أنفسهم، وأخيراً صراع هذه القوى مع بعضها حيناً، وتحالفها مع البعض الآخر أحياناً.

ظهور عماد الدين زنكي مؤسِّس الدولة الزنكية(١)

اتصفت الحياة السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي قبل مجيء الصليبيين، باضطراب داخلي شمل كافة الدول والإمارات الإسلامية. ففي الشرق، خضعت الخلافة العباسية لسيطرة السلاجقة العظام ثم سلاجقة العراق، وقد تدهور نفوذهم بعد ذلك وتفكّكت دولتهم حين دبَّ النزاع بين أمرائهم حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان.

وكانت الدولة الفاطمية في مصر تمر بمراحل شيخوختها، ينازع أمراؤها خلفاءها ورجال القصر فيها، حول السلطة العليا. وتجاذبت القوّتان السلجوقية والفاطمية بلاد الشام، دون أن تتمكّن أي منهما من تثبيت نفوذها وسيطرتها عليها بصورة دائمة أو فعَّالة.

نتج عن هذا الوضع المضطرب مناخ مناسب للأمراء المحليين في إقليم الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، فاستقل كلٌ بما تحت يده يعالج مشكلاته وشؤونه الخاصة، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته، وراح يعمل على توسيع أملاكه إلى ما وراء حدود إمارته على حساب جيرانه الأمراء الآخرين؛ في ظل ضعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات. فتوزَّعت السلطة نتيجة ذلك بين عدد من الأمراء الطامحين وتركَّزت إماراتهم في الموصل وأنطاكية والرها وحلب ودمشق وبيت المقدس، وغيرها، فأضحى لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية ـ الاجتماعية كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير.

---

(١) انظر فيما يتعلق بالدولة الزنكية كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.

وصل الصليبيون في ظل هذه الظروف القلقة، إلى الشرق، واندلعت نيران الحروب الصليبية في الجزيرة وبلاد الشام، ونجحوا في تأسيس إمارات لاتينية في قلب العالم الإسلامي، مستغلين تدهور نفوذ السلاجقة، وعجز الخلافة العباسية، والدولة الفاطمية، وتشتُّت الإمارات الإسلامية.

لم يدرك الأمراء المسلمون، الذين أصيبوا بالذهول، لأول وهلة، عِظَم هذه النكبة التي حلَّت بهم، وتحرَّك العامة في الجزيرة وبلاد الشام وفي غيرها من البلاد الإسلامية للبحث عن قيادة قوية ومخلصة توحِّد صفوفهم وتقودهم إلى الجهاد لدفع الخطر الصليبي.

وتهيأت الظروف لظهور هذه القيادة انطلاقاً من إمارة الموصل، وذلك بفعل موقعها الجغرافي المجاور لإمارة الرها الصليبية. فكان عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سُنقر، الذي ينتمي إلى قبيلة ساب يو التركمانية، القائد الصلب الذي أدرك ما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي في الشرق الأدنى من تشتُّت وتدهور، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة. فأسَّس دولة له في الموصل في عام (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، في ظل ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام، ثم رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، لكنه اصطدم بحالة التمزُّق السياسي التي كانت سائدة في المنطقة، فرأى ضرورة تجميع القوى الإسلامية، وحشد طاقاتها، قبل القيام بأي خطوة إيجابية لمواجهة العدوان الصليبي. فنهض يعمل على ضمِّ هذه القوى المشتَّتة. وبعد أن خطا خطوات واسعة في هذا السبيل، ونجح في ضم شمالي بلاد الشام إلى إمارة الموصل(١)، نهض ليتصدَّى للصليبيين.

الواقع أن أهمية عماد الدين زنكي ازدادت في نظر المسلمين بعد أن تصدَّى للبيزنطيين والصليبيين، ذلك التصدي الذي ترتَّب عليه عودة الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين إلى بلاده من غزو بلاد الشام في عام (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م) دون أن يحقِّق كامل أهدافه على الرغم من سيطرته على أنطاكية وقيليقية. والمعروف أن سياسته كانت تقضي باستعادة بلاد الشام، وإقامة إمارات حدودية تابعة للأمبراطورية تتحمل صدمة هجمات المسلمين والصليبيين والسيطرة على أنطاكية(٢).

(١) انظر كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٩٨ ـ ١٠٣، ١١٥ ـ ١٢٥.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٣٨ ـ ١٤٦.

فتح الرها

أوضاع إمارة الرها الداخلية

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية، وانسياقه وراء العواطف والأهواء، وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبُعد نظر. والواقع أنَّه تأثَّر في نشاطه بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية، وفضَّلهم على النصارى الغربيين، الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين، وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة.

وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنَّه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية لنهر الفرات، وإذا أضفنا أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوِّن فكرة عامة عنِ العوامل التي ساعدت على فتحها.

والجدير ذكره أن هذه الإمارة شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة(1)، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية.

عمليات الفتح

أخذ عماد الدين زنكي يراقب تطور النزاعات بين الأمراء الصليبيين، وأتاحت له مواقف الأطراف في المنطقة، فرصة تجميع قواه وتوجيهها إلى هذه الإمارة وبخاصة أن وفاة الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين قد أراحته من عدو شديد البأس، إذ ليس بوسع حكام دمشق القيام بعمل ضده إلَّا بمساعدة الصليبيين(2)، ولم يكن بوسع مملكة بيت المقدس أن تقوم بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج. أما

---

(1) عاشور: جـ ١ ص ٦٠٤. Grousset: vol II pp 172 - 173 .

(2) كانت دمشق آنذاك تحت حكم آل بوري بن طغتكين، ويسيطرون على دمشق وحماة في الشمال وحوران في الجنوب. والجدير بالذكر أن هذه الأسرة ورثت حكم هذه المنطقة عن سلاجقة الشام، وكان معين الدين أنر حاكم بعلبك هو المتسلط على مقدرات الحكم.

ريموند بواتييه أمير أَنطاكية، وجوسلين الثاني أمير الرها، فقد انهمكا في النزاعات بسبب مشكلة قيليقية والتوسع في بلاد الشام.

تذرَّع عماد الدين زنكي، للقيام بحملته، بما حصل مؤخراً من تحالف بين جوسلين الثاني وقرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا[١]، فرأى أنه موجَّه ضده، بالإضافة إلى أنه يهدِّد وجوده في المنطقة[٢]. وقضت سياسته التمهيدية بإنهاك العدو بالحملات المتلاحقة، فانصرف الصليبيون نتيجة ذلك إلى تقوية حصونهم. وشيئاً فشيئاً تحوَّلت الاصطدامات إلى حرب حصون. ففي عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) أتيح لعماد الدين زنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر ففتح عدداً من المواقع والحصون الصليبية التابعة لإمارة الرها والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين مثل جملين والموزّر[٣] وتل موزن[٤] وغيرها من حصون إقليم شبختان، وهو أحد أقاليم ديار بكر[٥]. وقد هدف إلى قطع الاتصال بين جوسلين الثاين وقرا أَرسلان الأرتقي، ممهِّداً الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها، وتحقيق حلمه الذي طالما راوده عبر سني صراعه الطويل مع الصليبيين.

وسعى لإخراج جوسلين الثاني وقواته من المدينة، مدركاً في الوقت نفسه، أنه لن يستطيع فتحها ما داموا فيها، فتوجَّه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وبثَّ عيونه في منطقة الرها لترصد تحركات أميرها.

وفعلاً خرج جوسلين الثاني على رأس قواته من مقر إمارته قاصداً نهر الفرات لمساندة حليفه قرا أرسلان وقطع طريق الاتصالات بين عماد الدين زنكي وحلب. فما كان من هذا الأخير إلَّا أن وصل إلى الرها بجيشه الكثيف في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٣٩هـ/ أواخر تشرين الثاني عام ١١٤٤م)، وحاصرها[٦].

لم يحاول جوسلين الثاني نجدة المدينة، معتقداً بأن قواته لم تكن من القوة ما يكفي لخوض معركة مع الجيش الزنكي، وظنَّ بأن استحكاماتها الضخمة سوف تقاوم الحصار مدة من الزمن، وفي وسعه، وهو بتل باشر التي التجأ إليها، أن يقطع

---

(١) حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٥.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩.

(٣) الموزَّر: كورة بالجزيرة، منها نصيبين الروم. الحموي: جـ ٥ ص ٢٢١.

(٤) تل موزن: بلد قديم بين رأس عين وسروج بينهما عشرة أميال. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٥.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٧.

(٦) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩.

طريق الإمدادات التي يطلبها عماد الدين زنكي من حلب[1]. ولعله ركن إلى وصول النجدات التي طلبها من كافة الإمارات الصليبية في بلاد الشام وبخاصة من أنطاكية وبيت المقدس[2]. لكن صاحب أنطاكية، لم يشأ أن يفعل شيئاً لمساعدته، واعتذر عن تلبية طلبه بسبب عدم الوفاق بين الأميرين أو خشية ريموند من تحوُّل عماد الدين زنكي إليه بعد الرها، ولم يغامر جوسلين الثاني بمهاجمة عماد الدين زنكي بدون مساعدته، فاستمر قابعاً في تل باشر بانتظار وصول النجدة من بيت المقدس[3].

والواقع أن ملكة بيت المقدس ميليسند دعت، فور تبلُّغها طلب الاستغاثة، إلى عقد مجلس فوَّضها حشد قوة عسكرية، لكن هذه القوة لم تصل إلَّا بعد فوات الأوان[4].

شدَّد عماد الدين زنكي حصاره على المدينة، وأغلق كافة المداخل المؤدية إليها سداً محكماً، فمنع بذلك الدخول إليها والخروج منها، وترتَّب على ذلك أن عانى المحاصَرون من النقص الشديد في المؤن والتجهيزات[5].

وفي (٢٦ جمادى الآخرة/ ٢٣ كانون الأول) انهار جانب من السور قرب باب الساعات بفعل الضرب الشديد والمتواصل طيلة أربعة أسابيع، فاندفع المسلمون إلى داخل المدينة كالسيل، وفرَّ السكان فزعين لا يلوون على شيء باتجاه القلعة للاحتماء بها، وهلك في الفوضى الناشبة آلاف الأفراد، وأجهزت عساكر عماد الدين زنكي على الفارين، ثم ما لبث أن استسلمت القلعة بعد يومين وقام القس اليعقوبي برسوما بإجراءات التسليم، ودخل عماد الدين زنكي إلى المدينة راكباً في موكب النصر[6].

نتائج فتح الرها

حقَّق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامَّة في العالمين الإسلامي والنصراني. فعلى صعيد العالم الإسلامي يمكن رصد النتائج التالية:

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.
(٣) المرجع نفسه: جـ ٢ ص ٣٨٠.
(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٧٣٨. ابن العبري: ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٦) المصدران نفساهما: ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠. ص ١٥٦ ـ ١٥٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

ـ كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود توحيد القوى الإسلامية. فقد تجدَّد الأمل عندهم بعد أن تحطَّمت أول إمارة صليبية قامت في جوف بلادهم.

ـ عُدَّ فتح الرها نصراً كبيراً للإسلام «لم ينتفع المسلمون بمثله وطار في الآفاق ذكره، وطاف بها نشره، وسارت به الرفاق، وامتلأ به المحافل في الآفاق. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها ببدر صدقاً...»[1].

ـ أثبت هذا الانتصار قدرة المسلمين على مجابهة الصليبيين وانتزاع أقوى معاقلهم، ومهَّد الطريق أمام الذين أعقبوا عماد الدين زنكي لإتمام عمله، وفتح باقي المعاقل الصليبية في المنطقة.

ـ كان سقوط الرها بيد المسلمين كسباً عسكرياً كبيراً، فقد جرى تطهير الطرق الممتدة بين الموصل وحلب من الصليبيين، وتمَّ انتزاع الإسفين الذي وضعه هؤلاء بين الأَتراك في إيران وفارس والأَتراك في الأَناضول، وهو الذي أعاق الاتصال بين السلاجقة العظام وسلاجقة العراق وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فضمن المسلمون السيطرة على طرق المواصلات التي تربط شمالي الشام والعراق والجزيرة، وعاد الاتصال بين هذه القوى مرة أخرى، كما جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية.

ـ غيَّر فتح الرها موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي.

أما على الصعيد النصراني، فيمكن ملاحظة النتائج التالية:

ـ شكَّل سقوط الرها صدمة عنيفة مؤلمة للصليبيين تردَّدت أصداؤها في كل مكان. إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث النصرانية الباكر، وأن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً من استيلاء بلدوين دي بوايون عليها، كان نذير شؤم عليهم[2].

ـ لم يكد نبأ سقوط الرها يصل إلى بيت المقدس، حتى أرسلت الملكة ميليسند، إلى أَنطاكية تستشير حكومتها حول إمكانية إرسال سفارة إلى روما لتنهي هذا النبأ إلى البابا، وتطلب منه إرسال حملة صليبية جديدة[3].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٦٩.

(٢) قاسم، محمَّد عبده: ماهية الحروب الصليبية ص ١٣٧.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٩٧.

ـ زاد فتح الرها في إضعاف الروح المعنوية للصليبيين، وأثار خوفهم وقلقهم، واقتصر وجودهم على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ـ دفع فتح الرها ريموند بواتييه أمير أَنطاكية إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مواجهة عماد الدين زنكي بمفرده، ولما لم يكن باستطاعته التفاهم مع جوسلين الثاني، فقد ذهب إلى القسطنطينية يلتمس المساعدة من الأمبراطور البيزنطي، وأعلن تبعيته له.

ـ لم يدفع فتح الرها الأمبراطور البيزنطي إلى القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في بلاد الشام.

ـ شكَّل سقوط الرها صدمة كبيرة للنصارى في غربي أوروبا، نبَّههم إلى خطورة الأوضاع في الشرق الأدنى، وأدركوا لأول مرة، أن الأمور لم تجر على نحو سليم هناك، بعد أن تحوَّلت إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، فنهضت حركة تدعو إلى إرسال حملة صليبية جديدة.

الحملة الصليبية الثانية

كان سقوط الرها السبب المباشر في قيام الحملة الصليبية الثانية لمساندة الصليبيين في بلاد الشام. وكان البابا يوجين الثالث قد ارتبط آنذاك بعلاقات ودية مع اثنين من أقوى الأمراء في الغرب الأوروبي هما كونراد هوهنشتاوفن، أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا المعروف بتقواه. وقرَّر البابا أن يطلب من الملك لويس السابع أن يبذل المساعدة للشرق. وإذ كان لويس السابع ملكاً على البلاد التي كانت مصدراً لمعظم الأمراء والقادة الصليبيين الذين ذهبوا إلى الشرق، فمن الطبيعي أن يتولَّى قيادة الحملة التي تقرَّر توجيهها إلى هناك.

وجَّه البابا رسالة إلى لويس السابع في (١٣ جمادى الآخرة عام ٥٤٠هـ/ أول كانون الأول عام ١١٤٥م) وإلى سائر الأمراء والمؤمنين بمملكة فرنسا يحثهم فيها على النهوض لنجدة الصليبيين في الشرق، ويعدهم بتأمين ممتلكاتهم في الدنيا، وغفران ذنوبهم في الآخرة[١]، وتناول في رسالته ذكر سقوط الرها وما سبَّبه من كوارث على الكيان الصليبي في الشرق.

وعندما تسلَّم لويس السابع رسالة البابا أعلن عن عزمه على حمل الصليب

(١) انظر نص الرسالة في: Eugenius III, Letter to Louis VII. R.H.G.F XV pp 429 - 430.

والتوجه إلى الأَراضي المقدسة، لكن هذه الرغبة قوبلت بالفتور في بادىء الأمر من جانب كبار المقطعين وفي دوائر البلاط، إذ لم يُبد النبلاء العلمانيون شيئاً من الحماس لهذا القرار، كما عارضه أهم رجل سياسي في المملكة وهو سوجر رئيس دير سانت دنيس، ولم يقف إلى جانب الملك سوى أسقف لانجر[١]. ولكن رغبة الملك ومساندة البابا أدَّت إلى اجتماع الأول مع نبلائه في فيزيلاي لإعلان الحملة والدعاية لها، وكتب في الوقت نفسه إلى الثاني يعرب عن رغبته في أن يتولى قيادة حملة صليبية. وتولى بعض رجال الدين أمر الدعاية وكان على رأسهم برنارد رئيس دير كليرفو، الذي أقنع كونراد الثالث بالتوجه إلى الأَراضي المقدسة[٢].

بدأت الاستعدادات لقيام الحملة، وأرسل لويس السابع رسالتين، إحداهما إلى روجر الثاني ملك صقلية والأخرى إلى الأمبراطور مانويل كومنين، ليعرف مدى استعدادهما لمساعدة الحملة. أبدى روجر الثاني رغبة شديدة بالمساهمة في هذا المشروع ونقل الصليبيين بحراً، ووعد بأن يشترك بنفسه أو يرسل ابنه مع قوات الحملة. وندَّد في الوقت نفسه بالبيزنطيين، وركَّز على خيانة الأباطرة البيزنطيين للحركة الصليبية، منذ أيام ألكسيوس كومنين[٣]. وأرسل الأمبراطور مانويل ردَّه إلى لويس السابع أشار فيه إلى أنه عقد الهدنة مع السلاجقة، وأنه لا يستطيع المساهمة بقواته التي يدخرها خشية أن يقوم هؤلاء بخرق الهدنة، غير أنه أبدى استعداده لاستقبال الصليبيين[٤].

وهكذا اكتسبت الحملة الصليبية الثانية التي قدمت إلى الشرق في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) طابعاً مختلفاً عن الحملة التي قدمت في (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م). ففي حين اتخذت هذه الأخيرة شكل هجرة ضخمة ضمَّت جموعاً مختلفة من النصارى الغربيين الذين انتسبوا إلى جنسيات ودول متعددة، إذ بالحملة الصليبية الثانية، تتألف من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودهما أكبر عاهلين في العالم الكاثوليكي، هما كونراد الثالث أمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا[٥]، وكان الأول هو السبَّاق في الزحف، إذ خرج على رأس سبعين ألفاً من الفرسان بالإضافة إلى المشاة والنساء والأطفال والخيالة الخفاف[٦].

---

(١) Odo of Dueil: pp 7 - 8.
(٢) Ibid.
(٣) Ibid: p 11.
(٤) Manuel, letter to Louis VII in R.H.F.G XV p 9.
(٥) Camb. Med. Hist: vol V pp 307, 353.
(٦) وليم الصوري: ج ٢ ص ٧٦١.

وعندما وصل الصليبيون إلى حدود الدولة البيزنطية، تكرَّرت المشاهد نفسها التي حدثت عند زحف الحملة الصليبية الأولى، وذلك من ناحية اعتداء هؤلاء على سكان البلاد التي مرُّوا بها، إلى أن وصلوا إلى القسطنطينية، مما أثار مشكلات جديدة مع البيزنطيين، إلّا أن عودة الوفاق بين كونراد الثالث ومانويل سمح للأول بالعبور إلى آسيا الصغرى.

السلاجقة يقضون على الجيش الألماني

عبر كونراد الثالث مع جموعه البوسفور إلى آسيا الصغرى، وشرع في الزحف شرقاً حتى وصل إلى خلقدونية، وطلب من مانويل أن يمده بالمرشدين ليصحبوه أثناء اجتياز الأناضول. فأرسل إليه ستيفن قائد حرس الورنك، ونصحه مانويل بأن يتجنَّب الطريق الذي يخترق قلب الأناضول كي لا يتعرَّض لخطر السلاجقة، وأن يسلك الطريق الساحلي الغربي ثم الجنوبي ليصل إلى أنطالية، وبذلك يلتزم بلاداً خاضعة للأمبراطورية، كما اقترح عليه أن يعيد كافة الحجَّاج والأشخاص الذين لا يودون الاشتراك في القتال، إلى أوطانهم حتى لا يشكِّلوا عقبة في طريق زحف الجيش[(١)].

وأرسل مانويل الذي اتصف بالازدواجية السياسية تجاه الصليبيين، رسالة إلى مسعود يحثه فيها على اعتراض الحملة الصليبية بناء للاتفاقية الأخيرة المبرمة بينهما. وقد نجد سنداً لذلك عندما هرب المرشدون البيزنطيون أثناء اجتياز الصليبيين لآسيا الصغرى، واتهام هؤلاء لهم بالخيانة، كما اشتكوا بأنَّهم خلطوا ما كان يقدموه إليهم من الدقيق، بالجير، وأعطوهم نقوداً منخفضة القيمة[(٢)].

ومهما يكن من أمر، لم يحفل كونراد الثالث بنصائح الأمبراطور البيزنطي، فاصطحب معه كافة القوات المقاتلة والأشخاص غير المحاربين، كما اختار أن يجتاز أقصر الطرق ليصل إلى بلاد الشام، وهو الطريق الذي يستغرق حوالي ثلاثة أسابيع، والذي تقع عليه العاصمة السلجوقية قونية، على مسيرة اثنا عشر يوماً من خلقدونية، ولم يدر أنه بتصرفه هذا قد خطَّط لفشل الحملة[(٣)].

---

(١) Kinnamos: pp 80 - 81. Odo of Dueil: p 51.

(٢) إسحاق أرملة: ص ١٢٥. Nicetas: pp 88 - 89. يضيف المؤرخ نيكتاس بعد أن يروي هذه الرواية، أنه لا يدري عما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا.

(٣) Oman: vol I p 245. Ostrogorsky: p 339.

تابع كونراد الثالث زحفه حتى وصل إلى مدينة نيقية، وهناك فكَّر جدياً بما عرضه عليه الأمبراطور مانويل، وقرَّر أن يقسم الجيش إلى قسمين: أحدهما يشمل معظم الذين لن يشتركوا في القتال، على أن يسلكوا الطريق الساحلي إلى أنطالية الذي يمر في فيلادلفيا ولاذيق. والآخر وهو القسم الرئيسي الذي يشمل المحاربين، على أن يسلك الطريق الذي يخترق جوف آسيا الصغرى(١).

وغادر كونراد الثالث نيقية متوجهاً إلى قونية بعدما زوَّد جيشه بالمؤن التي تكفيه لمدة ثمانية أيام فقط بناء على اقتراح المرشدين البيزنطيين الذين وعدوه بأنه خلال أيام معدودة سيصل إلى مدينة قونية الواسعة الشهرة، وسيجد نفسه وسط أخصب البلاد المليئة بجميع أنواع الإمدادات(٢). كانت الرحلة شاقة ومرهقة بسبب وعورة الطريق عبر الممرات الجبلية(٣). ولم يلبث أن دبَّ النزاع بين كونراد الثالث والمرشدين، مما حدا بهم إلى ترك الجيش(٤). ويذكر وليم الصوري، أن المرشدين اختاروا الطريق للحملة الذي يسيطر عليه السلاجقة. ولما صادف أفراد الجيش مزيداً من الصعاب، استدعى كونراد الثالث المرشدين ليسألهم عن الموعد الذي سيصلون فيه إلى قونية، وأجابه المرشدون بأن ذلك على مسيرة ثلاثة أيام من موقعهم، ثم ما لبث أن هرب المرشدون في الليلة نفسها، ويعزو سبب ذلك إما بناء على أوامر الأمبراطور البيزنطي أو لأن التركمان رشوهم. وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة، واستدرجوها إلى أماكن وفَّرت للسلاجقة فرصاً مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولا طول، وبدون المرشدين وجد كونراد الثالث نفسه في ضياع فأشار عليه بعض قادته بالعودة، والبعض الآخر بالتقدم. وعانى الجيش من نقص في الإمدادات، فأكلوا الدواب، ثم ما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب، وأضاف، أن ذلك كله مرده إلى خيانة البيزنطيين(٥).

والراجح أن كونراد الثالث هو الذي اختار طريق زحفه، ولا علاقة للمرشدين البيزنطيين بالأمر، بدليل الرسالة التي أرسلها إلى ويبالد أسقف كورڤري، وقال فيها إنه اختار هذا الطريق بنفسه ليصل إلى بلاد الشام بسرعة، وأنه قد تزوَّد بما يكفيه من المؤن قبل مغادرته نيقية، ولم يعلق على المرشدين أهمية تذكر، ولم يشر إلى

(١) Kinnamos: pp 80 - 82.
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٦٢.
(٣) Odo of Dueil: p 91.
(٤) Ibid.
(٥) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٧٦٢.

خيانتهم، كما لم يربط بين هروبهم وبين ظهور الأتراك السلاجقة[١].

ويبدو أن مؤن الصليبية البيزنطية قد نفدت عند مدينة فيلوميليوم، وهي المكان الذي بدأ فيه السلاجقة بمهاجمتهم بعد أن قطعوا الطريق عليهم. وعندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعاً في بلاد يجهلونها، اتهموا المرشدين بالخيانة، مما دفع هؤلاء للهروب خوفاً من العقاب، ثم وقعوا في أيدي السلاجقة[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد علم مسعود بالحال السيئة التي كان يمر بها الجيش الألماني، فتراجع أمامهم وفق خطة عسكرية ذكية حتى وصلوا في تقدمهم إلى قلب فريجيا، وقد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم. ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم، داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ، فاختلَّت قيادتهم. وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف. عندئذ قرَّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه، فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه، وتعرَّض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر. والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قُتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأُصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[٣].

حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه، إلَّا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[٤].

وبهذه الكارثة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيء على الحملة الصليبية الثانية.

السلاجقة يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً نحو شهر عن الجيش الألماني. وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني

---

(١) عمران: ص ١٤٦. (٢) Oman: vol I p 245.

(٣) Kinnamos: pp 81 - 82. Nicetas: p 89. Odo of Dueil: pp 91 - 97. Michel le Syrien: vol III p 276. Oman: vol I p 245.

والجدير بالذكر أن أودو أوف دويل كان يرافق الأمبراطور الألماني في هذه الحملة، فهو شاهد عيان.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٦٤ ـ ٧٦٦.

إنما كانت أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[١].

وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الأمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته[٢]. وبعد أن اجتمع العاهلان في المدينة المذكورة، قرّرا سلوك الطريق الساحلي بعيداً عن جوف سلطنة سلاجقة الروم، وملتزمين في ذلك بأن يظلا داخل الأراضي البيزنطية حيث وصلا أخيراً إلى أنطالية بعد أن حلَّ برجالهما الإنهاك الشديد، وتناقص عدد رجالهما نتيجة افتقارهم إلى ضرورات الحياة أو لإجهاز السلاجقة عليهم. أما الذين كانوا يملكون بعض الدراهم فقد وصلوا إلى بلاد الشام عن طريق البحر[٣].

ولما بلغ الملكان مدينة أفسوس ساءت صحة كونراد الثالث مما اضطره إلى العودة إلى القسطنطينية، في حين تابع الملك لويس السابع رحلته[٤]، وتلقى تحذيراً من مانويل بعزم مسعود على مهاجمته، ونصحه بأن يتجنّب خوض معركة معه، وبألا يبتعد عن الحصون البيزنطية نظراً لما تؤمنه له من مأوى. والجدير ذكره أن العاهلين، الألماني والفرنسي، سلكا الطريق عبر ميسيا وليديا إلى بروسة وبرغمة ثم إلى إزمير وأفسس[٥].

وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتّخذها الملك الفرنسي فقد فاجأه مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية بسيديا بعد أن استدار بوادي نهر المياندر، وراح يناوىء الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر. ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذاك، تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم. ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلّا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدّتْ لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان[٦].

---

(١) وليم الصوري: ص ٧٦١، ٧٧٢.

(٢) Odo of Dueil: p 97.

(٣) Ibid: p 105. Camb. Med. Hist. of Islam vol I pp 241 - 242.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٦٧. وانظر هامش رقم ١. عمران: ص ١٥٥.

(٥) Odo of Dueil: pp 103 - 109. Oman: vol I p 246.

(٦) Odo of Dueil: pp 109 - 121. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٦٨ ـ ٧٧٢.

مسعود وتصفية إمارة الرها الصليبية

التفت مسعود بعد إبرام معاهدة الصلح مع البيزنطيين، صوب الشرق عازماً على توسيع سلطنته باتجاه قيليقية ووادي الفرات، حتى يتسنَّى له الانفتاح على بلاد الشام واقتطاع حصته منها من جراء تقطيع أوصال الأَراضي الصليبية في إمارة الرها وغربي الفرات.

واستغل الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في الرها ليفتح المواقع التي كانت بحوزتهم في وادي الفرات، إلَّا أنه اضطر في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) إلى مغادرة المنطقة، كما رأينا، وعاد إلى بلاده ليتصدَّى للحملة الصليبية الثانية التي عبرت آسيا الصغرى، وأبقى قسماً من جيشه في الشرق تحت قيادة ابنه قلج أَرسلان ليتابع تنفيذ السياسة التي رسمها[١].

وبعد انتهائه من التصدي للصليبيين عاد مسعود إلى الشرق ليستكمل مخططاته في مشاركة الأمراء المسلمين في تقطيع أوصال أَراضي الصليبيين في إمارة الرها ليؤمِّن له موطىء قدم في المنطقة. وكان ابنه قلج أَرسلان قد استغل الكارثة التي حلَّت بالصليبيين، فهاجم الأَراضي التي ما زالت بحوزتهم.

ويبدو أن الأمر استتبَّ بعد ذلك على يد الكونت بلدوين صاحب مرعش وبخاصة في كيسوم وبهسنا[٢] بالإضافة إلى أنه تمكَّن من فرض الأمن على حدود ملطية وأَنطاكية.

انقسام الأتابكية الزنكية

اختار عماد الدين زنكي في (نهاية عام ٥٤٠هـ/ صيف عام ١١٤٦م) إخضاع قلعة جَعْبَر[٣] الواقعة على الفرات بين بالس والرقة[٤] قرب صفين[٥]، على الطريق

---

(١) وليم الصوري: ج ٢ ص ٧٦٨ ـ ٧٧٢.

(٢) بهسنا: قلعة حصينة عجيبة قرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كيسوم وهي من أعمال حلب. الحموي: ج ١ ص ٥١٦.

(٣) قلعة جعبر على الفرات مقابل صفين، وكانت تُعرف أولاً بدوسر فتملَّكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك، فغلب عليها، فسميت باسمه. الحموي: ج ٤ ص ٣٩٠.

(٤) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرَّان ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، المصدر نفسه: ج ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٥) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس. المصدر نفسه: ص ٤١٤.

المؤدي إلى دمشق، لأن وضعها الجغرافي كان متداخلاً مع أملاكه، فحاصرها وضيَّق عليها. وحدث أثناء عملية الحصار أن دخل عليه أحد خدَّامه وقتله وهو نائم في (مساء ٦ ربيع الآخر عام ٥٤١هـ/ ١٥ أيلول عام ١١٤٦م)(١).

ترك عماد الدين زنكي أربعة أولاد من الذكور هم: سيف الدين غازي، وهو أكبرهم، ثم نور الدين محمود، وهو الملك العادل، ونصرة الدين أمير أميران، وأبو الملوك قطب الدين مودود، وهو أصغرهم(٢).

لم يصادف هؤلاء الإخوة صعوبة في الاحتفاظ بملك أبيهم بفضل مساعدة اثنين من رجال عماد الدين زنكي الأوفياء هما، جمال الدين محمَّد الأصفهاني، رئيس الديوان، وصلاح الدين الياغسياني، أمير حاجب. كان الأول في عداد الحملة التي حاصرت قلعة جَعْبَر.

اتصل الأميران، فور إعلامهما بنبأ الاغتيال، بالأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين، نائب عماد الدين زنكي في الموصل، وأخبراه بحادثة الاغتيال، وأشارا عليه بأن يستدعي ابنه سيف الدين غازي من شهرزور(٣)، حيث كان يقيم. وقام هذا الأخير فعلاً باستدعائه(٤).

أما الابن الثاني نور الدين محمود، فإنه كان بصحبة والده، فأخذ خاتمه من يده ويمَّم وجهه شطر حلب، وأخضع جميع ما كان لأبيه في بلاد الشام مثل الرها وحرَّان وسروج وحمص وحماة(٥)، والتحق صلاح الدين الياغسياني بخدمته ليدبِّر أمور دولته.

وهكذا انقسمت إمارة عماد الدين زنكي إلى قسمين: القسم الشرقي تحت حكم ابنه الأكبر غازي الأول ومقره الموصل، والقسم الغربي تحت حكم ابنه نور الدين محمود ومقره حلب، وشكَّل نهر الخابور الحد الفاصل بين أملاك الأخوين. وأدَّى الوضع الجغرافي للقسم الغربي أن يرث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف أنحاء بلاد الشام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ١٣. وانظر كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٥٨ ـ ١٦١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٣) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان. الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٥.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٥) ابن القلانسي: ص ٤٤٥. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٧٢.

التدخل الأرتقي

تغيَّرت صورة الوضع السياسي في شمالي بلاد الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثانية في تحقيق أهداف الصليبيين[1]، وقرار نور الدين محمود في التصدي للصليبيين متبعاً خطى والده في ذلك.

وكان جوسلين الثاني أمير الرها، لا يزال قابعاً في قاعدته تل باشر، يُشرف على بقية المعاقل التابعة لإمارته وهي سميساط وقلعة الروم[2] ودلوك[3] والراوندان وقورس[4]، ثم مرعش وعزاز[5] من ناحية الشمال على حدود وإمارة أَنطاكية[6].

ومن الواضح أن الصليبيين على الرغم من وجود جوسلين الثاني، افتقروا، بعد مقتل ريموند بواتييه أمير أَنطاكية[7]؛ إلى رجل قوي يقودهم ويتولى الدفاع عن مصالحهم في الأطراف الشمالية من العراق وبلاد الشام، لأن حاكم الرها لم يكن على مستوى الأحداث، فلم يستطع النهوض بذلك العبء، لما عُرف عنه من حب الترف والدعة. وبدلاً من أن يقوم هذا الرجل باسترداد ممتلكاته التي خسرها مؤخراً، أخذ يغير على أحد الأديرة الواقعة عند أطراف نهر الفرات[8].

أتاح هذا الفراغ القيادي في الجبهة الصليبية، للأطراف الإسلامية، الأراتقة، الزنكيين وسلاجقة الروم، تصفية إمارة الرها. وقد تمكَّن الأَراتقة خلال هذه المرحلة، من استعادة بعض المواقع الصليبية القريبة من إماراتهم، مستغلين ضعف

---

(١) كان على الصليبيين الغربيين في الحملة الصليبية الثانية أن يختاروا بين اتجاهين سياسيين يمثِّلان وجهتي نظر متناقضتين. مثَّل وجهة النظر الأولى حكام الإمارات الصليبية الشمالية، أنطاكية والرها وطرابلس، وقد طلبوا من رجال الحملة مساعدتهم لاسترداد ما خسروه أمام المسلمين، في حين مثَّل وجهة النظر الثانية حكام بيت المقدس، الذين أقنعوا رجال الحملة بمهاجمة دمشق. وعلى الرغم من خطأ هذا القرار وحماقته، لأن دمشق كانت حليفة للصليبيين آنذاك، فإن حصار دمشق ومحاولة اقتحامها قد فشلا، ورحلت القوات الصليبية عن المدينة دون أن تحقِّق الغاية التي أتت من أجلها من أوروبا.

(٢) قلعة الروم: قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط. الحموي: جـ ٤ ص ٣٩٠.

(٣) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٦١.

(٤) قورس: كورة من نواحي حلب. المصدر نفسه: ص ٤١٢.

(٥) عزاز أو أعزاز: بليدة فيها قلعة ورستاق شمالي حلب بينهما يوم. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١١٨.

(٦) Grousset: vol II p 284..

(٧) لقي ريموند بواتييه مصرعه في (شهر صفر عام ٥٤٤هـ/ شهر حزيران عام ١١٤٩م) على يد شيركوه، أحد قادة نور الدين محمود، إثر معركة إنَّب. انظر كتابنا: تاريخ الزنكيين ص ٢٦١ ـ ٢٦٥.

(٨) Michel le Syrien: vol III pp 283 - 284.

المعاقل الباقية من إمارة الرها نتيجة الضربات التي تلقَّتها من نور الدين محمود ومسعود.

ولم يلبث قرا أرسلان الأرتقي، صاحب حصن كيفا وخرتبرت[1]، أن تقدَّم للحصول على نصيبه من الغنيمة، فهاجم الأجزاء الشمالية من إمارة الرها، ونجح في استعادة بابولا وكركر الواقعة شمال سميساط، وقد انتزعها من الأرمن أتباع رينولد أمير مرعش، كما فتح حصن منصور[2]. وبذلك امتدت سيطرة قرا أرسلان فشملت الجهات الأرمينية في هذه المنطقة والتي كان يحكمها رينولد من قبل[3].

أما حسام الدين تمرتاش، أمير ماردين، فقد استعاد سميساط والبيرة[4] وقورس وكفرسوت[5].

التدخل الزنكي والسلجوقي

عاد مسعود إلى الجبهة الشرقية في عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) وتسلَّم قيادة الجيش السلجوقي. وبعد دراسة الوضعين السياسي والعسكري، قرَّر القيام بهجوم على مرعش، فتصدى له ريموند بواتييه أمير أنطاكية؛ فما كان من السلطان السلجوقي إلَّا أن طلب من نور الدين محمود، مهاجمة ممتلكات ريموند حتى يخفِّف الضغط عن قواته. استجاب أمير حلب لطلبه، وأثناء اجتياحه للقرى التابعة لأنطاكية هاجم علي بن وفا الكردي، زعيم الحشيشية وعدو نور الدين محمود، أفامية الواقعة على الطريق بين أنطاكية ومرعش، فاضطر نور الدين محمود إلى الانسحاب وبخاصة أنه دبَّ النزاع بين اثنين من كبار قادته وهما شيركوه الكردي وابن الداية من أعيان حلب.

بعد مقتل ريموند بواتييه وفشل نور الدين محمود في فتح أنطاكية، التفت إلى مشاركة القوى الإسلامية الأخرى بفتح ما تبقَّى من إمارة الرها، وبخاصة المعاقل الواقعة شرقي نهر العاصي، في الوقت الذي ضيَّق فيه مسعود الحصار على مرعش، قبل أن يدخلها، وأعلنت الحامية، التي تركها جوسلين الثاني، ولاءها للسلاجقة.

---

(١) خرتبرت: هو الحصن المعروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم،بينه وبين ملاطية مسيرة يومين. الحموي: جـ ٢ ص ٣٥٥.

(٢) حصن منصور: من أعمال ديار بكر، لكنه غربي الفرات قرب سميساط. المصدر نفسه: ص ٢٦٥.

(٣) ابن العبري: ص ١٦٤ ـ ١٦٥. Michel le Syrien: vol III pp 294 - 295.

(٤) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. الحموي: جـ ١ ص ٥٢٦.

(٥) ابن العبري: ص ١٦٥. Michel le Syrien: vol III pp 294 - 297.

وكفرسوت: من أعمال حلب قرب بهسنا. الحموي: المصدر نفسه جـ ٤ ص ٤٦٩.

والمعروف أن جوسلين الثاني استغلَّ مقتل صهره ريموند صاحب مرعش ليستولي على المدينة. ثم حدث أن طارد مسعود جوسلين الثاني حتى أطراف تل باشر، وهزم القوات الصليبية التي اعترضته، وفتح عدة قلاع تقع على الطريق نفسه مثل عينتاب ودلوك ثم ضرب الحصار على تل باشر[١]، إلَّا أنه رأى من حسن السياسة أن يتوقف عن عملية المطاردة وينسحب من مرعش بعد أن تبيَّن له أن إمدادات نصرانية أخذت تقترب، وأن نور الدين محمود توقف عن مواصلة تقدمه لأنه كان يَعدُّ جوسلين الثاني من أتباعه، ولم يود أن يرى بلاده تنتقل إلى أيدي مسعود[٢]، وهو حريص على الاستحواذ على كامل إمارة الرها، يضاف إلى ذلك، أنه خشي من استمرار التوسع الأرتقي على امتداد نهر الفرات حيث قام قرا أرسلان الأرتقي بمهاجمة الأجزاء الشمالية من إمارة الرها، وفتح كركر[٣]. وفعلاً، تدخَّل نور الدين محمود بين مسعود وجوسلين الثاني في عقد الصلح، وأطلق الثاني بموجبه ما لديه من أسرى المسلمين، كما قدَّم له اثنتي عشرة حلَّة حربية[٤].

وفي عام (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م)، دبَّ النزاع بين نور الدين محمود وجوسلين الثاني، وحدث أن وقع هذا الأخير في أيدي التركمان عندما كان متوجهاً إلى أنطاكية للتشاور مع أعيانها حول وصاية العرش. ولما علم نور الدين محمود بذلك، أرسل قوة عسكرية أخذته منهم وسجنه نور الدين محمود في حلب بعد أن سمل عينيه حيث ظل مسجوناً إلى أن توفي بعد تسعة أعوام[٥].

استغل مسعود اختفاء جوسلين الثاني عن المسرح السياسي تاركاً ما تبقَّى من إمارة الرها دون مدافع، فاجتاح أراضي كيسوم وبهسنا ورعبان في شمالي إمارة الرها، وأعطاها لابنه قلج أرسلان. ولم يبد سكان هذه البقاع أي مقاومة وخرج من رغب منهم لاجئاً إلى عينتاب وتل باشر، وكانت هذه الأخيرة بإمرة جوسلين الثالث ابن أمير الرها، ثم حاصر تل باشر[٦]، وشاركه نور الدين محمود في عملية الحصار

---

(١) Grègoire le prêtre: Chronique p 162.

(٢) Michel le Syrien: vol III p 290.

(٣) كركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد. الحموي: جـ ٤ ص ٤٥٣. Ibid.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٩٣.

(٥) ابن القلانسي: ص ٤٨١. ابن الأثير: جـ٩ ص ٧٩. ابن العبري: ص ١٦٥. Michel le Syrien: vol III p 296. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٦) ابن القلانسي: المصدر نفسه. Ibid. Gregoire le prêtre: p 162.

كي لا ينفرد مسعود بالسيطرة عليها. وراحت الجيوش الإسلامية تزيد من ضغطها على المدينة، غير أن ما أعدَّته الكونتيسة بياتريس، زوجة جوسلين الثاني والوصية على جوسلين الثالث، من الدفاع عن المدينة؛ بلغ من القوة ما دعا المسلمين إلى الانسحاب، ومع ذلك بدا أنه ليس بوسع المدينة أن تستمر في صمودها نتيجة ما وصلت إليه أوضاعها من تدهور، بالإضافة إلى انقطاع الاتصالات بينها وبين بقية المناطق النصرانية بفعل سيطرة المسلمين على المنطقة المحيطة بها. عندئذ أسرع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إلى الشمال لتدارك الموقف فوصل إلى أَنطاكية. وبعد تقييمه للوضعين السياسي والعسكري، أدرك أن قوة الصليبيين في بلاد الشام لا تكفي لمواجهة الأخطار المحدقة بهم من قِبل المسلمين، فقرَّر الاستعانة بالأمبراطور البيزنطي مانويل الذي رحَّب بهذا الطلب، والمعروف أن الأمبراطور لم يكن بعيداً عن تتبُّع سير الأحداث المتعلقة بشمالي بلاد الشام.

وإذ تهيأت الفرصة للكونتيسة للتخلِّي عن ممتلكاتها، وصلت إليها رسالة من الأمبراطور تتضمَّن عرضاً بيزنطياً بشراء ما تبقَّى من إمارة الرها، وهي تل باشر وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان، فضلاً عن حقوقها في الأماكن الأخرى التي كانت تابعة لإمارة الرها والتي فتحها المسلمون مؤخراً، ظناً منه أن هذه الأماكن ستمكِّنه من استرداد النفوذ البيزنطي القديم في تلك المناطق الشرقية. والواقع أنه أضاع هذه الحصون في أقل من سنة بعد أن انعقد التحالف بين مسعود ونور الدين محمود.

ورأت الكونتيسة بياتريس أنه لا بد أن ترفع طلب الأمبراطور إلى الملك بلدوين الثالث الذي كان آنذاك في أَنطاكية، وقد حضر المؤرخ وليم الصوري جلسة المناقشات، وترك لنا صورة حيَّة عنها، ونصه كاف لإيضاح الاختلاف في وجهات النظر حيث انقسم المجتمعون إلى فريقين:

رفض الفريق الأول قبول تنفيذ الصفقة، وكان مدفوعاً بالعاطفة الدينية، وحجَّته في ذلك أن اتحاد الأمراء الصليبيين في بلاد الشام كافٍ لإجلاء المسلمين عن الأماكن التي استعادوها.

ووافق الفريق الثاني على قبول تنفيذ الصفقة، معتقداً بأن امتلاك البيزنطيين لهذه الأَراضي أفضل من وقوعها في أيدي المسلمين، بعدما أدركوا أهداف كل من مسعود ونور الدين محمود، من كثرة فتوحهما، كما أملوا بوقوع احتكاك بين القوى الإسلامية والبيزنطيين مما يؤدي إلى إضعاف كليهما وإنقاذ الإمارات الصليبية على

حسابهما، أما إذا ضاعت هذه الأَراضي فسيكون الأمبراطور البيزنطي مسؤولاً تجاه الرأي العام النصراني.

انتصر أخيراً الفريق الثاني، فتسلَّم مانويل كومنين تل باشر والراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة، بينما احتفظت الكونتيسة بياتريس بقلعة الروم الواقعة على نهر الفرات قرب سميساط، ومنحتها للجاثليق الأرميني ليتخذها مقراً له، وبقيت هذه القلعة مقراً له نحو نصف قرن في ظل الحكم الإسلامي[١].

أدرك مانويل بعد قليل من الوقت، أن هذه الحصون ثقيلة العبء، وتحتاج إلى جهد كبير للمحافظة عليها، والاحتفاظ بها، نظراً لبُعدها عن مركز الأمبراطورية من جهة، ولوقوعها وسط أراضي يسيطر عليها المسلمون من جهة أخرى، هذا في الوقت الذي كانت فيه الأمبراطورية تعاني تهديداً مستمراً من جانب النورمان في صقلية، مما جعلها عاجزة عن الاهتمام بهذه الأطراف الشرقية.

استغل المسلمون تدهور الأوضاع السياسية في المنطقة، وراحوا يهاجمون الحصون المذكورة. فهاجم مسعود تل باشر وحاصرها، واتصل أثناء ذلك بنور الدين محمود وعرض عليه التحالف بينهما. وثبَّت هذا التحالف زواج نور الدين محمود من ابنة مسعود، وكانت تل باشر مهراً لها[٢]، ودخل تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين في هذا التحالف.

وأخذت جيوش المسلمين تزيد من ضغطها على المدينة، غير أن ما أعدَّته الكونتيسة بياتريس من الدفاع عنها بلغ من القوة ما دعا المسلمين إلى الانسحاب، غير أن نور الدين محمود نجح في فتح عزاز التابعة لإمارة أَنطاكية في (شهر ربيع الأول ٥٤٥هـ/ شهر تموز ١١٥٠م)، كما نجح مسعود في فتح مرعش[٣]، ثم اشترك مسعود ونور الدين محمود في مهاجمة الحاميات البيزنطية في الحصون المتبقية، وهرع الأراتقة لينالوا نصيبهم منها، فسقطت كلها في أيدي المسلمين إثر عمليات متلاحقة. وهكذا تمَّ تقسيم الغنيمة على الشكل التالي:

أخذ مسعود مرعش ورعبان وكيسوم ودلوك وبيت الحصن وعينتاب، وكان

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٨٠٠ ـ ٨٠١ - Michel le Syrien: vol III pp 296 . 297. الجدير بالذكر هنا أن المؤرخين البيزنطيين لم يشيروا إلى هذه الصفقة.

(٢) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ٢ ص ١٨٤. Gregoire le prêtre: p 162.

(٣) ابن القلانسي: ص ٤٨١. ابن العبري: ص ١٦٥.

من نصيب نور الدين محمود، عزاز وراوندان وتل باشر، في حين أخذ تمرتاش سميساط والبيرة وكفرسوت، وغنم قرا أرسلان بابولا وكركر وكاختي وحصن منصور، كما أشرنا[1].

وبذلك زالت إمارة الرها الصليبية من الوجود، وعادت أراضيها إلى السيادة الإسلامية، وأضحى لمسعود موطىء قدم في الأراضي الواقعة غربي الفرات، إلّا أنه ترك المنطقة بعد ذلك وعاد إلى آسيا الصغرى ليواصل كفاحه وتوسيع أراضيه في منطقة قيليقية، وعيَّن ابنه قلج أرسلان حاكماً على منطقة غربي الفرات.

الصراع البيزنطي ـ الأرميني وانعكاسه على أوضاع سلاجقة الروم

في الوقت الذي كان فيه المسلمون يعملون جاهدين على فتح المناطق التي آلت إلى الأمبراطورية البيزنطية من بقية إمارة الرها، كان الأمير الأرميني ثوروس الثاني (٥٣٩ ـ ٥٦٣هـ/ ١١٤٤ ـ ١١٦٨م) يقود ثورة أرمينية على ما تبقّى من النفوذ البيزنطي في منطقة قيليقية. والمعروف أن ثوروس الثاني هذا كان قد هرب من سجنه في القسطنطينية في عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) ولجأ إلى ابن خاله جوسلين الثاني أمير الرها، وجمع حوله عدداً من الأرمن نظَّم منهم جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، واستطاع أن يسترد قلعة ڤاهكا معقل أسرته في جبال طوروس[2].

واغتنم الأمير الأرميني انهماك الأمبراطور البيزنطي مانويل في التصدِّي لهجوم المسلمين على تل باشر في عام (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) فانساب في سهل قيليقية، وهزم الحاكم البيزنطي توماس، وذبحه على أبواب المصيصة بعد أن استولى عليها وعلى طرسوس[3].

كان على الأمبراطور مانويل أن يقوم بعمل إيجابي للتصدي لطموحات الأمير الأرميني وازدياد نفوذه في منطقة قيليقية، للحفاظ على هيبة الأمبراطورية، وبخاصة أن المنطقة تتحكَّم في المعابر من وإلى بلاد الشام، كما تُعدُّ خط الدفاع الأول عن الأمبراطورية من ناحية الجنوب الشرقي. لذلك، أرسل جيشاً بقيادة ابن عمه أندرونيكوس، مؤلَّفاً من اثني عشر ألف مقاتل لتأديب ثوروس الثاني واسترداد ما

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٨١، ٤٨٩. ابن العبري: ص ١٦٤ ـ ١٦٥. ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٩.
Michel le Syrien: vol III p 297.

(٢) أستارجيان: تاريخ الأمة الأرمينية ص ٢١١.

(٣) Sempad: Chronique du Royaume de la Petite Armenie in R.H.C. Doc Arm vol I p 619.

استولى عليه، إلَّا أنه فشل في تحقيق أي نصر، وتعرَّض لهزيمة قاسية على يد القوات الأرمينية. فقد فاجأ ثوروس الثاني الجيش البيزنطي الذي كان يحاصر المصيصة، وأخذه على حين غرَّة بعدما فتح ثغرة في السور في مكان خافٍ عن أعين القوات البيزنطية، ثم انقضَّ عليه وهو خارج الأسوار[١]، وهرب أندرونيكوس عائداً إلى القسطنطينية.

والواضح أن مانويل عجز عن إخضاع الأرمن الذين أحكموا سيطرتهم على مدن قيليقية، مثل سيس وعين زربي وأذنة وطرسوس، لكن الدولة البيزنطية لا يمكنها أن تتنازل بسهولة عن قيليقية ليستقل بها الأرمن نظراً لأهميتها العسكرية والسياسية، بالإضافة إلى ذلك، فإن النفوذ البيزنطي أخذ يتداعى على الطرف الجنوبي الشرقي للأمبراطورية وهذا ليس في صالح الأمبراطورية، لذلك راح مانويل يبحث عمن يقوم مقامه في إخضاع ثوروس الثاني، فلم يجد سوى السلطان السلجوقي مسعود الذي كان متلهفاً للتدخل في قيليقية وقد سنحت له الفرصة الآن. فقد حدث أن توفي عين الدولة بن غازي الدانشمندي صاحب ملطية في عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، وخلفه ابنه القاصر ذو القرنين تحت وصاية والدته ودخل في طاعة مسعود[٢]. ولما كان ياغي أَرسلان صاحب سيواس يسعى لإعادة بناء الدولة الدانشمندية وتوحيدها، دعا الأمير الجديد إلى عدم الاعتراف بزعامة مسعود. قَبل ذو القرنين نصائح عمه، وأرسل جيوشه إلى مناطق الحدود مع السلاجقة خوفاً من اجتياح مسعود لها.

لم يمض وقت طويل، حتى اجتاح مسعود ضواحي ملطية بعد أن استرضى ياغي أَرسلان بأن زوَّجه ابنته، فاضطر عندئذ، ذو القرنين إلى الاعتراف مجدداً بزعامة مسعود الذي سيطر نظرياً على ملطية وسيواس[٣].

استغل ثوروس الثاني آنذاك، الصراعات بين الأَتراك بعامة في آسيا الصغرى فاجتاح كبادوكية في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) واستولى على كامل المنطقة، وعاد إلى بلاده محملاً بالغنائم والأسرى[٤].

---

(١) أستارجيان: ص ٢١١ .Michel le Syrien: vol III p 304. Ibid. Kinnamos: p 126
Gregoire le prêtre: pp 169 - 170.

(٢) Michel le Syrien: vol III pp 304 - 305.

(٣) ابن العبري: ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨.

وعلى الرغم من السياسة الماكرة التي انتهجها مانويل في ضرب القوى المختلفة في آسيا الصغرى، بالتحالف مع إحداها أو ضمها إلى جانبه، ليضرب بها القوى الأخرى، التي تكون سياستها معادية للسياسة البيزنطية، مما يضعفها ويدعم في الوقت نفسه نفوذ الأمبراطورية[1]، فقد قَبل مسعود عرض الأمبراطور بمهاجمة ثوروس الثاني في مقابل الحصول على مغانم كثيرة لم تحددها المصادر[2].

نهض مسعود لغزو أراضي قيليقية معتمداً على الدعم البيزنطي، وعلى شهرة القوات السلجوقية التي كانت تُلقي الرعب في قلوب الأرمن[3]. تقدمت القوات السلجوقية باتجاه المنطقة واقتربت من المواقع الحدودية، فأمر ثوروس الثاني قواته بنصب الكمائن في الممرات الجبلية الواقعة على الحدود، مما أدَّى إلى فشل مسعود في النفاذ إلى قيليقية[4]. ولما رأى مسعود نفسه في طريق مسدود دخل في مفاوضات مع ثوروس الثاني للتفاهم على حل معيَّن، وأرسل إليه مندوبين ليبلغوه بأنه لم يحضر لتخريب الأراضي الأرمينية، وإنما للمطالبة بعودة الأراضي التي كانت في حوزة الأرمن إلى الأمبراطورية البيزنطية، بالإضافة إلى الاعتراف به كزعيم في منطقة آسيا الصغرى، مقابل منحه امتيازات الأمراء. وافق ثوروس الثاني على الخضوع لسيادة السلطان السلجوقي، لكنه رفض إعادة الأراضي التي استولى عليها مؤخراً إلى الأمبراطورية البيزنطية. ولما كان مسعود حريصاً على إخضاع ثوروس الثاني لسلطته، فقد وافق على شروطه، دون أي اشتباك[5].

لم يستسلم مانويل لهذه النتائج التي تقضي بضياع النفوذ البيزنطي في قيليقية، فاستعان برينولد شاتيون أمير أنطاكية، وعرض عليه أن يعترف به أميراً على المدينة إذا ساعده بإخضاع ثوروس الثاني، كما وعده بإغداق المال عليه.

قَبِل ريموند عرض الأمبراطور، واستطاع بعد معركة قصيرة، جرت قرب إسكندرونة، أن يردَّ الأرمن إلى داخل قيليقية، وأهدى الإقليم الذي استرده إلى طائفة الداوية. وعندما طلب من الأمبراطور أن يؤدي له قيمة المساعدة المالية، رفض هذا الأخير، وأشار إلى أنه لا بد من تحقيق الهدف الأساسي الذي اتفقا عليه، فلم يسع ريموند إلَّا أن يبدِّل سياسته، فانقلب على الأمبراطور وعقد صلحاً مع ثوروس الثاني،

---

(١) عمران: ص ١٩٤.

(٢) أستارجيان: ص ٢٢١. Gregoire le prêtre: p 169.

(٣) Ibid: p 170. (٤) Michel le Syrien: vol III p 310.

(٥) Gregoire le prêtre: pp 170 - 171. Setton: vol II p 639.

الذي استأنف حملاته ضد ما تبقَّى في أيدي البيزنطيين من حصون في قيليقية[١].

لم ييأس مانويل بعد فشل جهوده في إخضاع ثوروس الثاني، ودخل في مفاوضات جديدة مع مسعود في عام (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م)، وكان آنذاك في وادي الفرات، وأغراه بالمال لمحاربة ثوروس الثاني. وإن دلَّ طلب الأمبراطور، في هذا الوقت بالذات على شيء، فإنه يدل على خطورة الموقف، حتى يراسل السلطان وهو في وادي الفرات بدلاً من انتظار عودته إلى عاصمته[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد وافق مسعود على رغبة مانويل، فعاد إلى عاصمته حيث جهَّز جيشاً كبيراً، وتوجَّه إلى أرمينية الصغرى عبر جبال أمانوس، ثم انحرف إلى عين زربى والمصيصة، ويبدو أنه فاجأ السكان الذين أسرعوا بالاحتماء وراء أسوار المدن، ثم ما لبث ثوروس الثاني أن حشد قواته واستعدَّ لمواجهة القوات السلجوقية[٣].

والواضح أن السلاجقة فشلوا في فتح أي مدينة، فاتجهوا إلى تل حمدون[٤] وحاصروها في (١١ ربيع الأول ٥٤٩هـ/ ٢٧ أيار ١١٥٤م). وفصل مسعود أثناء الحصار، قوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف جندي، بقيادة يعقوب وهو أحد قادته، وأمرهم بتمشيط الطرق الرئيسية المؤدية إلى أنطاكية[٥]، وربما أراد أن تقوم هذه القوة بالاحتكاك بالصليبيين في أنطاكية لسبر أغوار قوتهم تمهيداً للتقدم إليها إذا ما نجح في هزيمة ثوروس الثاني، وبذلك يعيد قيليقية إلى الأمبراطور البيزنطي، ويستأثر هو بأنطاكية، أو ربما أراد أن تقوم هذه القوة بحركة التفاف حول القوات الأرمينية وتهاجمها من الخلف، فتقع بذلك بين نارين[٦]. والواقع أننا لم نتمكَّن من رصد نوايا مسعود من جراء خطوته هذه لأنه انهزم أمام ثوروس الثاني، كما سنرى، كما أن هذه القوة انهزمت أمام الأرمن. إذ في الوقت الذي كانت تجتاز فيه الطريق الضيق في بورتيلا قرب الإسكندرونة، وهو الممر الوحيد الذي يربط بلاد الشام بقيليقية، فاجأتها العساكر الأرمينية بقيادة ستيفاني شقيق ثوروس الثاني ومعه الفرسان الداوية، ودارت بين الطرفين رحى معركة قوية، قُتل فيها القائد يعقوب، وهُزمت

---

(١) ابن العبري: ص ١٦٩. Michel le Syrien: vol III p 314.

(٢) عمران: ص ١٩٧.

(٣) Gregoire le prêtre: p 171.

(٤) تل حمدون: مدينة أرمينية في قيليقية قوية التحصين، ذات أسوار منيعة، تقع على قمة تل مرتفع، عامرة بالبساتين التي يرويها نهر جيحان الذي يمر بغربها.

(٥) Gregoire le prêtre: pp 171 - 172.

(٦) عمران: ص ١٩٨.

القوة السلجوقية[1]، وفشل مسعود في الوقت نفسه من النيل من تل حمدون بفعل هبوب عاصفة شديدة أدَّت إلى اقتلاع الأشجار، وأعقبها سقوط الثلج على الرغم من أن الوقت كان صيفاً، فضلاً عن انتشار وباء بين الجنود السلاجقة، واضطر إلى رفع الحصار عن المدينة وعاد أدراجه إلى بلاده[2].

الواقع أن الهزيمة التي مني بها الجيش السلجوقي تحوَّلت إلى كارثة. فقد وضع ثوروس الثاني بعض قواته في طريق عودة القوات السلجوقية، فهاجمتها في ممرات الجبال دون هوادة أو رحمة، واضطر معظم الجنود إلى التخلِّي عن خيولهم وأسلحتهم والفرار إلى شعاب الجبال على أقدامهم. وسهَّلت هذه الفوضى مهمة القوات الأرمينية فلاحقتهم وسط الجبال وقتلت كثيراً منهم. ومما زاد الأمور صعوبة في وجه مسعود، قيام الجنود الأرمن بالتسلل إلى إقليم كبادوكية، وقاموا بأعمال السلب والنهب، كما هاجموا مدينة دوالو، ولم يعلم مسعود بذلك إلَّا عندما عاد إلى بلاده[3].

وفاة السلطان مسعود

بعد هزيمة مسعود، حدثت تطورات مهمَّة على الساحة السياسية في آسيا الصغرى، ذلك أن هذا السلطان توفي بعد أشهر قليلة من عودته إلى بلاده، وسجل موته نهاية الوفاق السياسي والانسجام بين الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى الذي حرص على تحقيقه، وكان في مقدمة أهدافه السياسية[4].

قضى مسعود معظم حياته السياسية في نزاعات وحملات عسكرية، إلَّا أنه ترك عند وفاته سلطنة واسعة وقوية أضحى لها تأثير مباشر على المسرح السياسي في المنطقة، وأنقذ بحكمه الطويل سلطنة سلاجقة الروم من الاضمحلال، وحوَّلها من سلطنة صغيرة حول قونية إلى دولة كبيرة سيطرت على كامل بلاد الأناضول، وذلك بفضل سياسته السليمة، وبُعد نظره، وجهوده الدائبة، وبدأت في عهده حركة الإدارة بالظهور، ونشطت سياسة الاستقرار الاجتماعي وتقديم الخدمات الاجتماعية في الدولة[5].

---

(١) Gregoire le prêtre: pp 171 - 172.

(٢) يذكر ابن العبري بأن البق والذباب تغلغلا بين الجنود السلجوقية، كما فسد المناخ مدة ثلاثة أيام، وتفشى الوباء فيهم وفي خيلهم، فتركوا أثقالهم وانهزموا. تاريخ الزمان: ص ١٦٩. Sempad: p 621.

(٣) Gregoire le prêtre: p 173.

(٤) قارن ابن القلانسي ص ٥١٠. ابن الأثير: جـ٩ ص ٥٠. ابن العبري: ص ١٦٩. Ibid. Sempad: p 621.

(٥) Camb. Hist. of Islam: vol I p 242.

الفصل السابع

عز الدين قلج أَرسلان بن مسعود

قلج أَرسلان الثاني

٥٥٠ ـ ٥٨٨هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٩٢م

تولي قلج أَرسلان الثاني السلطة

توفي مسعود دون أن يحقِّق أي فائدة من تحالفه مع مانويل، بل على العكس، كان تحالفه هذا وبالاً عليه، إذ حطَّم جيشه بخسارته أمام ثوروس الثاني، كما كلفه حياته على الرغم من أن وفاته جاءت بعد حين. وكان على ابنه وخليفته قلج أَرسلان الثاني أن يعيد تنظيم الجيش كي يتمكَّن من مواجهة الأخطار التي حاقت بالدولة السلجوقية.

إذن، خلف قلج أَرسلان الثاني أباه مسعود. إنه أمير له قدرة استثنائية على العمل، يتمتع بذكاء حاد ويحتل مكاناً مميزاً بين أمراء سلاجقة الروم، بل يُعدُّ من ألمعهم شهرة، وهو أول حاكم سلجوقي أَناضولي اتخذ لنفسه لقب سلطان على المسكوكات. والجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية كانت تطلق هذا اللقب على السلاجقة العظام، ولا تذكر لأمراء الأَناضول سوى لقب ملك[١].

مارس قلج أَرسلان الثاني، الحكم في أيام والده. فقد عيَّنه حاكماً على البلاد المفتوحة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى[٢]، وكان حريصاً على تتويجه في حياته[٣]. تابع نهج والده السياسي، وعمل من أجل الوحدة السياسية للأَتراك السلاجقة، والازدهار الاقتصادي والثقافي لبلاده[٤].

---

(١) أسد رستم: جـ ٢ ص ١٥٧.

(٢) Ency. of Islam: vol II p 1007.

(٣) Chalandon: p 432.

(٤) Camb. Hist. of Islam: vol I p 243.

التنازع في آسيا الصغرى

واجهت قلج أرسلان الثاني، منذ بداية حياته السياسية كحاكم، عدة مشكلات، تمثّلت بثورة أخيه شاهنشاه، وطمع الدانشمنديين والزنكيين في أملاكه، كما أراد الأرمن الانتقام من السلاجقة على ما قاموا به من تعديات في قيليقية، وقرَّر الأمبراطور البيزنطي العمل على استعادة أملاك الأمبراطورية في آسيا الصغرى.

هدَّدت هذه المشكلات السلطنة بالزوال، فكان على قلج أرسلان الثاني أن يهبَّ للدفاع عن بلاده، ويتصدَّى للطامعين، من أجل البقاء.

ثار شاهنشاه بن مسعود على حكم أخيه قلج أرسلان الثاني، واستقرَّ في كنغري وأنقرة اللتين كان والده قد أعطاهما له، بالإضافة إلى قسطموني والبلاد الواقعة على البحر الأسود[١].

تدخَّل ياغي أرسلان أمير سيواس في الصراع الداخلي الذي نشب بين الأخوين، فساند صهره شاهنشاه، وكوَّن حلفاً ضد قلج أرسلان الثاني ضمهما مع أمير ملطية ذي القرنين وحاكم قيصرية ذي النون وأخيه الأمير إبراهيم بن محمَّد[٢].

انتهز ياغي أرسلان فرصة قيام قلج أرسلان الثاني بطرد بعض الأمراء، فحشد قوات كثيفة زحف بها إلى الأراضي السلجوقية، وهاجم قونية واحتل لاريسا، لكن الأمراء في كلا الدولتين تدخلوا بين الزعيمين ونجحوا في التوفيق بينهما[٣]، كما كان لنور الدين محمود الزنكي دور في هذا الصلح. فقد كان يرى أن من شأن هذا الخلاف أن يقوِّي الصليبيين والبيزنطيين على حساب المسلمين ويدفعهم إلى مهاجمة المعاقل الإسلامية «وبالغ في ذلك بأحسن توسط، وبذل التحف والملاطفات، وصلحت بينهم الأحوال»[٤].

ويبدو أن هذا الصلح كان شكلياً، إذ ما لبث ياغي أرسلان أن هاجم ممتلكات السلاجقة مرة أخرى، ولم يتمكَّن قلج أرسلان الثاني من التصدِّي له لأن قواته وصلت متأخرة لتسد عليه طريق العودة، كما أن ياغي أرسلان سلك طريقاً آخر أثناء عودته[٥]. وحتى يخفِّف الضغط السلجوقي عن بلاده، طلب ياغي أرسلان مساعدة

---

(١) Michel le Syrien: vol III pp 346 - 347.

(٢) Gregoire le prêtre: p 176.

(٣) Ibid: p 177.

(٤) ابن القلانسي: ص ٥١٠.

(٥) Gregoire le prêtre: p 177. Chalandon: p 432.

نور الدين محمود، وكان هذا الأخير حريصاً هذه المرة على انتزاع نصيب سلاجقة الروم في إمارة الرها، والراجح أنهما كانا متفقين على قتال قلج أرسلان الثاني واقتسام أملاكه[1].

هاجم نور الدين محمود ما كان بأيدي السلاجقة من إمارة الرها، أمثال عينتاب ودلوك ورعبان، مستغلاً تضعضع أوضاع السلطنة بفعل النزاعات الأسرية. ولما عاد قلج أرسلان الثاني إلى عاصمته من قتال الدانشمنديين، علم ما حصل من طرف نور الدين محمود، فهاله ذلك، مع ما كان بينهما من الصهر والمهادنة، وكتب إليه يعاتبه وينكر تآمره عليه ويتهدَّده ويتوعَّده. وتدخَّل الوزير المصري الصالح بن رزّيك بين الرجلين لعقد الصلح، ونجح في التوفيق بينهما، واعتذر نور الدين محمود لقلج أرسلان الثاني عما بدر منه[2].

ويبدو أن هذا التفاهم كان مؤقتاً، أيضاً، فقد حال دون تحقيق طموح ياغي أرسلان الذي كان مصمِّماً على مضايقة قلج أرسلان الثاني وإزاحته عن حكم السلطنة السلجوقية وإحلال أخيه شاهنشاه مكانه، والهيمنة على مقدراتها من خلاله، لكن الظروف السياسية كانت لا تسمح للبيتين التركيين في التمادي بخصوماتهما، فتدخل العلماء وكبار رجال الدولتين، مجدداً، وتمكّنوا من عقد الصلح بين الرجلين[3].

أما فيما يتعلَّق بهذه الظروف السياسية، فقد كان لغزو الأرمن الأَراضي السلجوقية السبب الأبرز في إنهاء الخلاف، حيث استغل هؤلاء فرصة وفاة مسعود وما أعقب ذلك من فوضى واضطرابات داخل بلاد الأَناضول، للانتقام من السلاجقة الذين هاجموا إمارتهم مرتين في أواخر حكم السلطان السلجوقي المتوفى.

الواضح أن ثوروس الثاني لم يترأس الحملات الأرمينية، فربما كان يخشى الابتعاد عن بلاده تحسباً من مهاجمة البيزنطيين الطامعين بها، فقام أخوه ستيفاني بهذه المهمة. والملاحظ أن القوات الأرمينية لم تهاجم الممتلكات الأصلية للسلاجقة، بل قامت بمهاجمة كيسوم وبهسنا ومرعش[4]، وهي المدن التي آلت إلى السلاجقة حديثاً من بقية إمارة الرها. ولعل ما دفع الأرمن إلى مهاجمة هذه المواقع

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥١١. Rice: p 61. Camb. Hist. of Islam: vol I p 243.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥١١.

(٣) Gregoire le prêtre: p 178.

(٤) Michel le Syrien: vol III p 314. Chalandon: p 433.

هو أنها ضاعت من زوجة جوسلين الثاني الأرمينية الأصل، وبذلك يكون لهم الحق، من وجهة نظرهم كأرمن، في استردادها، غير أن ستيفاني لم يتمكّن من الاستيلاء على بهسنا ومرعش، واكتفى بنهب كيسوم، لكنه استولى على قلعة برتونك، ثم عاد إلى بلاده(١).

بعد عقد الصلح بين قلج أَرسلان الثاني وياغي أَرسلان ركن شاهنشاه إلى الهدوء، فتفرَّغ السلطان السلجوقي عندئذ إلى الدفاع عن بلاده ضد الأطماع الخارجية. فبالإضافة إلى الأرمن الذين انكفأوا، برزت الأمبراطورية البيزنطية الطامعة في استرداد الأَناضول من الأَتراك، والسيطرة على الصليبيين في شمال بلاد الشام، وعلى الأرمن في قيليقية. كما طمع نور الدين محمود في السيطرة على المدن السلجوقية في إمارة الرها.

هاجم قلج أَرسلان الثاني منطقة شمال الشام وإقليم الفرات وظهر أمام أَنطاكية، وهدَّد منطقة حلب(٢). وحتى لا يطعن من الخلف أثناء صراعه مع البيزنطيين أجرى مفاوضات مع القوى النصرانية في المنطقة، مع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، ورينولد شاتيون أمير أَنطاكية، وثوروس الثاني الأرميني، وأرسل كل من هؤلاء سفيراً إلى قونية لعقد الاتفاق مع السلطان(٣). لكن يبدو أن التحالف لم يتم إلَّا مع الأرمن الذين اضطروا لكسب ود قلج أَرسلان الثاني بسبب قيام الأمبراطور البيزنطي مانويل بغزو أَراضي قيليقية، فأعادوا إليه قلعة برتونك في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)(٤)، أما الأمراء الدانشمنديون، فقد فرَّقهم عندما استقطب ذا النون صاحب قيصرية إلى جانبه(٥).

أثار التقارب السلجوقي ـ الأرميني مخاوف الأمبراطور البيزنطي مانويل، ورأى أنه موجَّه ضده. ولقد تحقَّقت مخاوفه في عام (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، لكن الخطر لم يأت من جانب هذا التحالف، وإنما من جانب التحالف الجديد بين الأَتراك بعامة في الأَناضول. فقد جمَّد السلاجقة والدانشمنديون خلافاتهم في هذه المرحلة، وتوحَّدوا

---

(١) عمران: ص ٢٠٢. Gregoire le prêtre: pp 178 - 180. Michel le Syrien: vol III p 314.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

(٣) Gregoire le prêtre: pp 178 - 180. Sempad: p 621. Chalandon: p 434.

(٤) Gregoire le prêtre: Ibid pp 181 - 182.

(٥) Chalandon: p 434.

لمواجهة الأخطار البيزنطية في الوقت الذي انقضى فيه أجل الهدنة المعقودة بين السلاجقة والبيزنطيين في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م).

هاجم السلاجقة الممتلكات البيزنطية وفتحوا سلوقية ولارندا الواقعتين في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى. وتوسع الدانشمنديون في الإقليم الشمالي الشرقي، فاستولوا على مدينتي يونة ويافرا الواقعتين في إقليم البنطس(١).

ويبدو أن سياسة مانويل في هذه المرحلة كانت تقضي بمحاربة الأرمن، بدليل أنه أرسل ألكسيوس جيفارد إلى كل من قلج أرسلان الثاني وياغي أَرسلان لعقد الصلح معهما. وعُقِد الصلح فعلاً بين الأطراف، وأعاد السلاجقة والدانشمنديون المدن التي فتحوها إلى الدولة البيزنطية. ولا شك بأن مانويل ضحَّى ببعض الأموال والهدايا لإرضاء الأَتراك، لكنه بذلك، اتخذهم حاجزاً بينه وبين الأرمن(٢). وعُقدت الهدنة في (منتصف عام ٥٥٣هـ/ صيف عام ١١٥٨م).

التدخل البيزنطي في شؤون بلاد الشام وانعكاسه على أوضاع السلاجقة

تجديد التحالف مع مملكة بيت المقدس

أدرك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، أنه لا بد من الاستعانة بقوة خارجية لمواجهة هجمات نور الدين محمود على الأملاك الصليبية، مستبعداً التعاون مع رينولد شاتيون صاحب أَنطاكية الذي كان يعمل لمصلحته الخاصة، فيمَّم وجهه شطر القسطنطينية، إذ أن الجيش البيزنطي ما يزال أقوى جيش في العالم النصراني في الشرق الأدنى.

كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة، فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في (منتصف عام ٥٥٢هـ/ صيف عام ١١٥٧م) برئاسة أتارد رئيس أساقفة الناصرة الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين(٣) وجوسلين بسيليوس ووليم دي باري؛ لطلب يد الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الأمبراطور(٤).

---

(١) Kinnamos: p 176.

(٢) Gregoire le prêtre: p 186. Chalandon: p 435.

(٣) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور. الحموي: جـ ٢ ص ١٤.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٩.

أحسن مانويل استقبال السفارة، وتمَّت صفقة الزواج. وتطرقت المفاوضات إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابل تعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدِّمه الأمبراطور من مساعدة.

الواقع أن مانويل استغلَّ هذه الزيجة التي تمَّت في شهر (رجب ٥٥٣هـ/ آب ١١٥٨م) للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الأمبراطورية في قيليقية وأَنطاكية. ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف مناهض لنور الدين محمود، وتأديب رينولد شاتيون على ما قام به من غزو قبرص التابعة لبيزنطية، في عام (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) بالاشتراك مع ثوروس الثاني الأرميني[١].

مانويل يغزو قيليقية

لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يُقدَّر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى قيليقية ليسترد حقوق الأمبراطورية، ومن ثَمَّ سيتوجه إلى أَنطاكية لإخضاعها وتأديب رينولد شاتيون[٢].

وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يموِّه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة.

كان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكان حصول غزو بيزنطي لأَراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من شهر (رمضان/ تشرين الأول) بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس، فهرب إلى الجبال. ودخل مانويل سهل قيليقية، واحتلَّ بعض المدن والقلاع مثل طرسوس وتل حمدون وعين زربى والمصيصة، فأضحت قيليقية في قبضته، ولاذ ثوروس الثاني بالفرار من مكان إلى آخر[٣].

وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون يستدعيه للمثول أمامه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص. ويبدو أن حاكم أَنطاكية انزعج لقدوم الأمبراطور، وإذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدَّى للجيش الأمبراطوري الكثيف، طلب مساعدة الملك بلدوين الثالث، متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقل استياء عن الأمبراطور. وأخَّر مثوله

---

(١) Gregoire le prêtre: p 186. (٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٠.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦١. Gregoire le prêtre: p 187.

بين يديه بانتظار وصوله إلى أَنطاكية، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، فحضر إلى مجلسه في المصيصة وقدَّم خضوعه له[1].

مانويل في أَنطاكية

ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أَنطاكية، حتى عجَّل بالمسير نحو الشمال. وإذ أظهر شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبأ العفو عن رينولد شاتيون بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالأمبراطور. ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تَمَّ الاتفاق على ما يلي:

- عقد تحالف بين الطرفين.
- تسوية علاقة بلدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بالمقابل على وعد من الأمبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني.
- يقدم الأمبراطور مساعدة عسكرية للصليبيين.

دخل مانويل بعد ذلك إلى مدينة أَنطاكية في شهر (ربيع الآخر ٥٥٤هـ/ نيسان ١١٥٩م)، وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب[2].

الواضح أن ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود، الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأضحى يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود إنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث في أَنطاكية[3].

مانويل في بلاد الشام

وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرَّك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين محمود فكتب إلى «ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن

---

(١) وليم الصوري: ج ٢ ص ٨٦١ ـ ٨٦٢. رنسيمان: ج ٢ ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

(٢) وليم الصوري: ج ٢ ص ٨٦٥. ابن العبري: ص ١٧٣.

(٣) توفيق: ص ١٥٥.

يظفر منهم»[1]. وفجأة يتم الصلح بين المسلمين والبيزنطيين في شهر (جمادى الأولى ٥٥٤هـ/ أيار ١١٥٩م) كأن لم يحدث شيء بين استعدادات الطرفين وإتمام الصلح.

ويشير الكاتب الأرميني جريجوار الكاهن، ويتفق معه ابن القلانسي، إلى تردد رسل نور الدين محمود على معسكر الأمبراطور. ولا شك بأن الزعيم المسلم كان مستعداً للحرب. فقد تواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم[2]، ومع هذه الكثرة العددية، إلَّا أنه آثر الصلح مع مانويل حتى لا يجعل مملكته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال.

أعلن الأمبراطور، عقب انتهاء المفاوضات مع رسل نور الدين محمود، عن تأجيل حملته بعد أن تمَّ الاتفاق بين الطرفين على:

- إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه منذ الحرب الصليبية الثانية.
- تعهده بمساندة مانويل ضد سلاجقة الروم.

يُعدُّ هذا التقارب الذي تَمَّ بين نور الدين محمود ومانويل، ميزة بالغة القيمة فيما ينشب من حروب مع عدو شديد الخطورة على الأمبراطورية يتمثَّل في سلاجقة الروم. وبعد عقد الاتفاق، ارتدَّ مانويل مع جيشه باتجاه الغرب عائداً إلى بلاده[3].

العلاقات السلجوقية ـ البيزنطية قبل معركة ميريوكيفالون

حملة مانويل الأولى ضد السلاجقة

سلك مانويل أثناء عودته الطريق من أَنطاكية إلى أرمينية الصغرى ثم إلى سلوقية ومنها إلى لارندا[4]. وعلى الرغم من سهولة السير على هذا الطريق إلَّا أنه كان محفوفاً بالمخاطر لأنه يمر عبر الأَراضي السلجوقية. ولعل ما دفع مانويل إلى سلوكه هو اعتماده على الصلح الذي عقده مع قلج أَرسلان الثاني منذ عام تقريباً، أَو لعله اغترَّ بالنصر الذي أحرزه في أرمينية الصغرى وشمال بلاد الشام.

وعندما اقترب الجيش البيزنطي من مدينة قونية، فوجىء السكان بذلك،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٤٤. (٢) المصدر نفسه.

(٣) Gregoire le prêtre: pp 189 - 190. Kinnamos: p 188. Camb. Hist. of Byzantine Empire. vol IV p 236.

(٤) Kinnamos: p 190.

وانتابهم الذعر، لأنهم ظنوا أن مانويل يريد حصار المدينة، غير أن الجيش البيزنطي تابع طريقه باتجاه فيلوميليوم. ولما وصل إلى كوتاهية هاجمته جماعات من التركمان راحت تفتك بجنود المؤخرة، وظلّت هذه الجماعات تلاحقه حتى وصل إلى القسطنطينية وهو منهك. ولعل هذا التصرف من قِبل السلاجقة كان انتقاماً من الأمبراطور بسبب عقد الصلح مع نور الدين محمود(١).

جرحت هذه المضايقات التي كانت قاسية، كبرياء الأمبراطور الذي حمَّل قلج أَرسلان الثاني المسؤولية عنها، فأراد أن يؤدِّبه، لذلك عبر إلى آسيا الصغرى بعد ثلاثة أشهر من عودته أي في أواخر عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م)، للانتقام من السلاجقة، فتوجه إلى إقليم بيثينيا حيث تقيم القبائل التركمانية التي اعترضت طريقه أثناء عودته من بلاد الشام، واجتاز بحر سيستوس، واستولى على بعض المدن، كما هاجم الفرق السلجوقية المسلحة المتمركزة في وادي نهر تمبريس(٢).

دافع السلاجقة عن أنفسهم أمام التوغل البيزنطي في أَراضيهم وضايقوا أفراد الجيش البيزنطي، وبفضل سرعة تحركهم كانوا يهاجمون الفِرق العسكرية البيزنطية قبل أن تتمكّن الكشافة من رصد تحركاتهم.

كانت حملة مانويل قصيرة، فقد اضطر للعودة إلى العاصمة بفعل حلول فصل الشتاء ومرض زوجته التي ما لبثت أن توفيت(٣).

حملة مانويل الثانية ضد السلاجقة

أرسل قلج أَرسلان كتاباً إلى مانويل يُبدي فيه رغبته بعقد معاهدة سلام بينهما، لكن الأخير رفض ذلك، وبدأ بتجهيز حملة أخرى ليغير على أملاك السلاجقة(٤).

ويبدو أن لرغبة السلطان السلجوقي علاقة بالمدى الذي وصلت إليه علاقاته مع الدانشمنديين والزنكيين من تردٍّ. فقد اجتاح ياغي أَرسلان نواحي البستان، وهاجم نور الدين محمود أملاك السلاجقة، منطلقاً من أواسط الفرات(٥).

لقد حرص الدانشمنديون على قتال السلاجقة، وساعدتهم الظروف المحيطة بهم على ذلك، وبخاصة بعد وفاة ذي القرنين أمير ملطية في أواخر عام (٥٥٦هـ/

---

(١) Gregoire le prêtre: p 192. Chalandon: p 456.

(٢) Ibid: p 193. Kinnamos: p 194. Michel le Syrien: vol III p 316.

(٣) Kinnamos: Ibid. Chalandon: p 459.

(٤) Ibid: p 191. Camb. Med. Hist: vol IV p 377.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٧٥.

١١٦١م) وتولي ابنه ناصر الدين محمَّد الحكم من بعده[١].

ويبدو أن الطمع داخَلَ نفس ياغي أَرسلان، بالإضافة إلى تحريض مانويل له، فاجتاح ملطية، وأعلن وصايته على أميرها الشاب محمَّد وهو حفيد أخيه عين الدولة. ولما كان قلج أرسلان الثاني لا يرضى باتساع أملاك أمير سيواس وازدياد نفوذه، فإنه أقدم على محاربته لمنعه من الاستمرار في السيطرة على ملطية[٢]. والراجح أن السلطان كان يعدُّ ملطية واقعة تحت حمايته على أساس أن أميرها ذا القرنين قد اعترف بذلك قبل وفاته، وأعلن تأييده للسلاجقة. وشنَّ ياغي أَرسلان هجوماً على البستان من ناحية سيواس صادف من النجاح ما أجبر قلج أرسلان الثاني على أن يتنازل له عن المدينة[٣].

وقام نور الدين محمود في الوقت نفسه، بمهاجمة أملاك السلاجقة. وقد تمَّ ذلك على ما يبدو طبقاً لاتفاقية الصلح التي عقدها مانويل معه في عام (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م). ونجح في السيطرة على بهسنا ورعبان وكيسوم ومرعش، كما هاجم بعض المدن الأخرى[٤].

وهكذا أضحى قلج أَرسلان الثاني مهدداً من ثلاث جبهات: الجبهة الدانشمندية في سيواس من الناحية الشمالية الشرقية، وجبهة نور الدين محمود من الناحية الشرقية، وجبهة الأمبراطور البيزنطي مانويل من الناحية الغربية، الذي أخذ يعمل بسرعة للاستيلاء على بعض المقاطعات السلجوقية الصغيرة، تمهيداً للقيام بحملة مقبلة واسعة النطاق حينما يبدأ القتال بين الزعيمين السلجوقي والدانشمندي[٥].

أدرك قلج أَرسلان الثاني أنه ليس باستطاعته أن يحارب على ثلاث جبهات في وقت واحد، لهذا جنح إلى الصلح، وبدأ بالجانب الإسلامي. وتمَّ الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود. ونتيجة لذلك استعاد السلاجقة المدن التي استولى عليها هذا الأخير[٦]. ثم عُقد الصلح بينه وبين ياغي أَرسلان وتمَّ الاتفاق على أن يتنازل

---

(١) Casanova, p: La Numismatigue des Danichmendites pp 81, 85.

ابن العبري: ص ١٧٥. وهو يجعل الوفاة في شهر تشرين الأول عام ١١٦٢م.

(٢) Michel le Syrien: vol III p 321.

(٣) Gregoire le prêtre: p 194.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٦ ـ ٨٦٧.

(٥) Rice: p 70.

(٦) Grégoire le prêtre: p 194.

السلطان السلجوقي عن البستان، والمناطق المحيطة بها في جبال اللكام، إلى ياغي أرسلان كما ذكرنا(١). وبدأ بعد ذلك بإجراء مباحثات مع الجانب البيزنطي لتجديد عرض الصلح.

رفض مانويل عرض قلج أَرسلان الثاني، وكان يستعد لغزو الأَراضي السلجوقية، وأرسل أحد قادته وهو يوحنا كونتوستيفانوس إلى كل من رينولد شاتيون وثوروس الثاني لحشد القوات التي وعد بها كل من الزعيمين الصليبي والأرميني عقب غزو الأمبراطور لقيليقية وأَنطاكية. وعمد إلى جمع بعض القوات المرتزقة من جزيرة رودس قبل أن تأخذ طريقها إلى الأَراضي المقدسة، وحشد جيشاً غايته القضاء على السلاجقة(٢).

خرج مانويل من عاصمته على رأس جيشه الضخم، فاجتاح وادي المياندر. وتحرَّك يوحنا كونتوستيفانوس، في الوقت نفسه، من قيليقية باتجاه الأَناضول فاجتاز الدروب القيليقية، فاضطر قلج أَرسلان الثاني إلى تقسيم جيشه لمواجهة الجيشين البيزنطيين، مما أضعف جبهته القتالية.

فاجأ مانويل السلاجقة حين أغار على أَراضيهم انطلاقاً من فيلادلفيا، لأن التقارير التي وصلت إلى قلج أَرسلان الثاني استبعدت وصوله إلى المدينة المذكورة. لكن السلطان السلجوقي امتص الغارات البيزنطية بعد أن أعاد تنظيم قواته بسرعة أذهلت الأمبراطور، واتسمت عملياته العسكرية بالكر والفر بل إنه هاجم فيلاتا ولاذيق(٣).

وفي الوقت الذي عبر فيه مانويل إلى آسيا الصغرى لمحاربة قلج أَرسلان الثاني، أجرى مفاوضات مع الأمراء المسلمين في المنطقة حتى يطوِّق السلطان السلجوقي ويمنعه من حرية التحرك وتشكيل جبهة إسلامية ضده. شملت المفاوضات كلاً من ياغي أَرسلان وشاهنشاه. وحتى يحبط مساعي الأمبراطور أجرى قلج أَرسلان مفاوضات مضادة مع ياغي أَرسلان لاستقطابه، ونجح في ذلك، كما تفاهم مع أخيه شاهنشاه، وأعاد لهما بعض المدن(٤).

عانى الجيش البيزنطي من شدَّة الهجمات السلجوقية، ومن وعورة المسالك الجبلية، ولم يسترد كامل قوته إلَّا بعد أن وصل إلى منطقة السهول، فاصطدم

---

(١) Grégoire le Prêtre: p 194.

(٢) Kinnamos: p 199.

(٣) Camb. Med. Hist: vol IV p 377.

(٤) Kinnamos: p 200. Chalandon: p 461.

بالجيش السلجوقي وهزمه، واستولى على بعض المدن. وتلقّى السلاجقة ضربة ثانية عندما تغلّب يوحنا كونتوستيفانوس على الجيش السلجوقي الذي أرسله قلج أَرسلان الثاني للتصدي لزحفه، ثم تابع طريقه مخترقاً بلاد السلاجقة[1].

ذيول الانتصار البيزنطي على السلاجقة

اضطر قلج أَرسلان الثاني، وسط هذه الظروف القاسية أن يطلب مجدداً، من الأمبراطور البيزنطي، إبرام معاهدة سلام بينهما، وتعهَّد بإعادة جميع الأسرى البيزنطيين الموجودين لديه[2].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات تعرَّض يوحنا كونتوسيتفانوس لكمين نصبه بعض رجال السلطان، فصبَّت هذه الحادثة في مصلحة مانويل الذي تشدَّد في شروط الصلح، وأبدى قلج أَرسلان الثاني من جانبه، تساهلاً، يتعلق بـ:

- احترام الحدود الفاصلة بين البلدين.
- تخصيص فرقة عسكرية تعمل على منع الغارات والتعديات على مناطق الحدود.
- إعادة المدن البيزنطية التي فتحها مؤخراً.
- يقدِّم فرقة عسكرية لتقاتل مع الجيش الأمبراطوري متى اقتضت الحاجة ذلك.
- يقوم بزيارة الأمبراطور في عاصمته مرة كل عام[3].

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكننا القول بأن مانويل نجح بشكل ملحوظ في دفع قلج أَرسلان الثاني للتوقيع على مثل هذه الاتفاقية التي عُقدت في أواخر عام (٥٥٧هـ/ ١١٦١م)، وتمكَّن مؤقتاً من وقف التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى على حساب الممتلكات البيزنطية. وبعد إعداد الترتيبات اللازمة قام قلج أَرسلان الثاني في (ربيع عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) بزيارة رسمية إلى القسطنطينية محاطاً بألف فارس، فاستقبله الأمبراطور بحفاوة بالغة، واتسمت الاحتفالات التي أقيمت على شرفه بالفخامة والأبهة، وغمره الأمبراطور بالهدايا[4]. ويبدو أن الذي حمله على القيام بهذه الزيارة، بالإضافة إلى ما ورد في نصوص الاتفاقية، هو الوقوف عن كثب على ما يجري في البلاد البيزنطي من مؤامرات تحاك ضده من قِبل ياغي أَرسلان

---

(١) Kinnamos: pp 198, 200 - 201.

(٢) Chalandon: p 461.

(٣) Kinnamos: p 201. Gregoire le prêtre: pp 193 - 194.

(٤) Kinnamos: Ibid pp 204 - 205. Nicetas: p 156. Michel le Syrien: vol III pp 319, 355.

وأخيه شاهنشاه بهدف خلعه عن الحكم، وإحلال أخيه مكانه[١].

وأثناء إقامة السلطان السلجوقي في العاصمة البيزنطية التي استمرت ثمانين يوماً تباحث العاهلان خلالها في إمكان إعادة النظر في الاتفاقية المبرمة بينهما وإجراء بعض التعديلات عليها، استناداً للظروف السياسية التي استجدَّت منذ إبرامها في العام الماضي، وقد وافق الطرفان على التعديلات التالية المتعلقة بقلج أَرسلان الثاني الذي:

- يعترف بأن أعداء الأمبراطور هم أعداء له أيضاً.
- يُعيد لمانويل المدن التي كانت سابقاً جزءاً من الأمبراطورية البيزنطية، وبخاصة أماسية وجوارها.
- يَتعاون مع مانويل وفقاً لرغباته.
- يُشكِّل فرقاً عسكرية تجوب مناطق الحدود بشكل مستمر لحمايتها من غزوات القبائل التركمانية.
- لا يبرم أي معاهدة، ولا يعقد أي صلح مع طرف ثالث، إلَّا بعد موافقة الأمبراطور[٢].

أشاعت زيارة قلج أَرسلان الثاني للقسطنطينية جواً من الارتياح في العاصمتين السلجوقية والبيزنطية، على الرغم من أن مانويل كبَّل السلطان السلجوقي حتى بدا وكأنه تابع له. بالإضافة إلى هذه الفائدة التي اكتسبها الأمبراطور فقد سرَّه أن يقوم أقوى الأمراء المسلمين بزيارته ليقدم له الولاء أمام شعبه. غير أن الزيارة لم تؤد إلى نتائج سياسية مهمة، إنها زيارة صداقة، ولعلها كانت نوعاً من التجسس على مانويل للوقوف على مواطن الضعف والقوة في الأمبراطورية. مما لا شك فيه، أن السلطان السلجوقي اطَّلع على أسرار كثيرة من أسرار القصر الأمبراطوري وبخاصة مدى اتصال الدانشمنديين بالأمبراطور، بدليل أن قلج أَرسلان الثاني صرَّح أمام أتباعه بعد عودته إلى عاصمته، أنه بقدر ما يلحق بالأمبراطورية البيزنطية من أضرار، تكون الهدية التي يتلقاها من الأمبراطور قيِّمة. ولا شك بأن هذا التصرف يدل على حنكة سياسية، كما أنه استاء من استبقاء الأمبراطور لأخيه شاهنشاه عنده[٣].

---

(١) ابن العبري: ص ١٧٥.

(٢) Kinnamos: p 207. Nicetas: p 158.

(٣) أسد رستم: جـ ٢ ص ٤١٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٧٦.

لقد ظنَّ مانويل أنه أخضع السلاجقة لسلطانه، لكن هذا الخضوع كان مؤقتاً، وكل ما حقَّقه هو نصر ظاهري، استغله قلج أرسلان الثاني في صراعه مع الدانشمنديين، إذ استمرت الغارات السلجوقية على طول الحدود البيزنطية الشرقية خلال الأعوام (٥٥٨ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٦٢ ـ ١١٧٣م).

القضاء على الإمارة الدانشمندية في سيواس

أثار النجاح الذي حقَّقه قلج أرسلان الثاني في العاصمة البيزنطية مخاوف أمير سيواس ياغي أرسلان، فكتب إليه يعرض عليه إقامة هدنة بينهما، فقبل السلطان ذلك، وتحسَّنت العلاقات بين الجانبين خلال ذلك[1].

ويبدو أن هذا التحسُّن كان مؤقتاً ومرحلياً أراده ياغي أرسلان لالتقاط أنفاسه، إذ أنه كان لا يزال يشعر بخطر قلج أرسلان الثاني، ويخشى طموحه في السيطرة على آسيا الصغرى والتفرد بحكم الأتراك بعامة، لذلك كان القضاء عليه أو تحجيم دوره السياسي الفاعل غاية دانشمندية عامة.

وفعلاً وقع القتال العنيف بينهما في عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) عندما تزوج قلج أرسلان الثاني من ابنة حاكم أرزن الروم الأمير عز الدين سلدق بن علي، حيث اعتدى الأمير الدانشمندي ياغي أرسلان على موكب الزوجة أثناء انتقالها إلى قونية، فأخذها وزوَّجها من ابن أخيه ذي النون بن محمَّد، بعد أن أمرها بالردة عن الإسلام حتى ينفسخ عقد زواجها من السلطان السلجوقي[2]، فكانت هذه الحادثة سبباً في اندلاع القتال بينهما، وقد انتصر الأمير الدانشمندي، فاضطر السلطان السلجوقي إلى طلب المساعدة من الأمبراطور البيزنطي مانويل. ولما اقترب قلج أرسلان الثاني من سيواس، في محاولة لمهاجمتها، بلغه أن خصمه ياغي أرسلان قد توفي[3].

تعرَّضت الإمارة الدانشمندية بعد وفاة ياغي أرسلان للانقسام. ففي البستان، عين السكان ابنه جمال الدين خلفاً له، وقد مرَّ في الحكم مرور الكرام لأن ابن عمه إبراهيم بن محمَّد انقلب عليه وحكم البلاد، ويبدو أنه فقد منصبه بعد بضعة أشهر لأن المصادر تشير إلى تولي ابنه إسماعيل مكانه في العام نفسه. رافق هذه التغييرات السياسية اضطرابات داخلية استغلها قلج أرسلان الثاني ليقضي على إمارة

---

(١) ابن العبري: ص ١٧٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩١.

(٣) المصدر نفسه. ابن العبري: ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

الدانشمنديين في سيواس ويرثها.

إن الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت في آسيا الصغرى حتى عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) كانت غامضة، إلَّا أننا نجد في نهايتها أن قلج أرسلان الثاني سيطر على معظم المنطقة.

ففي عام (٥٦١هـ/ ١١٦٨م) توسَّع قلج أرسلان الثاني داخل الأناضول، فانتزع نهر الطومة ومدن طرندة[١] والبستان وجيدوك[٢]، وطرد في العام التالي، أخاه شاهنشاه من أنقرة وكنغري، كما هاجم ممتلكات الدانشمنديين في ملطية، وضمَّ في عام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) قيصرية بعد أن انتزعها من حاكمها ذي النون الدانشمندي وهو حليفه القديم[٣].

نتيجة لهذه المتغيرات السياسية انضمَّ ذو النون إلى شاهنشاه وقرَّرا طلب المساعدة من الخارج، ولما كان الأمبراطور البيزنطي مانويل مشغولاً في أوروبا، فلم يستطع تقديم المساعدة المطلوبة، عندئذ التجآ إلى نور الدين محمود الذي تفهَّم قضيتهما ووعدهما بالمساعدة[٤].

وهكذا انغمس نور الدين محمود مرة أخرى في مشكلات آسيا الصغرى. فهو بوصفه أقوى الأمراء المسلمين في الشرق الأدنى ويعمل على إتمام الوحدة الإسلامية وتوسيع نطاقها، لمواجهة الصليبيين؛ لم يرض عن توسع قلج أرسلان الثاني، وأدرك أن تقدمه نحو ملطية من شأنه أن يشكِّل خطراً عليه، لأنه سيستولي بذلك على الطرق المؤدية إلى وداي الفرات، فقرَّر العمل على وقف تقدمه، ومنعه من ضمِّ بلاد الدانشمنديين.

وقاد نور الدين محمود في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) حلفاً مكوناً من آل دانشمند، وأمراء الموصل وماردين وحصن زياد وحليفه الأمير الأرميني مليح حاكم قيليقية[٥]. اجتمع المتحالفون في سيواس عاصمة إسماعيل بن إبراهيم استعداداً

---

(١) طرندة هي درندة الحالية، حصن داخل بلاد الروم يقع في أعلى نهر القباقب على مسيرة ثلاث مراحل فوق ملطية. الحموي: جـ ٤ ص ٣٣.

(٢) ابن العبري: ص ١٧٧. Michel le Syrien: vol III p 326. Cahen: p 102 .

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٠. القرماني، أحمد: أخبار الدول ص ٢٩٢. Chalandon: p 494 .

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٦٠. Ibid: pp 494 - 495 .

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ١٠٩. ابن واصل، جمال الدين محمَّد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ ١ ص ١٨٨، ١٩٠، ١٩٣.

لمهاجمة الممتلكات السلجوقية، لكن نور الدين محمود تباطأ في إعلان الحرب وعمد إلى المماطلة وراح يتلاعب بحلفائه، ولما أخطره هؤلاء بعزمهم على خوض الحرب بدون مساعدته، ترأسهم في شتاء عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) وهاجم الأراضي السلجوقية.

ولا بد لنا، في هذا المقام، من أن نتساءل عن السبب الذي دفع نور الدين محمود بالتأخر في مهاجمة قلج أرسلان الثاني. الواقع أنَّه كان هناك أكثر من سبب نجملها بما يلي:

ـ انصرف نور الدين محمود آنذاك إلى ما كان يجري من أحداث في الطرف الشرقي لمملكته، بعد وفاة أخيه قطب الدين مودود أمير الموصل في عام (٥٦٥هـ/ ١١٧٠م)، حيث تنازع ولداه سيف الدين غازي وعماد الدين، ولم يتمكَّن نور الدين محمود من تسوية المشكلة إلَّا بعد مرور بضعة أشهر بسقوط الموصل في يده.

ـ انصرف نور الدين محمود أيضاً إلى معالجة قضية مصر. إذ في الوقت الذي تمكَّن فيه من إخضاع الموصل، كان نائبه في مصر صلاح الدين الأيوبي قد انتهى من تثبيت أقدامه وتوطيد نفوذه في البلد المذكور، ولم يلبث أن حصل جفاء بين الرجلين عقب إسقاط الدولة الفاطمية بسبب تحديد العلاقة بينهما[١].

ـ واجهت نور الدين محمود آنذاك مشكلة التحالف بين عموري ملك بيت المقدس ومانويل الأمبراطور البيزنطي، بعد أن شعر الصليبيون بازدياد الضغط عليهم من جانب المسلمين، نور الدين محمود من الشمال وصلاح الدين الأيوبي من الجنوب. وقد توصل الجانبان، الصليبي والبيزنطي إلى قناعة، بأن أشد ما يهدِّد الصليبيين في بلاد الشام هو امتلاك نور الدين لمصر.

ـ كان نور الدين محمود يعمل آنذاك على إتمام الوحدة الإسلامية، ولم يشأ أن يُضعف جبهة قلج أرسلان الثاني، وهي جبهة إسلامية، كما كان يأمل بمساعدة الأخير في شن هجوم على أنطاكية، ومضايقة البيزنطيين، وبذلك تجد الدولة البيزنطية نفسها بين عدوين يتاخمانها ويغيران عليها، وهما قلج أرسلان الثاني ومليح أمير قيليقية. لذلك، دعاه إلى الانضمام إلى الحلف لجهاد الصليبيين

---

(١) انظر فيما يتعلق بالعلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٩٤ ـ ٤٠٠.

والبيزنطيين، لكن قلج أَرسلان الثاني كان مرتبطاً بمعاهدة عدم اعتداء مع الدولة البيزنطية، فخشي أن يعرِّضه التحالف مع نور الدين محمود، لانتقام الأمبراطور. لذلك، أعرض عن طلب نور الدين محمود، وعارض سياسته. وحتى يؤكد حياده، اجتمع في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) مع الأمبراطور وأبدى له حرصه على ما بينهما من الموادعة.

تجاه هذا الرفض السلجوقي، لم يجد نور الدين محمود مخرجاً لإخضاع قلج أَرسلان الثاني سوى زيادة الضغط عليه بمهاجمة ممتلكاته، فانتزع بهسنا ومرعش وما بينهما من الحصون التابعة لقلج أَرسلان الثاني، وأرسل قوة عسكرية إلى سيواس، فدخلت إليها وثبَّتت حكم ذي النون فيها، ولم يجرؤ السلطان السلجوقي على التصدي لها[١].

وأخيراً التقى الجانبان في قيصرية[٢]، فعسكر الحلفاء على مشارف نهر بيراموس، في حين عسكر قلج أَرسلان الثاني على الضفة الأخرى للنهر، وظلا متواجهين مدة ستة أشهر دون قتال. ولما رأى قلج أَرسلان الثاني مدى قوة أعدائه، فكَّر في إبرام الصلح معهم، إذ رأى فيه المخرج الوحيد من المأزق، فراسل نور الدين محمود من أجل هذه الغاية، وتوقفت الأعمال العسكرية خلال ذلك[٣].

تكمن دوافع نور الدين محمود لقبول الصلح، على الرغم من أنه الأقوى، في اشتداد الضغط الصليبي على ممتلكاته في بلاد الشام حيث نزل الصليبيون آنذاك في مدينة حمص[٤]، بالإضافة إلى تحقيق هدفه بضمِّ قلج أَرسلان الثاني إلى الجبهة الإسلامية المتحدة. وقد أورد ابن الأثير جانباً من الاتفاق والمطالب التي أصرَّ نور الدين محمود على تنفيذها، وهي على الشكل التالي: «إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء:

الأول: أنك تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لا أعتقدك مسلماً[٥].

الثاني: إذا طلبتُ عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٦٠.
(٢) ابن العبري: ص ١٨٤.
(٣) ابن الأثير: ص ١٦٠. Chalandon: p 497.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) كان قلج أَرسلان الثاني يُتَّهم باعتقاده مذهب الفلاسفة.

بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم، وهادنتهم، فإما أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع في جهادهم.

الثالث: أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ابن أخي. وذكر أموراً غيرها».

فلما سمع قلج أَرسلان مضمون الرسالة قال: «ما قصد نور الدين إلَّا الشناعة علي بالزندقة وقد أجبته إلى ما طلب. أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله»[١].

نلاحظ، مما ورد أعلاه بشأن بنود الاتفاق، أن ابن الأثير اكتفى بذكر الأمور المتعلِّقة بجهاد النصارى، وتخص نور الدين محمود في الوقت نفسه، ولم يذكر الأمور الأخرى المتعلقة بأوضاع الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى ومنطقة الفرات، وكيفية ترتيب شؤونهم، سوى إشارة عابرة وردت في سياق الرواية عندما ذكر أنه بعد إقرار الصلح «عاد نور الدين محمود وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون الدانشمندي، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها، وعاد قلج أَرسلان وملكها»[٢].

إلَّا أننا نستطيع استكمال صورة المفاوضات والمطالب مما أوردته المصادر النصرانية، وهي على الشكل التالي: على قلج أَرسلان أن:

- يُطلق سراح الأسرى الذين أسرهم أثناء محاولته اقتحام ملطية.
- يُعيد المقاطعات الخاصة بكل من أخيه شاهنشاه وذي النون إليهما.
- يُطلق سراح أولاد أخيه الأربعة المعتقلين عنده.

قَبِل قلج أَرسلان الثاني تنفيذ البند الأول ورفض البندين الآخرين. عند ذلك، شدَّد الحلفاء الضغط عليه، فهدَّد بقتل أولاد أخيه، حتى تَمَّ الاتفاق أخيراً على ما يلي:

- يعيد قيصرية إلى ذي النون.
- تثبيت شاهنشاه في أنقرة[٣].

وهكذا لم ينجح نور الدين محمود في إعادة كامل أملاك شاهنشاه، لكن نور الدين محمود ما لبث أن توفي في (١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥ أيار ١١٧٤م)[٤]، فأزيح ذلك الضغط عن صدر قلج أَرسلان الثاني، كما كانت وفاته إشارة إلى بداية انهيار الإمارات الدانشمندية.

---

(١) ابن الأثير: ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) التاريخ الباهر: ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) ابن العبري: ص ١٨٤.

(٤) ابن الأثير: ص ١٦١.

وحدث في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) أن قُتل إسماعيل بن إبراهيم إثر ثورة شعبية قامت ضد حكمه في سيواس بفعل ظلمه وجوره، وقُتلت زوجته معه، وهي أخت السلطان قلج أَرسلان الثاني. واستدعى السكان ذا النون، وكان هارباً يقيم في دمشق، ليسلِّموه الحكم مكان ابن أخيه إسماعيل، فوافق ذو النون. ولما اقترب من سيواس خرج السكان لاستقباله وبايعوه بالحكم[١].

استغل قلج أَرسلان الثاني وفاة نور الدين محمود وعودة القوات النورية إلى بلادها والتغيير السياسي في سيواس للقضاء على الإمارة الدانشمندية في هذه المدينة ويرثها. فهاجم ممتلكات ذي النون وسيطر على سيواس وقيصرية وكومانا ومدن أخرى التي كان قد أُجبر على تخليتها من قبل في كبادوكية الشرقية[٢]. واضطر ذو النون إلى الفرار مع حليفه شاهنشاه إلى القسطنطينية يلتمسان مساعدة مانويل.

وهكذا سقطت الإمارة الدانشمندية في سيواس، وأسدل قلج أَرسلان الثاني الستار عليها وذلك في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)[٣].

إن المقدرة التي أبداها السلطان السلجوقي في مقاومة سياسة نور الدين محمود ومانويل في آسيا الصغرى، رفعت سمعته في كافة أنحاء المنطقة، وأضحى الزعيم الوحيد القادر على توحيد آسيا الصغرى والتصدي للقوة النصرانية. ونظر إليه كل من نور الدين محمود ومانويل نظرة ملؤها الخشية. أما الأول فقد توفي دون أن يحجِّم السلطان. وأما الثاني فكان منهمكاً في أمور المجر والبلقان مدة طويلة تربو على الإثني عشر عاماً، مما أعطى قلج أَرسلان الثاني فرصة ذهبية استغلها بذكاء، فسيطر على معظم منطقة آسيا الصغرى، وتوسع نحو الفرات، وأضحى مستعداً لمناوأة البيزنطيين.

تجدُّد الصراع مع بيزنطية ـ معركة ميريوكيفالون

تمهيد

بعد أن فرغ مانويل من مشكلاته في أوروبا وعقد الصلح مع البنادقة[٤]، بدأ يتطلع إلى الاهتمام بشؤون آسيا الصغرى بعد حوالي اثني عشر عاماً قضاها قلج

(١) ابن العبري: ص ١٨٦ ـ ١٨٧. Michel le Syrien: vol III p 346 .

(٢) المصدر نفسه: ص ١٩٠. (٣) المصدر نفسه.

(٤) توفيق: ص ١٤٤.

أرسلان الثاني في تدعيم نفوذه، وأدرك أن إحكام السلطان قبضته على المنطقة دون منازع يشكّل خطراً كبيراً على السياسة البيزنطية، بالإضافة إلى أنه أراد أن يكفل الأمن للطريق الذي يجتاز بلاد الأناضول أمام البيزنطيين، فشعر نتيجة ذلك بقصر نظره وتقصيره في حقل سياسة الأناضول، إذ أتاح للسلطان أن يوحّد كلمة الأتراك، كما راح يشعر بالضغط التركي المتزايد على حدود الأمبراطورية الشرقي بفعل قيام السلاجقة بتهديد وادي نهر المياندر، وإنزالهم بأهل الريف خسارات متتالية.

والواقع أنه لم تكن المدة بين عامي (٥٥٨ ـ ٥٧٠هـ/ ١١٦٢ ـ ١١٧٤م) هادئة. فمن الملاحظ أن قلج أرسلان الثاني لم يقم بتنفيذ بنود معاهدة عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) كاملة، إذ أنه لم يردّ إلى الأمبراطور المدن التي فتحها وتعهد بإعادتها، كما أن الغارات السلجوقية لم تتوقف على المنطقة الحدودية، وعندما طلب منه الأمبراطور بوضع حد لها أجابه بذكاء أنه لا علم له بما يجري وأنه غير راض عن هذه الانتهاكات، واعتذر له وقدّم له بعض الهدايا[١].

وبفضل سياسة كسب الوقت هذه، نجح قلج أرسلان الثاني في تدعيم موقفه وتوحيد الأتراك، في حين لم يقم الأمبراطور من ناحيته بأي عمل جدّي سوى إقامة بعض التحصينات الدفاعية في وادي نهر المياندر ونهر هرمس لتربط بين مدن المنطقة[٢].

مقدمات المعركة

ابتدأت العلاقة بين السلاجقة والبيزنطيين بالتوتر في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م) عندما تحالف قلج أرسلان الثاني مع نور الدين محمود حيث عدَّ مانويل هذا التحالف موجه ضده، فاشتدَّ به القلق وراح يعمل على إفشاله، فاتصل بالسلطان السلجوقي وأبدى استعداده بمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة السلاجقة مقابل انسحابه من التحالف. ويبدو أن قلج أرسلان الثاني وافق على العرض الأمبراطوري، لكن وفاة نور الدين محمود أوقفت الجهود المبذولة للتفاهم. وعادت العلاقة لتكون ظاهرياً ودية، لكن في حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل طرف يستعد لمهاجمة الطرف الآخر ويتحين الفرصة لذلك[٣].

وأُتيحت الفرصة فعلاً، في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) حيث ظهرت في الأفق

---

(١) Nicetas: p 158.

(٢) توفيق: ص ١٤٠. Ibid: p 163.

(٣) Finlay: vol III p 190.

السياسي بعض العوامل التي ساعدت على نشوب الحرب، منها ما تختص بالسلاجقة، ومنها ما تختص بالبيزنطيين.

ففيما يختص بالسلاجقة يمكن رصد العوامل التالية:

- التجاء كل من شاهنشاه وذي النون إلى القسطنطينية، وترحيب الأمبراطور بهما، مما أثار مخاوف قلج أرسلان الثاني.

- دخول الأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا على الخط السياسي حين تبادل الرسائل مع قلج أرسلان الثاني بوصفه أقوى وأشد أعداء الأمبراطورية البيزنطية في الشرق، وحثَّه على قتال البيزنطيين، وكان يهدف إلى تحويل أنظار مانويل عن الاهتمام بالمسائل الأوروبية(١).

- إن قضاء قلج أرسلان الثاني على الإمارة الدانشمندية في سيواس شجَّعه على قتال مانويل، بعد أن شعر بأن أمن السلاجقة على الحدود الغربية لا يتحقَّق إلَّا بضم ما تبقَّى من الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى(٢).

وفيما يختص بالبيزنطيين يمكن تدوين العوامل التالية:

- إن فراغ مانويل من مشكلاته في أوروبا بعقده معاهدة مع البندقية، بالإضافة إلى استئناف الصراع بين البابوية وفريدريك بربروسا، أعطياه الفرصة للتفرغ لأمور الشرق، واستئناف القتال مع السلاجقة، وإعادة حقوق الأمبراطورية في آسيا الصغرى ووضع حد للتوسع السلجوقي(٣).

- إن لجوء كل من الأميرين شاهنشاه وذي النون إلى البلاط البيزنطي، شجَّعه على القيام بحملة على آسيا الصغرى، وأعطاه حجة استغلها بذكاء.

- إن تحصين مدينة لاذيق في وادي نهر المياندر شجَّعت العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها، فأمدوا الخزانة الأمبراطورية بالضرائب، وشعر مانويل بهذه الفائدة، فرأى أن عليه تأمين بقاء السكان فيها(٤).

اندلعت الحرب عندما طلب مانويل من قلج أرسلان الثاني إعادة أملاك شاهنشاه وذي النون إليهما، بالإضافة إلى إعادة المدن إلى الدولة البيزنطية التي نصَّت عليها اتفاقية عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)(٥).

---

(١) Chalandon: pp 598 - 599.

(٢) عمران: ص ٣٣١.

(٣) المرجع نفسه. Vasiliev: vol II p 78.

(٤) Nicetas: p 195.

(٥) Kinnamos: p 292. Michel le Syrien: vol III p 368.

أرسل مانويل مطالبه إلى قلج أَرسلان الثاني، وهو يفترض مسبقاً بأنه سيرفض تنفيذها، فأخذ يستعد للقتال. أما السلطان السلجوقي، فقد دلَّ بتصرفه، كما سنرى، على أنه رجل دولة من الطراز الأول، إذ أنه نفَّذ خطة ذكية وهو عازم على عدم تنفيذ مطالب الأمبراطور، وحتى يُظهر نواياه الحسنة أرسل إليه يطلب منه إرسال مندوب عنه لاستلام المدن، فأرسل مانويل قائده ألكسيوس أوف أوليس ومعه قوة عسكرية تُقدَّر بستة آلاف جندي لتنفيذ المهمة(١). وأرسل قلج أَرسلان الثاني في الوقت نفسه، إلى سكان المدن يعدهم ببعض المزايا ومنها الحماية ضد البيزنطيين إذا ظلوا تابعين للسلطان ورفضوا تسليم مدنهم إلى مندوب الأمبراطور(٢).

عدَّ مانويل تصرف قلج أَرسلان الثاني إهانة له وخدعة منه لا يجوز السكوت عليها، وغضب من أجل ذلك، وبدأ يفكِّر تفكيراً جدياً في استعمال القوة ضد السلاجقة في الوقت الذي وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الأمبراطور إلى مدينة دوريليوم(٣).

والواضح أن شاهنشاه أراد أن يستغل الحملة البيزنطية للتعويض عما فقده من مقاطعات، فحرَّض الأمبراطور على مهاجمة أماسية التي تقع إلى الشرق من جانجري، وهوَّن الأمر عليه، وأقنعه بأن أعوانه في المدينة، ممن ينقمون على السلطان، سوف يقدمون له المساعدة. وكان شاهنشاه يأمل بالاستيلاء على المدينة بدلاً من أملاكه التي استولى عليها أخوه قلج أَرسلان الثاني(٤).

لم يكن مانويل مستعداً لخوض معارك جانبية، لذلك طلب من قائده غابراس أن يتوجَّه إلى المقاطعات القريبة من أماسية، ويجمع بعض القوات البيزنطية، ويهاجم المدينة. وفعلاً توجَّه غابراس إلى المدينة المذكورة عن طريق بافلاجونيا وطرابزون، وانضم شاهنشاه إليه مع قواته. وسار الجيشان بشكل منفصل مما يسَّر مهمة قلج أَرسلان الثاني الذي عاجل شاهنشاه بضربة خاطفة وقضى على قواته(٥). غير أن غابراس نجح في الوصول إلى أماسية، فرحب به سكانها وطلبوا منه دخول المدينة، إلَّا أنه خشي من حصار قد يقوم به قلج أَرسلان الثاني، وكان قريباً منها، فقرَّر الانسحاب، وبخاصة أن حليفه شاهنشاه قد تعرَّض للهزيمة. وانتهى الأمر بعودة

---

(١) Kinnamos: p 292.

(٢) Ibid: p 293.

(٣) عمران: ص ٣٣٣.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) Chalandon: p 503. Camb. Med. Hist: vol IV p 378.

الحليفين إلى دوريليوم، واستولى قلج أَرسلان الثاني على المدينة[١].

نتيجة لفشل جهوده في إخضاع قلج أَرسلان الثاني، ووقف الغارات السلجوقية على الأَراضي البيزنطية، عمد مانويل إلى تحصين مراكز الحدود لإغلاق المداخل إليها، بخاصة برغمة وكلبارا وخطي الدفاع على نهري الماندر وهرمس[٢] وملاجنة في مقاطعة نيقية التي جعل منها خط دفاع آخر، وبهذا العمل يكون مانويل قد بنى ما يشبه السد لحماية ممتلكاته في غربي آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة، وتقع دوريليوم المهمة عسكرياً على هذا الخط الذي يصل إلى قونية وتتحكَّم في العديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات، وقد اتخذها قاعدة لعملياته، وحصَّنها بشكل لافت. كما حصَّن مدينة سوبلايون ليتحكَّم في الطرق المؤدية إلى مدينة قونية[٣]، لكن عمله هذا جاء متأخراً جداً، إذ كان قلج أَرسلان الثاني قد أحكم سيطرته على معظم آسيا الصغرى تقريباً وكوَّن دولة متجانسة قوية حلَّت محل الإمارات الصغيرة المتنافسة التي طالما خدم تنافسها الأمبراطورية البيزنطية[٤].

عدَّ قلج أَرسلان الثاني مثل هذه الأعمال الدفاعية دليل سوء نية الأمبراطور، فأرسل إليه يستفسر عن الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات، فأرسل مانويل أحد قادته ليبلغ السلطان بأنه هو البادىء بالعدوان، وأنه كان السبب في فشل غابراس في مهمته، وطلب منه إعادة مدينة أماسية، لكن السلطان السلجوقي رفض ذلك، فعاد المبعوث البيزنطي يجر أذيال الفشل[٥]، إلَّا أنه رأى من الحكمة ألا يقطع باب المفاوضات فأرسل سفيراً إلى الأمبراطور يعرض عليه تجديد معاهدة عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)، لكن الأخير رفض ذلك بحجة أن السلطان لم يحترم تعهداته بشأن تنفيذ بنود المعاهدة المبرمة بينهما[٦]، وبات واضحاً أن الحرب واقعة لا محالة، فأخذ كل واحد يستعد لها.

أضفى مانويل على حملته طابعاً صليبياً حتى يكسب عطف القوى النصرانية

---

(١) Kinnamos: pp 294 - 295. Ency. of Islam: vol II p 1007.

(٢) Camb. Med. Hist: vol IV p 378.

(٣) Ibid. Chalandon: p 503.

(٤) Diehl, C: Histoire de L'Empire Byzantin p 149.

(٥) عمران: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥. Kinnamos: pp 296 - 297.

(٦) Ibid: pp 297 - 299. Nicetas: p 229. Chalandon: p 504.

في غربي أوروبا. فجهَّز جيشاً من جنسيات مختلفة، بينها الصليبيين والمجريين والصربيين والإنكليز، كما كتب إلى البابا إسكندر الثالث يبلغه بالتطورات في آسيا الصغرى ويُنهي إليه أن الوقت قد أضحى ملائماً للدعوى إلى حرب صليبية جديدة، وطلب منه إرسال نجدات عسكرية لحرب السلاجقة والمسلمين، فظهر أمام الغرب كما لو أنه يُعدُّ العدة لحملة صليبية ضخمة[١].

الواقع أن ما طلبه مانويل من البابا لجهة إرسال النجدات لقتال السلاجقة، فُسِّر في الدوائر البابوية والأوروبية بأنه يُعدُّ العدة لحملة صليبية ضد العالم الإسلامي، وبخاصة أنه حشد جيشاً من جنسيات مختلفة، كما أن قيام البابا بدعوة لويس السابع ملك فرنسا إلى الاستعداد لحملة صليبية، يصبُّ في هذا الاتجاه. بالإضافة إلى ذلك، فقد انتشرت في المجتمعات الأوروبية أسطورة الكاهن يوحنا الذي أرسل إلى الأمبراطور البيزنطي يعرض عليه التعاون المشترك للقضاء على العالم الإسلامي. وانتظر الأوروبيون، الوقت الذي يظهر فيه هذا الكاهن ليتعاون مع مانويل للقضاء على المسلمين[٢].

أحداث المعركة

تقدم مانويل في (أواخر ٥٧١هـ/ صيف ١١٧٦م) باتجاه الأَراضي السلجوقية، على رأس جيش كبير بلغ تعداده مائة ألف مقاتل، مصطحباً ديلون التركي وذي النون الدانشمندي[٣]، متخذاً طريق لاذيق والوادي الأعلى لنهر المياندر. وعندما وصل إلى منطقة الجبال الواقعة قرب الحدود، وصلت إليه رسالة من السلطان السلجوقي يطلب منه تجديد المعاهدة، لكنه رفض ذلك أيضاً، وتجمَّع الجيش كله أمام لوباديوم[٤].

ارتأى مانويل قبل الخروج من لوباديوم، أن يقسم جيشه إلى قسمين، تولى القسم الأول ابن عمه أندرونيكوس فاتازس ومعه ذو النون حاكم سيواس السابق، وتقدر قواتهما بثلاثين ألف جندي، ومهمته مهاجمة السلاجقة من الشمال وإعادة ذي النون إلى بلاده، في حين قاد مانويل القسم الثاني وهو القسم الرئيسي، ومهمته

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٦٤. Chalandon: Ibid p 505.

Manuel I Comnenus, letter to the Pope Alexander III dated 1176. in R.H.G.F. vol XV p 952.

(٢) عمران: ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٣) Michel le Syrien: vol III p 369. Camb. Med. Hist: vol IV p 378.

(٤) Kinnamos: pp 296 - 297.

التوجه إلى قونية من ناحية الغرب[1].

اجتاز القسم الأول من الجيش بافلاجونيا متوجهاً إلى نيكسار، وكانت تحت حكم ذي النون من قبل، وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فيها، ولما وصل أفراده إلى المدينة ضربوا الحصار عليها. كان الحصار مركّزاً وشديداً نظراً لضخامة القوات وقربها من إقليم بافلاجونيا التي أمدَّها بالرجال والمؤن والسلاح. ولما رأى قائد حامية المدينة أنه لا طاقة له بمقاومة الجيش البيزنطي والمتحالفين معه، لجأ إلى الخدعة، فأمر بإرسال السهام إلى المعسكر البيزنطي وهي تحمل رسائل موجهة إلى القائد البيزنطي تتضمن إنذاراً بأن الدانشمنديين، الذين سُلِّمت إليهم القيادة، يحاولون خيانة البيزنطيين، ويعملون على إيقاع القائد البيزنطي في أيدي السلاجقة الذين أعدوا الكمائن، وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. صدَّق فاتازس مضمون الرسائل بعد أن اطَّلع عليها، وبدأ يتوقع خيانة ذي النون، فتأخرت بذلك عملية اقتحام المدينة، كما أشاعت الفوضى داخل المعسكر البيزنطي، وبدأ التوتر ينتشر بين الجنود البيزنطيين. ومما زاد في إشاعة الفوضى والاضطراب بين القوات البيزنطية، تلك الإشاعة التي أطلقها السلاجقة عن موت الأمبراطور مانويل؛ فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة والانسحاب دون نظام، فتعقبهم السلاجقة وقاتلوهم أمام أسوار المدينة وانتصروا عليهم، وكبَّدوهم خسائر فادحة في الأرواح كان من بينها القائد فاتازس الذي حُمِل رأسه إلى السلطان السلجوقي[2].

انزعج مانويل عندما بلغه نبأ هزيمة جيشه أمام نيكسار وكان في طريقه إلى قونية، فظن أن القوة السلجوقية لا زالت في الشمال، وأن العاصمة السلجوقية خالية ممن يحميها ويدافع عنها، فأغذَّ السير ليفاجىء السلاجقة، فلم يسلك طريق دوريليوم وهو الطريق الطبيعي للوصول إلى قونية، وإنما توجه إلى لاذيق الواقعة على نهر الماندر، واخترق وادي النهر حتى وصل إلى سوبلايون، ثم سار شمال بحيرة أجردير، ومضى إلى التلال المؤدية إلى سلسلة الجبال الضخمة المعروفة باسم جبال السلطان إلى الشرق من سوبلايون، بالقرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز الذي يقع في نهايته حصن ميريوكيفالون الخرب ليكون في مواجهة قونية مباشرة[3].

---

(١) يقدر ميخائيل السرياني عدد هذا القسم من الجيش بخمسين ألف مقاتل ص ٣٦٩.

(٢) ابن العبري: ص ١٩٢ ـ ١٩٣.. Michel le Syrien: vol III p 369.

(٣) Nicetas: p 230. Ostrogorsky: p 347. Vasiliev: vol II p 82.

كان قلج أَرسلان الثاني، في غضون ذلك، يرصد زحف الجيش البيزنطي متبعاً خطة البدو، فدمَّر الطرق التي لا بد أن يجتازها الجيش وأحرق المحاصيل الزراعية، وأتلف المؤن في المدن والقرى التي تقع في الأَراضي التي سيمر بها، كما سمَّم الآبار والينابيع لمنع البيزنطيين من الاستفادة من التموين والاستراحة والماء[١]. وجنَّد في الوقت نفسه، العساكر حتى صار جيشه يضارع الجيش الأمبراطوري في العدد غير أنه يقل عنه عُدَّة، لكنه يتفوق في التعبئة وسرعة الحركة نظراً لما يمتاز به الفرسان السلاجقة من الخفة وحرية الحركة، ثم وزَّع قواته على المرتفعات والتلال، وأقام هو على مرتفع يشرف على تحركات الجيش البيزنطي.

ارتكب مانويل أثناء زحفه خطأين جوهريين:

الأول: عندما أهمل استكشاف المنطقة، وهو أول عمل يقوم به العسكريون عادة.

الثاني: عندما رفض نصيحة قادته بالتروي، والحذر، وعدم سلوك الممر الجبلي المواجه للعدو.

والواقع أن مانويل تأثَّر بآراء الأمراء الشبان الذين غرَّهم إقدامهم حتى وثقوا من بسالتهم، واشتد حماسهم لإحراز نصر كبير، كما أن الأمبراطور نفسه كان متحمساً للقتال بعد الاستعدادات الضخمة التي أنجزها من أجل القيام بهذه الحملة[٢].

قرَّر مانويل المضي في سلوك الممر الضيق، فأمر جيشه بالتقدم. لم يتعرَّض السلاجقة في تلك اللحظات، للجيش البيزنطي، واكتفوا بمناوشة أفراده فقط، ثم انسحبوا وفق خطة عسكرية لإغراء الجيش البيزنطي الدخول في الممر. وهكذا اجتازت مقدمة الجيش مدخل الممر وأوغلت فيه. وتوهَّم البيزنطيون أن السلاجقة غير قادرين على خوض الحرب، فتمادوا في التوغل في داخل الممر وهم مطمئنون، في الوقت الذي انتشرت فيه القوات السلجوقية فوق رؤوس الجبال وفي الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية، وتركَّزت على جانبي الممر ومن حوله[٣].

كان على الجيش البيزنطي أن يقطع الممر البالغ طوله عشرة أميال بسرعة

---

(١) Nicetas: Ibid p 233.

(٢) Duggan, A: The Story of the Crusades p 141.

(٣) Nicetas: p 234.

للخروج بعد ذلك إلى السهل المنبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع أفراده مع عرباتهم ومعداتهم حتى تكدس بهم الممر، وسار الجنود إلى جانب الدواب والعربات المتلاصقة، وانتشر بينهم مرض الإسهال فخارت قواهم. على أن العربات الثقيلة التي حملت آلات الحصار والمؤن أبطأت في سيرها، فوجد الجنود أنفسهم وقد حشروا حشراً، وتعذَّر عليهم التقدم حين تسبَّبت المقدمة والمؤخرة في غلق الممر من الأمام ومن الخلف(١). حدث هذا تحت بصر السلاجقة الذين كانوا يراقبونهم، منتظرين اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم دون تهور أو اندفاع.

أدرك مانويل في هذا الوقت الحرج، مدى ما ارتكبه من خطأ عسكري عندما حشر جيشه ونفسه في ذلك الممر الضيق. وحتى يُشغل القوات السلجوقية، أرسل صهرة بلدوين الأنطاكي على رأس قوة عسكرية من الخيالة، ارتقى معها التل وهاجم قوة سلجوقية. غير أنه هُزم ولقي مصرعه مع رجاله(٢). وشهد الجنود الذين في الوادي ما حل بالفرقة من هزيمة فدبَّ الذعر فيهم وتضعضعت صفوفهم وهبطت معنوياتهم.

ضربت القوات السلجوقية، في اللحظة المناسبة، مقدمة الجيش البيزنطي بهدف شل حركته ومنعه من التقدم. نجحت المقدمة بالصمود واحتمى أفرادها ببعض التلال بينما بقيت المعدات في الممر، فأدَّت إلى وقف تقدم الجيش الذي أضحى أسيراً في قبضة القوات السلجوقية. وبعد أن نجح السلاجقة في وقف تقدم الجيش البيزنطي، هاجموا القلب بهدف شطره إلى قسمين، ونجحوا في ذلك عندما ارتكب قائد المؤخرة خطأ بابتعاده عن جسم الجيش، وشكَّلت الحيوانات حاجزاً فصلته عن القلب. عندئذ ركَّز السلاجقة سهامهم على الثيران التي تجر العربات، وقتلوا عدداً كبيراً منها، مما زاد في العرقلة واتساع الهوة بين شطري الجيش، فتفكَّكت عندئذ، الجحافل البيزنطية، وتجمَّع كل شطر حول نفسه مكوناً جسماً ضخماً جامداً وبلغ من شدة التصاق الجنود ببعضهم أنه لم يكن بوسعهم أن يحرِّكوا أيديهم إلَّا نادراً، ففقدوا بذلك حرية الحركة التي هي عنصر أساسي من عناصر الانتصار، كما تعذَّر عليهم القيام بالحركات العسكرية الضرورية التي تجعلهم قادرين على مجابهة العدو بصفوف منتظمة ومتأهبة للقتال. ثم هاجمت القوات السلجوقية مؤخرة الجيش البيزنطي، فتشتَّت، ولما حاول أفرادها بلوغ إحدى القمم أثار

---

(١) Nicetas: pp 233 - 234.

(٢) Ibid: p 234.

تحركهم الفوضوي الغبار والتراب من حولهم، فاستحالت رؤية القوات لبعضها، فاصطدمت ببعضها مما أدى إلى وقوع كارثة حقيقية. ركَّز السلاجقة بعد ذلك، ضغطهم على القسم الآخر من الجيش وأمطروه وابلاً من السهام، كما دفعوا بكتل الأحجار الضخمة من أعلى قمم الجبال مما زاد في ارتباك القوات البيزنطية(١).

نتيجة لهذا الوضع العسكري المتردي، حاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق الصعب بأي وسيلة، لكنها فشلت في ذلك بعد أن أغلق السلاجقة المنافذ، كما سدَّت العربات الطريق الضيق، فدبَّ اليأس في نفوس الأفراد وانهارت قواهم، وفقدوا شجاعتهم، وكان مانويل أول من استبد به الذعر والقلق، فحاول الفرار طلباً للنجاة. وحتى يزيد السلاجقة من إثارة الذعر في نفوس القوات البيزنطية، فإنهم عمدوا إلى وضع رأس القائد بلدوين الأنطاكي على عصا طويلة وطافوا به أمامها، كما عمدوا إلى ترديد نداءات ليلية تشير إلى أنهم أعدُّوا العدة لإبادتهم مع طلوع الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوسهم(٢).

وجاءت أخيراً لحظة الإجهاز على الجيش البيزنطي المرتبك، فانقضَّ السلاجقة عليه، وراحوا يقتلون أفراده كيف شاءوا، وتوغلوا بينهم حتى وصلوا إلى مكان وجود الأمتعة والعربة الملكية التي تركها الأمبراطور خلفه حين تقدمه، فنهبوها وأحرقوها، واستمر القتال حتى حلول الظلام(٣).

نجح مانويل، بعد ذلك، في الخروج من الممر إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، لكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد، فانقضوا عليهم، وقتلوا وأسروا عدداً منهم، وتمكَّن مانويل من الفرار، وراح يتنقَّل في الوديان المجاورة حتى اتصل ببعض قواته، فطارده السلاجقة أيضاً وحاصروه من جديد. واستمر القتال مدة سبعة أيام في ظروف غير عادية(٤).

كانت حالة الجيش البيزنطي بعد الهزيمة تدعو للرثاء، فقد قُتل وأُسر العديد

---

(١) Nicetas: p 234 - 236.

(٢) Ibid p 242.

(٣) Ibid.

(٤) انظر فيما يتعلَّق بمعركة ميريوكيفالون بشكل عام المصادر التالية:

Nicetas: pp 236 - 248. Michel le Syrien: vol III pp 369 - 372. Chalandon: pp 506 - 513.

Ramsay: Report on Exploration in Phrigia, in History and Arts of the Eastern provinces of the Roman Empire pp 235 - 238. Camb. Med. Hist: vol IV p 378.

ويذكر بأن المؤرخين المسلمين تعرَّضوا بإيجاز شديد إلى هذه المعركة.

من أفراده، وتشرَّد من نجا، بين هائم على وجهه في شعاب الوديان وجريح في أرض المعركة.

تحقيق الصلح بين الجانبين

لم يجد مانويل أمامه، في هذه الظروف الصعبة، سوى طلب الصلح. ويروي ميخائيل السرياني أنه أرسل إلى قلج أَرسلان يعرض الصلح عليه وتسليمه المدن التي حصَّنها الأمبراطور مؤخراً، وهي دوريليوم وسوبلايون، مقابل إنقاذ ما تبقّى من القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب(١).

ويذكر المؤرخ نيكتاس، أن السلاجقة تقدموا باتجاه القوات البيزنطية، وينتقل فجأة إلى القول بأن أحد القادة الأَتراك أصدر أوامره إلى القوات السلجوقية بالتوقف عن القتال، ثم تقدَّم إلى الأمبراطور وقدَّم له جواداً مسرجاً كهدية من السلطان، وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايون(٢).

ويروي الأمبراطور البيزنطي، حول الصلح مع السلاجقة، في الكتاب الذي أرسله إلى الملك هنري الثاني، أن السلطان السلجوقي توسل إليه في عقد الصلح مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين، والتحالف مع الأمبراطورية ضد أعدائه، وأنه استجاب لهذا النداء بعد أن أدرك أن لا جدوى من مواصلة القتال بفعل فقدانه آلات الحصار ومعدات الحرب(٣).

ووصف مانويل في رسالة أخرى، أرسلها إلى الأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، موقف السلطان السلجوقي بأنه ضعيف، لكن فريدريك أُعلم بعد ذلك بحقيقة الموقف، وأجابه على رسالته بأن الأمبراطور الألماني الذي استمد قوته من الأباطرة الرومان العظماء يجب أن يحكم الأمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي(٤).

تتفق الروايات الثلاث بأن مبدأ الصلح قد تقرَّر بين السلطان والأمبراطور، وأن القوات البيزنطية كانت في حالة سيئة للغاية لا تُمكّنها من مواصلة القتال في حين كانت القوات السلجوقية لا تزال في حالة تأهب ومستعدة لمواصلة القتال، لكنها تختلف في تحديد البادىء بطلب الصلح وبنوده. ويتبنّى الباحث رواية ميخائيل

---

(١) Michel le Syrien: vol III p 369 - 372. (٢) Nicetas: p 249.

(٣) أشار إلى الرسالة المؤرخ روجر هوفندن في كتابه «التاريخ» الجزء الثاني ص ١٠١. انظر: Chalandon: p 422.

(٤) أسد رستم: جـ ٢ ص ٤٣. Vasiliev: vol II p 436.

السرياني لأنها صادرة عن مؤرخ محايد من جهة، ومن جهة ثانية، كانت حالة الجيش البيزنطي يرثى لها لا يستطيع المقاومة ولا الحرب، لكن يختلف معه أن الصلح كان في مقابل تدمير تحصينات مدينتي دوريليوم وسوبلايون وليس إلى تسليم هاتين المدينتين إلى السلاجقة، وذلك استناداً إلى الأحداث التاريخية التي تلت ذلك(١).

ومهما يكن من أمر، فقد استقرت قاعدة الصلح على البندين التاليين:

- يبادر مانويل فوراً بالانسحاب من الأراضي السلجوقية.
- يدمِّر التحصينات التي أقامها مؤخراً في دوريليوم وسوبلايون.

ولهذا البند الأخير أهمية كبيرة للسلاجقة لأنه سمح لهم بالتقدم دون عائق إلى وادي نهر المياندر. وهناك إشارة عند ميخائيل السرياني تسمح بافتراض أن السلطان فرض على الأمبراطور دفع ضريبة باهظة(٢). وأرسل قلج أرسلان الثاني بعد عقد الصلح قوة عسكرية بقيادة ثلاثة من الأمراء رافقت مانويل حتى حدود بلاده لئلا يتعرَّض لغارات التركمان(٣).

ويبدو أن القبائل البدوية التركمانية غضبوا لهذا الصلح ولاموا السلطان على تصرفه. والواقع أنهم الفئة الأكثر احتكاكاً بالبيزنطيين لقربهم من مناطق الحدود، وهم أعلم بمصلحتهم من السلطان الذي يعيش بعيداً عنهم. لقد كانوا بحاجة إلى أراضٍ جديدة نظراً لظروف حياتهم المتنقلة، وازدياد أعدادهم بفعل الهجرات المستمرة، لذلك اختلفت وجهة نظرهم مع وجهة نظر السلطان، وكان الأجدر به أن يأخذ بوجهة نظرهم لكنه لم يستمع إليهم وأصرَّ على رأيه. ونتيجة لذلك، راح هؤلاء يهاجمون الجيش البيزنطي المنسحب، فاستاء البيزنطيون من هذا التصرف، وألقوا اللوم على القوة السلجوقية المرافقة لهم، إلَّا أن هؤلاء برَّروا موقفهم بأن ذلك من عمل التركمان ولا سلطان لهم عليهم(٤).

نتائج المعركة

- كان الاعتقاد السائد أن الخطة الوحيدة التي لا مفر منها هي أن يواصل الجيش السلجوقي زحفه باتجاه الغرب دون توقف لأن الطريق بات مفتوحاً أمامه إلى القسطنطينية، لكن قلج أرسلان الثاني لم يأخذ بمثل هذه الاهتمامات، لأنه

---

(١) عمران: ص ٣٤٩.

(٢) Michel le Syrien: vol III p 372.

(٣) ابن العبري: ص ١٩٣.

(٤) Michel le Syrien: vol III p 384.

أدرك أن مصلحته الحقيقية تكمن في التوسع شرقاً والهيمنة على العالم الإسلامي، وهذا إدراك خاطىء لأن الوضع السياسي لدولة سلاجقة الروم آنذاك، والوضع العسكري للجيشين السلجوقي والبيزنطي؛ كانا يُحتِّمان عليه استثمار انتصاره واستكمال فتح آسيا الصغرى بما فيها القسطنطينية وطرد البيزنطيين منها، وتثبيت أقدامه في ربوعها، قبل أن ينطلق إلى الشرق الإسلامي.

ـ تُعدُّ معركة ميريوكيفالون من المعارك المهمة في التاريخ الشرقي. وقد أدرك مانويل أهمية الكارثة، التي عقد مقارنة بينها وبين معركة مانزيكرت التي حدثت قبل مائة عام، ليوهم الغرب الأوروبي بكبر حجم المعركة الذي يفوق حجم أي معركة أخرى، وليصوِّر نفسه أنه أفضل من سلفه الذي أُسِر آنذاك بينما هو ما يزال طليقاً، وحاول في الوقت نفسه أن يقلِّل من خطورة نتائجها.

ـ تحطَّمت القوة العسكرية الجبارة التي أقامها الأباطرة البيزنطيون قبل مانويل والتي يستغرق إعادة بنائها أعواماً عدة، والواقع أنه لن يتم بناؤها مطلقاً، ومع ذلك، فقد تبقَّى من العساكر ما يكفي لحماية الحدود وإجراء انتصارات محدودة في الأعوام المقبلة.

ـ كشفت المعركة عن ضعف الأمبراطورية البيزنطية من الناحية العسكرية، فضاعت هيبتها كحامية للإمارات الصليبية.

ـ قرَّرت المعركة مصير آسيا الصغرى والشرق بصورة نهائية، وانتهت بنتيجتها كافة المقاييس والخطط التي وضعتها الأمبراطورية البيزنطية لهذه المنطقة طيلة قرون عديدة، وتخلَّت عن أحلامها بمهاجمة قونية وطرد الأتراك من آسيا الصغرى[١]، ولم يعد بوسع الأمبراطور أن يسير إلى بلاد الشام، وأن يفرض إرادته على أنطاكية، لكنها لم تغيِّر الكثير من وضع الأراضي ومن صورة الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في تلك المرحلة.

ـ استثمر السلطان السلجوقي انتصاره للتدليل على إيمانه، بعد أن اتُّهم باعتناق مذهب الفلاسفة والتقاعس عن الجهاد، فأرسل قسماً من الغنائم إلى الخليفة العباسي ومدحه الشعراء على أنه بطل الإسلام[٢].

ـ أضحى قلج أرسلان الثاني أقوى شخصية في آسيا الصغرى دون منازع،

---

(١) Wittek, P: Rise of Ottoman Empire p 23.

(٢) Ecy. of Islam: vol II p 1007.

فسيطر على معظم المنطقة، وسنراه بعد ذلك، يقضي على آخر إمارة دانشمندية التي كانت حجر عثرة في وجه تقدمه نحو الشرق والبحر الأسود.

ـ حفلت معركة ميريوكيفالون بالفنون العسكرية التي برع السلاجقة في تطبيقها واستغلالها، مما كفل لهم النصر.

ـ وأخيراً لا بد أن نذكر أن الأسباب التي أدَّت إلى انتصار الجيش السلجوقي في هذه المعركة تكمن في الأخطاء التي ارتكبها مانويل وقادته، والخطط العسكرية المرنة والناجحة التي طبَّقها السلاجقة. لقد علم الأمبراطور البيزنطي وقادته أن السلاجقة يجيدون الحرب الخاطفة، وأن بوسعهم التنقل بسرعة في أرض المعركة من مكان إلى آخر، كما يجيدون نصب الكمائن، وبخاصة في الممرَّات الجبلية، وكان عليه أن يستفيد من الكوارث التي حلَّت بالصليبيين في الحملة الصليبية الثانية، لكنه وبعض قادته، ممن دفعهم الغرور والحماس والتهور، اندفعوا داخل الممر الجبلي دون أن يرسلوا بعض الكشافة لاستكشاف المنطقة لحماية الجيش أثناء عبوره.

العلاقة السلجوقية ـ البيزنطية بعد ميريو كيفالون[١]

رفض مانويل، بعد أن عاد إلى عاصمته، تنفيذ البند المتعلِّق بتدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايون على الرغم من أنه أصدر أوامره بإزالة تحصينات المدينة الثانية أثناء مروره فيها في طريق عودته إلى بلاده. ويبدو أنه عدل عن قراره هذا عندما وصل إلى عاصمته، على الرغم من معاتبة قلج أرسلان الثاني له، الذي استاء أخيراً من عدم استجابة الأمبراطور لنداءاته المتكرِّرة بشأن ذلك. ولم يكن أمام الزعيم السلجوقي سوى الضغط عليه بمهاجمة الأراضي البيزنطية قبل أن يستعيد الجيش البيزنطي قوته التي فقدها في ميريوكيفالون[٢]، فأرسل جيشاً مؤلفاً من أربعة وعشرين ألف مقاتل للإغارة على وادي نهر المياندر في الجزء الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وتمشيط المنطقة حتى البحر[٣]. ويبدو أن الجيش السلجوقي نجح في تنفيذ المهمة بدليل توغله في وادي النهر، ونهبه مدن بلاتيه وترالس وأنطاكية المياندر[٤].

خشي مانويل بعد أن علم بأنباء التوغل السلجوقي في أراضيه، أن يقود

---

(١) يكاد يكون المؤرخ البيزنطي نيكيتاس الوحيد الذي أرَّخ لهذه المرحلة.

(٢) Chalandon: p 513. (٣) Nicetas: p 251.

(٤) Ibid.

الجيش بنفسه للقاء العدو، لأنه كان لا يزال يعاني من أثر الصدمة التي لحقت به في ميريوكيفالون، كما أن حالته الصحية كانت لا تسمح له بالقيام بذلك؛ فعهد إلى بعض قادته بالتصدي للسلاجقة، وطلب منهم عدم التسرع في الدخول في معركة إلّا بعد ضمان النصر حتى يتجنّبوا كارثة أخرى مثل ميريوكيفالون.

عسكر الجيش البيزنطي بالقرب من هيليوم لقطع طريق الإمدادات عن الجيش السلجوقي، حيث كان هناك جسر يصل إلى وادي النهر، واستطاع أفراده بعد معركة لم تستمر طويلاً أن يهزموا الجيش السلجوقي أثناء عبوره الجسر(١). لكن هذا الانتصار لم يوقف التسلل السلجوقي إلّا بصورة جزئية، وظل الخطر ماثلاً أمام البيزنطيين. فقرَّر مانويل عندئذ أن يقوم بنفسه بمحاربة السلاجقة ووقف تسللهم، إلّا أنه فشل في تحقيق هدفه، ولم يلق العدو المتمركز في ضواحي لاذيق، وعاد أدراجه خائباً(٢).

شجَّع النصر الذي أحرزه البيزنطيون على جسر نهر المياندر، فأرسلوا جيشاً آخر بقيادة أندرونيكوس أنجيلوس ومانويل كانتاكوزين. وفوجىء القائدان بهجوم ليلي قام به السلاجقة، وانهزما، وطاردتهما القوات السلجوقية حتى مدينة لاذيق الغربية(٣).

لم تكن منطقة وادي نهر الماندر وحدها تتلقى ضربات السلاجقة، بل هناك ما يشير إلى انتقال المعارك إلى الشمال بالقرب من نهر هاليس. وتعود بدايات الاحتكاك إلى تنفيذ السلاجقة حصاراً حول مدينة كليودوبوليس (أسكي شهر)، فخرج الأمبراطور بنفسه لمساعدة المدينة، ونجح في فك الحصار عنها(٤).

وتشير المعارك التي حصلت بين السلاجقة والبيزنطيين بعد ميريوكيفالون، أن السلاجقة بدَّلوا خططهم القائمة على السلب والنهب، وتحوَّلوا إلى العمل على كسب أراضٍ جديدة على حساب الأمبراطورية البيزنطية، وذلك بفعل تأثير القبائل التركمانية الضاربة في المناطق الحدودية، بدليل أن السلطان السلجوقي أرسل قوات في عام (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) فتحت سوزوبوليس وكوتاهية ودوريليوم وحاصرت دينزلي وأنطالية(٥)، مستغلّاً تضعضع الأوضاع السياسية في القسطنطينية بعد وفاة

(١) Nicetas: 254.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid: p 257.

(٥) Ramsay: Historical Geography of Asia Minor p 401. Camb. Hist. of Islam: vol I p 244.

الأمبراطور مانويل في عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) واعتلاء ابنه الصغير ألكسيوس الثاني العرش، في ظل المؤامرات التي حاكها أندرونيكوس كومنين للاستيلاء على السلطة.

المحاولة البيزنطية الأخيرة لحرب السلاجقة

التغيير السياسي في بيزنطية

انتهت بوفاة الأمبراطور مانويل الأول مرحلة التعاون البيزنطي ـ الصليبي، ودخلت الأمبراطورية البيزنطية في مجرى سياسة التباعد مع الصليبيين واللاتين عموماً، والتقارب مع الأيوبيين والاستعانة بهم لتطويع السلاجقة.

خلف مانويل ابنه ألكسيوس الثاني، وكان طفلاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. ووفقاً لما جرت عليه العادة، فقد تولَّت والدته الأمبراطورة مارية الأَنطاكية الوصاية على العرش، ونظراً لأنها من اللاتين، فقد تعرضت لكراهية سكان القسطنطينية.

واتخذت الأمبراطورة، ألكسيوس كومنين، ابن أخ زوجها وخال مارية ملكة بيت المقدس، مستشاراً لها، وتوثَّقت علاقتها به، واستند الاثنان على العنصر اللاتيني مما أوجد تنافراً بينهما وبين الشعب والطبقة الغنية.

ويبدو أن التطورات السياسية دفعت الأمبراطور ألكسيوس الثاني لانتهاج سياسة التقارب مع صلاح الدين الأيوبي الذي كان نجمه ساطعاً في سماء الشرق. وبدا التغيير واضحاً عندما أرسل الأمبراطور مبعوثاً إلى القاهرة في (شهر صفر عام ٥٧٧هـ/ شهر حزيران ١١٨١م) لعقد الصلح مع صلاح الدين الأيوبي[١].

وعلى الرغم من انهيار الحكم المركزي في بيزنطية، بعد ذلك، فإن السياسة الجديدة لم تتغيَّر. فقد ثار أندرونيكوس كومنين، ابن عم مانويل، على الحكم في القسطنطينية في عام (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) ولم يجد عناء في التغلب على الفرق العسكرية البيزنطية التي اعترضت تقدمه. ولم تلبث الأمبراطورة أن أضحت بمفردها في العاصمة، ولم تلق المساعدة إلَّا من اللاتين المقيمين في المدينة. وما اشتهر به هؤلاء من الغطرسة أدَّى إلى إجراء مذبحة مروعة، ولم يبق على قيد الحياة إلَّا عدد ضئيل من التجار الإيطاليين الذين فرُّوا عبر البحر نحو الغرب. وأضحى الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً أمام أندرونيكوس.

---

(١) المقريزي، أبو العباس أحمد: السلوك في معرفة دول الملوك، جـ ١ ص ١٨٥.

وعندما دخل العاصمة ألقى القبض على ألكسيوس الثاني كومنين وألقاه في السجن وسمل عينيه، وأصدر حكماً بإعدام الأمبراطورة شنقاً، وأرغم ابنها الصغير على توقيع وثيقة بالتنازل عن السلطة، ثم لم يلبث أن لقي ألكسيوس الثاني مصرعه، وأضحى أندرونيكوس أمبراطوراً[1].

التعاون البيزنطي الأيوبي في عهد أندرونيكوس وانعكاسه على الوضع السياسي للسلاجقة

حدث قبل مجيء الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق تقارب بين الأمبراطور البيزنطي أندرونيكوس كومنين وصلاح الدين الأيوبي، بهدف المحافظة على مصالحهما المشتركة المتمثِّلة بمقاومة اللاتين بشكل عام، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى بشكل خاص.

كان البيزنطيون يأملون بطرد الأتراك من آسيا الصغرى، واسترداد ممتلكاتهم فيها، لكنهم تعرَّضوا لخسارة جسيمة في معركة ميريوكيفالون جعلتهم عاجزين عن تحقيق أمانيهم، حيث أضحى السلاجقة يشكِّلون خطراً حقيقياً على الممتلكات البيزنطية في بحر إيجة، كما فقدوا كل أمل في استرداد جزيرة قبرص من اللاتين الذين ساندوا الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وواجه صلاح الدين الأيوبي الإمارات الصليبية التي فصلت بين ممتلكاته، كما أراد إخضاع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بعد أن بدأوا يتطلَّعون إلى التمدد باتجاه الشرق، وشكَّلوا ضغطاً على ممتلكاته في شمالي بلاد الشام.

وشكَّل الغرب الأوروبي ضغطاً على كل من أندرونيكوس كومنين وصلاح الدين الأيوبي، إذ أن ما بذله الأمبراطور مانويل كومنين من قبل، من جهود لاسترداد الأقاليم التي فقدتها الأمبراطورية في إيطاليا، أسهم في التباعد بينه وبين الأمبراطورية الغربية.

وحدث في عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) أن جرى زواج هنري، ابن الأمبراطور فريدريك الأول، وكونستانس ابنة وليم الثاني ملك صقلية ووارثة ملكه. وإذ أيقن الأمبراطور البيزنطي أن الصقليين لن يلبثوا أن يشنوا هجوماً على الممتلكات البيزنطية، وحتى لا يقع بين فكي الكماشة الصقلية من الغرب والسلجوقية من

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٢ ـ ١٠٣٣. أسد رستم: جـ ٢ ص ١٦٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٩٠ ـ ٦٩١.

الشرق، بادر باتخاذ الإجراءات الضرورية لتأمين حدوده الشرقية كي يتفرَّغ لمشكلاته مع الغرب. فتقرَّب من صلاح الدين الأيوبي وأرسل إليه سفارة في (أواسط عام ٥٨١هـ/ صيف عام ١١٨٥م) يعرض عليه قيام تحالف بينهما على الأسس التالية:

- يبذل صلاح الدين الولاء لأندرونيكوس كومنين نظراً لأنه أمبراطور.

- يتعاون الطرفان في مناوأة السلاجقة، وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى من أيديهم، تُضاف إلى أملاك الأمبراطورية حتى أنطاكية وأرمينية.

- يتعاون الطرفان في قتال مملكة بيت المقدس، واقتسام ما يجري من فتوح لأَراضيها، على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية باستثناء عسقلان.

- يبذل أندرونيكوس كومنين المساعدة لصلاح الدين في نضاله ضد الصليبيين في بلاد الشام[(١)].

لم يُعرف مدى استجابة صلاح الدين لهذه الاقتراحات لأن أندرونيكوس كومنين خُلع عن العرش البيزنطي في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٨١هـ/ شهر أيلول عام ١١٨٥م) قبل أن يصل رد صلاح الدين الأيوبي.

وبذلك، نجا السلاجقة من تحالف كان يمكن أن يشكِّل خطراً على ممتلكاتهم ووجودهم.

القضاء على الإمارة الدانشمندية في ملطية

التفت قلج أَرسلان الثاني بعد انتصاره في ميريوكيفالون نحو الشرق للقضاء على آخر إمارة دانشمندية في ملطية وضمِّ أَراضيها إلى سلطنته وتوحيد أتراك الأناضول تحت قيادته. وأضحت هذه الإمارة ساحة للصراع الجديد بين القوتين السلجوقية والدانشمندية. ويذكر بأن السياسة السلجوقية العامة تجاه ضم ملطية تعود إلى عام (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، منذ أيام السلطان مسعود السلجوقي والد قلج أرسلان الثاني.

شنَّ السلطان السلجوقي هجوماً عنيفاً على ملطية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) منتهزاً فرصة نشوب نزاع داخلي بين أعيانها حول وراثة العرش بعد وفاة الأمير

---

(١) Brand, Ch. N: The Byzantines and Saladin 1185 - 1192 opponents of the Third Crusade speculum 37 1962. p 168. Camb. Hist. of Islam: vol I p 244. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

الدانشمندي أبي القاسم بن ذي القرنين[1]، حيث انقسموا إلى فريقين، انحاز الفريق الأول إلى أخي أبي القاسم الكبير، الأمير المخلوع ناصر الدين محمَّد بن ذي القرنين، ومال الفريق الثاني إلى تعيين أخيه الآخر أفريدون، وقد رجحت كفة هؤلاء. ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي تدخَّل فيه السلطان قلج أرسلان الثاني في هذه القضية، حيث رفض طلباً لناصر الدين محمَّد بالمساعدة من أجل العودة إلى ملطية، ويبدو أنه أراد أن يُبقي هذا الأمير سلاحاً في يده يهدِّد به شقيقه أفريدون. لكن الهجوم السلجوقي فشل في تحقيق الغاية والهدف.

تعرَّضت ملطية بعد ذلك لخضَّات سياسية داخلية، ونجح ناصر الدين محمَّد في استعادة العرش في عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) بفضل جهوده الشخصية، فأثار بذلك حفيظة السلطان السلجوقي الذي ساءه تمكُّنُ هذا الأمير من الوصول إلى الحكم دون مساعدته، وازدادت أطماعه في ملطية، فهاجمها بقوات كثيفة وضرب عليها حصاراً مركزاً، استمر مدة أربعة أشهر تعرَّض السكان خلالها للضيق بفعل تناقص الأقوات وحلول فصل الشتاء. وعجز ناصر الدين محمَّد عن التخفيف من هذه الضائقة، كما فشل في صدِّ القوات السلجوقية، وخشي من ثورة الأمراء عليه، لذلك أرسل إلى قلج أرسلان الثاني يعرض عليه تسليم المدينة مقابل السماح له بالنجاة بنفسه. وافق السلطان على ذلك، فخرج ناصر الدين محمَّد إلى حصن زياد القريب من ملطية، ودخل قلج أرسلان الثاني إلى المدينة في (٢٩ ربيع الآخر ٥٧٣هـ/ ٢٥ تشرين الأوَّل ١١٧٧م). وبذلك سقطت آخر إمارة دانشمندية، ولم يعد في بلاد الأناضول سوى الأتراك السلاجقة[2].

التمدد السلجوقي باتجاه الشرق

العلاقة مع الأيوبيين

قيام الدولة الأيوبية

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي من بلدة دوين[3] الواقعة عند آخر حدود

(١) ابن العبري: ص ١٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٩٤. Michel le Syrien: vol III p 373.

(٣) دوين: بلدة من نواحي أرَّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس، منها ملوك الشام بنو أيوب. ودوين أيضاً إحدى قرى أستوا من أعمال نيسابور في بلاد فارس. الحموي: ج ٢ ص ٤٩١.

أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينية، وجميع سكان ذلك البلد من الأكراد الروادية، أحد بطون الهذبانية، وهذا القبيل من أشرف الأكراد لم يجر على أحد منهم رق[1].

انتقلت الأسرة من دوين في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حين غادر شادي مع ابنيه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه المنطقة إلى تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي سامراء، حيث عيَّنه شحنتها بهروز حاكماً عليها نظراً لصلات الصداقة التي تربطهما، ولما توفي شادي خلفه ابنه نجم الدين أَيوب[2].

تعاون نجم الدين أَيوب مع عماد الدين زنكي أتابك الموصل، مما أغضب بهروز الذي عدَّ هذا التعاون خروجاً على السلطة في بغداد، فأخرج الأسرة من تكريت، فانخرط الأخوان بعد ذلك في خدمة عماد الدين زنكي، وترقَّيا في سلَّم الإِمارة. وأثناء الصراع الإِسلامي الصليبي حول مصر، أرسل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، أسد الدين شيركوه إِلى مصر، فطرد الصليبيين منها واستولى على السلطة في ظل حكم الفاطميين، وعيَّنه العاضد آخر الحكام الفاطميين في منصب الوزارة، قد صحبه ابن أخيه صلاح الدين. ولما توفي أَسد الدين شيركوه خلفه صلاح الدين في منصب الوزارة، وبعد أن تغلَّب على الصعوبات التي واجهته، أسقط الدولة الفاطمية، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي المستضيء تحت إلحاح نور الدين محمود وذلك في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)[3].

استقر صلاح الدين في مصر وأسَّس الدولة الأَيوبية بعد وفاة نور الدين محمود، ثم ضمَّ مصر إِلى بلاد الشام وتولى حكمهما. وكانت الوحدة الإِسلامية قد قطعت مرحلة متقدمة بفضل الجهود التي بذلها كل من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، فأتمَّ صلاح الدين الأَيوبي إطارها، ودفع المسلمين إِلى الجهاد ضد الصليبيين لاستعادة المناطق الإِسلامية من أيديهم، وقد نجح في ذلك إِلى حد كبير، فكانت وحدة مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة السبب في انتصار المسلمين في معركة حطين في (شهر ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ/ شهر تموز عام ١١٨٧م) واستعادة بيت المقدس بعد ذلك[4].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١١٩.

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٧ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) انظر فيما يتعلَّق بهذه الأحداث كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص ٢٠ ـ ٣٨.

(٤) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين ص ١٣١ ـ ١٧٢.

المواجهة الأولى بين السلاجقة والأيوبيين

التفت قلج أَرسلان الثاني، بعد قضائه على الإمارة الدانشمندية في ملطية، إلى التوسع باتجاه الجنوب لضمِّ رعبان وكيسوم. ويبدو أنه كان ينوي التدخل في أمور بلاد الشام، ويؤمِّن له طريقاً نحو الفرات، وهذه سياسة سلجوقية عامة ابتدأت مع مؤسِّس السلطنة سليمان بن قُتلمش، مستغلاً برود العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي والملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب. والراجح أنه خشي من توسع صلاح الدين الأيوبي في إقليم الجزيرة، ومضايقته لحلب، فأراد أن يكون الملك الصالح إسماعيل بينه وبين صلاح الدين الأيوبي.

وحتى لا يبدو بمظهر المعتدي أمام المسلمين، أرسل رسولاً إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين الأيوبي وطلب منه الحصنين بحجة أنهما كانا سابقاً من أملاك سلاجقة الروم، ضمَّهما والده مسعود، ثم اضطر أن يتنازل عنهما لنور الدين محمود.

اغتاظ صلاح الدين الأيوبي من هذا الطلب، وأغلظ القول للرَّسول، وتوعَّد قلج أَرسلان الثاني، فعاد الرسول إلى قونية، وأخبر سلطانها بما جرى. غضب السلطان السلجوقي، وهاجم حصن رعبان في عام (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) الذي يحمي منطقة الفرات على الطريق المؤدي من حلب إلى سميساط، وهو بيد الأمير شمس الدين بن المقدم، يحكمه من قِبل صلاح الدين الأيوبي. وقُدِّرَتْ القوة السلجوقية بعشرين ألف مقاتل، وفي رواية بثلاثة آلاف مقاتل. وعندما علم هذا الأخير بذلك، أرسل قوة عسكرية تُقدَّر بألف فارس بقيادة المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة(١).

تقدَّمت القوات الأَيوبية حتى شارفت المعسكر السلجوقي، ودار أفرادها حوله مستكشفين، فتبيَّن لهم أن القوم غافلون، فاغتنموا هذه الفرصة وهاجموهم وفق خطة محكمة أربكت القوات السلجوقية التي فرَّت لا تلوي على شيء، فانقضَّ الجنود الأَيوبيون عليهم، وأسروا كثيراً منهم، ثم منَّ المظفر تقي الدين عمر على الأسرى وسرَّحهم، وعاد قلج أَرسلان الثاني إلى ملطية يجر أذيال الهزيمة(٢).

---

(١) الأيوبي، الملك المنصور محمَّد بن عمر شاهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق: ص ١٨ ـ ١٩. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤٨. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: جـ ٣ ص ٣١ ـ ٣٢. ابن واصل: جـ ٢ ص ٧٩.

(٢) المصادر نفسها.

المواجهة الثانية بين السلاجقة والأيوبيين

ظلَّت العلاقات متوترة بين السلاجقة والأيوبيين. وحدث في عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) أن نشب نزاع آخر بين قلج أَرسلان الثاني وصلاح الدين الأَيوبي، بسبب مشكلة عائلية. ذلك أن السلطان السلجوقي أقام علاقات سياسية مع الأراتقة في حصن كيفا، وتوثَّقت بزواج ابنته سلجوقة خاتون بنور الدين محمَّد بن قرا أَرسلان، صاحب الحصن، ومنحه قلج أَرسلان الثاني عدداً من الحصون التي تجاور بلاده، كمهر.

وبعد مدة، أحب نور الدين محمَّد مغنية، ومال إليها، وتزوجها، وأعرض عن زوجته السلجوقية، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه، إما أن تحسن عشرتها، وإما أن تفارقها، فلم يلتفت إليه، عند ذلك، قرَّر قلج أَرسلان الثاني القيام بحركة عسكرية ضد نور الدين محمد لتأديبه، وضمِّ بلاده، فاستنجد هذا الأخير بصلاح الدين الأَيوبي.

أرسل صلاح الدين الأَيوبي رسالة إلى قلج أَرسلان الثاني يطلب منه أن يتخلَّى عن محاولته ضد إمارة كيفا، فأجابه بأنه أعطى نور الدين محمَّد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوَّجه ابنته، وبما أن صهره قد سلك مع ابنته هذا السلوك، فإنه قرَّر استعادة ما أعطاه إياه. تردَّدت الرسل بين الرجلين بعد ذلك، دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صلاح الدين الأَيوبي إلى التوجه على رأس قوة عسكرية إلى الأَناضول لوقف قلج أرسلان الثاني عند حدِّه، والتحق به نور الدين محمَّد، فتقدم إلى تل باشر، ثم عرَّج على رعبان. ولما بلغت أنباء هذا التقدم مسامع قلج أَرسلان الثاني، تهيَّب الموقف، فأرسل إليه أحد كبار أمرائه، وهو اختيار الدين بن عفراس، ليشرح له القضية، وأنه لا بد من تأديب نور الدين محمَّد على تصرفه.

تقابل الأطراف الثلاثة في (شهر جمادى الأولى/ شهر تشرين الأول) على نهر كوك سو[1]، وبعد مداولات مستفيضة، تمسَّك صلاح الدين الأَيوبي بوجهة نظره، وهدَّد بالزحف على ملطية وبقية بلاد السلاجقة، إن أصرَّ قلج أَرسلان الثاني على تأديب نور الدين محمَّد.

وشاهد الأمير السلجوقي، أثناء إقامته في المعسكر الأَيوبي، شدة بأس صلاح

---

(١) كوك سو: هو النهر الأزرق، أحد فروع نهر الفرات يقع بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب.

الدين، وكثرة سلاحه ودوابه، فهاله الأمر، لذلك بذل جهداً مضنياً في شرح القضية من الوجهة الدينية، فاقتنع صلاح الدين الأيوبي بكلامه، وتمَّ الاتفاق أخيراً على ما يلي:

- يُطلَّق نور الدين محمَّد المغنية بعد عام.
- إذا لم يفعل ذلك، يتعاون صلاح الدين مع قلج أَرسلان الثاني على حربه.
- يدخل جميع أمراء الموصل وديار بكر والأراتقة في هذا الصلح(١).

ويبدو أنه جرى اتفاق ثنائي على هامش المباحثات بين صلاح الدين الأَيوبي والسلطان السلجوقي، يقضي بمساعدة الأول للسلاجقة في حربهم ضد الأرمن في قيليقية الذين كانوا يهاجمون الأَراضي السلجوقية، بدليل أنه هاجم بلاد الأرمن عقب توقيع الصلح مباشرة، وقبل أن يعود إلى بلاد الشام(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد كان لهذا الاحتكاك السلجوقي ـ الأَيوبي انعكاس سلبي، إلى حد ما، على العلاقات بين الطرفين في المستقبل، توضَّحت في التحالفات التي قامت بين صلاح الدين الأَيوبي والأمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس من جهة، وبين قلج أَرسلان الثاني والأمبراطور فريدريك بربروسا من جهة ثانية، كما سيمر معنا.

صراع قلج أَرسلان الثاني مع الصليبيين في الحملة الصليبية الثالثة

الصليبيون يستغيثون بالغرب الأوروبي

استطاع صلاح الدين الأَيوبي أن يحقِّق إنجازاً هاماً في الأعوام القليلة الواقعة بين (٥٨٣ ـ ٥٨٦هـ/ ١١٨٧ ـ ١١٩٠م). إذ ما كاد القتال ينتهي في حطين وتتحقَّق خسارة الصليبيين حتى أسرعت الرسل إلى غربي أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس. والجدير بالذكر أن ممتلكات الصليبيين في الشرق قد تقلَّصت بشكل ملحوظ بحيث لم يبق لهم في مستهل عام (٥٨٦هـ/ ١١٩٠م) من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى مدينة طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الثانوية الأخرى، ومن إمارة أَنطاكية

---

(١) انظر تفاصيل الحادثة عند: ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٠. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣٦٠. منجم باشي جـ ٢ ص ٥٦١.

(٢) ابن شداد، بهاء الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٩٨.

سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب[١].

والواقع أن تلك الخسارة، وهذا الفتح، أحدثا رد فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذُعر لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب بأنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في الأعوام الأخيرة[٢].

وأدرك من اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصل إليهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بالمدينة ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها. ولم يلبث كونراد دي مونتفيرات، المدافع عن صور، أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غربي أوروبا في (منتصف عام ٥٨٣هـ/ أواخر صيف ١١٨٧م) ليطلب النجدة العاجلة من البابا وملوك أوروبا وأمرائها.

وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثاني الذي استجاب لهذه الدعوة، بعد أن راعه ما سمعه من جوسياس من أنباء الكارثة التي حلّت بالصليبيين في الشرق. ولما كان في حالة حرب مع بيزنطية، فقد عقد صلحاً مع الأمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس في (شهر محرم عام ٥٨٤هـ/ شهر آذار عام ١١٨٨م)، ليتفرَّغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلي مرجريت البرنديزي، وقد نجح في منع صلاح الدين الأيوبي من فتح مدينة طرابلس[٣].

انتقل جوسياس بعد ذلك إلى روما، ترافقه بعثة صقلية، ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام، فلم يتحمَّل البابا الصدمة وتوفي كمداً في (١٤ شعبان ٥٨٣هـ/ ٢٠ تشرين الأول ١١٨٧م)، على أن خليفته جريجوري الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكي إنكلترا وفرنسا وأمبراطور ألمانيا، يستحثُّهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين[٤].

لم يعش البابا ليشهد ثمرة جهوده، إذ توفي بعد شهرين، وخلفه كليمنت الثالث، فأسرع بالاتصال بالأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتوجه إلى الشرق.

---

(١) Grousset: Histoire des Croisades vol II pp 834 - 835.

(٢) Camb. Med. Hist: vol IV p 310.

(٣) Estoire d'Eracles: vol II pp 119 - 120. Ernoul: Chronique pp 247 - 248.

(٤) يعقوب الفيتري: تاريخ بيت المقدس ص ١٥٨.

حدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى فرنسا وإنكلترا لمقابلة الملكين فيليب أغسطس وهنري الثاني، فاجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا، وأقنعهما بتناسي خلافاتهما التي كانت حادَّة، وشجَّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك فإنهما تباطآ في التنفيذ، وتجدَّدت الحرب بينهما. ثم توفي هنري الثاني في عام (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد على عرش إنكلترا، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهَّز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق(١).

حملة الأمبراطور فريدريك بربروسا

كان الأمبراطور الألماني فريدريك الأول بربروسا الأسرع في التحرك، على الرغم من كبر سنه. وأراد أن يمهِّد لحملته، فأرسل رسائل إلى الملوك والأمراء الذين سوف يجتاز بلادهم، يخطرهم بعزمه على القيام بحملة صليبية إلى فلسطين، ويطلب منهم مساعدته في اجتياز بلادهم. فكتب إلى بيلا، ملك المجر، وإسحاق الثاني أنجيلوس، الأمبراطور البيزنطي، وقلج أرسلان الثاني، السلطان السلجوقي، كما أرسل إلى صلاح الدين الأيوبي رسالة مفعمة بالخيلاء والمباهاة، يطلب منه أن يعيد كامل فلسطين للصليبيين.

وصلت رسالة فريدريك بربروسا إلى السلطان السلجوقي في الوقت الذي كان يضع فيه اللمسات الأخيرة لتقسيم السلطنة على أولاده، وردَّ عليه يعده بالمساعدة، وكذلك فعل ملك المجر.

واتَّبع الأمبراطور البيزنطي سياسة مزدوجة، أنه أرسل بعثة بيزنطية إلى ألمانيا لإعداد التدابير اللازمة لاجتياز الحملة الأراضي البيزنطية، وفي الوقت نفسه، أدَّت مخاوفه إلى السعي لمحالفة صلاح الدين الأيوبي ضد الأمبراطور الألماني والسلطان السلجوقي، فتعهَّد له أن لا يمكن الصليبيين من العبور إلى بلاده، في حين تعهَّد صلاح الدين الأيوبي بوضع الأماكن النصرانية المقدَّسة في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس(٢).

واتَّسم ردُّ صلاح الدين الأيوبي بالدماثة، إذ عرض على الأمبراطور أن يطلق

---

(١) يعقوب الفيتري: ص ١٥٨ ـ ١٥٩. رنسيمان: جـ ٣ ص ٢١ ـ ٢٩.

Archer: The Crusades: p 307. Besant, P; Jerusalem p 405.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٠٧. أبو شامة: جـ ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

سراح أسرى الصليبيين، ويعيد الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، ولا شيء غير ذلك[١].

غادر فريدريك بربروسا أوروبا الغربية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٨٥هـ/ شهر أيار عام ١١٨٩م)، متوجهاً إلى الشرق، على رأس جيش قدّره المؤرخون بمائتي ألف جندي سالكاً الطريق البري، إلى القسطنطينية، عبر بلاد المجر[٢]. وعندما وصل إلى البلقان، أرسل الأمبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين الأيوبي يعلمه بوصول ملك الألمان، ويعد أن لا يُمكّنه من عبور بلاده[٣].

لكن إسحاق الثاني أنجيلوس اضطر، تحت ضغط الأحداث، للسماح لأفراد الحملة الألمانية باجتياز الدردنيل بمساعدة السفن البيزنطية[٤]، وكتب في الوقت نفسه إلى صلاح الدين الأيوبي يعلمه بذلك.

ولما غادر الأمبراطور الألماني الشاطىء الآسيوي، سلك الطريق المؤدي إلى لاذيق عبر قلاموس وفيلادلفيا، فوصل إليها بعد ثلاثين يوماً[٥]، ومن لاذيق نفذ إلى الداخل باتجاه الشرق بعد أن سلك الطريق الذي سلكه مانويل في سيره نحو العاصمة السلجوقية قونية والذي يمر في ميريوكيفالون عبر أنطاكية بسيديا، فدخل بذلك الأراضي التي يسيطر عليها قلج أرسلان الثاني.

قلج أرسلان الثاني بين صلاح الدين الأيوبي وفريدريك بربروسا

الواضح أن قلج أرسلان الثاني، الذي كان يعاني آنذاك من متاعب شديدة من جانب أبنائه الذين قسّم ملكه بينهم، بالإضافة إلى ما كان يتعرَّض له من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين الأيوبي وإسحاق الثاني أنجيلوس، رأى في الصليبيين الألمان حلفاء طبيعيين ضد العدو المشترك، لكنه لم يشأ أن يظهر أمام المسلمين كما لو أنه يساعد الصليبيين، لذلك غضَّ الطرف عن اعتداءات التركمان، أثناء تقدم الجيش الألماني واجتيازه مكان معركة ميريوكيفالون في وادي نهر المياندر، وقد سبَّبت الإنهاك للجنود، كما أنهم تعرضوا للمجاعة والظمأ وتناقص علف الدواب بعد أن أحرق السلاجقة المحاصيل الزراعية والمؤن وسمَّموا الآبار

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٠٧. أبو شامة: جـ ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) ابن شداد: ص ١٧٨. Camb. Med. Hist: vol IV p 411.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٠٧.

(٤) Vasiliev: vol II pp 445 - 446.

(٥) Oman: vol I p 249. Ramsay pp 129 - 130.

كي لا يستفيد منها الصليبيون، وزادت وعورة الطريق الجبلي من معاناتهم، بالإضافة إلى ذلك، فإن القوات السلجوقية النظامية، راحت تطوف بأطراف الجيش الألماني تخطف الشاردين، وتعترض طريق الذين يسعون للمؤونة[1].

كانت خطة السلطان السلجوقي القاضية بمضايقة الجيش الألماني بعيدة الأثر، فسَبَّبت الكوارث للجيش، ومع ذلك فقد واصل أفراده زحفهم باتجاه قونية في حين انسحب قلج أرسلان الثاني مع قواته من أمامهم، ووصلوا إلى قونية في (شهر ربيع الآخر ٥٨٦هـ/ شهر أيام ١١٩٠م) وهم منهكون، وتحصَّن قلج أرسلان الثاني بالقلعة، تفادياً لحدوث معركة سافرة غير مستعد لها، لكن ابنه قطب الدين ملكشاه خرج على رأس قوة عسكرية سلجوقية لمهاجمة الجيش الألماني أمام أسوار المدينة، إلّا أنه لم يتمكَّن من الصمود واضطر إلى الانسحاب تحت ضغط القتال، وعاد إلى قونية، واستطاع فريدريك بربروسا أن يشق له طريقاً إلى داخل المدينة، فهاجمها وأحرق أسواقها[2].

مكث فريدريك بربروسا خمسة أيام في قونية، بعث خلالها بهدية إلى السلطان السلجوقي وقال له: «ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما أردنا البيت المقدس»، وطلب منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاج الجيش إليه من قوت وغيره، «فأذن لهم وأعطاهم ما يريدون حتى اكتفوا وتزودوا لرحلتهم»، كما طلب من قطب الدين ملكشاه التوقف عن مضايقة جيشه[3].

وجرت بين العاهلين مباحثات سياسية تمخَّضت عن تعهد قلج أرسلان الثاني بتأمين طريق الألمان إلى بلاد الشام عبر قيليقية، وإمدادهم بالأدلاَّء لإرشادهم. وحتى لا ينكث الأتراك بما تعهدوا به طلب الأمبراطور منهم بعض الرهائن، فسلَّموهم نيفاً وعشرين أسيراً، فساروا جميعاً باتجاه أرمينية الصغرى[4].

وبالغ بعض المؤرخين المسلمين في وصف روابط الصداقة والتحالف التي جمعت بين قلج أرسلان الثاني وفريدريك بربروسا، فذكر ابن شداد أن قلج أرسلان الثاني يظهر شقاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، وأن سلطان السلاجقة سرعان ما

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ١٥١. Oman: vol I p 249. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣١٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. أبو شامة: جـ ٢ ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

أمدَّ الأمبراطور الألماني بالمرشدين والرهائن حتى يعبر بلاده بسلام إلى أرمينية الصغرى[1]، في حين أشار البعض الآخر إلى مجالات التعاون بين قلج أرسلان الثاني وصلاح الدين الأيوبي بشأن زحف الجيش الألماني، فذكر ابن الأثير «وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها، وخلفوها، أرسل يعتذر بالعجز عنهم»[2].

وللمؤرخين الغربيين رأيهم في قضية العلاقة بين قلج أرسلان الثاني وفريدريك بربروسا عبَّر عنها رنسيمان حين قال: «والواضح أن قلج أرسلان، السلطان السلجوقي، لم يكن ينوي، برغم ما بذله من وعود، أن يسمح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء، وحينما هاله ضخامة الجيش الألماني لم يفعل أكثر من أن يطوف بأطرافه، فيخطف الشاردين»[3].

كيف نفسِّر هذا التناقض في الرأي بين المؤرخين، بشأن تصرف قلج أرسلان الثاني تجاه الصليبيين الألمان؟

الواقع أن السلطان السلجوقي تميَّز بالازدواجية، ولعل مرد ذلك يعود إلى الحنكة السياسية، والمواقف المتقلبة التي اتصف بها، بفعل الأحداث الضاغطة. فهو، من جهة، أراد مقاومة الحلف الأيوبي ـ البيزنطي، إذ كان لكل من صلاح الدين الأيوبي وإسحاق الثاني أنجيلوس من المطامع السياسية في بلاده ما يكفي لإزعاجه ومقاومته. فصلاح الدين الأيوبي، الذي لم يُخرِج من حسابه احتمال مجيء حملة صليبية جديدة بعد الانتصارات المذهلة التي حقَّقها، أخذ حذره، وأعدَّ عدته لذلك الاحتمال، فحصَّن القلاع القوية، وهدم الضعيفة التي قد يستفيد منها الصليبيون، وأراد إحكام قبضته على الدروب المتحكِّمة بممرات قيليقية، ويهيمن على سلاجقة الروم، لأن الأناضول يُعدُّ ممراً برياً طبيعياً لأي حملة صليبية تأتي براً من الغرب، وأما سياسة إسحاق الثاني أنجيلوس، فهي العمل على تحجيم قوة السلاجقة. لذلك وجد قلج أرسلان الثاني في الألمان حلفاء طبيعيين، إلَّا أنه لم يدخل معهم في حلف، باستثناء ما وعد به الأمبراطور الألماني بالمساعدة أثناء عبوره بلاده. ومن جهة أخرى، أراد أن يبرِّر موقفه كمسلم، بمقاومة الصليبيين، ويقتدي بأسلافه. من

---

(١) النوادر السلطانية: ص ١٩١.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٢٠٧.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: جـ ٣ ص ٣٨.

هنا برزت هذه الازدواجية في مواقفه السياسية، ولا شك بأن هذه الظاهرة تعطينا فكرة عن السبب في التباين الذي وقع فيه المؤرخون.

تقسيم السلطنة وانعكاسه على الوضع العام للدولة ـ وفاة قلج أَرسلان الثاني

استتبَّ الأمن في الأَناضول بفضل كفاح قلج أَرسلان الثاني، وتحقَّقت الوحدة السياسية للسلاجقة، وبدأ عصر التقدم الاقتصادي والثقافي، لكن هذه الوحدة ما لبثت أن تفكَّكت، وشهدت البلاد موجة من الصراع الأسري في ظل غياب الأخطار الخارجية. فصلاح الدين الأَيوبي كان منهمكاً في التصدي للحملة الصليبية الثالثة وتصفية الإِمارات الصليبية في بلاد الشام، وقنعت بيزنطية بما آلت إليه الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى بعد الضربة القاضية التي تلقَّتها في ميريوكيفالون، كما توقفت حروب التوسع.

بدأ قلج أَرسلان الثاني يشعر بتعب الحياة بعد أن أصابه الفالج في عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) ففكَّر في تقسيم سلطنته على أولاده الأحد عشر، ونفَّذها في عام (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) مرتكباً خطأً سياسياً فادحاً، وجاءت القسمة على الشكل التالي:

ـ قطب الدين ملكشاه	سيواس وآقسرا
ـ ركن الدين سليمان شاه	توقات
ـ ناصر الدين بركياروق شاه	نيكسار
ـ مغيث الدين طغرل شاه	البستان
ـ نور الدين محمود شاه	قيصرية
ـ معز الدين قيصر شاه	ملطية
ـ محيي الدين مسعود شاه	أنقرة
ـ سنجر شاه	هرقلة
ـ أَرسلان شاه	نكيدة
ـ نظام الدين أرغون شاه	أماسية
ـ غياث الدين كيخسرو	قونية وأعمالها ومنها برغلو(١)

(١) برغلو هي مدينة سوزوبوليس على الحدود البيزنطية.

ويضاف إلى كل مدينة ما يجاورها وما يتبعها من البلدات الصغيرة[1].

امتنع كل أمير بإقطاعه يستغله لصالحه الشخصي دون العودة إلى الحكومة المركزية، وأضحى السلطان حاكماً بالاسم فقط، يملك ولا يحكم. وفي وضع شاذ كهذا كان من الطبيعي أن تنشأ الخلافات الأسرية بين الإخوة، ثم بينهم وبين الوالد. فكل واحد كان يتربص بالآخر، ويتحيَّن الفرص للانقضاض عليه والاستيلاء على أملاكه. وبرز من بينهم قطب الدين ملكشاه الذي تميز بالطموح السياسي اللافت والجرأة، فاستولى على قونية، وحجر على والده. وحتى يؤمن على حياته من مؤامرات حاشيته، تخلَّص من الأمراء الموالين لوالده، وقرَّب بطانته، إلَّا أنه أبقى الخطبة والسكة باسم والده[2].

تحوَّل قطب الدين ملكشاه، بعد أن ثبَّت أقدامه في العاصمة، إلى انتزاع ما بأيدي إخوته من مدن، وبدأ بقيصرية، فخرج من العاصمة على رأس جيش كثيف لحصارها، واصطحب والده معه حتى يزيِّن لأخيه نور الدين محمود شاه أن تصرُّفه إنما ناتج عن أمره. وسنحت لقلج أَرسلان الثاني فرصة للهرب، فدخل إلى المدينة واجتمع بابنه نور الدين محمود شاه، وتعاونا على مقاومة أطماع قطب الدين ملكشاه، فاضطر هذا الأخير إلى فك الحصار عن المدينة وعاد إلى قونية، وخطب لنفسه[3].

أدرك قلج أَرسلان الثاني، بعد فوات الوقت، خطأ ما ارتكبه من عمل تقسيمي، فقرَّر إعادة توحيد البلاد تحت قيادة رجل واحد، واختار ابنه الأصغر غياث الدين كيخسرو، فأخذ البيعة له من الأمراء والأعيان[4].

نفر الإخوة من عمل والدهم وخرجوا على طاعته، فاضطر إلى محاربتهم وإعادة توحيد السلطنة، وبدأ بقيصرية، فحاصرها مع ابنه غياث الدين كيخسرو، ومرض السلطان أثناء الحصار، فاضطر الابن إلى فك الحصار، وعاد إلى قونية[5].

---

(١) ابن بيبي، ناصر الدين يحيى: الأوامر العلائية في الأمور العلائية ص ٣ ـ ٥ وقارن بابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦٢٤. ابن العبري: ص ٢١٤. ابن الفرات، ناصر الدين محمَّد بن عبد الرحيم: تاريخ الدول والملوك جـ ٤ قسم ٢ ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٣) ابن الفرات: المصدر نفسه ص ٩٤.

(٤) ابن بيبي: ص ٤.

(٥) يذكر ابن الأثير أن قلج أَرسلان توفي وهو يحاصر قيصرية. جـ ٩ ص ٢٢٣.

قرَّر السلطان بعد إبلاله من المرض استرداد ملطية من ابنه معز الدين قيصر شاه، فاستنجد هذا الأخير بصلاح الدين الأَيوبي، الذي استقبله بترحاب وزوَّجه من ابنة أخيه الملك العادل، وأعاده إلى ملطية بعد أن شجَّعه على ألاَّ يخشى والده أو إخوته[1]. وهكذا فشل السلطان في استرداد ملطية، فالتفت إلى سيواس وآقسرا، وحاصر هذه الأخيرة، إلَّا أنه لم يستطع استردادها بسبب اشتداد المرض عليه، ووفاته بعد ذلك. كتم غياث الدين كيخسرو خبر وفاة والده، ثم فك الحصار عن آقسرا وعاد إلى قونية واستقر بالقلعة، وحصل على موافقة الأمراء والأعيان في تولي السلطة. وبعد أن اطمأن على وضعه أعلن عن وفاة والده[2]، وحكم باسم غياث الدين كيخسرو الأول، وكان ذلك في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م).

---

(١) ابن العبري: ص ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٥. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٢. ابن الفرات: جـ ٤ قسم ٢ ص ٩٥.

الفصل الثامن

غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان كيخسرو الأول

(المرة الأولى): ٥٨٨ ـ ٥٩٣هـ/ ١١٩٢ ـ ١١٩٦م

استمرت نزاعات الإخوة بعد وفاة قلج أرسلان الثاني، وفَقَدَ السلاجقة في ذلك الوقت دورهم الفاعل على المسرح السياسي. نازع كيخسرو كل من أخويه قطب الدين ملكشاه، وركن الدين سليمان شاه، ونجح الأول في الاستيلاء على قيصرية وقتل أخاه نور الدين محمود شاه[١]، إلَّا أنه مرض بعد قليل من الوقت وتوفي. وطمع الثاني بأملاك إخوته، فهاجم سيواس وآقسرا واستولى عليهما، وتابع زحفه نحو العاصمة قونية، فطرد أخاه كيخسرو الأول منها وتسلم الحكم، وذلك في عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)[٢]، ولقَّب نفسه بلقب «السلطان القاهر»[٣]، وبذلك يكون كيخسرو قد أنهى المرحلة الأولى من حكمه.

ركن الدين سليمان شاه بن قلج أرسلان: ٥٩٣ ـ ٦٠١هـ/ ١١٩٦ ـ ١٢٠٤م

محاولات كيخسرو الأول لاستعادة عرشه

لم يركن كيخسرو لضياع عرشه، لكنه افتقر إلى القوة الضرورية لاستعادته، لذلك قرَّر طلب المساعدة، وتحرَّك على محورين داخلي وخارجي.

ففيما يتعلَّق بالمحور الداخلي، فقد ذهب إلى البستان ليطلب المساعدة من أخيه مغيث الدين طغرل شاه الذي أبدى تفهماً لمشكلته، لكنه لم يقدِّم له أي مساعدة، وعرض عليه البقاء عنده ووضع أملاكه بتصرفه[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٣. (٢) ابن بيبي: ص ٧.

(٣) المصدر نفسه. خواند، أمير: جـ ٢ ص ٥٣٩. (٤) ابن بيبي: ص ٩.

توجَّه كيخسرو بعد فشله في البستان، إلى ملطية لطلب المساعدة من أخيه معز الدين قيصر شاه، إلَّا أنه صُدَّ أيضاً، وعرض عليه أخوه أن يطلب المساعدة من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأَيوبي صاحب حلب.

لا بد لنا في هذا المقام من أن نتساءل: لماذا كان هذا الإحجام من جانب الإخوة، هل هو ناتج عن ضعفهم أم أنه يعود إلى تقليد تركي قديم لم يرغبوا في الخروج عليه، وهو يقضي بتولي الابن الأكبر الحكم بعد وفاة الوالد؟ ويبدو أن السبب الثاني هو الأقرب إلى الصحة والواقع، نلاحظ ذلك من تاريخ السلاجقة في إيران والعراق حيث يرث الابن الأكبر العرش بعد وفاة الوالد، كما لا نستبعد السبب الأول بحكم الواقع السياسي للسلطنة القائم على التقسيم والتشرذم اللذين يؤديان إلى الضعف.

بعد فشله على المحور الداخلي، قرَّر كيخسرو طلب المساعدة من الخارج، وبدأ بالأرمن. فتوجَّه إلى أرمينية الصغرى ليطلب المساعدة من الملك ليون الثاني الكبير (٥٨٣ ـ ٦١٦هـ/ ١١٨٧ ـ ١٢١٩م). استقبله ليون الثاني بترحاب إلَّا أنه امتنع عن تقديم المساعدة له، لأنه كان في صراع مع بوهيموند الثالث للسيادة على أَنطاكية[١].

توجَّه كيخسرو بعد ذلك إلى حلب واجتمع بالملك الظاهر غازي، وطلب منه مساعدة عاجلة لاستعادة عرشه، لكن المباحثات التي دارت بينهما لم تؤد إلى أي نتيجة، مما دفع السلطان السلجوقي إلى مغادرة بلاد الشام[٢]. ويبدو أن النزاع الأيوبي الداخلي الذي كان قائماً آنذاك بين خلفاء صلاح الدين الأَيوبي هو السبب في عدم استجابة الملك الظاهر غازي لطلب المساعدة، حيث كانت العلاقة مع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى هي آخر اهتمامات الأَيوبيين.

قرَّر كيخسرو بعد عودته من بلاد الشام، أن يطلب المساعدة من الأراتقة، فذهب إلى آمد، فاستقبله حاكمها الملك الصالح، وكان صهره، وعرض مشكلته على أخته، فاقترحت عليه البقاء في آمد بانتظار عودة الأمور إلى نصابها، فرفض ذلك[٣].

لم يبق أمام كيخسرو، بعد أن أُغلقت كافة الأبواب في وجهه، إلَّا أن يذهب إلى القسطنطينية لطلب المساعدة من الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث

---

(١) Cahen: La Syrie du Nord: pp 582 - 583.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٦٧. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦٦.

(٣) ابن بيبي: ص ١٢.

أنجيلوس. فرحل إلى مدينة جانيت، ومنها ركب سفينة متوجهة إلى القسطنطينية. ويذكر ابن بيبي أن رياحاً شديدة هبَّت في البحر، دفعت مركبه إلى بلاد المغرب حيث نزل ضيفاً على أمير المؤمنين محمَّد بن عبد المؤمن زعيم الموحدين[1]، فاغتنم كيخسرو الأول هذه الفرصة وعرض قضيته على أمير المؤمنين، إلَّا أنه فشل في إقناعه بمد يد العون له، والراجح أن بُعد المسافة حال دون تقديم المساعدة[2].

غادر السلطان السلجوقي المخلوع بلاد المغرب إلى القسطنطينية، واستقبله الأمبراطور البيزنطي بترحاب، وقد سُرَّ بقدومه لطلب المساعدة، إذ رأى في ذلك فرصة ذهبية للتدخل في شؤون الأناضول، لكن الظروف السياسية الصعبة التي كان يمر بها[3] منعته من تقديم أي مساعدة فورية، وعرض على كيخسرو الأول الإقامة في إحدى الجزر مدة من الوقت تكون الأوضاع خلالها قد هدأت، ثم يساعده على الوجه الذي يراه مناسباً، ثم أكرمه بأن زوَّجه ابنة أحد كبار قادته وهو مانويل ماكروزوموس. ظلَّ كيخسرو في القسطنطينية حتى دخول اللاتين إليها في عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)، حيث غادرها إلى أحد الحصون القريبة من القسطنطينية، وعاش عند عمه حتى وفاة أخيه ركن الدين سليمان شاه[4].

إنجازات السلطان ركن الدين سليمان شاه

إعادة توحيد السلطنة

كانت أولى اهتمامات ركن الدين سليمان شاه، إعادة توحيد البلاد. فهاجم إخوته واحداً إثر واحد، واستولى على ممتلكاتهم. فانتزع نيكسار من ناصر الدين بركياروق شاه، وأماسية من نظام الدين أرغون شاه[5]، وملطية من معز الدين قيصر شاه وذلك في عام (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وفرَّ أخاه إلى الرها ملتجئاً عند عمه الملك العادل الأيوبي[6]. توجَّه السلطان السلجوقي بعد ذلك إلى أنقرة وحاصرها مدة ثلاثة

---

(١) ابن بيبي: ص ١٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) انظر فيما يتعلَّق بأوضاع الأمبراطورية البيزنطية آنذاك: كلاري، روبرت: فتح القسطنطينية على يد اللاتين. Vasiliev: vol II pp 447 - 448. رنسيمان: جـ ٣ ص ٢١٦ ـ ٢٢٢.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٢٣.

(٦) المصدر نفسه.

أعوام قبل أن تسقط في يده في عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م). وكان أخوه محيي الدين مسعود شاه قد اشترط عليه، مقابل تسليمه المدينة، أن يعوِّض عليه، فعوَّض عليه بحصن في أطراف السلطنة. وأثناء انتقال الأخ مع ابنيه إلى إقطاعه الجديد، أرسل ركن الدين سليمان شاه من قتلهم في الطريق. والجدير بالذكر أن السلطان عاش بعد هذه الحادثة خمسة أيام توفي بعدها دون أن يسمع خبر مقتل أخيه[١].

وهكذا سيطر ركن الدين سليمان على سلطنة السلاجقة وأضحى أقوى حاكم في آسيا الصغرى، واشتهر حتى أضحى محط أنظار الضعفاء، والمظلومين وأصحاب الحاجات.

الملك الأفضل علي يطلب مساعدة السلطان

كان صلاح الدين الأَيوبي قد وزَّع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم، إذ أن كلاً منهم يطمع في أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أَو يفوقه، بالإضافة إلى تزعُّم العائلة الأَيوبية. فاستقلَّ ابنه الأَفضل نور الدين علي بدمشق وبلاد الشام الوسطى، وحكم ابنه العزيز عثمان مصر، وكان من نصيب الظاهر غازي حلب وشمالي بلاد الشام، وكان الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر تحت حكم سيف الدين أبو بكر العادل، الأخ الأصغر لصلاح الدين الأَيوبي[٢].

وخلال النزاع الأسري، انتزع العادل من ابن أخيه الأَفضل علي، بعض المدن والحصون، وهي سروج، ورأس عين[٣]، وحملين باستثناء سميساط، كما انتزع منه أخوه الظاهر غازي صاحب حلب، قلعة النجم[٤]، بتحريض من عمه العادل، وذلك في عام (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م).

وحتى يجابه الموقف اتصل الأَفضل علي بركن الدين سليمان شاه، وبذل له الطاعة والولاء، وأن يكون في خدمته، ويخطب له في بلاده، ويضرب السكة باسمه،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٣. ابن الفرات: جـ ٥ قسم ١ ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٦٢٩ ـ ٦٣٦.

(٣) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر. الحموي: جـ ٣ ص ١٤.

(٤) قلعة النجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ربض عامر وعندها جسر يُعبر عليه وهي المعروفة بجسر منبج. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٣٩١.

فأجابه السلطان السلجوقي إلى ذلك، وأرسل إليه خلعة، لبسها الأفضل علي، وخطب له في سميساط في السنة التالية، وأضحى من جملة أتباعه. وبوفاة السلطان السلجوقي، توقفت العلاقة السلجوقية، الأيوبية عند هذا الحد[١].

البيزنطيون يطلبون مساعدة السلاجقة

توجَّهت الحملة الصليبية الرابعة في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) إلى القسطنطينية في ظل صراع أرثوذكسي ـ لاتيني، مشكّلة ظاهرة انحراف عن الهدف الأساسي للحروب الصليبية، واستطاعت الاستيلاء عليها في العام التالي، وأسَّست فيها إمارة لاتينية. ويشير ابن العبري إلى أن البيزنطيين طلبوا مساعدة من السلطان السلجوقي خلال هذا الصراع، إلَّا أنه لم يتمكَّن من تقديمها لهم[٢]. ويُذكر بأن البيزنطيين بعد خسارتهم القسطنطينية وخروجهم منها، أسَّسوا ثلاث إمارات متباعدة.

ففي أقصى الشرق، استولى حفيدا الأمبراطور أندرونيكوس كومنين، وهما ألكسيوس وداوود، على طرابزون ووطَّدا أقدامها على امتداد شواطىء البحر الأسود بمساعدة عمتهما الملكة تامار. وفي أقصى الغرب، استطاع ميخائيل، أحد أفراد أسرة أنجيلوس، أن يسيطر على أبيروس، وأقام أسرة بيزنطية. على أن أهم الإمارات الثلاث، وأشدها خطراً على السلاجقة، كانت الأمبراطورية التي أقامتها أنّا ابنة ألكسيوس الثالث وزوجها تيودور لاسكاريس، في نيقية، وقد أضحت فيما بعد حاضرة الأمبراطورية البيزنطية الشرعية[٣].

التنازع السلجوقي ـ الأرميني

كانت أرمينية الصغرى محط أطماع السلاجقة بوصفها جسراً للعبور إلى بلاد الشام، لذلك لم تتوقف الحروب بين الجانبين السلجوقي والأرميني إلَّا بقدر التقاط النفس.

ففي عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) غزا الملك الأرميني ليون الثاني الحدود السلجوقية مستغلاً فرصة قيام النزاعات الأسرية واحتل عدة حصون، فما كان من ركن الدين سليمان شاه إلَّا أن جهَّز جيشاً، وهاجم قيليقية، فبدَّد جهود ليون الثاني وطرده من الأراضي السلجوقية. ويبدو أن تراجع ليون الثاني أمام السلاجقة، له علاقة بالمدى الذي وصل فيه النزاع بينه وبين الصليبيين حول أنطاكية[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٩١. (٢) تاريخ الزمان: ص ٢٤١.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨. Gardner: Lascaris of Nicea p 53.

(٤) Cahen: p 601. Camb. Hist. of Islam: vol I p 245.

الاصطدام السلجوقي - الكرجي في الشمال -

وفاة ركن الدين سليمان شاه

نهض ركن الدين سليمان شاه للتصدِّي للكرجيين الذين كثرت غاراتهم بدءاً من عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) على الحدود الإسلامية، وهدَّدوا طريق التجارة مع الشرق بفعل غاراتهم المتلاحقة على أراضي الملك علاء الدين صاحب أرزن الروم. وكان الذي شجَّع الكرجيين على التمادي في غاراتهم، ضعف القوى الإسلامية في منطقة الشمال، بالإضافة إلى ظهور ملكة كرجية قوية قادت الجيوش بنفسها لحرب المسلمين، وعُدَّت من أشد أعدائهم خطورة، ألا وهي الملكة تامار التي خلفت والدها جورجي الثالث في عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)(١).

خرج السلطان السلجوقي من قونية على رأس جيش كثيف متوجهاً نحو الشمال، وانضم إليه بعض إخوته من الذين ما زالوا على قيد الحياة، منهم مغيث الدين طغرل شاه صاحب البستان، وصهره فخر الدين بهرام شاه صاحب أرزنجان(٢)، كما انضم إليه الملك علاء الدين صاحب أرزن الروم بعد تردد، ومن أجل ذلك قبض عليه السلطان السلجوقي واعتقله واستولى على إقطاعه(٣).

تقدمت الجيوش السلطانية نحو بلاد الكرج، وتوغلت في بلاد الأبخاز، فاستنفرت الملكة تامار قواتها لصدِّ الزحف الإسلامي، ودارت بين الجانبين عدة معارك في أماكن متفرقة، كانت سجالاً في بادىء الأمر، غير أن الكرجيين بقيادة كبجاك فاجأوا الجيش السلجوقي قرب ساريكاميتس وتغلبوا عليه، وتراجع السلاجقة مخلفين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى والأسرى. وعاد السلطان إلى أرزن الروم حيث استراح بعض الوقت قبل أن يعود إلى بلاده(٤).

لم يركن السلطان السلجوقي إلى الهزيمة التي ألمَّت بجيشه فعزم على إعادة الكرة، وجهَّز جيشاً آخر في عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) لإرساله إلى بلاد الكرج، إلَّا أن المنية وافته قبل أن يتمَّ مشروعه(٥).

---

(١) Allen: History of the Georgian People pp 103 - 108.

(٢) كان فخر الدين بهرام شاه متزوجاً من ابنة السلطان قلج أرسلان الثاني، وهي أخت السلطان ركن الدين سليمان شاه. منجم باشي: جـ٣ قسم ٣ ص ١٠٢.

(٣) ابن بيبي: ص ٢١. الآقسرائي، محمود بن محمد: مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ص ٣١.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٣.

(٥) المصدر نفسه.

غياث الدين كيخسرو بن قلج أَرسلان

كيخسرو الأَول (المرة الثانية): ٦٠١ ـ ٦٠٨هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢١٢م

تولي كيخسرو السلطة

بعد وفاة السلطان ركن الدين سليمان شاه، عيَّن أمراؤه ابنه عز الدين قلج أَرسلان سلطاناً على سلاجقة الروم وهو لم يبلغ الحلم بعد[١]، وساعدوه في إدارة البلاد، وفتحوا مدينة إسبارطة، وهي إحدى القلاع المهمة في الجنوب الغربي من البلاد[٢]، واعترفت الدول والإمارات المجاورة بالنظام الجديد، وتقرَّب الأمبراطور البيزنطي تيودور لاسكاريس من الحكام الجدد في قونية بفعل أن مصلحته تقضي بتأمين حدود بلاده مع السلاجقة حتى يتفرَّغ إلى تثبيت أقدامه في الأمبراطورية الفتية، بالإضافة إلى أنه أوجس خيفة من هجوم محتمل قد يقوم به الصليبيون على ما تبقَّى من الممتلكات البيزنطية بعد أن استولوا على القسطنطينية[٣].

لم يهنأ الحكام الجدد طويلاً بحلاوة السلطة، إذ لم يلبث أن نشب نزاع داخلي بين الأمراء، وخرج التركمان القاطنون في المناطق الحدودية على السلطة المركزية في قونية، ونادوا بكيخسرو سلطاناً على البلاد، وأرسلوا زكريا الحاجب إلى بلاد البيزنطيين لاستدعائه، وفعلاً اجتمع به وأخبره بالتطورات السياسية وسلَّمه رسائل زعماء الثورة[٤].

راودت كيخسرو الرغبة في استعادة السلطة التي فقدها، فاستجاب لنداء أعوانه، وخرج من بلاد البيزنطيين قاصداً قونية. ويبدو أن خروجه هذا تمَّ بدون علم الأمبراطور البيزنطي الذي كانت تربطه روابط متينة بالحكم في قونية، لذلك اعترض طريقه عند نيقية. حاول كيخسرو التخلص من المعارضة البيزنطية، فأجرى مباحثات مع الأمبراطور البيزنطي تمخَّضت عن اتفاق يقضي بالسماح لكيخسرو بمتابعة طريقه إلى بلاده مقابل أن يسلم، بعد اعتلائه العرش، كل ما ضمَّه السلاجقة من الأَراضي البيزنطية حتى حدود قونية مثل خوناس ولاذيق. ومن أجل حسن تنفيذ هذا الاتفاق، تقرَّر بأن يُبقي كيخسرو ولديه عز الدين كيكاوس وعلاء الدين كيقباد، رهينة لدى

---

(١) كان عمر قلج أَرسلان آنذاك ثلاثة أعوام. ابن بيبي: ص ٢٢.

(٢) ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٢٦٥.

(٣) ابن بيبي: ص ٢٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٥. ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٢٦٧.

الأمبراطور، مع زكريا الحاجب[١]، إلَّا أن الأميرين استطاعا الهرب مع زكريا الحاجب والتحقا بوالدهما الذي كان يجري مباحثات مع القبائل التركمانية لمساعدته في استعادة عرشه[٢]. وبذلك سقط الاتفاق المبرم مع الأمبراطور البيزنطي، وتوقف السلاجقة عن تسليم أي مدينة.

نجح كيخسرو في أن يجمع حوله قبائل التركمان المعارضة، وزحف بهم نحو العاصمة قونية، ولما وصل إليها أقفل السكان أبوابها في وجهه بحجة الوفاء لقلج أَرسلان، فما كان منه إلَّا أن حاصرها، وأمر بقطع أشجار الحدائق، وإشعال النيران فيها، وتخريب القصور المحيطة بها[٣].

ضايقت هذه الأعمال، قلج أَرسلان، وأدرك أن لا شيء يمكن أن يقف في طريق عمه، لذلك عرض عليه الصلح وتسليمه المدينة شرط أن يعامله بالحسنى ويعوِّض عليه. وافق كيخسرو على ذلك وأقطعه توقات[٤].

دخل كيخسرو إلى العاصمة وجلس على العرش للمرة الثانية، فنظَّم أمور المدينة ووزَّع الإقطاعات. فمنح ابنه كيكاوس مدينة ملطية، وأعطى ابنه الآخر كيقباد أملاك الدانشمنديين في سيواس، وأعلم أمراء الأطراف بالتغييرات الجديدة[٥]. وتلقَّى التهاني من ملوك وأمراء الدول المجاورة، بالإضافة إلى إخوته الذين ما زالوا على قيد الحياة.

المشكلات التي واجهت كيخسرو في مستهل حياته السياسية

واجهت كيخسرو في مستهل حياته السياسية عدة مشكلات تطلَّبت منه إثبات وجوده كحاكم دولة كبيرة من خلال إيجاد حلول لها.

تمثَّلت المشكلة الأولى بنفور سكان العاصمة منه بسبب قتله القاضي الترمذي، المحبوب من عامة الشعب، لأنه أصدر فتوى بعدم جواز طاعته، لموالاته النصارى في ديارهم، وارتكابه الموبقات التي حرَّمتها الشريعة، وقد أثَّرت هذه الحادثة في نفسيته واضطر إلى إعلان ندمه وإرضاء عائلة القاضي[٦].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٨. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٦٧.

(٤) المصدران نفساهما.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٢٦٨.

(٦) ابن بيبي: ص ٣٢.

تمثَّلت المشكلة الثانية بتحديد العلاقة مع الأيوبيين في شمالي بلاد الشام، بحكم تجاور الدولتين السلجوقية والأيوبية. ففي ظل الصراعات الأرتقية الداخلية، تعرَّض نظام الدين أبو بكر الأرتقي، صاحب حصن زياد، لهجوم من قِبل ابن عمه ناصر الدين محمود صاحب آمد، وكان هذا الأخير قد طمع بحصن زياد إثر وفاة حليفه السلطان ركن الدين سليمان شاه. وكان يمكن لهذه القضية أن تبقى محصورة بين الأميرين لو لم يستنجد كل واحد منهما بطرف خارجي مما أعطاها بُعداً إقليمياً تمثَّل بالصراع القديم بين السلاجقة والأيوبيين، فاستنجد نظام الدين أبو بكر بكيخسرو، في حين التجأ ناصر الدين محمود إلى العادل الأيوبي طالباً مساعدته، بناء على اتفاق سابق[1].

أرسل العادل الأيوبي ابنه الأشرف موسى على رأس قوة عسكرية لمساعدة صاحب آمد، وانضَّمت إليه قوات من سنجار وجزيرة ابن عمر[2] والموصل، وزحف الحلفاء إلى حصن زياد، واستولوا على ربضه في حين تحصَّن نظام الدين أبو بكر في القلعة بانتظار وصول المساعدة السلجوقية.

ودخل الأفضل علي الأيوبي صاحب سميساط في هذه القضية، إلى جانب صاحب حصن زياد، إذ كلَّفه كيخسرو بمساعدة نظام الدين أبو بكر، وأرسل معه ستة آلاف جندي كطليعة. وعندما وصلت القوة السلجوقية إلى ملطية، انسحب الأشرف موسى وحلفاؤه من أمام الحصن، وعسكروا في صحراء قريبة، ثم تقدَّموا نحو بحيرة سهنين التي تضم حصنين أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب حصن زياد، وذلك خشية من أن يقعوا بين فكي الكماشة، بالإضافة إلى حماية ظهورهم في حال نشوب القتال مع القوة السلجوقية.

ووصل الجيش السلجوقي الرئيسي، في هذا الوقت، إلى حصن زياد، فتردَّدت الرسل بين الجانبين لحل القضية بطريقة سلمية. فاشترط السلاجقة لسحب قواتهم، إعادة الحصن المغتصب إلى صاحبه، فرفض ناصر الدين محمود ذلك. ولما طالت المفاوضات دون أن تسفر عن أي نتيجة إيجابية، انفصل العسكران، وعاد كل طرف

---

(١) فقد حدث أن ساعد صاحب آمد الأشرف موسى بن العادل في قتاله لنور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، واشترط عليه مقابل ذلك أن يساعده للاستيلاء على حصن زياد.

(٢) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات. الحموي: جـ ٢ ص ١٣٨.

إلى بلاده دون سبب ظاهر، وبقي حصن زياد بيد ناصر الدين محمود صاحب آمد[1].

وواجهت كيخسرو مشكلة أخرى ذات أبعاد تجارية. إذ من المعروف أن الأمن قد استتبَّ في كافة أنحاء الأَناضول منذ عهد قلج أَرسلان الثاني، ونشطت في تركيا الحركة التجارية، لكن استيلاء اللاتين على القسطنطينية، هدَّد الأمن على الطريق المؤدي إلى موانىء البحرين الأسود والأبيض المتوسط، كما أن ظهور أمبراطورية نيقية البيزنطية أعاق التقدم السلجوقي باتجاه الغرب والوصول إلى ساحل بحر إيجة، وأغلق الطرق المؤدية إلى موانىء البحر الأسود مثل سامسون وسينوب، بوجه التجارة السلجوقية.

وبانقطاع الطرق البرية والبحرية أمام حركة التجارة السلجوقية، تأثَّر التجار السلاجقة، وتضرَّر الناس، والجدير بالذكر أن الأَناضول كان آنذاك مركزاً عالمياً للتجارة. فكان التجار يأتون إليه من بلاد الروس والقبجاق حيث يلتقون مع التجار القادمين من بلاد الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها، ويجتمعون في سيواس المركز التجاري الشهير[2].

اضطر كيخسرو كي يفتح الطرق التجارية، إلى القيام بهجوم على مدينة طرابزون للضغط على أمبراطورية نيقية. ولما كانت مصلحة الأمبراطور البيزنطي تيودور لاسكاريس تتوافق مع مصلحة السلطان السلجوقي في مواجهة اللاتين في القسطنطينية، فقد تمَّ الاتفاق بين الزعيمين على فتح الطرق والمعابر بوجه التجارة السلجوقية إلى موانىء البحر الأسود[3].

التوسع السلجوقي في الجنوب ـ فتح أَنطالية

ارتبط فتح ميناء أَنطالية الشهير الواقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بالمشكلة التجارية. ذلك أن كيخسرو أراد تأمين منفذ للسلاجقة على البحر الأبيض المتوسط من أجل تنشيط الحركة التجارية التي كانت آنذاك آخذة بالنمو، كما أراد في الوقت نفسه، إرضاء حلفائه البيزنطيين في مضايقة الصليبيين في القسطنطينية الذين كانوا يسيطرون على هذا الميناء الهام.

---

(١) ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٢٦٨. ابن العبري: ص ٢٤٤.

(٢) ابن الأَثير: المصدر نفسه: ص ٢٨٤.

(٣) Camb. Hist. of Islam: vol I p 245.

والواقع أن كافة السلاطين السلاجقة قبل كيخسرو، كانت تراودهم الرغبة في فتح أَنطالية لقطع الطريق البري على البيزنطيين والصليبيين معاً من الاتصال ببلاد الشام، لكن جهودهم في ذلك ذهبت أدراج الرياح، لأن الأباطرة البيزنطيين على مر العهود، كانوا يحكمون قبضتهم على هذا الميناء الذي هو متنفسهم الوحيد للوصول إلى بلاد الشام عن طريق البر.

استغل كيخسرو فرصة تعرُّض بعض التجار المسلمين للمضايقة من جانب الصليبيين، فقام بحملة عسكرية لفتح هذا الثغر البحري، في عام (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م)، ولما وصل إلى أَنطالية، ضرب عليها حصاراً مركَّزاً وضربها بالمجانيق، واستمر الحصار مدة شهرين دون أن ينال منها(١).

استنجدت حامية المدينة بالصليبيين في قبرص، فأمدوهم بسفينة مشحونة بالعساكر، فرأى كيخسرو أن من الأفضل عدم إنهاك كامل الجيش في الحصار، فرحل عنها مع قسم منه وترك القسم الآخر بالقرب من الجبال التي تفصلها عن الحدود السلجوقية، وأمره بالاستمرار في حصارها وقطع الميرة عنها(٢).

استمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق السكان واشتد الأمر عليهم، فطلبوا من أفراد الحامية الصليبية أن يخرجوا لقتال المسلمين وفك الحصار عن المدينة، فظن هؤلاء أن السكان يريدون التخلص منهم، فوقع الخلاف بينهما. عند ذلك طلب السكان من كيخسرو أن يساعدهم في التخلص من الصليبيين مقابل تسليمه المدينة، فعاد أدراجه وحاصرها، وضربها بالمجانيق. وتمكّنت ثلّة من الجنود السلاجقة من تسلق السور ودخلت إلى المدينة وفتحت أبوابها لأفراد الجيش الذين دخلوا إليها وسيطروا عليها(٣).

بعد السيطرة التامة على المدينة، رتَّب كيخسرو شؤونها الداخلية، وأمر بإعادة ترميمها، وعيَّن غلامه مبارز الدين أرتقش حاكماً عليها، كما عيَّن عليها قاضياً وخطيباً وإماماً ومؤذناً، وبنى فيها مسجداً ثم قفل عائداً إلى قونية(٤).

وبفتح أَنطالية، فصل السلاجقة بيزنطية عن قيليقية، كما أمَّن كيخسرو الطرق التجارية. وبفضل تشريعاته التجارية التي سنَّها، اعترف العالم الغربي به كحاكم لأكبر

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٨٨. ابن بيبي: ص ٣٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٨٨. ابن بيبي: ص ٣٤.

(٣) ابن بيبي: المصدر نفسه: ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٥. Camb. Hist. of Islam: vol I p 245.

دولة تجارية آنذاك، وعقدت معه المدن الإيطالية التجارية، المعاهدات ودفعوا له الأتاوات مقابل استعمالهم لأَراضيه خلال رحلاتهم التجارية، وكانت البندقية السبَّاقة في هذا المضمار[١].

التمدد السلجوقي باتجاه أرمينية الصغرى

قرَّر كيخسرو في عام (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) توسيع الشريط الساحلي انطلاقاً من أَنطالية، فكان الأرمن عقبة في سبيل ذلك، فراح يترقَّب الفرصة المناسبة للتدخل في شؤون أرمينية الصغرى. وجاءت هذه الفرصة عندما نشب النزاع بين ليون الثاني ملك أرمينية الصغرى وبوهيموند الرابع صاحب أَنطاكية حول وراثة الإمارة الأَنطاكية[٢]، وقد فجَّرت هذه المشكلة الأوضاع في شمالي بلاد الشام. والجدير بالذكر أن بوهيموند الثالث كان له ولدان أكبرهما ريموند الذي تزوج من الأميرة الأرمينية أليكس في عام (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م)، وهي ابنة روبين شقيق ليون الثاني[٣]. وحدث أن توفي ريموند في حياة أبيه بعد أن أنجب منها ولداً هو ريموند روبين. أما الولد الثاني فهو بوهيموند الرابع الذي ورث إمارة طرابلس في عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)[٤]. وبعد وفاة بوهيموند الثالث في عام (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)، كان ريموند روبين هو الوريث الشرعي له، لكن الصليبيين في أَنطاكية نفروا من انتقال الحكم إلى أمير أمه أرمينية ويتمتع بعطف ليون الثاني، فاستدعوا بوهيموند الرابع، عم ريموند روبين، وسلَّموه مقاليد الحكم. كان من الطبيعي أن يساند ليون الثاني ريموند روبين، وقد هدف إلى الاستيلاء على أَنطاكية، وطمع في بسط سيطرته على وادي نهر العاصي. وهكذا قام صراع بين الطرفين[٥].

وعقَّد هذه القضية ما حصل من تحالفات بين ملوك وأمراء شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى، إذ تحرَّك كل واحد ليناصر الجانب الذي يتوافق مع مصلحته. فتحالف بوهيموند الرابع مع الصليبيين والبيزنطيين الأرثوذكس أعداء الأرمن الألداء، فضلاً عن الداوية الذين كانوا في نزاع دائم مع أرمينية الصغرى حول ملكية حصن بغراس وغيره من الحصون الواقعة قرب الحدود بين بلاد الشام وأرمينية

(١) Camb. Hist. of Islam: vol I p 245.. Cahen: La Syrie du Nord p 626.

(٢) انظر فيما يتعلّق بحرب الوراثة الأنطاكية: Cahen: pp 596 - 635.

(٣) ابن العبري: ص ٢٥٢.

(٤) Grousset: vol II p 264.

(٥) Stevenson: The crusades in the East p 299.

الصغرى[1]. ودخل الظاهر غازي صاحب حلب في هذا التحالف بعد أن استنجد به بوهيموند الرابع لإنقاذ أَنطاكية من السيطرة الأرمينية، وفي نيته حماية نفسه من أطماع عمه العادل وضمُّ المدينة إلى الأملاك الأَيوبية، بالإضافة إلى أنه أراد الانتقام من ليون الثاني الذي هاجم قبل ذلك، ولاية حلب، كما استنجد بوهيموند الرابع بكيخسرو[2].

استغل السلطان السلجوقي هذه القضية، وتورَّط في النزاع القائم لضرب الأرمن والتوسع في قيليقية. أما ليون الثاني فقد تحالف مع الأسبتارية. هذا وقد مرَّت هذه القضية بثلاثة أدوار بين عامي (٥٩٧ ـ ٦١٣هـ/ ١٢٠١ ـ ١٢١٦م)، تخلَّلها حروب كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها، لكن الذي يهمنا هو الدور الذي قام به كيخسرو فيها.

والواقع أن السلطان السلجوقي تدخَّل في الدور الثاني لهذه القضية الذي ابتدأ في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) وانتهى في عام (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)، عندما غزا أرمينية الصغرى ووصل إلى مرعش، فأرسل إليه الظاهر غازي قوة عسكرية لمساندته بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر وعز الدين أيبك فطيس، ثم دخلت القوات المتحالفة أرمينية الصغرى وفتحت عدة حصون منها تبرنوس قرب مرعش، وخرَّبت أخرى[3].

نتيجة تعرُّضه للهجوم، استنجد ليون الثاني بالعادل الأَيوبي، وكان في نزاع مع ابن أخيه الظاهر غازي، فاضطر الحليفان عندئذ إلى إبرام الصلح مع ليون الثاني الذي تعهَّد:

- برد حصن بغراس إلى الداوية.
- لا يتعرض لأَنطاكية.
- يعيد لكيخسرو المال الذي وضعه عنده في حياة أخيه ركن الدين سليمان شاه[4].

لقد شغلت حرب الوراثة الأَنطاكية ليون الثاني عن التوسع في بلاد الأَناضول، إِلَّا أن ذلك لم يمنعه من التحالف مع تيودور لاسكاريس الذي بدأ يهاجم الأملاك

---

(١) Grousset: vol III p 252.

(٢) ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٢٨٢. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٥.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه ص ١٨٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٩.

(٤) ابن العديم: المصدر نفسه.

السلجوقية بسبب فتح كيخسرو لدنزلي والوادي الأعلى لنهر الميآندر، بالإضافة إلى تحالفه مع الأمبراطور البيزنطي السابق ألكسيوس الثالث المطالب بعرش بيزنطية(١).

الاصطدام بالبيزنطيين ـ وفاة كيخسرو

أقلقت التشريعات التجارية التي أحدثها كيخسرو وتمخَّضت عن إبرام معاهدات تجارية مع المدن الإيطالية، تيودور لاسكاريس أمبراطور نيقية، ففسدت العلاقات بينهما. ومما زاد هذه العلاقات تأزماً، رفض الأمبراطور البيزنطي طلب كيخسرو بتسليم الحكم إلى عمه الأمبراطور البيزنطي السابق ألكسيوس الثالث الذي كان يعيش في المنفى، ولجأ الآن إلى السلطان السلجوقي(٢).

والواقع أن كيخسرو لم ينس المعاملة الطيبة التي عامله بها ألكسيوس الثالث عندما التجأ إليه هرباً من أخيه ركن الدين سليمان شاه، وهو عازم الآن على معاملته بالمثل، فآواه ووعده بالمساعدة لاسترداد عرشه بوصفه الأمبراطور البيزنطي الشرعي. وراودت السلطان السلجوقي في الوقت نفسه، رغبة في التوسع باتجاه نيقية التي كانت في الماضي عاصمة السلطنة السلجوقية(٣).

شجَّع التحالف الذي قام بين تيودور لاسكاريس وليون الثاني، السلطان السلجوقي حيث عدَّه موجه ضده، فوجَّه إنذاراً إلى الأمبراطور البيزنطي يُخيِّره بين التنازل عن العرش لصالح ألكسيوس الثالث أو الحرب(٤). ويذكر ابن بيبي أن كيخسرو تذرَّع بخصومة قديمة، وقرَّر أن يحارب هذه الدولة الجديدة الواقعة على حدوده الغربية، وكان الدافع لذلك هو أن تيودور لاسكاريس توقف منذ أن اعتلى العرش البيزنطي عن إرسال الأتاوات، وتلكأ في تنفيذ الأوامر، فقرَّر مهاجمته حتى لا يؤدي هذا الإهمال إلى ما هو أكبر(٥).

وصلت حالة العداء بين الجانبين إلى حافة الحرب بعد أن رفض الأمبراطور البيزنطي الإنذار السلجوقي. وكان أن جهَّز كيخسرو جيشاً كثيفاً، وقاده إلى الوادي الأعلى لنهر الميآندر، ففتح دنيزلي، وتابع زحفه حتى وصل إلى حدود فيلادلفيا.

---

(١) Camb. Med. Hist: vol IV p 484.

(٢) Gardner: The Lascaris of Nicea. p 64.

(٣) Camb. Med. Hist: vol IV p 484.

(٤) Ibid. Vasiliev: vol II p 515. Gardner: p 82.

(٥) الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٣٦.

وخرج الأمبراطور البيزنطي، من جهته، من نيقية على رأس جيش كثيف مؤلف من المرتزقة من البلغاريين والمجريين والصليبيين[1]، بهدف التصدي للسلاجقة ووقف زحفهم باتجاه الأراضي البيزنطية.

والتقى الجيشان السلجوقي والبيزنطي عند حدود فيلادلفيا، وجرت بينهما رحى معركة ضارية، استطاع كيخسرو في إحدى مراحلها من شق طريق له ووصل إلى قلب الجيش البيزنطي، ومقر الأمبراطور الذي سقط على الأرض من جراء ضغط العساكر السلجوقية، ولما همَّ الجنود بقتله منعهم السلطان، ثم ساعده على النهوض وأركبه حصانه وسمح له بالرحيل[2]. وعندما رأى الجنود البيزنطيون أمبراطورهم ملقى على الأرض ظنوا أنه أصيب، فتفرَّقت صفوفم وفروا من أرض المعركة، ولاح النصر للسلطان.

وشُغِل الجنود السلاجقة في هذا الوقت بطلب الغنيمة، ونسوا واجبهم القتالي، كما فقدوا حذرهم، وتوقفوا عن مطاردة العدو، عندئذ استغل البيزنطيون هذه الفرصة، فأعادوا تجميع صفوفهم وكروا على القوات السلجوقية، فانقلب الموقف من النصر إلى الهزيمة، وظهر فارس بيزنطي من قلب الجيش وطعن السلطان بالرمح طعنة قاتلة، فتضعضع الجيش السلجوقي ودبَّ الذعر في صفوفه، واختل نظامه، وتعرَّض أفراده لضغط متزايد من قوات العدو، حتى انتهى القتال بهزيمتهم، فقتل عدد كبير منهم وأسر عدد آخر، وكان ألكسيوس الثالث من بين الأسرى[3].

قاد تيودور لاسكاريس جيشه بعد انتهاء المعركة إلى الشمال باتجاه البحر الأسود دون أن يستثمر انتصاره. لم ينتج عن المعركة أي تغيير في حدود الدولتين، ولكنها أحيت ماضياً عسكرياً مجيداً وثبَّتت أقدام أمبراطورية نيقية الجديدة، وملأت قلوب البيزنطيين بالغبطة والنشاط، وجعلتهم يرون في نيقية مركزاً جديداً لتجمعهم وتوحيد صفوفهم[4].

---

(١) Rice: p 68.

(٢) Gardner: pp 82 - 83.

(٣) ابن بيبي: ص ٣٦ ـ ٣٨. Vasiliev: vol II p 515. Gardner: p 83.

(٤) Vasiliev: Ibid.

الفصل التاسع

عز الدين كيكاوس بن كيخسرو
كيكاوس الأوَل

٦٠٨ ـ ٦١٦هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٩م

التنازع الأسري في بلاد الروم

اجتمع كبار أمراء السلطنة بعد مقتل كيخسرو الأوَل للتداول في قضية خلافته، واختاروا ابنه الأكبر ركن الدين كيكاوس سلطاناً على سلاجقة الروم. فجلس على العرش وخلع على خاصته ووزع الإقطاعات على أتباعه، ومن ثمَّ قرَّر التوجه من مقره في ملطية نحو العاصمة قونية. ولما وصل إلى قيصرية علم بأن أخاه علاء الدين كيقباد قد جمع أتباعه، وتوجَّه نحو قونية للاستيلاء على السلطة، فتوقف عندئذ الركب السلطاني في قيصرية بانتظار التطورات[١].

والواقع أنه عندما علم كيقباد بمقتل والده اتصل بعمه مغيث الدين طغرل شاه، صاحب أرزن الروم، وكانت تربطهما علاقة جيدة، وتباحثا بشأن ملء مركز السلطنة، واتفقا على أن يخلف كيقباد أباه، وتكوين حلف مناهض لكيكاوس[٢].

باشر كيقباد اتصالاته بشأن تكوين الحلف المشار إليه، فأرسل إلى الملوك والأمراء المجاورين يستميلهم ويرغِّبهم في الدخول فيه. فكتب إلى ليون الثاني ملك أرمينية الصغرى، والجدير بالذكر أن ليون الثاني هذا كان ينتهز كل فرصة تتاح له ليتوسع على حساب السلاجقة، فلبَّى رغبة كيقباد لقاء كمية من المال[٣].

واستقطب كيقباد الأمبراطور البيزنطي تيودور لاسكاريس مقابل منحه قيصرية،

(١) ابن بيبي: ص ٣٩. الآقسرائي: ص ٣٣. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٣.
(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٤٠.
(٣) منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٣.

كما استمال ظهير الدين بروناه، أحد كبار الأمراء المقربين من كيكاوس[١].

اتفق الحلفاء على مهاجمة كيكاوس كل من حدود بلاده، في الوقت نفسه، للضغط عليه حتى إقصائه عن العرش. فهاجم ليون الثاني، بمساعدة الأسبتارية المناطق السلجوقية المجاورة لبلاده؛ واستولى على هرقلة ولارندا وهدَّد قيصرية[٢]. واستولى تيودور لاسكاريس على المنطقة الجنوبية الشرقية لشاطىء البحر الأسود، وأعاد الصليبيون سيطرتهم على أنطالية في الجنوب، وطردوا حاكمها السلجوقي مبارز الدين أرتقش[٣]. وهاجم طغرل شاه سيواس في حين هاجم كيقباد أخاه في قيصرية[٤].

وهكذا تعرَّض كيكاوس لمحاولة إقصائه عن السلطة، فهبَّ ليدافع عما عدَّه حقاً شرعياً له. فتصدَّى لعمه مغيث الدين طغرل شاه، واستنجد بالأشرف موسى الأيوبي صاحب الجزيرة وخلاط، فأرسل إليه قوة عسكرية، فخشي عمه مغبة ذلك، وفك الحصار عن سيواس وعاد إلى أرزن الروم[٥].

ارتدَّ كيكاوس إلى قيصرية التي تعرَّضت للحصار من قبل كيقباد، ويبدو أن الحصار كان مركَّزاً مما ضايق السكان الذين شعروا بالحاجة بعد أن غلت الأسعار، كما دبَّ اليأس والملل إلى نفس السلطان بعد أن طال أمد الحصار وانقلب بعض أعيانه عليه، عندئذ عقد اجتماعاً مع أعيانه للتشاور. ناقش المجتمعون عدة اقتراحات للخروج من المأزق، منها:

- الخروج من المدينة بالقوة والزحف نحو العاصمة قونية، والاستيلاء عليها، مع الاستعانة بتركمان الحدود الذين سيشكِّلون قوة ضغط خارجية.
- العمل على تفريق الحلفاء وفك تحالفهم، فيسهل عندئذ القضاء عليهم[٦].

واعتُمد الاقتراح الثاني.

كان الأمير جلال الدين قيصر حاكم قيصرية، صاحب الاقتراح المعتمد، فكلَّفه كيكاوس بتنفيذه، فبدأ بليون الثاني الأرميني، فعرض عليه الانسحاب من الحلف مقابل:

---

(١) ابن بيبي: ص ٤٠. Ency. of Islam: vol II p 636.

(٢) Tournebize: Histoire de L'Armenie p 190.

(٣) ابن بيبي: ص ٥١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢١٧.

(٦) ابن بيبي: ص ٤١. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٣.

- كمية من المال.
- إمداده باثني عشر ألف مد من القمح إذا استقر الحكم لكيكاوس.
- التعهد بعدم غزو السلطان لبلاده، ما دام هو لا يتعرض للأراضي السلجوقية.

قَبِل ليون الثاني العرض السلطاني وانسحب عائداً إلى بلاده(١).

وخرج مغيث الدين طغرل شاه من التحالف، بعد انسحاب الأرمن؛ إذ شكَّ في قدرة كيقباد على المقاومة، كما خشي من انحياز أتباعه وانضمامهم إلى السلطان، وخاف من تعرُّضه لهجوم من قِبل إخوته، فغادر المنطقة عائداً إلى بلاده(٢).

أدرك كيقباد عندئذ، أنه لم تبق له قدرة على مواجهة أخيه، فانسحب مع قواته إلى أنقرة وامتنع بها(٣).

نتيجة لتفكك الحلف الذي شكَّله كيقباد، زال الخطر عن كيكاوس، فتوجَّه إلى آقسرا ثم إلى قونية، وجلس على عرش السلاجقة، واعترف به الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) وأرسل إليه خلعة الإمارة(٤)، وكافأ السلطان حاكم قيصرية، فعيَّنه حاجباً في القصر السلطاني(٥).

ويبدو أن كيقباد لم يركن إلى الهدوء، واستمر يناوىء السلطان، مما دفع هذا الأخير إلى القيام بحملة عسكرية ضد أخيه في أنقرة، وحاصره فيها، واضطره إلى الاستسلام، فسلَّمه المدينة مقابل الأمان له ولأعوانه، ونفاه السلطان إلى قلعة مسارا، وحلق لحى ورؤوس أمرائه امتهاناً لهم، ثم توجَّه إلى أرزن الروم وانتزعها من عمه مغيث الدين طغرل شاه وقتله(٥).

إنجازات كيكاوس الخارجية

إعادة فتح أنطالية

التفت كيكاوس بعد استتباب الوضع الداخلي إلى الخارج، وقرَّر التوسع على حساب جيرانه والارتقاء بالسلطنة إلى مصاف الدول الكبرى في الشرق الإسلامي. فبدأ بإعادة فتح أنطالية، الميناء الشهير والمهم على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى على البحر الأبيض المتوسط.

---

(١) ابن بيبي: ص ٤٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢١٧.
(٤) ابن بيبي: ص ٤٤.
(٥) منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٤.

انطلق السلطان نحو أَنطالية على رأس جيش كثيف في عام (٦١١هـ/ ١٢١٤م)، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها. استنجد السكان بالصليبيين في قبرص فأمدوهم بسفينة مشحونة بالعساكر مما رفع معنوياتهم على الصمود والقتال[١]. ونفَّذ كيكاوس خطة عسكرية ذكية كفلت له النصر واستعادة المدينة. فقسَّم قواته إلى أربع مجموعات اختصت كل مجموعة بعمل معين. فكانت مهمة المجموعة الأولى التغطية على عمل المجموعات الأخرى من خلال إطلاق السهام بكثافة لإرباك العدو وتعطيله عن عمله برمي السهام. ومهمة المجموعة الثانية الزحف باتجاه الأسوار ووضع السلالم عليها. ومهمة المجموعة الثالثة تسلق الأسوار والتسلل إلى داخل المدينة وفتح أبوابها أمام المجموعة الرابعة التي شكَّلت القوة الرئيسية الضاربة.

وهكذا دخل الجيش السلجوقي إلى أَنطالية بعد معركة داخل أسوارها، واستعادها بعد أن تغلَّب على المقاومة. فأجرى السلطان إحصاء للسكان لتحديد مقدار الضريبة، وأمر بترميم ما تهدَّم من الأسوار، وأعاد مبارز الدين أرتقش إلى منصبه كحاكم للمدينة، ثم عاد إلى قونية[٢].

فتح سينوب

تكمن أهمية سينوب في أنها منفذ بحري للتجارة السلجوقية على البحر الأسود. وقد ذكر ابن بيبي تفاصيل وافية حول ضمِّ هذه المدينة، في حين اكتفى غيره من المؤرخين بذكرها عرضاً[٣]. ففي عام (٦١١هـ/ ١٢١٤م) زار كيكاوس مدينة سيواس، وعلم، وهو فيها، بأن كير ألكس كومنين حاكم سينوب وطرابزون أغار على المناطق الحدودية للسلطنة، وخرَّب بعض الحصون، فغضب، إلَّا أنه استغل هذه الحادثة للتوسع نحو الشمال لتأمين مرفأ بحري للتجارة السلجوقية، فجهَّز جيشاً جراراً زحف به نحو المدينة. وعلم أثناء الزحف أن حاكمها خرج للصيد مع قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل، فترصَّده، والتقى به في مكان صيده وتغلَّب عليه وأسره[٤].

وضرب الجيش السلجوقي بعد ذلك الحصار على المدينة، التي فقدت

---

(١) ابن بيبي: ص ٥١. (٢) المصدر نفسه: ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٥٤ ـ ٥٨. ابن العبري: ص ٢٥١. Cahen: pp 626 - 627 .

(٤) ابن بيبي: ص ٥٥.

حاكمها، من ناحية البر، وطلب كيكاوس من كير ألكس بأن يرسل إلى الحامية والسكان لإقناعهم بالاستسلام. استجاب حاكم سينوب للأمر السلطاني، لكن السكان رفضوا نصيحة ملكهم وقالوا: «إذا كان الملك قد أُسر فعنده أبناء لائقون بالملك وسننصِّب أحدهم ولن نستسلم للمسلمين»[١].

ورأى السلطان أن يمنحهم فرصة أخرى، فأرسل إليهم مبعوثاً ليقنعهم بضرورة الاستسلام، فلم يرضخوا. عندئذ أمر بتقييد كير ألكس وطيف به حول أسوار المدينة بحيث يراه السكان وهو يتعذَّب، وخيَّرهم بين الاستسلام أو قتل ملكهم. وراح هذا الأخير يستغيث بالسكان لكن دون جدوى[٢]. وعُقد في المدينة، في اليوم التالي مجلس للتشاور في موضوع الاستسلام، وتقرَّر قبول الخيار الأول مقابل إعادة ملكهم إلى منصبه، والعفو عنهم[٣].

وافق السلطان على مبدأ الاستسلام، ودخل إلى المدينة، وفرض على سكانها جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار، وخمسمائة رأس خيل، وألفا رأس بقر وعشرة آلاف رأس غنم، وخمسون حملاً من أنواع التحف، وأن يمدَّ كير ألكس الجيش السلطاني بالعساكر كلما طُلِبَ منه ذلك[٤].

وحوَّل كيكاوس كنيسة المدينة إلى مسجد، وعيَّن عليها قاضياً وخطيباً ومؤذناً وقائداً للحامية التي تركها فيها للمحافظة على أمن الشاطىء، ثم عاد إلى سيواس[٥].

وهكذا استطاع السلطان كسب منفذ بحري على البحر الأسود، ففتحت بذلك دولة السلاجقة أبوابها على التجارة العالمية، وأجرى مباحثات تجارية مع المدن الإيطالية التجارية لتجديد المعاهدات السابقة[٦].

وأرسل كيكاوس مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد يخبره بما فتح الله عليه، وحمل إليه الهدايا، وطلب منه أن يُرسل له لباس الفتوة[٧].

التوسع السلجوقي في أرمينية الصغرى

ظل المسلمون والبيزنطيون في آسيا الصغرى يتطلعون إلى منطقة قيليقية

---

(١) ابن بيبي: ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٥) المصدر نفسه: ص ٥٨.

(٦) Camb. Hist of Byzantine Empire vol IV prt I p 746.

(٧) كان رسول السلطان إلى الخليفة، الشيخ مجد الدين إسحاق. ابن بيبي ص ٥٩.

لضمِّها. وقد حقَّق السلاجقة هذه الرغبة في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فأحكموا قبضتهم على أرمينية الصغرى، وأخضعوا الأرمن الذين اعترفوا لهم بنوع من التبعية عن طريق تقديم المال. وقد عبَّر ابن فضل الله العمري عن ذلك حين قال إن الأرمن في قيليقية «كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة بالروم وعليهم جزية مقرَّرة وطاعة معروفة». ويؤكد أن السلاجقة كانوا يعينون الشحاني[1] على البلاد الأرمينية، كما ظل المسلمون لا يعترفون بلقب «ملك» لأمير الأرمن، وأصرُّوا على اختيار لقب «متملك»، فيقول مؤرخوهم «متملك سيس» أو «صاحب سيس» أو «ابن لاون» أو «التكفور» وهذا اللقب الأخير هو لقب عام قصدوا به كل من جلس على عرش أرمينية الصغرى[2].

وعُرف عن الأرمن بأنهم مستغلو فرص، وذهبت جميع محاولاتهم للتوسع على حساب السلاجقة هباءً لأنهم كانوا يصطدمون بالدولة القوية المتماسكة.

ومن بين تلك المحاولات الفاشلة التي قاموا بها للانتفاض على الحكم السلجوقي، تلك المحاولة التي قام بها ليون الثاني في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م). فبعد نجاحه في الاستيلاء على أَنطاكية وتنصيب ريموند روبين حاكماً عليها، جدَّد غاراته على الأملاك السلجوقية، ورفض دفع الأتاوة المتوجبة عليه للسلطان بموجب معاهدات سابقة، فشكا الجباة للسلطان الذي أمر بتجهيز حملة عسكرية لتأديبه. وحتى يحكم الطوق حوله، حاول تكوين حلف مناهض له من الأيوبيين والصليبيين. وإذ لا زالت أسباب التحالف مع الأيوبيين قائمة، عرض على الظاهر غازي صاحب حلب القيام بعمل مشترك ضد ليون الثاني، وانتزاع أَنطاكية منه، كما اتصل ببوهيموند الرابع لتقديم يد العون على أن تكون أَنطاكية من نصيبه[3].

اتفق الحلفاء على أن يدخل كيكاوس إلى بلاد الأرمن من ناحية مرعش، ويدخل الظاهر غازي من جهة دربساك، أما بوهيموند الرابع فيهاجم أَنطاكية، ومعه قوات من دمشق وحماة وحمص، ويُغلق الممرات الجبلية على قواته[4].

أخذ الظاهر غازي يستعد للحملة، وأرسل رسالة جوابية إلى كيكاوس حملها عبد الرحمن المنجي[5]، واستشار صاحب حلب عمه العادل في الخطوة التي أقدم

---

(١) الشحاني جمع شحنة وهو المحافظ في عصرنا.

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف: ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٣٧. ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٤.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه.

عليها، فهجَّن رأيه، ونصحه بعدم الاجتماع مع كيكاوس، مبيِّناً له ما في ذلك من الضرر. ويبدو أنه أبلغه بأن صاحب قونية سوف يهاجم أراضي حلب إن هو نجح في إخضاع أرمينية الصغرى، التي تشكل حاجزاً بين ممتلكاته وبين إمارة حلب، فوقع في الحيرة بين أن يغدر بما وعد به كيكاوس، وبين أن يخالف عمَّه العادل[1]، وأرسل إليه كيكاوس، الرسل تترى، يستحثه على سرعة التحرك.

وتحرَّك ليون الثاني، في غضون ذلك، لكسر الطوق الذي فرضه عليه كيكاوس، فأرسل إلى الظاهر غازي يستقبطه ليخرجه من الحلف، ولما أبطأ الظاهر غازي في الخروج من حلب، أرسل إليه كيكاوس قاضي آقسرا يحثه على الإسراع بالخروج. وفي الوقت الذي كان فيه القاضي مجتمعاً به، وصلت إليه أخبار بأن القوات السلجوقية المعسكرة في مرعش، أغارت على البلاط[2] وهي من أعمال حلب، وقتلت جماعة من الأرمن، وأسرت جماعة أخرى، فأدرك عندئذ نصيحة عمه العادل، فانسحب من الحلف، وامتنع عن مساعدة السلاجقة[3].

لكن كيكاوس قرَّر المضي في الحملة، واضطرب ليون الثاني عندما علم بذلك، لكنه لم يجد مجالاً سوى المقاومة، فجمع قواته واستعد لمواجهة القوات السلجوقية. استولى كيكاوس أثناء زحفه على قلعتين أرمينيتين مهمتين هما جنجن وكانجن[4]، ثم دخل إلى الأراضي الأرمينية، فاصطدمت طليعة جيشه بقوة أرمينية بقيادة قسطنطين عم ليون الثاني، تلى ذلك حصول اشتباك واسع انتصر فيه السلاجقة انتصاراً واضحاً، وتعقَّب كيكاوس، ليون الثاني وقواته المنهزمة، وجاس في ديار الأرمن مدة سبعة أيام عاد بعدها إلى بلاده، وتحصَّن ليون الثاني في إحدى القلاع، وأرسل قسطنطين إلى حصن لؤلؤة للدفاع عنه[5].

عقد ليون الثاني اجتماعاً مع أمرائه للبحث في التطورات المستجدة، فرأى الجميع أنهم لا قِبل لهم بمقاومة الجيش السلجوقي، وأن الاستسلام هو الطريق الصواب، عندئذ أرسل ليون الثاني رسالة بهذا المعنى إلى كيكاوس يعرض فيها ما يلي مقابل العفو عنه:

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٤.

(٢) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية، وهي من أعمال حلب. الحموي: جـ ١ ص ٤٧٧.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٤) ابن بيبي: ص ٦٢. Cahen: p 623.

(٥) المصدر نفسه: ص ٦٣ ـ ٦٥. Ibid. وحصن لؤلؤة: قرب طرسوس الحموي: جـ ٥ ص ٢٦.

- الطاعة التامة للسلطان السلجوقي.
- مضاعفة الخراج، بحيث يرسل كل عام خمسمائة فارس مع لوازمهم يوضعون بتصرف السلطان بالإضافة إلى عشرين ألف دينار مع التحف.
- دفع المبالغ المستحقة عن السنين السابقة.
- تسليم حصني لؤلؤة ولوزاد الحدوديين، اللذين يتحكّمان بالممرّات القيليقية[1].

وافق السلطان على العرض الأرميني وأرسل الصاحب[2] ضياء الدين قرا أَرسلان، وكان آنذاك أمير الدواة، ومعه كتاب الموافقة، وليقوم بتحصيل باقي الخراج السابق وتجديد الأمر السلطاني بإبقاء مدينة سيس تحت إمرته[3].

استقبل ليون الثاني، الصاحب بترحاب، وأعطاه عشرة آلاف دينار من خراج السنة الماضية، وعشرة آلاف أخرى عن السنة الحالية، وحمَّله تحفاً وهدايا. ولما عاد إلى قيصرية، أمر السلطان بإطلاق سراح الأرمن المسجونين وأرسل إلى أمراء الأطراف يخبرهم بزوال أسباب النزاع مع الأرمن، وبفتح الطرق والمعابر أمام التجار والمسافرين[4].

محاولة كيكاوس التوسع باتجاه حلب ـ وفاة كيكاوس

التفت كيكاوس بعد أن أخضع مملكة أرمينية الصغرى، إلى التوسع باتجاه حلب وضمِّ إمارتها إلى أملاكه. وجاءته الفرصة التي طالما انتظرها بوفاة الظاهر غازي في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) واعتلاء ابنه العزيز غياث الدين محمَّد البالغ سنتين وبضعة أشهر، عرش الإمارة تحت وصاية والدته ضيفة خاتون ابنة العادل، وأتابكه شهاب الدين طغريل[5].

وتحركت رغبة التوسع في نفس كيكاوس، وقرَّر ضمَّ حلب قبل ترسيخ الحكام الجدد أقدامهم في الحكم بحجة أن حلب كانت يوماً تحت حكم أجداده[6].

---

(١) ابن بيبي: ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) الصاحب: لقب لرئيس الوزراء.
(٣) ابن بيبي: ص ٦٥ ـ ٦٦ وأمير الدواة: هو حامل دواة السلطان أمامه على السرج ويسير بها في المواكب. والدواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان، تلف بمنديل أبيض شفاف مذهب.
(٤) المصدر نفسه: ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٠. ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢، ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٢٥٣.
(٦) ابن بيبي: ص ٧٢.

ويذكر بعض المؤرخين سبباً آخر شجَّع كيكاوس على غزو إمارة حلب، ذلك أن رجلين يبدو أنهما من أعيان المدينة، كانا يوغران صدر الظاهر غازي على رعيته، فأصاب الناس بسببهما بلاء شديد. ولما توفي الظاهر غازي وخلفه ابنه العزيز غياث الدين محمَّد، طردهما من المدينة، فقصدا كيكاوس، وأطمعاه في غزو حلب لخلو عرشها من سلطان قوي[1].

وحتى يحكم الطوق على المدينة، استغل كيكاوس النزاع الذي نشب آنذاك بين أمراء شمالي بلاد الشام لاقتسام تركة عز الدين مسعود الزنكي صاحب الموصل الذي توفي في عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، وكان هذا قد أوصى بالملك من بعده لابنه الأكبر نور الدين أَرسلان شاه الذي لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره، على أن يقوم بدر الدين لؤلؤ بالوصاية عليه، غير أن عمه عماد الدين طمع بالملك وبخاصة بعد وفاة نور الدين أَرسلان شاه المبكرة واعتلاء أخيه ناصر الدين محمود سدة الحكم في الموصل، فهاجم بعض قلاعه بمساعدة مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ بالأشرف موسى بن العادل في حلب، في حين طلب مظفر الدين كوكبوري مساعدة كل من كيكاوس وناصر الدين محمود بن محمَّد بن قرا أَرسلان الأرتقي صاحب آمد وحصن كيفا وماردين، واتفق الجميع على الانضواء تحت راية كيكاوس، وخطبوا باسمه في بلادهم تعبيراً عن هذه التبعية[2].

وسنحت للسلطان السلجوقي فرصة البدء بالتحرك. فالأَشرف موسى كان منهمكاً في محاربة الصليبيين في إمارة طرابلس حيث أغار على حصني صافيتا والأكراد، ونصحه أمراؤه بأن يُبقي على العلاقات الحسنة مع إمارة حلب لأن مصلحة السلطنة تقضي بذلك، فرفض نصيحتهم واستبد برأيه وقال قولته المشهورة «لا أرحام بين الملوك»، عندئذ نزل الأمراء عند رأيه، وأشاروا عليه بأن يصطحب معه أحد الأمراء الأَيوبيين حتى يسهل انقياد الناس والعسكر فلا يشعروا بالتغيير. فاستدعى الأفضل علي صاحب سميساط وكان في طاعته ويخطب باسمه، فلما قدم عليه أكرمه وأهداه الكثير من الخيل والسلاح، وتحالفا على التعاون والزحف نحو حلب، واتفقا على أن ما يستولي عليه كيكاوس من أعمال حلب يكون للأفضل علي وهو في طاعته والخطبة له والسكة باسمه، وما يستولي عليه من إقليم الجزيرة مما

(١) ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٣٢٥. ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه ص ٢٦١ ـ ٢٦٣.

في يد الأشرف موسى، مثل حرَّان والرها وغيرها، يكون لكيكاوس[1].

واستدعى كيكاوس أمراء الأطراف وأمرهم بالإسراع والتوجه إلى مركز التجمع في صحراء البستان، كان من بينهم نصرة الدين صاحب مرعش، وأمراء ملطية وسيواس ومناطق أوج الحدودية. وبمدى عشرين يوماً حُشِرت العساكر من جميع أنحاء السلطنة، وأقام السلطان احتفالاً عاماً سمّى خلاله لكل أمير بلدة في الشام تكون إقطاعاً له، وذلك تشجيعاً لهم[2]، ثم عقد مجلساً حربياً لاختيار أنجع السبل للتحرك نحو حلب، فتقرَّر سلوك طريق راونداق ـ رعبان ـ حلب بفعل سهولة طبيعة الأرض[3].

والحقيقة أن السلطان السلجوقي عزم على ضمِّ كافة الأراضي التي سيستولي عليها إلى أملاكه، وإنما جعل الأفضل علي ذريعة لتحصيل غرضه على الرغم من أنه كان قد راسل جماعة من أمراء حلب يستميلهم، واعداً إياهم ببعض الإقطاعات، كان من بينهم علم الدين قيصر، إذ كتب له توقيعاً بإقطاعه البستان، فانضم مع قواته إلى الجيش السلجوقي وجاهر بالعصيان، كما انضم الطنبغا من بهسنا إلى الجيش السلطاني بعد أن عصى في المدينة[4].

وتحرَّك الجيش السلجوقي باتجاه قلعة رعبان واستولى عليها، ومنحها كيكاوس إلى صهره نصرة الدين صاحب مرعش، في حين ذكر ابن الأثير أنه سلَّمها إلى الأفضل علي حسب الاتفاق المبرم بينهما[5]. وتابع الجيش زحفه حتى وصل إلى تل باشر وحاصرها حتى استسلمت، وضمَّها كيكاوس إلى أملاك السلاجقة ولم يسلمها إلى الأفضل علي، فقلق عندئذ هذا الأخير وتراجعت همته وقال: «هذا أول الغدر»، وخشي إن ملك السلطان مدينة حلب، أن يحرمه منها فيكون بذلك قد سعى إلى نقل الحكم من الأيوبيين إلى السلاجقة، لذلك أخذ يسعى لإبعاده عن بلوغ هدفه[6]. فاقترح عليه أن يهاجم بعض المدن والقلاع مثل منبج وغيرها قبل الزحف نحو حلب حتى يؤمن خطوطه الخلفية، وهو بذلك يريد أن يشتِّت جهوده ويُضعِف قواه[7]. وحتى يقطع الطريق عليه، سار إلى منبج ودخلها سلماً، وشرع في ترميم

(١) ابن بيبي: ص ٧٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٤ ـ ٦٤٥.
(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٢٥.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.

أسوارها استعداداً لمواجهة محتملة معه[1].

اضطربت الأوضاع في حلب عندما شاع خبر زحف الجيش السلجوقي باتجاه المدينة، لأن القوات الحلبية لا تقوى على مواجهة الجيش السلجوقي القوي، كما خشي الأتابك طغريل أن يسلم أهل حلب مدينتهم إلى الأفضل علي لميلهم إليه[2]، لذلك، كتب إلى الأشرف موسى يستدعيه لنجدة ابن أخته، الملك العزيز، وكان يعسكر على بحيرة قُدْس[2] في مواجهة الصليبيين، ونصحه بالتعاون مع ابن أخته لمواجهة الخطر السلجوقي، لأن السلاجقة سوف لا يقفون عند حلب، ووعده بأن يجعل الخطبة له والسكة باسمه، ويعطيه ما يختار من أعمال حلب. وفي رواية لابن العديم أن الأتابك أرسل القاضي زين الدين إلى العادل الأيوبي يستصرخه على كيكاوس والأفضل علي. فكتب العادل إلى ابنه الأشرف موسى يأمره بأن يرحل إلى حلب مع قواته، وأحلَّ مكانه المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص في مواجهة الصليبيين[3].

جمع الأشرف موسى قواته وسار بهم إلى حلب، وخيَّم في الميدان الأخضر، واجتمع مع الأمراء والأعيان، واستوثق منهم، ثم تابع طريقه فنزل في وادي بزاعة[4]، وانضم إليه الأمير العربي مانع بن حُدَيثة مع قواته وهو من عرب طيء[5].

حارب الحلبيون على جبهتين، عسكرية وسياسية. قاد الجبهة العسكرية الأشرف موسى، في حين قادت الملكة الجبهة السياسية بالدهاء والحيلة. فبذرت بذور الشقاق بين كيكاوس وأمرائه، فأرسلت شخصاً من قِبلها خبيراً بالشؤون السلجوقية الداخلية، إلى معظم الأمراء المرافقين للسلطان، يحمل لهم أجوبة لرسائل مزورة موجهة من قِبلهم إلى الحلبيين تتضمن استنكاراً لتصرفات السلطان وأنه جلبهم بالحيلة، إلى بلاد الشام، ولا يريدون خوض غمار هذه الحرب ولا نقض

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٥.

(٢) بحيرة قدس: قرب حمص طولها اثنا عشر ميلاً في عرض أربعة أميال، وهي بين حمص وجبل لبنان، تنصبُّ إليها مياه تلك الجبال ثم تخرج منها فتصير نهراً عظيماً وهو العاصي الذي عليه مدينة حماة وشيزر ثم يصب في البحر قرب أنطاكية. الحموي: جـ ١ ص ٣٥٢.

(٣) زبدة الحلب: جـ ٢ ص ٦٤٤.

(٤) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة، وفيها عيون مياه جارية وأسواق حسنة. الحموي: جـ ١ ص ٤٠٩.

(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٥. وقارن بابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦٦.

العهود. أما رسائل الأجوبة فقد تضمَّنت اعترافاً من الحلبيين بنوايا الأمراء السلاجقة، مرفقة ببعض الهدايا، وأوصل حامل الرسائل الخبر إلى السلطان بواسطة أحد غلمانه[1]. ثم حدث أن اصطدمت طليعة الجيش السلجوقي بالجيش الأَيوبي في رحى معركة انتهت بخسارتها وأسر قادتها. وعندما وصل السلطان السلجوقي إلى ساحة المعركة على رأس الجيش السلجوقي البالغ أربعة عشر ألف مقاتل، هاله انهزام طليعة جيشه، فتردد في خوض المعركة وأمر الجيش بالانسحاب[2]. ويذكر ابن الأثير أن كيكاوس فعل ذلك «لأنه صبي غر لا معرفة له بالحرب»[3].

انسحب كيكاوس إلى البستان، وهو يطوي المراحل خائفاً يترقَّب. وطارد الأَشرف موسى قواته المنسحبة يتخطف أفرادها حتى وصل إلى تل باشر فحاصرها واستولى عليها، كما استولى على رعبان، وتل خالد، وبرج الرصاص، ثم عاد إلى حلب بعد أن بلغه نبأ وفاة أبيه العادل[4].

توقف السلطان السلجوقي عدة أيام في البستان، وقد اضطرب من أمر الرسائل، وظن سوءاً بالأمراء الأبرياء، على الرغم من أنهم أنكروا ما جاء فيها، وتوسلوا إليه بألا يعاقبهم على عمل لم يرتكبوه، لكن دون جدوى، فأمر بتقييدهم بعمائمهم وسجنهم في غرفة مغلقة وأشعل فيها النار، فاحترق الأبرياء[5].

ويبدو أن كيكاوس ندم على فعلته، ولام بقية الأمراء لأنهم لم ينصحوه، وقرَّر مواصلة الحرب كي يقطع الطريق على الأَشرف موسى ويمنعه من الوصول إلى الموصل لمساعدة حاكمها بدر الدين لؤلؤ. فسار إلى ملطية استعداداً للمواجهة لكن اشتداد المرض عليه أجبره على العودة، وتوفي في الطريق من مرض السل الذي كان قد أصيب به، وذلك في عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)[6]. ويذكر مؤرخ السلاجقة ابن بيبي أن وفاته حصلت في (٤ شوال عام ٦١٧هـ/ ٢ كانون الأول عام ١٢٢٠م) وقد انفرد بذلك. ويبدو أنه استند إلى شاهد ضريح السلطان في مستشفاه التي بناها في سيواس، لكن من المعروف أن الأضرحة تُبنى عادة بعد الوفاة، وأن

---

(١) ابن بيبي: ص٧٦ ـ ٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٧ ـ ٨٠.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن بيبي: ص ٨٠ ـ ٨١.

(٦) Cahen: p 627.

هذا التاريخ هو تاريخ بناء الضريح وليس تاريخ الوفاة[1]، ونحن نرجح الرأي الأول بدليل أن كيقباد، خليفة كيكاوس، هاجم أرمينية الصغرى في عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) كما سيمر معنا.

حكم كيكاوس مدة ثمانية أعوام، وترك بعد وفاته سلطنة قوية يسودها الأمن ويعمُّها الرخاء، وذلك بفضل الجيش النظامي الذي اعتمد عليه لرد الاعتداءات الخارجية وإحلال الأمن في الداخل والتوسع على حساب جيرانه، وتحسَّنت في عهده الحياة التجارية، وانتشرت المهن بين السلاجقة، وازدهرت الحياة الزراعية، وعمَّ الرخاء سائر المقاطعات والمدن بفضل شبكة الطرق التجارية الآمنة، وأضحت سلطنة سلاجقة الروم ذات قوة اقتصادية هائلة. وقد أمل السلاجقة باستمرار موجة الرخاء والازدهار في المستقبل، وبخاصة أن البيزنطيين كانوا منهمكين في المحافظة على الأراضي التي حَشروا أنفسهم فيها في نيقية وبعض سواحل البحر الأسود، بالإضافة إلى عدم وجود أمراء متنافسين من أجل العرش.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٧. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٥.
Berchem: Corpus Arabicarum, Asie Mineure vol 19 prt 3 p 8.
وقارن بابن بيبي ص ٨٢ ـ ٨٣.

الفصل العاشر

علاء الدين كيقباد بن كيخسرو

كيقباد الأول

٦١٦ ـ ٦٣٤هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧م

تولي كيقباد الحكم

اجتمع أمراء السلطنة وأعيانها بعد وفاة كيكاوس ليختاروا خلفاً له، وقد أخفوا موته حتى يتم تعيين سلطان جديد. ولا يبدو بأنهم كانوا مجمعين على اختيار شخص واحد وبخاصة أن كيكاوس لم يخلِّف ولداً يستحق أن يخلفه. وطُرحت خلال الاجتماع عدة أسماء، منها مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم، فريدون الأخ الأصغر للسلطان المتوفى، وكيقباد الأخ الآخر(١). وفي رواية أن كيكاوس عيَّن الأخير خلفاً له قبل وفاته، فأطلقه من سجنه واستحلف الأمراء والأعيان على طاعته(٢).

وقرَّر المجتمعون، بعد تجريح كل الأسماء المتداولة، اختيار علاء الدين كيقباد. واقترح الأمير سيف الدين آينبي الجاشنكير(٣) أن يزف إليه البشرى في سجنه، لأنه هو الذي اصطحبه إلى السجن وهو الذي سيصطحبه إلى العرش(٤). فاجتمع به في سجنه، فعزَّاه بأخيه وسلَّمه خِلعة السلطنة وطلب منه الأمان لنفسه، وقد حصل

(١) ابن بيبي: ص ٨٣ ـ ٨٤. (٢) ابن العبري: ص ٢٥٨.

(٣) الجاشنكير: هو المتحدث في أمر السماط مع أستاذ الدار. ويقوم بتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً من أن يُدَسَّ عليه فيه سم أو نحوه، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما چاشنا ومعناه الذوق والثاني كير وهو بمعنى المتعاطي لذلك ويكون المعنى الذي يذوق. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ٤ ص ٢١. جـ ٥ ص ٤٣٢.

(٤) ابن بيبي: ص ٨٤.

عليه[1]، وبايعه حكام الأطراف وعامة الناس وتربع على عرش السلاجقة.

أراد كيقباد أن يبرهن من خلال حكمه أنه أقوى حكام السلاجقة، وساعده على ذلك أنه تميَّز عن أسلافه بذكاء مفرط وبمواهب تفرَّد بها كانت على مستوى عال من التنظيم والإتقان، فكان خطاطاً محترفاً ورساماً مرموقاً، ونجاراً ماهراً، كما عرف صناعة السروج[2].

وبرهن خلال سني حكمه أنه إداري من الطراز الأول. فقد أنعش المقاطعات التي عانت كثيراً من ويلات الحروب أثناء حكم أسلافه، وحسَّن مدينة قونية وزخرفها، وجعل من مدينة سيواس أهم مركز تجاري في الشرق الأدنى، وحوَّل مقاطعة الأناضول إلى سوق عالمي، وشجَّع الصناعات، فبنى معامل لتكرير السكر، وهابه المجرمون بسبب هيبته المخيفة وأحكامه الصارمة[3].

كان كيقباد قائداً عسكرياً فذاً على مستوى عال من الكفاءة القتالية، فاستطاع خلال اثني عشر عاماً أن يتوسع ويضم أراض جديدة، كما جعل من القلعة العلائية التي انتزعها من الأرمن قاعدة بحرية قلَّ نظيرها على البحر المتوسط[4].

وحقَّق الجيش السلجوقي خلال حكمه انتصارات مذهلة، وبلغت السلطنة السلجوقية في عهده أقصى قوتها[5].

التوسع السلجوقي باتجاه الجنوب

الاضطرابات في أرمينية الصغرى

أراد كيقباد، فور تسلمه الحكم، بسط سيطرته على كامل منطقة آسيا الصغرى والتوسع على حساب جيرانه الأرمن والبيزنطيين، والمعروف أن السيادة السلجوقية على أرمينية الصغرى كانت تتمثَّل بدفع الأرمن الأتاوات المتوجبة عليهم للسلاجقة، وتعيين هؤلاء للشحاني كما ذكرنا. وكان الأرمن يمتنعون بين حين وآخر عن تنفيذ ما تمليه عليهم المعاهدات المبرمة، وفقاً لتطور الأوضاع السياسية في المنطقة، في حين طمع السلاجقة في السيطرة التامة على أرمينية الصغرى. وحتى يتفرَّغ لتحقيق ذلك، عقد صلحاً مع الأَشرف موسى صاحب الجزيرة، ومتَّن هذا الصلح ما حصل من تقارب أسري. فتزوج كيقباد من خواند خاتون أخت الأَشرف موسى[6].

---

(1) ابن بيبي: ص ٨٤ ـ ٨٥.

(2) المصدر نفسه: ص ٩٤.

(3) Rice: p 71.

(4) Ibid.

(5) القرماني: ص ٢٩٤.

(6) ابن الأثير: جـ٩ ص٣١٨. ابن العبري: ص٢٥٨.

بعد أن اطمأن كيقباد على الجبهة الأَيوبية تفرَّغ لتنفيذ مخططه التوسعي، فاستغل حرب الوراثة الأَنطاكية وانهماك ليون الثاني في حربه مع بوهيموند الرابع الذي انتزع أَنطاكية من ريموند روبين في عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)، ليتوسع في قيليقية على حساب الأرمن. وكان الذي شجَّعه على الإسراع في تنفيذ سياسته التوسعية، وفاة ليون الثاني المفاجئة في العام المذكور، مما عرَّض أرمينية الصغرى لموجة من القلاقل والاضطرابات[١]. ذلك أن الملك الراحل كان قد أوصى بأن تخلفه ابنته إيزابيلا، وفي الوقت نفسه، طمع ريموند روبين بملك أرمينية الصغرى بعد أن خسر حاكمية أَنطاكية، فأغار على قيليقية، واستقر مع والدته أليس في طرسوس ينتظر المساعدة من الأسبتارية الذين ارتبط معهم بعلاقات ودية، للقيام بهجوم مشترك على أرمينية الصغرى.

والواقع أن نبلاء أرمينية الصغرى حقَّقوا رغبة ملكهم الراحل وعيَّنوا ابنته إيزابيلا خلفاً له تحت وصاية آدم سيد بغراس، لكن هذا الأخير، لقي مصرعه بعد بضعة أشهر، فخلفه في الوصاية قسطنطين أمير لامبرُون وزعيم بيت هيثوم المعروف بميله للبيزنطيين، فزحف هذا على طرسوس واستولى عليها وأسر ريموند روبين وأمه أليس، ولم يلبث ريموند روبين أن توفي في السجن بعد مدة وجيزة، فاطمأنت إيزابيلا على عرشها[٢]. وإذ احتاج الأرمن أن يكسبوا ودَّ أَنطاكية بسبب أطماع كيقباد في بلادهم، بعد أن سيطر على جبال طوروس الغربية وبات يهدِّد أرمينية الصغرى بكاملها؛ اقترح قسطنطين على بوهيموند الرابع بأن يُرسل ابنه فيليب ليتزوج الملكة الأرمينية الصغيرة، لكنه أصرَّ على أن ينتمي العريس إلى كنيسة أرمينية الانفصالية. لم يمانع الوالد ذلك لأنه كان بحاجة إلى التحالف مع الأرمن للتصدي لكيقباد الذي هدَّد حدود بلاده أيضاً. وهكذا جمعت المصلحة كلاً من الأرمن والصليبيين في أَنطاكية للوقوف بوجه أطماع السلاجقة.

لم يدم التحالف طويلاً بين الجانبين، بفعل قتل الأرمن لفيليب بسبب ميوله اللاتينية مما أثار غضب والده. وإذ لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً للأخذ بثأر ابنه فيليب بسبب قطعه من الكنيسة على يد المندوب البابوي بيلاجيوس، وإنذار البابا للداوية بألا يشتركوا معه بأي عمل أَو يتصلوا به، وانحياز الأسبتارية إلى جانب الأرمن؛ اضطر إلى الاتصال بالسلطان السلجوقي، وحثَّه على مهاجمة أرمينية الصغرى[٣].

(١) Cahen: p 624.

(٢) Ibid: pp 628 - 632.

(٣) Ibid: pp 628 - 635.

فتح بعض القلاع الأرمينية

الواقع أن السلطان السلجوقي لم يكن بحاجة إلى من يستحثه على التوسع على حساب الأرمن، فقد استغل الأوضاع الأرمينية المضطربة وأغار على قلعة كالونوروس المهمة والقريبة من أنطالية، إذ تمتاز بإشرافها على الطريق البحري الذي يربط جنوبي آسيا الصغرى بمصر، وكان الأرمن قد استغلوا ميزتها ففرضوا ضرائب على السفن الذاهبة إلى مصر(١).

وينفرد ابن بيبي بذكر تفاصيل مسهبة حول فتح هذه القلعة وخضوع حاكمها كيرفارد للحكم السلجوقي، وتوثَّقت العلاقة بين الرجلين، بعد ذلك، بالمصاهرة. فقد تزوج كيقباد إحدى بنات كيرفارد، ومنحه السلطان إمارة آق شهر من توابع قونية مع عدة قرى مجاورة إقطاعاً له. وقد غيَّر كيقباد اسم القلعة وسمَّاها القلعة العلائية، وجعلها مقره الشتوي(٢).

وفتح كيقباد قلعة آلاري المهمة التي تتحكم بالطرق الساحلية المؤدية إلى قيليقية(٣).

والواضح أن كيقباد أراد تثبيت أقدام السلاجقة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى على البحر الأبيض المتوسط حتى حدود أرمينية الصغرى، وجعله ساحلاً سلجوقياً، تمهيداً لمهاجمة الإمارة الأرمينية من جهة الغرب.

ظهور المغول على مسرح الأحداث

انطلق المغول، في هذه الأثناء، من جوف آسيا كالسيل الجارف يهدِّدون البلاد الإسلامية. ولما كانت دولة سلاجقة الروم آنذاك، أقوى دولة إسلامية في الشرق الأدنى، فقد اتجهت الأنظار إليها لطلب المساعدة لصد غاراتهم. ولما كان للمغول علاقة مباشرة بدراستنا فلا بد من أن نتعرَّف على أوضاع هذا الشعب وما استولى عليه من البلاد والمدن بعد انطلاقه من موطنه الأصلي.

انبثق فجر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والشرق الإسلامي يستعد لاستقبال تلك الجيوش المغولية الجرارة التي اندفعت نحوه من شمال آسيا

---

(١) ابن بيبي: ص ٩٨. Cahen. p 632. Boase: Cilician Kingdom of Armenia: p 23.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٩ ـ ١٠٢. ابن العبري: ص ٢٦٧.

(٣) ابن بيبي: ص ١٠٤.

الشرقي على دفعات في مُدَد زمنية متقاربة ومتباعدة، وكان لها أثرها القريب والبعيد من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية.

اندفع المغول كالسيل الجارف تحدوهم الرغبة في الانتقام من ولاة الأمور في البلاد الإسلامية من جهة، والتطلع إلى كسب مادي من جهة أخرى، يعوِّضهم عما كانوا يعانونه من فقر في موطنهم الأول. فمن هم هؤلاء المغول؟

لم يكن المغول إلّا مجموعة من القبائل الرحل نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي أراضٍ واسعة تنعدم المياه في بعض جهاتها. وعاشت هذه القبائل على روافد نهر عامور، واحتلَّت الأراضي الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق[١].

وكانت هذه القبائل في حالة حرب دائم مع جيرانها التتار النازلين إلى الشرق منهم. والمعروف أن كابل خان جدَّ يسوكاي نظَّم هذه القبائل في حلف مفكَّك، غير أن مملكته تداعت بعد وفاته، فاستطاع أمبراطور الصين الشمالية، التان خان، أن يوطِّد سيادته على كل المنطقة[٢].

لم يرث يسوكاي إلَّا شطراً صغيراً من الحلف القديم، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته نتيجة ما أنزله من هزيمة ببعض قبائل التتار، بالإضافة إلى تدخله في أمور خان الكرايت، طغرل[٣]، مما أدَّى إلى قيام تحالف بين الاثنين على أن يكونا يداً واحدة[٤]، غير أنه توفي قبل أن يستقر خاناً أعظم للمغول، إذ دسَّ له بعض التتار السم، ولم يتجاوز ابنه الأكبر تيموجين آنذاك التاسعة من عمره، وقد حدث ذلك في عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)[٥]، على أن ما اشتهرت به زوجته من النشاط حفظ لابنها الخان الصغير تيموجين قدراً من السيطرة على قبائل أبيه، والواقع أن طفولته كانت عاصفة بسبب تعرض أسرته لغارات قبائل التايجوت الذين حرصوا على إذلالهم[٦].

---

(١) الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم جـ ١ ص ٦٠. يحدِّد الجويني المنطقة التي عاش فيها المغول لكنه يخلط بينهم وبين التتار. Lamb: Jenghis Khan p 25.

(٢) العريني، السيد الباز: المغول ص ٤١.

(٣) غروسيه، رينيه: جنكيزخان ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) المرجع نفسه: ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٥) المرجع نفسه. الجويني: جـ ١ ص ٦٩ Lamb: p 25 .

(٦) المرجع نفسه: ص ٥٨.

ونبغ تيموجين منذ صغره، وبدأ نجمه يلمع عندما بلغ السابعة عشرة من عمره، إذ استطاع بذكائه وحنكته أن يستقطب كبار رجال المغول من أتباع أبيه، حتى إذا ما أقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت لوائه، عزم على إخضاع القبائل المنتشرة في صحراء جوبي[١].

هذا ولا يدخل في نطاق هذا البحث أن نتتبع أدوار هذا النزاع، بل إن كل ما يمكن أن يُقال في هذا الصدد أن تيموجين الشاب استطاع بمقدرته أن يوحد سكان أقليم آسيا الشرقية الواقعة شمال الصين تحت لوائه ويتربع على العرش بعد أن اختارته القبائل المغولية أمبراطوراً عليها. وبعد أن تمَّ له ذلك اتخذ اسم جنكيزخان، أي أعظم الحكام أَو أمبراطور العالم، واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لملكه[٢].

وضع جنكيزخان، بعد أن تربَّع على عرش المغول، نصب عينيه هدفين:

الأول: التوسع في الجنوب على حساب الصين الشمالية، ومطاردة أعدائه الفارين باتجاه غرب منغوليا والصين، وأهم هؤلاء قبائل القراخطاي الذين استولوا على الأقاليم الممتدة من بلاد الإيغور إلى بحر آرال. وفعلاً، فقد هزم واي وانغ أمبراطور الصين واستولى على عاصمته بكين في عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)[٣].

الثاني: التوسع باتجاه الغرب على حساب قبائل الخطا الذين يسيطرون على إقليم ما وراء النهر على حدود البلاد الإسلامية. وفعلاً استولى جنكيزخان على بلادهم بعد أن هزم زعيمهم كشلو خان، فأضحت بلاده الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية[٤].

الدولة الخوارزمية

لا بد لنا، في هذا المقام، من أن نتطرَّق ولو بإيجار إلى نشأة الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالدولة المغولية بفعل ارتباط تاريخ هاتين الدولتين بدولة سلاجقة الروم بخاصة، والجدير بالذكر أن هذه العلاقة بين الدولتين كانت من أسباب التمدد المغولي باتجاه الغرب.

---

(١) الجويني: جـ١ ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه. غروسيه: ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) غروسيه: ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٤) المرجع نفسه: ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩. الجويني: جـ١ ص ٧٥. حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول: ص ١١٤.

ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه سلطان السلاجقة العظام، حيث كان يشغل وظيفة ساقي. واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق حاكماً على إقليم خوارزم، ولقَّبه بـ«خوارزمشاه»[١]، وهو مؤسِّس الدولة الخوارزمية.

بدأت قوة الخوارزميين تظهر منذ عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) في عهد أتسز الذي كانت له جولات عسكرية مع السلطان السلجوقي سنجر، فاستولى على مرو ونيسابور[٢]، وبعد أن توسعت الدولة على حساب السلاجقة الكبار قضت على دولتهم بعد وفاة سنجر في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م).

واستعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله، بخوارزمشاه علاء الدين تكش للقضاء على سلاجقة العراق[٣]، وكانت هذه فرصة نادرة استغلها الزعيم الخوارزمي لمد نفوذه نحو الغرب وتكوين دولة ذات كيان سياسي، وفعلاً التقى تكش بالسلطان السلجوقي طغرل في مدينة بالقرب من الري[٤] في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) وانتصر عليه، وقُتل طغرل في المعركة، وأرسل تكش رأس غريمه إلى الخليفة العباسي[٥].

وبذلك حلَّت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية في العراق، وراح زعماؤها يتدخَّلون في شؤون الخلافة حتى عزموا على الاستيلاء على بغداد[٦]. لم يقف الخليفة العباسي موقف المتفرج، وحاول بشتى الوسائل أن يحدَّ من أطماع الخوارزميين، حتى هداه تفكيره، أخيراً، إلى الاستعانة بالمغول[٧].

التمدد المغولي نحو الغرب

أيَّد ابن الأثير الرواية التي ذكرها في معرض كلامه عن شخصية الخليفة

---

(١) الجويني: جـ ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦. بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: ص ٣٢٣.
Howorth: History of the Mongols vol I p 7.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢ ـ ٤. الجويني: جـ ١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٣) هذه عادة درج عليها خلفاء بني العباس بعد ضعف دولتهم. فهم الذين راسلوا بني بويه ليخلصوهم من القادة الأتراك الذين كانوا يهيمنون على مقدرات الخلافة، كما راسلوا طغرل السلجوقي ليخلصهم من حكم البساسيري.

(٤) الري هي طهران الحالية.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٣٠. الجويني: جـ ١ ص ٢٧٩.

(٦) الجويني: المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٧) المصدر نفسه. النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي. تحقيق حافظ حمدي ص ٥٣ ـ ٥٤.

الناصر لدين الله حين قال: «وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنَّه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم من أجل ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم»(١).

ومهما يكن من أمر، فقد كتب الخليفة العباسي إلى جنكيزخان بالعبور إلى البلاد الإسلامية، عارضاً عليه استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب إذا هو هاجمها من الشرق(٢). ولكن على الرغم من وصول هذه الرسالة إلى المغول، فإنَّها لم تكن السبب في غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية. إذ في الوقت الذي وصلت فيه، كان الزعيم المغولي قد توسَّع في فتوحه جهة الغرب حتى تاخمت بلاده حدود الدولة الخوارزمية، واستطاع أن يعقد معاهدة تجارية مع الخوارزميين، ولذلك لم يُعر رسالة الخليفة أي التفاتة(٣).

ويبدو أن الكارثة كانت آتية، ولكن سببها المباشر يرجع إلى إحدى هذه البعثات التي نسمع عنها كثيراً في تلك الأيام. والرأي السائد أنه لم يكن هنالك ما يحول دون وقوع غارة للمغول، ولكن تيسَّر حدوثها بواسطة ما عُرف عن علاء الدين محمَّد خوارزمشاه من طمع وتهور، ذلك أنه لم يكن بالسلطان الذي يتسامح مع منافس يضارعه في الطموح.

وتبادل الرجلان الغارات إلى أن استقر الصلح بينهما، غير أن خوارزمشاه شعر بالإهانة عندما طلب منه جنكيزخان في إحدى رسائله، بوصفه خاناً على الشعوب المغولية والتركية، أن يعدَّه كابنه(٤)، إلَّا أن ذلك لم يؤد إلى الشقاق بين العاهلين.

والواقع أن الأطماع السياسية لخوارزمشاه المتمثِّلة بالقضاء على المغول ووراثتهم، بدَّل هذه العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية. ولم تتوفر بين مطامعه السياسية هذه المصالح التجارية لبلاده، على الرغم من أن هذه المصالح كانت واسعة جداً. أما جنكيزخان فلم يكن قد فكَّر في ذلك الوقت، بالسيطرة على العالم بسبب انهماكه في توحيد القبائل الرحل القاطنة في منغوليا، كما أن التجارة مع الشعوب الحضرية

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٦١.

(٢) Lamb: p 116.

(٣) Curtin: The Mongols: p 99.

(٤) انظر نص الرسالة في سيرة جلال الدين منكبرتي للبشوي ص ٨٣ ـ ٨٤، مع التعليق الوارد في ذيل صفحة ٨٤.

بالنسبة للبدو ذات أهمية قصوى[1].

وقد حدث أن أرسل جنكيزخان قافلة إلى غربي آسيا للاتجار في الأسواق الخوارزمية قوامها أربعمائة وخمسون رجلاً بقيادة أربعة من كبار التجار المسلمين[2]. ولما وصلت إلى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون، وهي من ضمن أملاك خوارزمشاه، أجهز ينال خان حاكم المدينة عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة[3].

هناك روايات متناقضة عن مدى مسؤولية السلطان في هذا الشأن، ليس هنا مجال سردها والموازنة بينها، إنما يمكن القول بأن قرائن الحادثة تشير إلى أن التجار كانوا ضحية جشع الوالي وارتياب السلطان[4].

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتجاهل هذه الإثارة، غير أن ما اتصف به من الاتزان والتعقُّل، حمله على أن يرسل سفارة إلى خوارزمشاه للاحتجاج، وطلب منه تسليمه حاكم أوترار، لكن السلطان رفض الطلب، فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه[5].

وجهَّز جنكيزخان في عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) جيشاً جراراً قوامه مائتي ألف مقاتل لغزو بلاد المسلمين. ولما لم يتمكَّن خوارزمشاه من معرفة المكان الذي سيتوجه إليه الجيش المغولي، قسَّم جيشه، فركَّز القسم الأكبر منه في القلاع الرئيسية المنتشرة على طول نهر سيحون شرقاً وممرات فرغانة في الغرب، في حين وزَّع باقي أفراد الجيش في المدن الهامة في إقليم ما وراء النهر أمثال بخارى وسمرقند[6]. أضعف هذا التوزيع قدرة الجيش الخوارزمي على الرغم من تفوقه العددي.

زحف الجيش المغولي مباشرة نحو الحوض الأوسط لنهر سيحون، فاجتاز النهر عند أوترار، وتولى قسم منه، بقيادة جغتاي وأوكتاي ولدي جنكيزخان، حصار المدينة التي ما لبثت أن سقطت، في حين هبط قسم آخر من الجيش بقيادة جوجي، الابن الأكبر لجنكيزخان، مع النهر للاستيلاء على مدينة جَنْد إحدى الحصون الهامة

(١) الجويني: جـ ١ ص ٩٧. غروسيه: ص ٢٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٩٨. النسوي: ص ٨٥.
(٣) المصدران نفساهما: ص ٩٨. ص ٨٦. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٣١.
(٤) الجويني: جـ ١ ص ٩٨ ـ ٩٩. بارتولد: ص ٥٦٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٩٩. النسوي: ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٦) غروسيه: ص ٢٨٠.

على هذا النهر، وقد نجح في الدخول إليها، وسار قسم ثالث من الجيش بقيادة ثلاثة من أشهر قادة جنكيزخان، مصعداً مع النهر للاستيلاء على مدينتي بنكت وخجندة وهما من أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيحون، ونجح في احتلالهما. وبذلك يكون جنكيزخان قد قطع الطريق على الجيش الخوارزمي المتمركز في فرغانة. أما جنكيزخان نفسه فقد قاد القوة الرئيسية ومعه ابنه تولوي باتجاه بخارى حتى يقطع الاتصال بين السلطان وبين جنوده المتفرقين، فوصل إليها في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) واستولى عليها، ثم استولى على سمرقند، واستطاع أن يحول دون وصول علاء الدين محمَّد خوارزمشاه إلى المدن المحاصَرة على نهر سيحون في الشرق. ولم تنته هذه السنة إلَّا وأضحى جنكيزخان يسيطر على إقليم ما وراء النهر سيطرة تامَّة[١].

وهرب علاء الدين محمَّد خوارزمشاه في غضون ذلك، إلى خراسان، فطارده جيش مغولي بقيادة سبوتاي وجبي، إلَّا أنه أفلت من مطارديه وهرب باتجاه الغرب إلى قزوين، ثم يمَّم وجهه صوب كيلان ومازندران، وهناك انفض أتباعه من حوله بعد أن أدركوا أنهم خسروا كل شيء. وتوفي علاء الدين محمَّد خوارزمشاه في جزيرة بعيدة من جزر بحر قزوين في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) تاركاً لابنه جلال الدين مُلْكاً غير واضح المعالم، وكانت العاصمة خوارزم قد سقطت قبل عام من ذلك[٢].

أحاط المغول، بعد استيلائهم على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، بإقليم خراسان حيث وجَّهوا ضربتهم التالية، واستولوا على مدنه دون أن يقف في طريقهم أي عائق، فسقطت ترمذ الواقعة على نهر جيحون، وبلخ ومرو ونيسابور ونسا[٣].

وغادر جنكيزخان الأقاليم الغربية في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) وهي خاوية على عروشها بعد موجة التدمير والقتل التي ارتكبها؛ دون أن يخضعها بشكل نهائي، غير أن الحكم المغولي في إقليمي ما وراء النهر وخوارزم قد استقر نهائياً[٤].

خلت البلاد الإسلامية من حاكم قوي يحمي الديار ويدافع عن المسلمين ويتصدَّى لغارات المغول المدمِّرة، باستثناء حاكم واحد كان مؤهلاً لتسلم زمام

---

(١) الجويني: جـ١ ص ١٠٠ ـ ١٣٥، النسوي: ص ١٠٠ ـ ١٠١.

D'Ohsson: Histoires des Mongols vol I pp 217 - 219.

(٢) النسوي: المصدر نفسه: ص ١٢٣.

(٣) حمدي: ص ١٣٩.

(٤) العريني: ص ١٤٢. يذكر الجويني أن سبب عودة جنكيزخان هو استغلال قبائل الخطاي والتايجوت غيابه، فتمرَّدوا على سلطته. جـ١ ص ١٤٣.

القيادة ألا وهو السلطان كيقباد، فاستنجد به الخليفة العباسي، وأرسل إليه رسالة حملها محيي الدين، سبط ابن الجوزي، يطلب منه إمداده بألفي فارس للمحافظة على مقام الخلافة(١).

وافق السلطان السلجوقي على طلب الخليفة، وأمدَّه بخمسة آلاف فارس بقيادة كتلغ شاه، إلَّا أنه أشار أمام أمرائه بأن على الخليفة أن يتفاوض مع المغول لإحلال السلام بينهما ما دام لا يملك القدرة على مقاومتهم، وهو الطريق الصواب، حتى يسلم ما تبقَّى من الأقاليم الإسلامية من التدمير(٢).

وعندما وصلت القوة العسكرية السلجوقية إلى الموصل، كان المغول قد بدأوا يغادرون الأقاليم الغربية للبلاد الإسلامية. فأرسل الخليفة عندئذ رسولاً إلى قائدها أبلغه بأن قضية المغول ليست بهذه الضخامة، وأنهم تحولوا عن قصد دار الخلافة، وأوصاه بالعودة إلى بلاده. وفعلاً عاد كتلغ شاه إلى قونية(٣).

التوسع السلجوقي باتجاه الشمال

تعرَّض كيقباد لمؤامرة داخلية تزعمها بعض الأمراء، أمثال سيف الدين آينبي الجاشتكير وزين الدين بشارة أمير الخيل(٤) ومبارز الدين بهرام شاه أمير المجلس(٥) وبهاء الدين قتلش، هدفها إبعاده عن الحكم وتعيين أخيه فريدون مكانه، فواجهها برباطة جأش وقضى عليها، فقتل بعض المشتركين فيها ونفى بعضهم الآخر إلى حصن زياد. ومن هناك التجأوا إلى الأشرف موسى بن العادل الأيوبي صاحب إقليم الجزيرة وميافارقين وخلاط، الذي تشفَّع لهم لدى السلطان السلجوقي. ويُذكر بأن الأشرف موسى اصطلح مع كيقباد عند اعتلائه عرش السلاجقة(٦).

تفرَّغ كيقباد، بعد القضاء على المؤامرة التي استهدفت إبعاده عن الحكم،

---

(١) ابن بيبي: ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٤) أمير الخيل أو أمير الإسطبل أو أمير آخور، هو القائم على الإسطبل ويشرف على إسطبل السلطان ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الإسطبلات، وهو يبقي الخيل في حال جهوز دائم في ليل أو نهار متأهباً لحركات السلطان، كما يدخل ضمن اختصاصه تهيأة الركائب وخيل البريد. ابن فضل الله العمري: ص ٩٩. ابن بيبي: ص ٨٧، ١١١، ٢٩٦، ٢٩٨.

(٥) أمير المجلس: هو الذي يتولى أمر مجلس السلطان. إنه رئيس التشريفات. القلقشندي: جـ ٥ ص ٤٢٨.

(٦) ابن بيبي: ص ١١١ ـ ١١٦. ابن واصل: جـ ٤ ص ٣٠.

لاستئناف عملية التوسع. وقد انفرد ابن بيبي بروايات تفصيلية حول أحداثها، فأعطانا صورة واضحة، ومعلومات قيّمة حول ما جرى، لم نجد الكثير منها عند غيره من المؤرخين.

كان العداء مستحكماً بين السلاجقة وأهل الشمال من القبجاق والروس. وحدث في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) أن هاجم هؤلاء، التجار السلاجقة في البحر الأسود، وسلبوهم أموالهم وبضاعتهم، فجاء الرد السلجوقي سريعاً. إذ جهز السلطان حملة عسكرية بقيادة ملك الأمراء[١] حسام الدين جوبان وأمره بمهاجمة السوداك عاصمة بلاد القرم[٢]، وأقام السلطان في قيصرية يترقب نتائج الحملة. نزل الجيش السلجوقي إلى البر وزحف باتجاه العاصمة، فهرع سكان المدن الساحلية إلى تقديم الطاعة. أما في الداخل، فقد تعاون الروس والقبجاق على التصدي للزحف السلجوقي، وجمعوا جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل من أجل هذه الغاية. ومع ذلك، فقد خشوا من الدخول في مغامرة غير مضمونة النتائج، فعمدوا إلى رشوة القائد السلجوقي وحمله على الانسحاب، غير أن هذا الأخير رفض عرض الرشوة واصطدم بالقوات الروسية ـ القبجاقية المشتركة وانتصر عليها، ثم هاجم السوداك التي استسلمت له، وأبدى السكان استعدادهم بدفع الجزية وإعادة أموال التجار المسلوبة مقابل منحهم الأمان. جاءت موافقة السلطان على ذلك مشروطة بإقامة الشعائر الإسلامية. ودخل السلاجقة إلى المدينة، فبنوا فيها عدة مساجد في أماكن مختلفة، وعينوا عليها مؤذنين وخطباء، كما نصَّبوا قاضياً، وأخذوا عدداً من أبناء الأعيان كرهائن، وتركوا فيها حامية عسكرية، ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم[٣].

استئناف التوسع نحو الجنوب

ذكرنا من قبل أن الأرمن في قيليقية قتلوا فيليب زوج الملكة إيزابيلا، ففرَّت

---

(١) ملك الأمراء أو أمير الأمراء أو البكلبرك: لقب استحدث في العصر العباسي الثاني، منحه الخليفة الراضي إلى واليه على البصرة محمَّد بن رائق حاكم واسط، ومنحه سلطة مطلقة في النظر في شؤون الدولة بعامة والأقاليم بخاصة، بالإضافة إلى قيادة الجيش والإشراف على أعمال الخراج والدواوين، وكان يُخطب له على المنابر مع الخليفة. انتقل هذا المنصب إلى دولة السلاجقة العظام، وأخذه سلاجقة الروم عنهم إنما حصروا اختصاص من يتولاه بالشؤون العسكرية، إنه الحاكم العسكري المسؤول عن كل وحدات المقاطعات بما فيها وحدات الحدود الخاصة.

(٢) ابن بيبي: ص ١٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٩ ـ ١٣٨.

هذه الأخيرة إلى سلوقية تلتمس حماية الأسبتارية، فسلَّم الأرمن الحكم، عندئذ، إلى قسطنطين الوصي على العرش، وقد عدَّ بوهيموند والد فيليب هذا التصرف، تحدياً له، فاستنجد بكيقباد،، واتفقا على مهاجمة قيليقية في الوقت نفسه(١).

استغل كيقباد هذه الفرصة للتوسع في قيليقية على حساب الأرمن، متخذاً من مهاجمة هؤلاء بعض القوافل التجارية ذريعة لهذا التوسع، فجهَّز في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) حملة عسكرية بقيادة الأمير مبارز الدين جاولي، وأرسلها إلى أرمينية الصغرى لفتح ما تيسَّر من القلاع المهمة. بدأ القائد السلجوقي بقلعة جنجن(٢) وحاصرها. استنجد سكانها بقسطنطين، ولما كان هذا منهمكاً ببعض المشاكل الداخلية، طلب مساعدة الصليبيين، فأمدوا القلعة بقوة عسكرية رفعت من معنويات المحاصَرين. ثم حدث أن خرجت الحامية لفك الحصار عن القلعة واشتبكت مع الجيش السلجوقي، إلَّا أنها تعرَّضت لهزيمة قاسية، ولما شاهد السكان ما حل بحاميتهم استسلموا للقائد السلجوقي(٣).

أدرك قسطنطين بعد هذا الانتصار مدى قوة السلاجقة، وأنه أعجز من أن يتصدَّى لها أَو يقف في طريقها، فمال إلى السياسة قبل أن يتقدم السلاجقة إلى العاصمة سيس، فأرسل إلى السلطان يعده بما يلي:

- الولاء والطاعة.
- يقدم ألف فارس وخمسمائة نفر سنوياً، يوضعون بتصرف السلطان.
- ينقش اسم السلطان على السكة.
- يضاعف الخراج.

وافق السلطان على تعهد قسطنطين، وأمر قائد الحملة بالعودة إلى البلاد على أن يسلم القلاع التي فتحها إلى الأمير قمر الدين. والجدير بالذكر أن الأمير جاولي تمكَّن من فتح ثلاثين قلعة، حتى اتصلت الولايات السلجوقية ببعضها(٤).

وفي الوقت الذي كان فيه الأمير مبارز الدين جاولي يغير على الأَراضي القيليقية، كان جيش سلجوقي آخر بقيادة الأمير مبارز الدين أرتقش، يغير على قلاع الساحل الجنوبي. وقد تذرع السلطان بمهاجمة الصليبيين وسكان تلك القلاع للتجار

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٧٢. Cahen: p 634 .
(٢) يُذكر أن هذه القلعة كان قد فتحها السلاجقة في أيام كيكاوس، لكن الأرمن استعادوها بعد ذلك.
(٣) ابن بيبي: ص ١٣٨ ـ ١٤٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٤١.

السلاجقة، فأرسل جيشاً لفتحها. استعد الصليبيون حماة القلاع للمواجهة المسلحة، إلَّا أنهم هُزموا في كل قلعة جرت أمامها معركة، وفروا عبر البحر تاركين سكان القلاع يواجهون مصيرهم المحتوم، وحين رأى هؤلاء ما حلَّ بحماتهم طلبوا الأمان، واستسلموا للسلاجقة(١).

نتيجة لهذا التوسع السلجوقي على امتداد الساحل الجنوبي حتى قيليقية، أعاد السلاجقة بسط سيطرتهم على أرمينية الصغرى التي تقلَّصت إلى حدها الأدنى وأضحت ولاية تابعة للدولة السلجوقية، تدفع لها الجزية(٢).

التوسع السلجوقي في إقليم الجزيرة

التنازع الأسري الأيوبي

انتقل النشاط السياسي والعسكري السلجوقي في عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) إلى إقليم الجزيرة. وكان من صالح النصارى في شمالي بلاد الشام أن يستمر القتال بين أهم جارين مسلمين، سلاجقة الروم والأيوبيين في حلب والموصل. والجدير بالذكر أن الهدنة التي عقدها الكامل محمَّد الأيوبي صاحب مصر مع الصليبيين لمدة ثمانية أعوام (٦١٨ ـ ٦٢٦هـ/ ١٢٢١ ـ ١٢٢٩م) لم يدخل فيها الأيوبيون في حلب والموصل(٣).

وحدث بعد زوال الخطر الصليبي عن مصر في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) أن وقع خلاف بين ثلاثة من ملوك الدولة الأيوبية من أبناء العادل، وهم الكامل محمَّد صاحب مصر، والمعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وطبرية وما جاورها، والأشرف موسى صاحب إقليم الجزيرة وخلاط وميافارقين(٤).

فقد صادف أن قام الأشرف موسى بزيارة أخيه الكامل محمَّد في مصر دون أن يصطحب معه أخاه المعظم عيسى، فظنَّ هذا الأخير أن أخاه يهدف من ما وراء هذه الزيارة إلى التحالف ضده، وشعر بأنه واقع تحت ضغط أخويه، فحرص على أن يثير لهما المتاعب في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، فهاجم حماة وحمص وتحالف مع مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وناصر الدين محمَّد صاحب ماردين،

---

(١) ابن بيبي: ص ١٢٨، ١٤٢.

(٢) ابن فضل الله العمري: ص ٥٥ ـ ٥٦. Boase: p 24.

(٣) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.

(٤) المرجع نفسه: ص ٣٢٣ ـ ٣٢٩.

ومسعود بن ناصر الدين محمود صاحب حصني كيفا وآمد. واتفق الجميع على مهاجمة ممتلكات الأَشرف موسى في إقليم الجزيرة بعد أن تمَّ التفاهم على اقتسام الحصص[1]، وشجَّع أخاه غازي، الذي ينوب عن الأَشرف موسى في إدارة مدينة خلاط، إلى التمرد، على أن الأَشرف موسى تمكَّن من قمع حركة التمرد هذه، فلم يسع غازي إلَّا الالتجاء إلى دعوة جلال الدين الخوارزمي للاستيلاء على ديار بكر. وترتَّب على هذا الاتصال بينهما، أن دعا المعظم عيسى الزعيم الخوارزمي إلى تكوين حلف هدفه انتزاع خلاط من الأَشرف موسى، مما أغضب هذا الأخير وحمله على فك تحالفه مع الكامل محمَّد. وقد طلب صاحب مصر من المعظم عيسى الرحيل عن حماة «فتركها وهو حنق».

كان ذلك بداية الخلاف بين المعظم عيسى من ناحية وأخويه الكامل محمَّد والأَشرف موسى من ناحية أخرى. غير أن الأَشرف موسى عمل على إعادة توحيد البيت الأَيوبي لمواجهة الخطر الخوارزمي المتزايد الذي بات يهدد أملاك الأَيوبيين، وكان أكثر شعوراً بذلك لمتاخمة بلاده للخوارزميين. فقام بزيارة لأخيه المعظم عيسى في دمشق، من أجل هذه الغاية، إلَّا أن هذا الأخير قبض عليه ولم يُفرج عنه إلَّا بعد أن أخذ عليه تعهداً بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة ومهاجمة الكامل محمد. وافق الأَشرف موسى مكرهاً ثم نكث بأيمانه عندما أفلت من يد أخيه. فاستنجد الكامل محمَّد بالأمبراطور الألماني فريدريك الثاني في حين طلب المعظم عيسى مساعدة جلال الدين الخوارزمي، واتفق معه على مهاجمة أخويه[2].

هذا ما يهمنا في الموضوع الخاص بالنزاع بين أبناء العادل الأَيوبي، والهدف منه تبيان التحالفات ومواقف أطراف النزاع في إقليم الجزيرة عندما قام كيقباد بمهاجمتها.

العمليات العسكرية

تحرَّك مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م) نحو الموصل حسب الخطة التي وضعها الحلفاء، في حين تقدم جلال الدين الخوارزمي من تفليس[3] باتجاه

---

(١) ابن الأَثير: جـ ٩ ص ٣٦٧.

(٢) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٣) تفليس: بلد بأرمينية الكبرى، وبعض يقول بأرَّان، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٥.

خلاط، إلّا أن عصيان نائبه في كرمان اضطره للعودة إلى هناك بعد أن نهب مناطق خلاط، وقد أثّرت عودته في معنويات حلفائه «فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه».

ويبدو أن مظفر الدين كوكبوري صمّم على تحقيق ما كان قد بدأ به، لذلك واصل تقدمه وعسكر على جانب الزاب، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل بالأشرف موسى، وكان آنذاك في الرقة، لإجلاء صاحب إربل عن الموصل. استجاب الأشرف موسى لطلب الاستغاثة، وحتى يخفّف الضغط عن الموصل، هاجم حرّان[١] ودُنَيسر[٢] وماردين، وطلب من كيقباد أن يتقدّم بقواته إلى آمد ويشنّ هجوماً عليها[٣].

بعد انفراط عقد الحلف الذي ذكرت، استغل مسعود بن ناصر الدين محمود خلو الساحة السياسية من حاكم قوي، والنزاع الأسري بين الأيوبيين، وانهماك كيقباد بتتبع أخبار التمدُّد الخوارزمي باتجاه الغرب، وقرَّر أن يستقلَّ بإمارته عن التبعية للسلاجقة، فسكَّ النقود باسمه، وخطب لنفسه[٤].

وإذ عزم كيقباد على التمدد باتجاه إقليم الجزيرة، وهو يبحث عن ذريعة للتدخل، عدَّ تصرف صاحب آمد تحدياً له وخروجاً على طاعته. وجاءت دعوة الأشرف موسى له بمثابة الضوء الأخضر، فجهَّز جيشاً كثير العدد، تجمَّع في ملطية، ثم انقسم إلى قسمين. انطلق القسم الأول إلى قلعة كختا[٥] بقيادة الأمير مبارز الدين جاولي، وتوَّجه القسم الثاني إلى قلعة جمكازاد[٦] الحصينة بقيادة الأمير أسد الدين كندسطبل.

وعندما وصل مبارز الدين جاولي إلى القلعة ضرب الحصار عليها ونصب المجانيق حولها. وأدرك صاحب آمد بعد هذا التطور العسكري أن ليس باستطاعته معاداة الأشرف موسى، فانضوى تحت لوائه، ولم يعد القتال ضرورياً. فأرسل هذا

---

(١) حران: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم. الحموي: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٢) دُنَيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين، بينهما فرسخان ولها اسم آخر هو قوج حصار. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٧٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٧.

(٤) ابن بيبي: ص ١١٨.

(٥) كختا: قلعة حصينة عالية البناء بينها وبين ملطية مسيرة يومين في طرف الحد الشمالي لبلاد الشام، على مرحلة من حصن منصور.

(٦) جمكازاد أو شمكازاد: قلعة ومدينة بين آمد وملطية. الحموي: جـ ٣ ص ٣٦٣.

الأخير عندئذ، رسالة إلى كيقباد يعلمه بذلك ويطلِب منه إعادة ما استولى عليه من صاحب آمد، ولكن كيقباد لم يجبه إلى ذلك وقال: «لم أكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني»[1]، فدبَّ النزاع بينهما.

أرسل الأَشرف موسى عندئذ، قوة عسكرية لمساعدة صاحب آمد تقدَّر بحوالي عشرة آلاف مقاتل بقيادة عز الدين بن البدر الحميدي واتفق المؤرخون على أنها وصلت في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يحاصرون قلعة كختا[2]، وجنَّد صاحب آمد قوة عسكرية تقدر بستة آلاف مقاتل انضمت إلى القوات الأَيوبية، وتوجَّه الحلفاء للقاء القوات السلجوقية[3]، واشتبك الطرفان في رحى معركة قاسية أسفرت عن انتصار السلاجقة ووقع ابن البدر أسيراً، واضطر سكان القلعة إلى طلب الأمان وسلَّموا قلعتهم إلى الأمير مبارز الدين جاولي[4].

ونجح القسم الثاني من الجيش في انتزاع قلعة جمكازاد بعد أن حاصرها وضربها بالمجانيق. ودخل أفراده عبر فتحة ثقبوها في السور، وفاجأوا حاميتها وسكانها[5]. ويذكر ابن الأثير أن السلاجقة فتحوا حصن منصور وحصن جمكازاد وغيرها[6].

أدرك صاحب آمد بعد هذه التطورات العسكرية السلبية، أنه لا قِبل له بمحاربة السلاجقة، وأن تحالفه مع الأَشرف موسى لم يخلِّصه من الضغط السلجوقي، لذلك قرَّر مصالحة كيقباد والدخول في طاعته، فأرسل إليه رسولاً مع الهدايا ورسالة اعتذار وندم، فقبلها كيقباد وعفا عنه[7].

التوسع السلجوقي في الشرق

أخذ الموقف السياسي لملوك وأمراء المنطقة يتغيَّر، في غضون ذلك، بفعل عودة جلال الدين خوارزمشاه إلى التدخل في شؤون بلاد الشام، فرأى كيقباد أن يبدأ بأخذ التدابير اللازمة للوقوف في وجهه قبل أن يهدِّد بلاده، وتصرف على محورين:

الأول: التقرب من الأَيوبيين، إذ أن مصلحته تقضي الآن بالتعاون معهم. فأطلق سراح عز الدين بن البدر وخلع عليه وأكرمه كبادرة حسن نية. ثم خطا خطوة أخرى، فرأى أن يتزوج بأميرة أَيوبية. فأرسل الأمير شمس الدين التونبي إلى بلاد الشام للقيام

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٩.

(٢) المصدر نفسه. ابن بيبي: ص ١١٨.

(٣) ابن بيبي: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٦) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٦٩.

(٧) ابن بيبي: ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

بطلب الزواج من ابنة العادل الأَيوبي، وساعده ابن البدرِ الذي استطاع أن يزيل الحقد القديم من نفوس الأمراء الأيوبيين تجاه السلاجقة. وأُجيب طلب السلطان، وعُقد النكاح بحضور ملوك الشام وديار بكر ونواحي بلاد الأرمن[(١)]. إلَّا أن هذا التعاون بقي مزعزعاً، لأن الأَشرف موسى ظل يخشى من توسع سلجوقي في بلاد الشام وبخاصة في خلاط.

الثاني: إقامة سياج من القلاع لحماية المناطق الحدودية. وقضت هذه الخطة بضمِّ أرزنجان[(٢)] وأرزن الروم وبعض القلاع الأخرى.

ابتدأ تنفيذ الخطة في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) على أثر وفاة الملك المنكوكجي فخر الدين بهرام شاه صاحب أرزنجان وحليف السلاطين السلاجقة، وقد خلفه ابنه علاء الدين داوود شاه الذي أجرى تغييرات في أجهزة الحكم، فقرَّب أتباعه وأبعد أعوان والده. ويذكر منجم باشي أن داوود هذا «مع علمه وفضله كان غافلاً مغفلاً عن تدبير الملك، منادماً للسفهاء. فحسَّن له قرناء السوء أن يقبض على أمراء أبيه ونصحاء دولته، فقبض عليهم، وصادر ممتلكاتهم، وقتل بعضهم»، ففرَّ الناجون منهم ملتجئين إلى كيقباد، وعرضوا عليه مشكلتهم مع ملكهم. فكتب السلطان إلى داوود شاه يأمره بإطلاق سراح الأمراء المسجونين، والعفو عن المضطهدين وإعادتهم إلى مناصبهم، لكن الأمير المنكوكجي اعتذر عن تلبية طلب السلطان بحجة أن هؤلاء الأمراء خالفوه وتحالفوا مع خصومه. لم يقتنع السلطان بهذه الحجَّة وهدَّد باستعمال القوة، فاضطر داوود شاه إلى الموافقة على تنفيذ طلب كيقباد[(٣)].

استخدم كيقباد الأمراء الذين أُعيدوا إلى مناصبهم، عيوناً له في أرزنجان، فتضايق داوود شاه، وقرَّر القيام بزيارة السلطان في قيصرية لعرض وجهة نظره أمامه، وإزالة الالتباس الحاصل بينهما. استقبله السلطان بحفاوة وخلع عليه وأكرمه. ويبدو أن داوود لم يطمئن إلى تطمينات السلطان، كما أن بعض الأمراء السلاجقة وقفوا ضده، وأخذوا يوغرون صدر السلطان عليه. وهكذا لم تحقق الزيارة ما كان يطمح إليه داوود شاه[(٤)].

---

(١) ابن بيبي: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) أرزنجان: بلدة طيبة مشهورة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط، قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن. الحموي: جـ ١ ص ١٥٠.

(٣) منجم باشي: الدولة المنكوكجية، ص ١٠٢.

(٤) ابن بيبي: ص ١٤٤ ـ ١٤٨.

وحتى يواجه الموقف، حاول داوود شاه إقامة حلف موجَّه ضد السلطان السلجوقي يضمه والملك ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم، وهو ابن عم كيقباد، وقد خوَّفه من أن ينقضَّ السلطان على أرزن الروم إن استولى على أرزنجان، وجلال الدين خوارزمشاه الذي كتب إليه بهذا المعنى، وعلاء الدين أمير البدو، والأشرف موسى الذي استصوب الأمر لأنه خشي من أن يستولي كيقباد على مدينة خلاط إن هو تمكَّن من ضم أرزنجان وأرزن الروم، فيشكِّل خطراً حقيقياً عليه، وأرسل إليه قوة عسكرية بقيادة الحاجب حسام الدين علي بن حماد(١).

ويبدو أن الحلفاء لم يتفقوا على حرب كيقباد وذلك بفعل اختلاف وجهات نظرهم، وكان ذلك لصالح القضية السلجوقية. فعادت القوات الأيوبية إلى بلادها، لكن وصولها إلى أرزنجان جعلت كيقباد يُحجم عن ضمِّ أرزن الروم.

انتقد الأمراء الموالون للسلاجقة في الدولة المنكوكجية، سياسة ملكهم وأجبروه على إرسال أولاده للاعتذار من السلطان، وقبل أن يصل الركب إلى قيصرية، كان كيقباد قد تحرَّك مع قواته إلى حدود أرزنجان بسريَّة تامَّة حتى يفاجىء داوود شاه، واضطر هذا الأخير تحت ضغط الأحداث إلى الخروج بنفسه لاستقبال السلطان والاعتذار أمامه على ما بدر منه. قبل السلطان اعتذاره وأهداه مدينة آق شهر، ثم دخل إلى أرزنجان وتسلَّمها منه، وأهداها إلى ابنه غياث الدين كيخسرو(٢).

ويذكر ابن الأثير أن كيقباد أرسل إلى داوود يطلب منه عسكراً ليسير معه إلى أرزن الروم ليحاصرها، ويكون هو مع العسكر، ففعل ذلك، وسار في عسكره إليه. فلما وصل قبض عليه وأخذ مدينة أرزنجان منه، ثم عزم على أن يستولي على قلاعه، فحاصر كماخ، وهو من أمنع حصونه، فاستعصى عليه، فتهدَّد داوود شاه إن لم يسلمه الحصن، فأوعز هذا الأخير إلى نائبه أن يسلمه إياه(٣). وهكذا ضمَّ كيقباد أرزنجان وكماخ وبعض الحصون الأخرى.

بعد أن فرغ من ضمِّ أرزنجان، توجَّه كيقباد إلى أرزن الروم لضمها هي الأخرى مع قلعة قوغونية، فخشي ملكها ركن الدين جهان شاه سوء العاقبة، لذلك أسرع بتقديم الخضوع للسلطان، واعتذر عما بدر منه. قبل كيقباد اعتذاره وأقرَّه على

---

(١) ابن بيبي: ص ١٤٤ ـ ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٩ ـ ١٥٠. منجم باشي: ص ١٠٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٧٧.

أرزن الروم[1]. ويذكر ابن الأثير أن كيقباد لم يهاجم أرزن الروم بل عاد مسرعاً إلى بلاده من أرزنجان بسبب وصول القوات الشامية إليها بقيادة الحاجب حسام الدين علي بن حماد بالإضافة إلى مهاجمة البيزنطيين ميناء سينوب[2].

ومهما يكن من أمر، فقد اكتفى كيقباد بما أبداه ركن الدين جهان شاه من اعتذار، فولاّه على أرزن الروم وعاد مسرعاً إلى بلاده، وترك قوة عسكرية بقيادة الأمير مبارز الدين أرتقش لضمِّ قلعة قوغونية. أما عن سبب عودته المفاجئة فهو مهاجمة أندرونيكوس كومنين حاكم طرابزون مينائي سمسون وسينوب.

والواقع أن الحاكم المشار إليه، استغل فرصة انهماك السلطان في شؤون الشرق ليستقلَّ مجدداً عن الحكم السلجوقي، وحتى يقوي موقفه كتب رسالة إلى جلال الدين خوارزمشاه يحضُّه على مهاجمة الأَراضي السلجوقية.

جاء الرد السلجوقي على الهجمات البيزنطية، سريعاً. فقد أرسل كيقباد أسطولاً بحرياً هاجم السواحل البيزنطية في ولاية هوني، وحاصر طرابزون التي كادت تسقط لولا أن هطلت الأمطار بغزارة. واضطرَّت القوات السلجوقية إلى فك الحصار والانسحاب، لكنها أسرت قائد القوات البيزنطية. وعلى الرغم من هذا الانتصار للقوات البيزنطية، فقد اضطر أندرونيكوس كومنين إلى تجديد المعاهدة مع كيقباد بعد أن أدرك أن السلاجقة والخوارزميين ربما توصلوا إلى نوع من التفاهم على أثر بدء المحادثات بينهما، ووافق على الاستمرار في دفع الجزية السنوية، وتقديم المساعدة العسكرية للسلطان عند الحاجة[3].

نجح مبارز الدين أرتقش في ضم قوغونية، إذ اتصف حاكمها مظفر الدين محمد بن بهرام شاه بالتعقل، فأدرك أن لا فائدة من المقاومة، فاستأمن الأمير السلجوقي وسلَّمه القلعة مع نواحيها، وخرج مع أولاده الثلاثة إلى السلطان، فأكرمه وعوَّضه ببعض القلاع على حدود بلاد الشام منها قيرشهر[4].

وهكذا تمكَّن كيقباد من إقامة سياج حدودي يحمي بلاده من الخطر الخوارزمي الزاحف باتجاه الغرب.

---

(١) ابن بيبي: ص ١٥١.
(٢) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٣٧٧.
(٣) Camb. Med. Hist: vol IV p 515. Camb. Hist. of Islam: vol I p 247.
(٤) ابن بيبي: ص ١٥٢. منجم باشي: ص ١٠٣.

رحل جلال الدين خوارزمشاه إلى الهند بعد أن خسر معركة السند أمام جنكيزخان في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)[١]، والتجأ إلى شمس الدين ألتمش سلطان دلهي[٢]، فأجاره، وعرض عليه أن يزوِّجه ابنته لتمتين أواصر الصداقة بينهما[٣]. غير أن ما لجأ إليه جلال الدين من التآمر، فضلاً عما اشتهر به من البسالة، أثار شكوك ألتمش[٤]، كما خشي عاقبة الأمر عندما علم بأن القوات المغولية تجدُّ في البحث عنه، فحاول عندئذ إبعاده، وتحالف مع أمراء الهند الآخرين لطرده من البلاد.

لم يسع جلال الدين، تجاه هذا الضغط، إلّا أن يغادر الهند، وتوجَّه إلى كرمان حيث التفَّت حوله بقايا جيوش أبيه، فعبر وإياهم نهر السند في عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وأسرع إلى الأقاليم القريبة من دولته[٥]، فدخلت كرمان في طاعته، ورحَّبت به أتابكية فارس، وانتصر على أخيه غياث الدين في معركة بالقرب من الري[٦]، ودخل في طاعته حكام المدن والأقاليم المختلفة الذين استقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العجمي في مرحلة الفوضى التي أعقبت رحيل جنكيزخان عن البلاد الإسلامية[٧]، ولم تنته السنة المذكورة حتى سيطر على الهضبة الفارسية وأذربيجان واتخذ أصفهان عاصمة له.

وإذ استطاع السلطان الخوارزمي أن يسيطر، إلى حين، على بعض أقاليم الدولة الخوارزمية، فقد كان ذلك عائداً إلى عدم اهتمام المغول، في المدة التي أعقبت عودته من الهند، بأمور الدولة الخوارزمية بخاصة وشؤون غربي آسيا بعامة[٨].

لقد شُغِل المغول بعد وفاة جنكيزخان في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) بشؤونهم الداخلية والاستعداد لانتخاب خلف لزعيمهم الراحل. فعاد كافة الحكام والأمراء

---

(١) النسوي: ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) شمس الدين ألتمش: أحد أرقاء الترك في الدولة الغورية، وقد ذهب إلى الهند بعد سقوط هذه الدولة وأسَّس إمارة في الجزء الشمالي من البلاد.

(٣) النسوي: ص ١٦٨.

(٤) العريني: ص ١٦٦.

(٥) الجويني: جـ ٢ ص ٥٠ ـ ٥٢. D'Ohsson: vol III pp 3 - 4.

(٦) النسوي: ص ١٧٤ ـ ١٧٩.

(٧) حمدي: ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٨) المرجع نفسه: ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

والقادة إلى العاصمة قراقورم ليشهدوا أو ليشاركوا في هذا الحدث، مما أعطى جلال الدين خوارزمشاه فرصة من الراحة والأمان استغلهما للتوسع غرباً[(١)].

وبدلاً من أن يعمل هذا الزعيم الخوارزمي، في ذلك الوقت، على حماية العالم الإسلامي من خطر المغول، قام بمهاجمة الخليفة العباسي الناصر لدين الله واستولى على بغداد[(٢)]، ثم هاجم أذربيجان واحتل تبريز، واتخذها قاعدة للوثوب على بلاد الكرج[(٣)].

وإذ جاورت أملاكه أراضي الأيوبيين وسلاجقة الروم، أضحى الاصطدام أمراً لا مفر منه، في ظل افتقاره إلى الروح السياسية. لقد استغل النزاع بين الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة ومصر للاستيلاء على مدينة خلاط الواقعة على بحيرة ڤان في أعالي نهري دجلة والفرات، وكانت من ممتلكات الأشرف موسى. فهاجم المدينة أولاً في عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها نظراً لشدة لمقاومة التي أبداها السكان، فاضطر إلى رفع الحصار عنها[(٤)]، ثم حاصرها مرة ثانية في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) واستولى عليها عنوة[(٥)].

علاقة السلاجقة بالخوارزميين

الواقع أن جلال الدين خوارزمشاه، مع افتقاره إلى السياسة المرنة، أراد أن يحول دون عقد تحالف إسلامي جديد ضده. وعندما شعر بضغط الأيوبيين، بعد إبرام الصلح بين الأخوين المعظم عيسى والأشرف موسى[(٦)]، حاول استقطاب كيقباد إلى جانبه حتى يقوِّي موقفه من جهة ويحول دون انضمامه إلى الأيوبيين من

---

(١) الجويني: جـ ١ ص ١٧٣ ـ ١٧٦. حمدي: ص ١٧٤.

(٢) النسوي: ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٤) من بين الأسباب التي دفعت جلال الدين خوارزمشاه إلى رفع الحصار عن خلاط، اشتداد البرد في ذلك الوقت وتساقط الثلج، أضف إلى ذلك أن بعض القبائل التركية كانت تهدِّد أملاكه في أذربيجان، لذلك لم ير بدأ من السير لإنقاذها. وهناك سبب آخر لا يمكن إغفاله، وهو أن الصلح الذي تمَّ بين المعظم عيسى والأشرف موسى، دفع بالمعظم عيسى إلى أن يرسل إلى جلال الدين يرجوه أن يرفع الحصار عن المدينة. انظر تفاصيل هذه الأحداث عند ابن واصل جـ ٤ ص ١٩٠ ـ ٢٠٢. وقارن بالنسوي: ص ٢٩٩، ٣٢٠ ـ ٣٢٤.

(٥) النسوي: المصدر نفسه. وقارن بالجويني: جـ ٢ ص ٧٧ ـ ٨٢، حيث تفاصيل مسهبة حول كيفية استيلاء جلال الدين على المدينة.

(٦) يُسهب ابن واصل في تفاصيل وملابسات هذا الصلح. جـ ٤ ص ١٧٩ ـ ١٨١.

جهة أخرى، فأرسل إليه رسالة حملها قاضي القضاة مجير الدين بن عمر الخوارزمي، ضمَّنها عرضاً بفتح باب المودة والصداقة بينهما، وعقد حلف يجمع كافة القوى الإسلامية، ضد المغول[١].

لم يُظهر كيقباد في بادىء الأمر، شيئاً من الكراهية لجلال الدين خوارزمشاه الذي لم يهدِّد سوى أرزن الروم التي كان حاكمها معادياً له، فضلاً عن تهديد أملاك الأشرف موسى على الأطراف الشمالية الشرقية لبلاد الروم، إلَّا أنه خشي من أطماعه المستقبلية، ومع ذلك وافق على تبادل الآراء معه، وأرسل إليه رسالة جوابية وهدايا مع الأميرين شمس الدين التونبي الجاشنكير وكمال الدين كاميار بن إسحاق قاضي أرزنجان، إلَّا أن شيئاً من التفاهم لم يحصل بسبب التناقض في التفكير السياسي لكلا الرجلين، فقد نصح كيقباد جلال الدين بأن:

- يفك الحصار عن مدينة خلاط.
- يتوقف عن محاربة المسلمين.
- يوجه جهوده العسكرية نحو أرَّان.
- يعقد صلحاً مع المغول لوقف اعتداءاتهم على العالم الإسلامي، بعد أن ثبت عجزه عن مقاومتهم[٢].

ومن أجل ذلك، أهان جلال الدين خوارزمشاه أعضاء الوفد السلجوقي بحجَّة أن الهدايا لا تليق بمقامه، بل إنه اعتقد أن الخطر السلجوقي على بلاده، أشدُّ من الخطر المغولي. فكتب أجوبة مموهة إلى كيقباد، فيما يتعلَّق بخلاط، وأنه مستعد للاعتذار إذا بدر منه شيء. ويذكر ابن العبري بأن جلال الدين أجاب كيقباد بأنه يتعذر عليه التخلِّي عن خلاط[٣].

كان طرد الرسل والجواب السلبي، شؤماً على جلال الدين خوارزمشاه، الذي استولى على خلاط، وتوضَّحت نواياه في غزو بلاد الروم، وبخاصة أنه حظي بتأييد ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم[٤]، لأن ذلك دفع كيقباد إلى التحالف مع الأيوبيين لمناهضته. وفعلاً عُقد حلف ضمَّه مع الأشرف موسى وأخيه الكامل محمَّد

---

(١) ابن بيبي: ص ١٥٤. Howorth: vol I p 129.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٧، ١٦٢. النسوي: ص ٣١٨.

(٣) ابن بيبي: ص ١٦٤. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٧٦. Camb. Hist. of Islam: vol I p 247.

(٤) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ١٦٥.

وأمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين[1] وقد جمعتهم مصلحة مشتركة تمثَّلت بمقاومة الزحف الخوارزمي.

جهَّز كيقباد جيشاً قوامه عشرون ألف مقاتل، أرسل عشرة آلاف منهم إلى أرزنجان وأبقى عشرة آلاف معه[2]. وأرسل كمال الدين كاميار إلى الملوك الأيوبيين يطلب منهم إمداده بعشرة آلاف مقاتل. ويبدو أن هؤلاء تلكأوا عندما رأوا أن القضية وصلت إلى حد السيف، غير أن كاميار أقنعهم بصوابية التعاون الجدِّي مع السلاجقة[3].

وزحف الكامل محمَّد على رأس جيش كثير العدد إلى حرَّان، ولما وصل إليها جاءته الأخبار من مصر بأن الصليبيين نزلوا على شواطىء هذا البلد وتعدادهم أكثر من مائة ألف مقاتل، فغادر المنطقة على وجه السرعة عائداً إلى مصر، وأرسل رسالة اعتذار إلى كيقباد[4]، في حين وصل الأشرف موسى على رأس خمسة آلاف مقاتل إلى سيواس[5].

انطلقت القوات المتحالفة من سيواس إلى آق شهر ثم إلى خلاط، في الوقت الذي كان فيه جلال الدين خوارزمشاه في مانزيكرت، فزاره فيها ركن الدين جهان شاه صاحب أرزنجان وأخبره باتفاق ملوك الروم والشام على حربه، واقترح عليه ضربهم قبل أن يجتمعوا[6]، فوافق على اقتراحه، وخرج على رأس قواته البالغة أربعين ألفاً إلى جبل ياسي حمار من أعمال أرزنجان[7]، وعسكر على الماء والكلأ، منتظراً وصول أعدائه إلى هذه المنطقة، فرادى، فيضربهم الواحد تلو الآخر، ولم يدر أن هؤلاء قد انطلقوا معاً. وعندما وصلت طليعة القوات المتحالفة المؤلَّفة من أربعة آلاف مقاتل بقيادة مبارز الدين جاولي إلى المنطقة وجدت القوات الخوارزمية قد

---

(١) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤. حمدي: ص ١٨٤.

(٢) ابن العبري: ص ٢٧٥.

(٣) ابن بيبي: ص ١٦٥.

(٤) المصدر نفسه. يذكر المؤرخون المسلمون عدة أسباب لرحيل الكامل محمَّد إلى مصر، ولا يذكرون من بينها مجيء الصليبيين. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد: السلوك في معرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٧١.

(٥) ابن بيبي: المصدر نفسه: ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٦) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤.

(٧) يذكر الجويني أن المعركة جرت في صحراء موش من أعمال خلاط. المصدر نفسه.

سبقتها. ولما حاول القائد السلجوقي استكشاف المنطقة وقع في كمين[1]. وعندما علم كيقباد بانهزام طليعته، اجتمع مع الأَشرف موسى، وأطلعه على حقيقة الوضع، واتفقا على الثبات، ومواجهة العدو بروح معنوية مرتفعة، إذ أن انهزام الطليعة لا يعني انهزام الجيش. وفعلاً لم تؤثِّر هذه الهزيمة في معنويات الحلفاء الذين التحموا بالقوات الخوارزمية في (رمضان ٦٢٧هـ/ آب ١٢٣٠م) وهزموها. وغادر جلال الدين خوارزمشاه أرض المعركة خشية على نفسه، وعاد إلى أذربيجان[1].

توجهت القوات المتحالفة بعد انتصارها إلى أرزن الروم واستولت عليها. وعفى كيقباد عن ركن الدين جهان شاه بشفاعة الأَشرف موسى ومنحه آقسرا وتوابعها تعويضاً عن أرزن الروم[2]. وفي رواية أن صاحب أرزن الروم قاتل عن نفسه أمام مدينته، ووقع أسيراً في أيدي القوات السلجوقية، فحمل مقيداً إلى السلطان الذي أمر باعتقاله، وظلَّ معتقلاً إلى أن مات[3]. وذكر النسوي أن ركن الدين حُمل على بغل إلى السلطان «فقُتل مظلوماً ودُفن مرحوماً»[4]. وروى ابن العبري أن كيقباد تزوَّج أخت ركن الدين وكان مغرماً بها، ولما طلبت منه الإفراج عن أخيها بعد أن اعتقله، سخط عليها وقتلها وأغرق أخاها في البحر[5].

ومهما يكن من أمر، فقد أرسل كيقباد قوة سلجوقية تضم ألف فارس بقيادة مبارز الدين الجاشنكير، مع الأَشرف موسى نحو خلاط، فدخلها ظافراً وأصلح أحوالها ورمَّمها[6]، وبذلك استرد صاحب حلب مدينة خلاط.

عودة المغول إلى الغرب

عندما رحل جنكيزخان إلى بلاده، ترك الأقاليم الخوارزمية خاوية على عروشها. ثم شُغِل المغول بالمشكلات الداخلية التي واجهتهم في هذه المرحلة وأهمها ثورة قبائل التايجوت، ومحاربة أمبراطورية سونغ في النصف الجنوبي لبلاد الصين. على أن جنكيزخان توفي قبل أن يتم مشروعه[7]. وظلَّت أوضاع أمبراطوريته

---

(١) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤. النسوي: ص ٣٣٠ ـ ٣٣١. ابن العبري: ص ٢٧٦. ابن بيبي: ص ١٦٩، ١٧٢ ـ ١٧٥.

(٢) الجويني: المصدر نفسه ص ٨٤ ـ ٨٥. ابن بيبي: المصدر نفسه ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢. ابن واصل: جـ ٤ ص ٣٠٠.

(٤) سيرة جلال الدين منكبرتي: ص ٣٣٥.

(٥) تاريخ الزمان: ص ٢٧٧.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) الجويني: جـ ١ ص ١٧٥. حمدي: ص ١٦٢.

مضطربة بعد وفاته إلى أن انْتُخِبَ أوكتاي بن جنكيزخان خاقاناً[1] جديداً في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)[2] فأخذ على عاتقه إعادة إخضاع الدولة الخوارزمية والتوسع باتجاه الغرب.

ويبدو أن تدمير المدن الخوارزمية لم يشجع المغول على الإقامة فيها باستثناء مدن إقليم ما وراء النهر، كما لم يشجع جلال الدين الخوارزمي بعد عودته من الهند، على الاهتمام بإعادة تعميرها، لذلك تركَّز الصراع بين الطرفين في الأقاليم الغربية للدولة الخوارزمية، لكن ذلك لم يمنع المغول من غزو الأقاليم شبه المهجورة بين حين وآخر على شكل حرب عصابات، فوصلوا أحياناً قريباً من الري، واقتربوا أحياناً أخرى من أصفهان، وفي مطلق الأحوال، كانوا يعودون مسرعين إلى بلاد ما وراء النهر[3].

ويبدو أن أوكتاي قرَّر الاهتمام بشؤون الغرب مرة أخرى بعد أن علم بمحاولة جلال الدين الخوارزمي إعادة إحياء الدولة الخوارزمية. فأرسل في عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) جيشاً لقتاله قوامه ثلاثون ألفاً بقيادة اثنين من أشهر قادته هما نويان جرماغون وبايجو[4]. واستفاد مما خلَّفه المغول في حروبهم السابقة في خراسان، من الخراب والدمار والخوف، فلم تصادف قواته أي مقاومة أثناء اختراقها لهذا الإقليم إلى أن وصلت إلى الأقاليم الغربية. وكان المغول قد استولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد إلى حدود أذربيجان[5].

اقتصر اهتمام المغول في هذه المرحلة على مطاردة جلال الدين خوارزمشاه والقضاء عليه. فهرب من أمامهم وقد مُلِىء رعباً وخوفاً، وبخاصة أن قواته انقسمت على نفسها. ولم يسعه إلَّا أن يغادر تبريز إلى سهول مراغة وموقان عند مصب نهري

---

(١) لفظة خاقان هي الصورة العربية للقب التركي قاغان الذي كان يُطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي، ومعناه رئيس الرؤساء. وقد استعمل أولئك الترك المتقدمون لقب قان أو خان أيضاً بمعنى قاغان، وربما كان اختصاراً له. ولبث هذا الاستعمال شائعاً بين الترك حتى أيام ملوك المغول، فأضحت كلمة قاغان أو قان تطلق على ملك المغول الأعظم، واختص لقب خان على الملوك الذين يتولون حكم جزء من الأمبراطورية المغولية.

(٢) الجويني: جـ ١ ص ١٧٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٣. D'Ohsson: vol III p 27.

(٤) الجويني: جـ ٢ ص ٨٥. Howorth: vol I p 130.

(٥) المصدر نفسه: ص ٧٢. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٣.

الرس والكرج في المنطقة المجاورة للساحل الغربي لبحر قزوين[١].

وإذ شعر بتعقُّب المغول له، توجَّه إلى خلاط للاحتماء بها، وطلب مساعدة كل من الخليفة العبَّاسي والأشرف موسى وبعض الأمراء المسلمين الآخرين، لكن أحداً لم ينهض لمساعدته، فاضطر إلى ترك خلاط وتوجَّه إلى آمد، فلحق المغول به، واصطدموا بقواته وتغلَّبوا عليها[٢]، فانحازت طائفة منهم إلى حرَّان، فتصدَّت لها عساكر الكامل محمَّد، وانتزعت منها أسلحتها وتجهيزاتها. وتوجَّهت طائفة أخرى إلى نصيبين والموصل وسنجار وإربل وغيرها، فحاربتهم العامة والخاصة انتقاماً لما فعلوه في خلاط وغيرها من المدن. ولجأ جلال الدين خوارزمشاه إلى جبال كردستان حيث قُتل هناك بيد أحد الأكراد في عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)[٣].

وتجمَّعت القوات الخوارزمية من جديد في إقليم الجزيرة حتى يكونوا بعيدين عن متناول المغول، ومن ثَمَّ صاروا يؤجِّرون أنفسهم للأمراء الأيوبيين المتنافسين، ثُمَّ انحازوا إلى كيقباد الذي استخدمهم لحماية حدود بلاده من الخطر المغولي، قبل أن يندمجوا في جيشه، واشتركوا في قتال الأيوبيين في آسيا الصغرى وأعالي الجزيرة.

تقدم المغول إلى أذربيجان، واستولوا على مراغة وتبريز حاضرة الإقليم، ثم أجهزوا على المدن الواحدة تلو الأخرى. وبذلك أضاف جرماغون كل شمال إيران وأذربيجان إلى الأمبراطورية المغولية[٤]، ثم أغار على بلاد الكرج واستولى على الشطر الشرقي من البلاد[٥].

وهاجم المغول ديار بكر ودخلوا إربل وخرَّبوها وقتلوا من ظفروا به من أهلها. وسيطروا بين عامي (٦٢٩ ـ ٦٣٩هـ/ ١٢٣١ ـ ١٢٤١م) على أذربيجان وأرَّان وحاني وقارس[٦]. وما حدث من ظهورهم في أعالي الفرات، أثار الذعر والخوف في بلاد الشام، وأضحى من المتوقع إقدامهم على غزو العراق وإقليم الجزيرة وآسيا الصغرى. وعلى الرغم مما أثاروه من الخوف والرعب في نفوس الأمراء المسلمين، لم يؤد ذلك إلى اتحادهم[٧].

---

(١) الجويني: جـ ٢ ص ٨٧.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٤. Howorth: vol I p 130.
(٣) النسوي: ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٣، ٣٨٦.
(٥) العريني: ص ١٧٦.
(٦) Howorth: vol I p 132.
(٧) المرجع نفسه: ص ١٧٥.

وظهر المغول في عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) في نواحي سيواس، فقتلوا كثيراً من الناس وغنموا كثيراً من المواشي، وعندما علم كيقباد بذلك انتابه القلق وأمر كمال الدين كاميار بالتصدي لهم، ولما وصل إلى سيواس كان المغول قد غادروها[١].

استئناف التوسع السلجوقي باتجاه الشمال

التوغل السلجوقي في بلاد الكرج

حدث عندما استولى المغول على بلاد الكرج أن فرَّت الملكة روسودان من وجههم. على أن الكرجيين تأقلموا مع الاحتلال المغولي وآثروا المغول على الخوارزميين والسلاجقة، وأضحوا من أتباعهم. ونبذت روسودان، بناء على تحريض المغول، طاعة الدولة السلجوقية، فأمر كيقباد بناء على هذه الحجة أن يستولي على بلاد الكرج، فأرسل جيشاً إليها بقيادة كمال الدين كاميار ومبارز الدين جاشنكير، توغل في ربوعها وفتح ثلاثين قلعة منها خاخ ونخاخ[٢]. وعندما علمت الملكة روسودان بأخبار التوغل السلجوقي آثرت مهادنة السلاجقة، لأن قواتها كانت منهكة بفعل الحرب مع المغول، فعرضت الصلح والمصاهرة بتزويج ابنتها تامار من غياث الدين كيخسرو بن كيقباد، والراجح أن الزيجة تمَّت في عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)[٣].

استئناف التوسع السلجوقي على حساب الأيوبيين

اختلَّ ميزان القوى من جديد بعد مقتل جلال الدين خوارزمشاه واختفائه عن المسرح السياسي، وكان من المفروض في ذلك الوقت أن يستمر التحالف السلجوقي الأيوبي لمواجهة الخطر المغولي، لكن كيقباد أراد أن يستغل:

- الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين خوارزمشاه وقيام جنوده المتفرقين في النواحي بالعبث وقطع الطرق والتعدي على الآمنين.
- انهماك الأشرف موسى في شؤون بلاد الشام وعدم اهتمامه بالأطراف النائية لمملكته.
- تحرك المغول بحرية باتجاه الغرب.
- فراغ الساحة السياسية من منافس له في شرقي الأناضول.

---

(١) ابن بيبي: ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٤.

وليتوسع في الحوض الأوسط لنهر الفرات على حساب الأَيوبيين في خلاط والرها وحرَّان، أرسل جيشا إلى بلاد الأرمن في عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) بقيادة كمال الدين كاميار لضم خلاط وبدليس والتوغل حتى نواحي تفليس.

نجح القائد السلجوقي في الدخول إلى خلاط وتوغل في بلاد الأرمن وضمَّ كل الحصون الشرقية[١]. استتبَّ الأمر للسلاجقة في هذه المناطق، وأرسل كيقباد بعض الأمراء والاختصاصيين لإنعاشها[٢]، مما دفع من هجرها من السكان إلى العودة إلى مساكنهم وأَراضيهم، وعيَّن سنان الدين قايماز حاكماً عاماً عليها[٣].

وحتى يمتص الفوضى الناجمة عن عبث بقايا الجنود الخوارزميين، وبهدف استخدامهم في مشروعاته التوسعية ومنعهم من الدخول في خدمة الأَيوبيين؛ استقطب كيقباد هؤلاء الجنود عن طريق توزيع الإقطاعات على قادتهم، فأعطى أرزنجان لخير خان ومنح بركة مدينة أماسية، وأقطع كسلو سنغام مدينة لارندا، ومنح يلان نوغو مدينة نكيدة[٤].

أثار توسع كيقباد في بلاد الأرمن، وسيطرته على خلاط التابعة للسيادة الأَيوبية، وضمُّه لبعض فلول الخوارزميين؛ الخوف في نفوس الأَيوبيين، والمعروف أنه ما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين السلاجقة والأَيوبيين، تصادمت أطماعهم[٥]، لذلك نهض الأَيوبيون لمحاربة السلاجقة وتحجيم دورهم الفاعل ووضع حد لأطماعهم.

وشكَّل الكامل محمَّد الأَيوبي حلفاً مكوناً من الملوك والأمراء الأَيوبيين لمحاربة كيقباد، فخرج من مصر في (شهر شعبان ٦٣١هـ/ شهر أيار ١٢٣٤م) على رأس جيش أيوبي، متوجهاً إلى دمشق، ولما وصل إليها، كتب إلى الملوك والأمراء الأَيوبيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة يأمرهم بالتجهز والمسير بقواتهم إلى بلاد الروم، ثم غادر دمشق إلى آسيا الصغرى، فمرَّ بسلمية، ومنبج حيث قدم إليه عسكر حلب. والجدير بالذكر هنا أن العزيز صاحب حلب لم يترأس هذا الجيش لأن كيقباد كان قد أنذره بعدم الخروج من المدينة لمساعدة الكامل محمَّد، وقد تفهَّم هذا

---

(١) ابن بيبي: ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) Camb. Hist. of Islam: vol I p 248.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩١.

(٥) العريني: ص ١٧٧.

الأخير وضع العزيز، فأعفاه من الخروج بنفسه[1].

اجتمع لدى الكامل محمَّد ستة عشر ملكاً وأميراً أيوبياً، وقيل ثمانية عشر[2]، بالإضافة إلى قوات أسد الدين شيركوه صاحب حمص[3]، فاغترَّ بنفسه وقال: «هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام»[4]، ثم أعطى أوامره بالتحرك نحو الدربند[5]، فنزل على النهر الأزرق، وهو أول بلد الروم، ليعبر إلى داخل البلاد[6].

عندما علم كيقباد بأخبار مسير القوات الأيوبية باتجاه بلاده، استعدَّ للمواجهة، فأمر كمال الدين كاميار بأن يمضي مسرعاً بمن حضر من الجيش نحو آق شي الواقعة على الحدود الشامية لعرقلة تقدم القوات الأيوبية، حتى يصل كامل الجيش السلجوقي[7].

توجَّه كاميار نحو المنطقة الحدودية، وسدَّ المعابر بالحجارة وبنى سوراً على رأس الدربند ليوقف تقدم القوات الأيوبية، ثم صعد مع جنوده إلى رؤوس الجبال ليرميها بالنبال.

وصل الجيش السلجوقي الرئيسي بعد يومين معززاً بالجنود الخوارزميين، وعسكر داخل حدود بلاده مقابل الجيش الأيوبي، وفصل الدربند بينهما[8]. وجرت، في بادىء الأمر، مناوشات بين الطرفين كان النصر فيها حليف الطرف السلجوقي. فكانت القوات السلجوقية تعبر المضائق وتصطدم بالقوات الأيوبية داخل حدود بلادها ثم تعود أدراجها، وقد أسرت في إحدى هجماتها صواب الخادم العادلي وهو أحد الأمراء، والمظفر صاحب حماة، فحُملا إلى كيقباد، فأكرمهما وأطلق سراحهما[9].

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه. وقارن بالمقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.

(٣) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة جـ ٦ ص ٢٨٢.

(٤) المقريزي، جـ ١ ص ٣٦٩.

(٥) المراد بها هنا المعابر الضيقة الواقعة شمال البيرة والنهر الأزرق، والتي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٨٤. اليونيني: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٨٢.

(٧) ابن بيبي: ص ١٩٢.

(٨) المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٨٤. اليونيني: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٩) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.

ويبدو أن القوات الأَيوبية واجهت ثلاث مشكلات تمثَّلت في:

- تناقص الأقوات.

- امتناع الدربند بسبب الاستحكامات التي أقامها السلاجقة.

- نشوء خلافات حادة بين الملوك الأَيوبيين، إذ أن الكامل محمَّد أراد التفرد بحكم بلاد الشام فقال لأتباعه: «إن صار لنا ملك الروم، فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم بدل ما بأيديهم ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى مصر»[(١)].

وعلم المجاهد صاحب حمص بنوايا الكامل محمَّد، فأخبر الأَشرف موسى وقال له: «إن حكم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا»، فتوجس الأَشرف موسى خيفة من ذلك، وبخاصة أنَّه كان حذراً من نوايا الكامل محمَّد لأنه طلب الرقة منه فرفض وقال له: «أما يكفيك كرسي بني أمية»[(٢)]، يعني دمشق.

وهكذا وقع الشقاق بين الأيوبيين، فانسحب الأشرف موسى مع بني عمه وأقاربه من التحالف، وكتبوا إلى كيقباد بذلك، لكن الكتب وقعت في أيدي الكامل محمد فكتمها[(٣)].

نتيجة لهذه المتغيرات في المواقف السياسية التي سبَّبها تصرف الكامل محمَّد اللامسؤول، قرَّر هذا الأخير الانسحاب من المنطقة والعودة إلى بلاد الشام، فعبر الفرات ونزل في السويداء القريبة من آمد، فجاء إليه حليفه حاكم حصن زياد الأرتقي، وحرَّضه على مواصلة القتال، وأخبره بأنه يعرف طريقاً سهلاً للدخول إلى بلاد الروم. ويبدو أن الأمير الأرتقي خشي من أن يهاجم كيقباد بلاده بعد رحيل القوات الأَيوبية، فتصرَّف على هذا الشكل. اقتنع الكامل محمَّد بوجهة نظر الأمير الأرتقي، فأمدَّه بخمسة آلاف جندي بقيادة ولده الصالح نجم الدين أيوب وابن أخيه الناصر داوود بن المعظم مع صواب الخادم العادلي[(٤)].

ويذكر اليونيني أن الكامل محمَّد أرسل المظفر صاحب حماة والطواشي شمس الدين صواب العادلي، وكان من أكابر الأمراء، وفخر الدين البانياسي، على رأس ألفين وخمسمائة فارس للدخول إلى بلاد الروم من جهة الحصن[(٥)].

---

(١) اليونيني: جـ ١ ص ١٣١. ابن واصل: جـ ٢ ص ٧٧.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.

(٤) ابن بيبي: ص ١٩٤.

(٥) ذيل مرآة الزمان: جـ ١ ص ١٣١. وقارن بالمصدر نفسه. ابن واصل: جـ ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.

تقدمت القوات الأيوبية باتجاه حصن زياد وعسكرت في لحف إحدى التلال استعداداً للمواجهة. أما القوات السلجوقية التي بلغت اثني عشر ألف مقاتل، فقد نصبت جسوراً على نهر الفرات، عبرت عليها، وعسكرت مقابل القوات الأيوبية[١].

ودارت بين الجيشين مناوشات تخلَّلها كر وفر قبل أن يصطدما في معركة حاسمة هُزم فيها الجيش الأيوبي إثر هجوم شامل، بدأه سعد الدين كوبك قائد ميسرة الجيش السلجوقي على ميمنة الجيش الأيوبي التي لم تصمد أمام الهجوم، فتشتَّتت واختل نظام الجيش الأيوبي، عندئذ انقض الجيش السلجوقي على بقية الجيش الأيوبي وهزمه، وقُتل من الأيوبيين عدد كبير وأسر سبعمائة واحتمى من نجا في حصن زياد[٢].

وصل في هذه الأثناء السلطان كيقباد على رأس بقية الجيش، وتقدم نحو حصن زياد وحاصره مدة أربعة وعشرين يوماً حتى سقط. وطلب السكان الأمان على أنفسهم وأموالهم فمنحوا إياه مقابل خروج الأمراء والقادة من الحصن بأقل ما يمكن حمله، فعاد هؤلاء إلى بلاد الشام سيراً على الأقدام بناء لأوامر السلطان[٣]. وتسلَّم كيقباد الحصن في (شهر ذي القعدة ٦٣١هـ/ شهر آب ١٢٣٤م) فامتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات، ثم ما لبث أن ضمَّ ست قلاع أخرى كانت تابعة للأراتقة[٤].

خلت المنطقة من الدفاعات بعد رحيل الأيوبيين عنها، وأضحى هناك فراغ سياسي وعسكري حاول كيقباد أن يحتويه، فقرَّر ضمَّ حرَّان والرها والرقة وتوابعها[٥]. فأرسل جيشاً ضخماً تعداده خمسون ألف مقاتل بقيادة كمال الدين كاميار من أجل هذه الغاية[٦].

تمكَّن القائد السلجوقي من ضمِّ حران بعد حصار، كما ضمَّ الرقة، واستسلم له سكان حارم، ودخل الرها بعد أن دكَّ أسوارها وسقطت البيرة في يده.

ويبدو أن الأيوبيين لم يستسلموا بسهولة للتحدي السلجوقي، وصمَّموا على استعادة المناطق التي انتزعها السلاجقة منهم. فاستغلَّ الكامل محمَّد عودة القوات السلجوقية إلى بلادها وكرَّ على مدن الجزيرة في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م)، فاستعاد

---

(١) اليونيني: جـ ١ ص ١٣١. ابن بيبي: ص ١٩٤.
(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ١٩٥.
(٣) ابن بيبي: ص ١٩٥ ـ ١٩٨. اليونيني: جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.
(٥) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٧٧.
(٦) ابن بيبي: ص ١٩٩.

الرها وحرَّان وخرَّب دُنَيسر وأخذ قلعة السويداء، وأسر من كان في هذه المدن من السلاجقة وحملهم مقيدين إلى مصر.

والواقع أن الكامل محمَّد فتح مجدداً باب الصراع بين الطرفين السلجوقي والأَيوبي حيث كان رد الفعل السلجوقي سريعاً وعنيفاً. فحاصرت القوات السلجوقية آمد وخرَّبت دارا الواقعة بين نصيبين وماردين، وهاجمت القوات الخوارزمية نصيبين وأحرقتها، كما نفَّذت حملات شديدة ضد سنجار انتقاماً لموقف الظاهر غازي وبدر الدين لؤلؤ والأمير منصور الأرتقي صاحب ماردين، من جلال الدين خوارزمشاه الذي كان قد التجأ إليهم هرباً من المغول، ولم يبالوا به. وتعرَّض السكان والمدينة للقتل والنهب والإحراق[1].

وفاة كيقباد

بدأ الاحتكاك الفعلي بين السلاجقة والمغول إثر توغل هؤلاء حتى حدود سلطنة سلاجقة الروم، فأرسلوا رسالة إلى السلطان السلجوقي، حملها إليه شمس الدين عمر القزويني، يطلبون منه الدخول في طاعتهم ويحذرونه عاقبة العصيان. وبعد إجراء مباحثات مع المبعوث المغولي، قَبِل كيقباد الاستجابة لمطلبهم، إذ أدرك بثاقب بصره أن من حسن السياسة مهادنتهم في هذا الوقت. وكتب رسالة جوابية بهذا المعنى وجهَّز الهدايا لأمرائهم، غير أنه توفي قبل مغادرة الوفد المغولي بلاد الروم، وكان ذلك في (٣ شوال ٦٣٤هـ/ ٣٠ حزيران ١٢٣٧م)، فقام ابنه وخليفته غياث الدين كيخسرو الثاني بإتمام ما بدأه. وغادر القزويني قيصرية حاملاً الرسالة الجوابية وفيها الطاعة التامة للمغول[2].

أما عن سبب وفاته المفاجئة، فإنه أقام احتفالاً ضخماً في مناسبة أحد الأعياد، دعا إليه أمراء الدولة وقادتها، وأثناء الاحتفال أفرط خلاله في الشراب وراح يتباهى بما أُعطي من الملك. وإذ شعر بألم في أحشائه، راح يتقيأ دماً صاحبه إسهال حاد ممزوج بالدم أيضاً فانهار جسمه فوراً وتوفي في اليوم الثاني[3]. وفي رواية أن ابنه كيخسرو سمَّه لأن كيقباد لم يعينه وريثاً له، وفضَّل عليه أخاه الأصغر عز الدين كيكاوس ابن الأميرة الأَيوبية[4].

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٩٠ ـ ٦٩٦.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦. (٣) ابن العبري: ص ٢٨٢.

(٤) القرماني: ص ٢٩٤. خواند، أمير: حبيب السير جـ ٢ ص ٥٤٠.

حكم كيقباد مدة ثمانية عشر عاماً بلغت الدولة السلجوقية أثناءها ذروة قوتها على الرغم مما تعرضت له من تهديد المغول والخوارزميين والأَيوبيين. ويُعدُّ حكمه من أنجح العهود السلجوقية، كما عُدَّ من أعظم سلاطين السلاجقة في الأَناضول. وكانت سياسته العمرانية غنية بالإنجازات الفنية. فقد بنى العديد من المدارس والمستشفيات وأقام الجسور[1]. وانتهت بوفاته حقبة العهد الذهبي للسلاجقة.

---

(١) ابن بيبي: ص ١٤٦.

الفَصْلُ الحادي عَشَر

غياث الدين كيخسرو بن كيقباد

كيخسرو الثاني

٦٣٤ ـ ٦٤٤هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦م

تولي كيخسرو الثاني الحكم

شكَّلت وفاة كيقباد عاملاً مؤثراً في تراجع قوة دولة سلاجقة الروم. إذ أن ضعف خلفائه، وبخاصة ابنه وخليفته كيخسرو الثاني الذي اتصف بالجهالة السياسية وابتعاده عن ممارسة شؤون الدولة، وجهله بأساليب الحكم، وسيطرة بعض الوزراء عليه، وسعي هؤلاء إلى التخلص من منافسيهم من الأمراء الآخرين؛ مما سبَّب النكسة الأولى للدولة وأدخل البلاد في متاهات النزاعات الداخلية وعرَّضها للأخطار الخارجية.

وحدث بعد وفاة كيقباد انقسام مزدوج داخل الأسرة السلجوقية، وبين أهل الحل والعقد من الأمراء والأعيان الملتفين حول السلطان. فقد أيَّد بعض الأمراء تولية غياث الدين كيخسرو خلفاً لوالده، أمثال سعد الدين كوبك، وظهير الدين بن كرجي، وتاج الدين بروانا‌ه[1]، وجاشنكير، وساندە النصارى المرتزقة، في حين تريَّث بعض الأمراء الآخرين في منحه تأييدهم وحجتهم في ذلك أن كيقباد كان قد أوصى قبل وفاته

(١) البرواناه: كلمة فارسية معناها في الأصل الحاجب. وقد احتفظ بعض الحجاب في بلاد سلاجقة الروم باللقب عندما عُيِّنوا في منصب الوزارة حتى غلب عليهم فلازمهم وأولادهم، كعائلة البرواناه. والحجابة هي إحدى الوظائف المهمة في دولة سلاجقة الروم. تطورت هذه الوظيفة التي ابتدأت منذ أيام معاوية بن أَبي سفيان، من حجب الناس عن الخليفة إلى الاستشارة في شؤون الدولة. وكان الحاجب ينافس الوزراء أحياناً في النفوذ بل فاق نفوذ بعض الحجاب الوزراء شهرة. وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليه في عرض أمورهم مما جعل وظيفته حساسة، وجعل منصبه من المناصب الرفيعة في الدولة لشدة صلته بالسلطان، فكان في الواقع أهم رجال الحاشية.

بتعيين ابنه عز الدين كيكاوس، ابن الملكة العادلية، وتعهَّد الأمراء بمساندته[1].

ويبدو أن الفئة المساندة لكيخسرو الثاني كانت الأقوى سياسياً وعسكرياً، ونجحت في فرض مرشحها. وهكذا اعتلى كيخسرو الثاني سدة الحكم[2].

تميَّز كيخسرو الثاني بخفة الروح، والطباع المرحة، مغرم بمداعبة الحيوانات، يشرب الخمر، يحب سماع الغناء ذو الشعر الرباعي. ورث دولة قوية واسعة الأرجاء تشمل كل آسيا الصغرى باستثناء مملكة طرابزون على البحر الأسود، وأرمينية الصغرى على البحر المتوسط، لكن هاتين المملكتين اعترفتا بالسيادة السلجوقية. وبدأ الضعف في عهده، يدب في جسم الدولة، بفعل النزاعات بين أهل الحكم، ونشوب الثورات الداخلية[3].

الصعاب التي واجهت كيخسرو الثاني في بداية حياته السياسية

واجهت كيخسرو الثاني في مستهل حياته السياسية عدة قضايا تطلَّبت منه العمل الجدي على مواجهتها، نذكر منها: التنافس بين أفراد البيت الأيوبي للتقرب من السلاجقة والمطامع المغولية في آسيا الصغرى، ومنافسة أخويه له، وتمرد الخوارزميين وصراع الأمراء فيما بينهم.

لم يتحقَّق الوفاق الداخلي بين الأيوبيين في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة بعد عودة الكامل محمَّد إلى مصر في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م). إذ أن هذا الملك قد سلَّم أمور الشرق إلى ابنه الصالح نجم الدين أيوب. وصادف في هذه الأثناء أن توفي العزيز صاحب حلب، فنهض الكامل محمَّد للتوسع في شمالي بلاد الشام إلَّا أنَّه واجه معارضة من جانب الأشرف موسى.

كان لهذا النزاع الأيوبي الداخلي أن يبقى محصوراً داخل الأسرة الأيوبية، لولا أن حاول كل جانب استقطاب كيقباد لتقوية موقفه، فقد أرسل الكامل محمَّد رسالة إلى السلطان السلجوقي حملها الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري تضمَّن عرضاً بتكوين حلف لمواجهة الأشرف موسى، وأغرى هذا الأخير سكان حلب بالموافقة على خطته، وطلب المساعدة من كيقباد ضد أطماع الكامل محمَّد[4].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٠٨. Cahen: Pre- Ottoman Turkey p 133.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٩. ابن العبري: ص ٢٨٣.

(٣) القرماني: ص ٢٩٤. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٧.

(٤) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٣٧٧.

لكن حدث أن توفي كيقباد قبل اجتماعه برسول الكامل محمَّد، في الوقت الذي أرسل فيه الأشرف موسى والحلبيين رسالة إلى خليفته كيخسرو الثاني يعزونه في أبيه ويطلبون منه إحياء التحالف القديم بينهما ضد الكامل محمَّد، في حين أرسل هذا الأخير أحد أمرائه إلى قونية للتعزية بكيقباد، وحمَّله ذهباً برسم الصدقة عن روحه وثياب أطلس برسم أغشية القبر[1].

ويبدو أن كيخسرو الثاني أعرض عن الجانبين لانهماكه بشؤونه الداخلية ولاهتمامه بالخطر المغولي. وعلى الرغم من الرسالة الجوابية التي أرسلها إلى قادة المغول التي تنم عن التبعية لهم، إلَّا أن هذه القضية ظلَّت تشغل تفكيره بفعل ما كان للمغول من أطماع سياسية في البلاد الإسلامية بعامة وآسيا الصغرى بخاصة، نظراً لموقعها السياسي والعسكري المهم، غير أن الخطر المغولي كان لا يزال حتى ذلك الوقت بعيداً نسبياً عن منطقة آسيا الصغرى، مما أتاح للسلطان السلجوقي أن ينصرف لحل القضايا الأخرى.

والواقع أن كيخسرو الثاني تعرَّض لمنافسة من جانب أخويه عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان وأمهما العادلية، فكان التخلص منهم ضرورة سياسية تسمح له التفرد بالحكم دون أن ينازعه أحد، فكلَّف الأمير سعد الدين كوبك بهذه المهمة، فخنق الملكة بالقوس وسجن الأخوين في برغلو[2].

وواجه كيخسرو الثاني قضية تمرد الخوارزميين الذين أثارهم سعد الدين كوبك. ذلك أن هذا الأمير أراد أن يتقرَّب من السلطان، فزيَّن له أن القائد الخوارزمي خيرخان يرفض الاعتراف بسلطته، وأنه يخشى إن هو غادر البلاد أن يُفشي ما عنده من أسرار عن الدولة، فقبض عليه السلطان وسجنه في قلعة زماند حيث توفي في سجنه. فخشي أتباعه أن يُنكِّل بهم، فهربوا من البلاد وراحوا يغيرون على المناطق الحدودية النائية بعد أن اجتازوا ملطية وكختا وحصن زياد مما أحدث اضطراباً في هذه المناطق، كما أغاروا على سميساط وعبروا إلى السويداء. واضطر كيخسرو الثاني إلى مطاردتهم وتأديبهم، فكلف كمال الدين كاميار بهذه المهمة، فسار على رأس الجيش حتى وصل إلى ملطية. وأرسل مبارز الدين أرتقش قائد جيش هذه المدينة إلى حصن زياد لمطاردتهم، لكن الخوارزميين كانوا قد عبروا الفرات إلى الجزيرة، فلحقهم وسدَّ الطريق عليهم، فبعثوا إليه برسالة أعربوا فيها عن استيائهم من

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٢.

قتل زعيمهم، فرأوا أن يغادروا إلى مكان آخر أكثر أماناً. ويبدو أن أرتقش لم يقتنع بوجهة نظرهم، لذلك حاول منعهم من مغادرة البلاد، واصطدم بهم، إلَّا أنهم تغلَّبوا عليه وأسروه وقتلوا الأمير شمس الدين بيرم، وهاجموا حصن زياد، ثم واصلوا مسيرهم إلى بلاد الشام حيث دخلوا في خدمة الصالح نجم الدين أيوب، فاستخدمهم في البلاد الجزرية، وأقطعهم حرَّان والرقة والرها(١).

وبرز في عهد كيخسرو الثاني صراع الأمراء بشكل لافت، وقد أثَّر سلباً على قدرات الدولة. كان الأمير سعد الدين كوبك هو فاتح هذا النمط من الصراع السياسي. فحتى ينال حظوة عند السلطان، ويحقِّق مآربه السلطوية، راح يتخلَّص من الأمراء الذين قد ينافسونه على السلطة، فاتهم كمال الدين كاميار بالتقصير بعد أن فشل في إخضاع الخوارزميين، وقتل شمس الدين التونبي دون أن يتجرأ أحد أن يوجه إليه اتهاماً(٢).

أدرك الصاحب شمس الدين مدى ما يشكِّله كوبك من خطر على الدولة إذا استمر في مؤامراته، فتباحث مع كمال الدين كاميار في هذا الشأن لتدارك الموقف قبل أن يتفاقم، ويبدو أن هذا الأخير لم يدرك كما أدرك الصاحب أن المصلحة العامة تقضي بالتخلص من كوبك، وعدَّ كلامه بمثابة تحريض(٣).

وخطَّط كوبك للتخلص من الأمير تاج الدين بروانا‌ه، ولما علم هذا الأخير بما يُدبَّر له، غادر العاصمة، وذهب إلى أنقرة، لكن كوبك لم يتركه وشأنه، واتهمه بالزِّنى، واستحصل على فتوى من قضاة الشرع برجمه، كما أقنع السلطان بتنفيذ الحكم. وسيق تاج الدين بروانا‌ه إلى ساحة أنقرة العامة، ورُجم حتى الموت، وصودرت أمواله وممتلكاته(٤).

الفوضى في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة

حدث في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) أن توفي الأشرف موسى صاحب دمشق، وكان قد أوصى بأن يخلفه أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى. وعندما تسلَّم هذا الأخير مقاليد الحكم في دمشق، أعاد تكوين الحلف القديم المعادي للكامل محمَّد في مصر، وحاول استقطاب المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، والمظفر تقي الدين صاحب حماة، وحكام حلب(٥).

---

(١) ابن العبري: ص ٢٨٣.
(٢) ابن بيبي: ص ٢١١ ـ ٢١٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٢.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢١٢ ـ ٢١٤.
(٥) المقريزي: جـ ١ ص ٣٨٨. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٠٠.

استجاب الملوك الأيوبيون لنداء الصالح إسماعيل، باستثناء المظفر والناصر داود صاحب الكرك، غير أن الكامل محمَّد تمكَّن من القضاء على هذه الحركة المعادية، وعزل الصالح إسماعيل عن دمشق[(١)]، إلَّا أن الكامل محمَّد ما لبث أن توفي في (٢٠ رجب عام ٦٣٥هـ/ ٧ آذار عام ١٢٣٨م) مما كان نذيراً بتجدُّد الخلافات داخل البيت الأيوبي وبروز خطر الحرب الأهلية. ذلك أن الأوضاع اضطربت في بلاد الشام بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه في حرب مع المظفر تقي الدين، وأغار على حماة، كما استعدى أهل حلب، في حين استولى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمَّد على دمشق في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) مما أوقعه في نزاع مع أخيه العادل الصغير الذي خلف أباه في مصر[(٢)].

استنجد كل من الأخوين المتنازعين بأطراف أخرى داخلية وخارجية. فاستعان العادل الصغير بأسد الدين شيركوه في حين اعتمد الصالح نجم الدين أيوب على المظفر تقي الدين. كما استقطب كل طرف بعض فلول الخوارزميين الذين تفرَّقوا في بلاد الشام وآسيا الصغرى. وأرسلت ضيفة خاتون إلى كيخسرو الثاني تطلب منه المساندة، فأمدَّها بقوة عسكرية. استولت القوات المتحالفة على المعرة وهاجمت حمص إلَّا أنها فشلت في اقتحامها[(٣)].

نتيجة للتحالف السلجوقي ـ الأيوبي مع مملكة حلب، توطدت أواصر الصداقة بين الجانبين من خلال التقارب الأسري بالزواج. فقد تزوج السلطان السلجوقي غازية خاتون ابنة العزيز، في حين نكح الناصر يوسف صاحب حلب ملكة خاتون أخت السلطان، وتولى الصاحب كمال الدين ابن العديم المؤرخ، عقد النكاح[(٤)].

وثار الخوارزميون في ذلك الوقت ضد الصالح نجم الدين أيوب الذي كان يحاصر الرحبة بناء على تعليمات والده الكامل محمَّد، وعندما علم بخبر وفاته، فكَّ الحصار عنها. وكان الخوارزميون فيها قد خرجوا على طاعته، وأرادوا القبض عليه، فهرب إلى سنجار وتحصَّن فيها. وانتشر الخوارزميون في ربوع إقليم الجزيرة، وعاثوا فيه فساداً وتخريباً، واضطهدوا السكان، ودخلوا عدة قلاع منها حرَّان[(٥)].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ٦ ص ٣٠٠.

(٢) المقريزي: جـ١ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨٦.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٥. ابن تغري بردي: جـ٦ ص ٢٩٩.

وأغاروا على القلاع المجاورة لقلعة جعبر وبالس بين حلب والرقة، وفرَّ السكان إلى حلب ومنبج. وهاجموا حلب بعد أن تحالفوا مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ووضعوا السيف في سكان منبج. وحتى يبرِّروا تعدياتهم، ادَّعوا أنهم إنما يفعلون ذلك بأمر من الصالح نجم الدين أيوب. والجدير بالذكر أنه في عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م) وهو العام الذي وقعت فيه هذه الأحداث، كانت التحالفات قد تغيَّرت داخل البيت الأيوبي بفعل تنصيب الصالح نجم الدين أيوب على عرش مصر خلفاً لوالده، حيث نازعه أصحاب حلب ودمشق وحمص[١].

التوسع السلجوقي في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة

استغل كيخسرو الثاني فرصة الفوضى التي دبَّت في المنطقة، وقرَّر التوسع على حساب الصالح نجم الدين أيوب. وحتى يطوِّق هذا الأخير، استقطب الناصر يوسف صاحب حلب وناصر الدين الأرتقي صاحب ماردين، والمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وأغراهم بمنحهم الإقطاعات. فأقطع الأول سروج والرها، ومنح الثاني سنجار ونصيبين، وأعطى الثالث بلدة عانة[٢] وبعض بلاد الخابور، وخصَّ آمد وسميساط لنفسه[٣].

انطلقت القوات المتحالفة كل في اتجاه إقطاعها. فهاجمت القوات السلجوقية آمد وحاصرتها، وفيها توران شاه ابن الصالح نجم الدين أيوب الذي نجح في صدِّ الهجوم السلجوقي، وأجبر القوات السلجوقية على الرحيل عن المدينة[٤]، غير أن كيخسرو الثاني نجح في امتلاك سميساط بعد أن هاجمها، وأضافها إلى أملاكه[٥].

ويبدو أن الحلفاء الشاميين احتاجوا إلى مدد عسكري، فطلبوا من كيخسرو الثاني مساعدة عاجلة، فأمدَّهم بثلاثة آلاف فارس من حصن زياد وملطية بقيادة ظهير الدين ترجمان[٦]. وهاجم الحلفاء الخوارزميين قرب رأس العين، وتغلبوا عليهم، ففروا بكل اتجاه. فمنهم من هرب إلى نواحي بغداد، ومنهم من احتمى بشهاب الدين غازي صاحب ميافارقين. واستسلم زندري حاكم حرَّان ورفع علم الناصر يوسف صاحب حلب، وعادت القوات السلجوقية إلى بلادها بعد أن أدَّت

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت، يُعدُّ من أعمال الجزيرة، الحموي: جـ ٤ ص ٧٢.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٣٨٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن بيبي: ص ٢١٥.

(٦) ابن بيبي: ص ٢٢٢.

مهمتها[1].

أدرك كيخسرو الثاني أن الخوارزميين عرقلوا تنفيذ مخططاته بشأن مدن إقليم الجزيرة بعد أن تحالفوا مع الصالح نجم الدين أيوب، وإذا كان له أن يتوسع في هذا الإقليم، فمن الضروري استقطابهم. فأرسل إليهم مجد الدين ترجمان يدعوهم للعودة إلى بلاد الشام، فاشترطوا مقابل العودة منحهم الأمان على حياتهم وإعطاءهم ما كان بحوزتهم من إقطاعات قبل فرارهم. وافق السلطان على طلبهم وتمَّ الاتفاق[2].

التفت كيخسرو الثاني بعد استقطاب الخوارزميين، وعودة القوات الشامية إلى بلادها، إلى استئناف التوسع في الشرق، وقرَّر ضم آمد في ديار بكر التي فشل في اقتحامها من قبل، فأرسل إليها جيشاً كثيفاً بقيادة ظهير الدين ترجمان، يساعده ثلاثة من كبار القادة هم جاولي جاشنكير، يوطاش جاشنكير وصاحب نيكسار. ضرب الجيش السلجوقي الحصار على المدينة، وجرت محاولات فاشلة لاقتحامها، عندئذ لجأ القائد السلجوقي إلى الحيلة، فاتفق مع حاكمها فخر الدين ديناري على أن يؤمِّن دخول القوات السلجوقية إليها مقابل إبقائه في منصبه. وعلى هذا الشكل تملَّك السلاجقة آمد[3].

وبسقوط آمد في أيدي السلاجقة امتدت أملاكهم إلى ما كان للدولة البيزنطية من حدود، بل إنها تجاوزت حدودها في إقليم الجزيرة وجاورت منازل التركمان، وأضحى كيخسرو الثاني الزعيم الأقوى في آسيا الصغرى وإقليم الجزيرة، وخُطب له في دمشق[4].

استتبَّ الأمن، وساد الهدوء في منطقة الجزيرة، لكن إلى حين، إذ أن الخوارزميين عادوا مجدداً إلى أسلوبهم التخريبي القائم على السلب والنهب والعمل لحساب الأمراء والملوك الأيوبيين. وتحالفوا هذه المرة مع الأراتقة في ماردين وميافارقين، مما أدَّى إلى تجدُّد الاضطرابات في المنطقة المذكورة. وجرت اشتباكات بين قوات الحلفاء وقوة من حلب بقيادة توران شاه وذلك في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) انتهت بانتصار القوة الحلبية، وتفرُّق الخوارزميين. وهاجم توران

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.
(٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ص ٥٢٤.
(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠. العريني: ص ١٧٨.

شاه الأراتقة في نصيبين وماردين قبل أن يعود إلى حلب[1]. وما لبث الخوارزميون أن تجمعوا من جديد وهاجموا رأس العين، فقتلوا كثيراً من سكانها ونهبوا الأموال وسبوا النساء، كما هاجموا الخابور وفعلوا فيه ما فعلوا في البلاد الجزرية[2].

نتيجة لهذه الفوضى، نهض كيخسرو الثاني ليتوسع على حساب الأراتقة، وابتدأ بميافارقين، فجهَّز جيشاً تجمَّع في قيصرية، وطلب مساعدة من حلب والموصل. كان المظفر غازي صاحب ميافارقين يراقب التطورات السياسية والعسكرية، فاستعدَّ للتصدي للقوات المهاجمة، واستعان بالخوارزميين الذين اشتركوا في معركة رأس العين كما استقطب أَتراك كرميان في الأَناضول، وشحن المدينة بالعساكر، وأقام حولها خندقاً، وبنى عليها سوراً آخر، ونصب المجانيق والعرادات[3].

تقدم الجيش السلجوقي نحو ميافارقين، وانضم إليه الجيش الحلبي في أطراف آمد، ولما وصل إلى المدينة ضرب حصاراً مركزاً عليها. وجرت مناوشات بين الطرفين تحت أسوارها، قبل أن يصطدما في معركة حاسمة انتهت بانتصار السلاجقة ووقع المظفر غازي في الأسر، فبعث برسالة إلى السلطان يستعطفه الإبقاء على حياته مقابل الطاعة التامَّة[4].

ووصلت في هذه الأثناء رسالة من بغداد تتمنى على كيخسرو الثاني وصاحب حلب أن يوقفا الحرب بسبب الخطر المغولي الذي أخذ يدق أبواب العاصمة العباسية، وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة، فأعاقت تقدم القوات السلجوقية، لذلك مال كيخسرو الثاني إلى وقف الزحف، وأبرم الصلح مع المظفر غازي. وعادت القوات السلجوقية إلى ملطية في حين عادت القوات الحلبية إلى حلب[5].

وهكذا فشلت جهود كيخسرو الثاني في التوغل شرقاً. وكانت معركة ميافارقين آخر الجهود المبذولة من أجل ذلك حيث بدأت شمس السلطنة بعدها بالانحدار، بفعل عوامل خارجية تمثَّلت بالغزو المغولي، وعوامل داخلية كانت قد بدأت تنخر أجهزة الدولة. وكشفت هذه المعركة عن ضعف السلطان وإن بدا أنه

---

(١) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية في التاريخ جـ ٣ ص ١٥٧ ـ ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه. المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٦.

(٣) ابن بيبي: ص ٢٣١ ـ ٢٣٢. ابن العبري: ص ٢٨٦.

(٤) ابن بيبي: المصدر نفسه.

(٥) ابن بيبي: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

يتحصَّن وراء واجهة قوية، وهذا ما شجَّع الدمشقيين على قطع الخطبة له، وخطبوا للصالح نجم الدين أيوب[١].

وأود أن أشير في هذا المقام إلى الثورة البابائية التي قامت في وجه كيخسرو الثاني في عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، وقد أخمدت الحكومة المركزية هذه الثورة بشق النفس مما أثَّر سلباً على قدرات الدولة العسكرية والمادية. ولما كانت الثورة البابائية أحد أسباب ضعف الدولة نتيجة ما ترتب عليها وما رافقها من تغييرات في القدرة العسكرية والاجتماعية، مما سأشرحه خلال حديثي عن أسباب زوال السلطنة.

التسرُّب المغولي إلى آسيا الصغرى

كان للصراع الدائر في منطقة إقليم الجزيرة بين الملوك والأمراء المحليين، وقيام الحروب المتواصلة، وتفاقم الخلافات، وتفتيت وحدة المنطقة نتيجة لذلك؛ الأثر الكبير في تمهيد الطريق أمام المغول لشن هجماتهم على المنطقة والنفاذ إلى آسيا الصغرى والاستيلاء على بعض المواقع المهمَّة فيها، واتخاذها قواعد انطلاق وحماية خلال زحفهم لاحتلال ما تبقَّى من العالم الإسلامي، وبخاصة العراق وبلاد الشام ومصر.

ذكرنا من قبل كيف أن المغول وصلوا إلى منطقة حدود السلطنة السلجوقية في أواخر حكم كيقباد الأول، ويبدو أنهم لم يكتفوا بما أعلنه سلاجقة الروم آنذاك، من التبعية لهم، بل أرادوا بسط سيطرتهم الفعلية على البلاد بسبب موقعها المؤثِّر في سياستهم التوسعية المقبلة. هذا ولم يؤثِّر ما حدث من مشكلات واضطرابات داخلية إثر وفاة الخان الكبير أوكتاي في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)[٢] وحتى اعتلاء كيوك خان العرش في عام (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)؛ على طموحاتهم التوسعية. وحدث في المدة بين وفاة أوكتاي واعتلاء كيوك العرش، أن سيطرت توراكيتا خاتون، كبرى زوجات الخان المتوفى، على مقدرات الأمور في الدولة المغولية[٣]، ونتج عن هذا التغيير السياسي أن عُيِّن بايجو قائداً للقوات المغولية في موقان وأرَّان خلفاً لجرماغون الذي أُصيب بالشلل. ومن أهم أعمال القائد الجديد، ما أجراه من القتال مع سلاجقة

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤١٥.

(٢) الهمذاني: رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان: ص ١٢٢. يذكر الجويني أن الوفاة حصلت في عام ٦٣٩هـ. جـ ١ ص ١٨٧، ٢٢٢.

(٣) انظر فيما يتعلَّق بأوضاع المغول الداخلية آنذاك: الجويني: المصدر نفسه ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥.

الروم وإخضاعهم لسلطة المغول[١].

شنَّ بايجو هجوماً على أرزن الروم في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) وحاصرها مدة شهرين، تعرَّضت المدينة خلالها للضرب المتواصل بالمجانيق. وتزعَّم قائد الحامية السلجوقية سنان الدين ياقوت عمليات المقاومة التي كانت ناجحة في بادىء الأمر. فاشتبك مع القوات المغولية المقدرة بثلاثين ألف جندي في معارك جانبية خارج أسوار المدينة، كما عطَّل هطول الأمطار الخطط المغولية الهجومية. ولم تسقط المدينة إلَّا نتيجة خيانة شحنتها وهو المشرف الدوني الذي سهَّل دخول القوات المغولية إليها مقابل الأمان له ولأتباعه. وجرت اشتباكات في الشوارع والأزقَّة استمرت ليلة كاملة، سيطرت القوات المغولية بعدها على المدينة، وحلَّ البلاء العام. فنهبت العساكر المغولية المنازل والمحلات التجارية، وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وأسروا سنان الدين ياقوت وولده، فقتلوا الثاني أمام ناظري الأول، ثم أجهزوا على الأب، وبعد أن استباحوا المدينة عادوا إلى موقان[٢].

وحدث قبل أن تسقط المدينة أن أرسل كيخسرو الثاني جيشاً لمساندتها، ولما وصل أفراده إلى أرزنجان تلقوا أنباء الكارثة فعادوا أدراجهم. ثم دعا السلطان إلى عقد اجتماع عام لأعيان الدولة لدراسة الموقف.

معركة كوسى داغ ـ الجبل الأقرع ـ (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)

تمخَّض عن الاجتماع الذي دعا إليه كيخسرو الثاني أمران:

الأوَّل: تقرَّر توجيه رسالة تهديد إلى بايجو جاء فيها: «لا يغرنك أنك بتخريبك إحدى مدننا قد تغلَّبت على السلطان وانتقصت من قوته، فإن مدني كثيرة لا تحصى، وجنودي لا تُعدُّ، فامكث حيث أنت وانتظر وصولي إليك، سوف آتي لأقابلك والسيف بيدي»[٣].

الثاني: تقرَّر دعوة ملوك وأمراء إقليم الجزيرة وحلب وأرمينية الصغرى إلى تقديم المساعدة[٤]. فأرسل كيخسرو الثاني رسالة إلى المظفر غازي اعتذر له فيها

---

(١) منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٨. Howorth: vol I p 166. vol III p 43. D'Ohsson: vol III pp 79 - 80.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦. منجم باشي: المصدر نفسه. Howorth: Ibid vol I p 166. vol III p 44. D'Ohsson: Ibid p 80.

(٣) Howorth: vol III p 44.

(٤) Cahen: La Syrie du Nord: p 695.

عما جرى في ميافارقين وأهداه مدينة خلاط. وأرسل الصاحب شمس الدين الأصفهاني مع الأموال، إلى حلب وأرمينية الصغرى لطلب النجدة، ومحذراً الحلبيين والأرمن من أن المغول سوف لا يستثنون أحداً[1]، كما طلب المساعدة من صاحب الرها.

تفاوت مدى الاستجابة وفقاً لقوة أَو ضعف العلاقة بين هؤلاء الملوك والأمراء من جهة والسلاجقة من جهة أخرى. فقد وعد كل من صاحب الرها وصاحب ميافارقين، السلطان، بتقديم المساعدة، لكنهما خدعاه بعد ذلك ولم يرسلا أية قوة عسكرية. وراعى هيثوم ملك أرمينية الصغرى قواعد الخضوع، فأرسل رسالة إلى السلطان في قيصرية حملها والده قسطنطين، تتضمن وعداً بتقديم المساعدة. ويذكر ابن بيبي أنه أثناء تمركز الجيش السلجوقي في كوسى داغ جاء الخبر بأن تكور[2]، وصل على رأس جيش يبلغ ثلاثة آلاف فارس، في حين يذكر بعض المؤرخين أن كلاً من ملك أرمينية الصغرى وأميري ميافارقين وحمص الذين وعدوا السلطان بتقديم المساعدة، أخلفوا وعدهم[3].

والواقع أن الأرمن أرسلوا فعلاً قوة عسكرية، إلّا أنها لم تشترك في القتال ضد المغول، وانتظرت ما سوف تسفر عنه المعركة. فهؤلاء مستغلو فرص، ولا يمكن أن يقاتلوا في صفوف السلاجقة بفعل العداوة التقليدية بينهما.

وتأخر الصاحب شمس الدين الأصفهاني في بلاد الشام مما حرم القوات السلجوقية من بعض الإمدادات، إلّا أن قوة شامية تعدادها ألفان من الجنود قد انضمت إلى الجيش السلجوقي بقيادة ناصح الدين الفارسي[4].

بلغ تعداد الجيش السلجوقي ثمانين ألفاً، تألف معظمهم من جنود مرتزقة من حلبيين ويونان وإفرنج ومصريين، دفع لهم السلطان كيخسرو الثاني أجورهم ذهباً، في حين بلغ عدد أفراد الجيش المغولي أربعين ألفاً، وفي رواية عشرة آلاف. ويذكر هيثوم الأرميني بأن الجيش المغولي بلغ ثلاثين ألفاً من الفرسان الشجعان[5]. وضمَّ هذا الجيش متطوعين كرج وأرمن، للثأر من المسلمين، لكن بايجو أعاد معظمهم

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٣٦.
(٢) تكور هو لقب ملك أرمينية الصغرى.
(٣) ابن بيبي: ص ٢٣٦، ٢٣٨. ابن العبري: ص ٢٨٧. D'Ohsson: vol III p 81. Howorth: vol III p 45.
(٤) ابن بيبي: ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٣٨، ابن العبري: ص ٢٨٦.
In R.H.C. Arm. Doc vol III p 158. Howorth: vol II p 45.

إلى بلادهم قبل نشوب القتال، وأبقى على المتطوعين الذين يثق بهم(١).

كانت خطة السلطان تقضي بالتوقف في سيواس حتى تصل النجدات التي طلبها، غير أن تواتر الأخبار بتقدم بايجو أغرى الشباب الذين لا خبرة لهم بشؤون القتال، بمواصلة الزحف على أمل أن يلتحموا مع المغول ويحصلوا على مغانم كثيرة(٢).

ويبدو أن السلطان اغترَّ بتحمس الشباب، فأمر أفراد الجيش بالتقدم على طريق كوسى داغ بين أرزن الروم وأرزنجان، وعسكر في السهل قرب الماء والكلأ، وتحصَّن بالموانع الجبلية القريبة(٣).

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش السلجوقي معسكراً في كوسى داغ، علم السلطان بواسطة الجواسيس، أن بايجو وصل إلى صحراء آق شهر، من أعمال أرزنجان، ثم تقدم وعسكر في مقابل السلاجقة، ولم يؤثِّر الفارق العددي بين الجيشين في معنويات جنوده، فهم معتادون على القتال القاسي.

تعبَّأ الجيشان استعداداً لخوض المعركة، وخرج في هذه الأثناء أحد الأمراء، ويدعى مظفر الدين، من قلب الجيش السلجوقي دون إذن، وهاجم قوة مغولية، فاضطرب الأمراء لسفاهته وطلبوا من السلطان إصدار الأمر بوقفه عند حده(٤).

جرت بعد ذلك مناوشات تخلَّلها كرٌّ وفر، هَزَمَ القائد فارادولا في إحداها القوة المغولية المواجهة لقواته، لكن أكبغا بن فهرام الكرجي، وهو أحد قادة الجناح الأيسر للمغول، تمكَّن من الانتصار على الجناح الأيمن للجيش السلجوقي وقتل كثيراً من أُمرائه(٥).

وارتكب السلاجقة خطأ عسكرياً عندما خرج قسم من جيشهم يبلغ تعداده ثلاثة آلاف جندي من تحصيناتهم دون خطة عسكرية واضحة، فعبروا الممرَّات الوعرة، وتوجهوا نحو المغول للاصطدام بهم. استغرب بايجو خروجهم هذا ووعد فرسانه بغنيمة سهلة، فانتظر حتى وصلوا إلى مكان ضيِّق وانقضَّ عليهم، لكن القوة السلجوقية قاومت الهجوم المغولي، وأجبرت بايجو على التراجع من أرض المعركة، إلَّا أنه أعاد تنظيم قواته وكرَّ على القوات السلجوقية وأبادها، وقُتل القائد

---

(١) Howorth: vol III p 45.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٩.

(٥) Howorth: vol III p 46.

فارادولا في المعركة. وفي رواية أن السلطان قتله بعد المعركة وهو في ثورة غضب انتقاماً من الكرجيين[١].

عادت الوحدات العسكرية المقاتلة إلى معسكراتها بعد حلول الظلام، وتبيَّن بأن كيخسرو الثاني لم يخطِّط لخوض معركة عسكرية ناجحة، ودبَّت الفوضى في معسكره، مما دفع ناصح الدين الفارسي، قائد القوات الشامية، إلى الانسحاب بعد أن لام السلطان على سوء إدارته المعركة[٢].

وعندما علم السلطان بهزيمة قواته المتقدمة، راح يبكي، وأرسل أسرته مع الخزائن التي تحوي كنوزه إلى توقات، مدركاً بأن لا فائدة ترجى من المقاومة، ثم سلَّم مقاليد الأمور إلى الأمير جاولي جاشنكير، وتنكَّر، وفرَّ بصحبة ثلاثة من أمرائه إلى توقات، هم فخر الدين أرسلان دغمش وخاص أوغوز وتركري جاشنكير[٣]، وفضَّلت والدته أن تحتمي بالأرمن، فذهبت مع ابنتها إلى أرمينية الصغرى[٤]. وتفرَّق الجيش السلجوقي، وفرَّ أفراده من أرض المعركة. ودخل بايجو خيمة السلطان ونهبها. ثم جرت عملية مطاردة محدودة للفلول السلجوقية. وغنم المغول كثيراً من الذهب والفضة والجمال والخيول والبغال والمواشي مما تركه السلاجقة وراءهم[٥].

توجَّه الجيش المغولي بعد الانتهاء من سلب الغنائم، إلى سيواس، وكان قاضيها نجم الدين قيرشهرلي لا يزال محتفظاً بمنشور الأمان المغولي الذي أهدي له لدى احتلال المغول خوارزم. وعندما اقترب بايجو من المدينة، خرج القاضي لاستقباله فعرفه بايجو فوراً، وحين أعطاه منشور البراءة قبَّله ووضعه على رأسه، ووهب له المدينة شرط إبقاء بوابة أرزنجان مفتوحة ليدخل منها أفراد جيشه. وقد ترتب على ذلك أن نُهبت المدينة جزئياً مدة ثلاثة أيام[٦].

تقدم المغول بعد ذلك إلى مدينة قيصرية، التي تحصَّنت فيها القوات السلجوقية المنسحبة، وحاصروها، وضربوها بالمجانيق. أحدث الضرب المتواصل شقوقاً كبيرة في الأسوار، ومع ذلك فشلت القوات المغولية في دخولها. ويبدو أن

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠. Brosset: Histoire de la Géorgie vol I p 519.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه. Brosset: vol p 519.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٤١، ٢٤٦. ابن العبري: ص ٢٨٧.

(٥) ابن بيبي: ص ٢٤١.

Brosset: vol I p 518-519. R.H.C, Arm. Doc vol II p 158. Howorth: vol III p 46.

(٦) ابن بيبي: المصدر نفسه. Cahen: p 695.

هذه القوات أصابها الإنهاك، واكتفى بايجو بما غنمه وأرجأ الاستيلاء على المدينة إلى العام القادم[١] إلَّا أنه حدث ما قلب الموقف لصالحه، ذلك أن أحد الأمراء ويدعى ابن صاحب الكوش اتفق مع بايجو على تسليمه المدينة، وبيَّن له نقاط ضعفها، فعاد القائد المغولي أدراجه، وضرب نقاط الضعف في الأسوار، ونصب جنوده السلالم على البرج الأكثر تضرُّراً، ونزلت قوة منهم إلى داخل المدينة، وفتحت الأبواب للجيش المرابط في الخارج، واستباحت القوات المغولية المدينة ثم أحرقتها، وسيق الأسرى إلى صحراء مشهد حيث قُتل الرجال واقتسمت الذراري والنساء[٢].

نتائج معركة كوسى داغ

ـ ترتَّب على انتصار المغول، أن تدارس الوزير الصاحب مهذب الدين، الذي كان في أماسية مع القاضي فخر الدين، أسباب الهزيمة التي مُنيت بها القوات السلجوقية، وبعد أن اعترف الوزير بمسؤولية السلطان الشاب، الجاهل، حاول تدارك الموقف من أن يتدهور نحو الأسوأ، ورأى أن الحل الصحيح يكمن في مصالحة المغول، ووافقه القاضي على رأيه. وقابل الرجلان بايجو، وحاول الوزير استمالته عن طريق بذل المال، فوافق على رفع الأمر إلى جرماغون الحاكم المغولي لمنطقة إيران[٣]. وفعلاً، اجتمع الوفد السلجوقي مع جرماغون بحضور بايجو، وتباحثوا في إمكانية عقد معاهدة صلح، واستقر الرأي على:

١ ـ استمرار بقاء الدولة السلجوقية مقابل دفع جزية سنوية.

٢ ـ تحدد الجزية بأربعمائة ألف دينار بالإضافة إلى عدد من العبيد والخيول، وقيم أخرى. وفي رواية أن مقدار الجزية ألف دينار، فرس واحد، مملوك واحد، جارية واحدة وكَلب صيد واحد، يومياً.

٣ ـ تستضيف الدولة السلجوقية السفراء المغول الذين يزورون البلاد، وتقدم لهم الهدايا[٤].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٤١ ـ ٢٤٢. Cahen: p 695.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٤١ ـ ٢٤٢. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٦٨. Ibid. Howorth: vol III p 47.

(٣) يُفهم من رواية رشيد الدين أن جرماغون كان حاكماً على إيران. جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٤٧.

D'Ohsson: vol III p 83. Howorth: vol III p 47.

ـ تُعدُّ معركة كوسى داغ أشد ما وقع في التاريخ السلجوقي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلَّت بالدولة السلجوقية، وكانت إيذاناً بنهاية دورها السياسي في المنطقة. ويُعدُّ هذا التاريخ (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) بداية لعملية طويلة الأمد، حرص المغول خلالها على إحكام قبضتهم على البلاد، في حين اشتد ضعف السلاجقة، وساروا في طريق الانحدار إلى أن زالت دولتهم.

ـ دبَّت الفوضى في بلاد الروم، فأركان الدولة متفرقون، والسلطان عاد إلى قونية، أما الصاحب شمس الدين الأصفهاني فكان في حلب، يجنِّد المرتزقة، وعندما علم بنبأ الكارثة عدل عن ذلك، وعاد متباطئاً إلى البلاد بسبب القلق والخوف من الطرق غير الآمنة. ونزل أثناء عودته، ضيفاً على الملك مسعود صاحب آمد، ثم ذهب بصحبته إلى ملطية قبل أن يعود إلى العاصمة. وعقد فور وصوله إليها اجتماعاً مع السلطان تقرَّر فيه تعيين مهذب الدين وزيراً مطلق الصلاحية، ليعيد تنظيم شؤون البلاد والعباد[١].

ـ نتج عن الفوضى، انتشار الرعب في كافة أنحاء البلاد، ومرة أخرى تُرِكت الحقول بلا حراثة بعد أن هجرها الفلاحون هرباً من وجه المغول، كما انتشرت المجاعة، وارتفعت الأسعار، وعمد بعض الأمراء السلاجقة إلى تزويج بناتهم من أمراء المغول، حتى يحافظوا على محاصيلهم من التلف والمصادرة.

ـ استغل بعض الأمراء في الأطراف هذه الفوضى، وراحوا يتصرَّفون وفقاً لمصلحتهم الشخصية. فالصوباشي رشيد الدين حاكم ملطية، سرق الخزائن السلطانية بالاتفاق مع بعض الأمراء. وبعد أن اقتسموا محتوياتها من الذهب والفضة، غادروا إلى حلب[٢]. ونهبت قبائل التركمان البدوية المدن والقرى.

ـ هلَّل الأرمن لانتصار المغول، ورأوا فيهم القوة التي تستطيع أن تقضي على الإسلام والمسلمين في المنطقة، وتحمي كيانهم وكيان النصارى. وقرَّر الملك الأرميني هيثوم التحالف مع هؤلاء بدلاً من التحالف مع الغرب الأوروبي. وظهرت هذه السياسة واضحة عندما لجأت إليه والدة السلطان وابنتها فراراً من المغول بعد معركة كوسى داغ، حيث ضرب بقواعد العرف والأخلاق، واختار التقرب من المغول عن طريق تسليم الامرأتين. وقد استنكر الملوك والخاصة والعامة من الناس هذا العمل وأبدوا استياءهم من الأرمن[٣]. كما استغل الوضع المضطرب في البلاد

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) ابن العبري: ص ٢٨٨.

(٣) ابن العبري: ص ٢٨٧.

ليتخلَّص من التبعية السلجوقية، فأرسل كتاباً إلى بايجو يفيض بالولاء والاحترام، وتلقَّى منه في عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، منشور التبعية للخان الكبير[١]. وقام بعد ذلك بالإغارة على أملاك السلاجقة، فاستولى على قلعة براكانا وعدة قلاع أخرى، وامتنع عن دفع الضرائب المستحقة عليه للدولة السلجوقية[٢].

ـ أجرى الصاحب مهذب الدين تدابير تنفيذية لوضع حد للفوضى المنتشرة في البلاد، وإعادة بناء الدولة التي أصابها الخلل نتيجة لسوء الإدارة. فقرَّر فتح صحراء القبجاق وتأديب الأرمن، لكنه لم يستطع أن يتحرَّك قبل تثبيت المعاهدة المبرمة مع المغول من قِبل باطوخان[٣]، لذلك أرسل نائبه شمس الدين إلى الخان المذكور بصحبة بايجو، فاستقبله باطوخان بالترحاب وأقرَّ المعاهدة، بعد أن أضاف عليها بنداً جديداً يقضي بأن تُرسل الدولة السلجوقية الإمدادات اللازمة للمغول كلما طلبوا ذلك[٤]. ولما عاد شمس الدين إلى قونية كان الوزير الصاحب مهذب الدين قد توفي، فعيَّنه السلطان في منصب الوزارة وأهدى إليه سيفاً قرابه من ذهب[٥].

ـ استغل الصاحب شمس الدين الأصفهاني انسحاب معظم القوات المغولية من بلاد الروم[٦] وقرَّر محاربة الأرمن، وقد شجَّعه على ذلك انقسام هؤلاء، فاستقطب الأمير قسطنطين سيد لامبرون. وانطلق من قونية جيش سلجوقي ضخم باتجاه مدينة طرسوس، عن طريق هرقلة، ولما وصل إلى المدينة ضرب الحصار عليها. وفصل قسماً من الجيش للتوغل في بلاد الأرمن للضغط على السكان

---

(١) Howorth: vol I p 167.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٣) كان جنكيزخان قد لقَّب باطو، الابن الثاني لجوجي خان، بـ صاين خان أو الأمير الطيب. وقد حكم باطو بعد وفاة والده القسم الغربي من الأمبراطورية المغولية، وعُرفت بلاده باسم القبجاق الغربي، وكان مركزها الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا، وقد اتخذ ساراي عاصمة له. وباطو هذا هو الذي غزا أوروبا وتوغل في بلاد الروسيا وبولندا والمجر ودلماشيا، وطغت شهرته حتى عدَّه سائر المغول في القبجاق، أحق سائر أبناء جوجي بالملك، ولُقِّب بخان القبيلة الذهبية، نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي. والمعروف أن هذه القبيلة امتدت منازلها في شرق وغرب بلاد القبجاق. وأضحى باطو يضارع الخان الأعظم منكو الذي خلف كيوك في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، في السلطان والعظمة. Howorth: vol II pp 36 - 91.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٤٨. العريني: ص ١٧٩.

(٥) ابن بيبي: ص ٢٤٩.

(٦) يبدو أن كثرة الحروب قد أنهكت المغول ودوابهم، فانسحبوا من المنطقة بعد أن وضعوا حاميات في المدن الكبرى في الأناضول مكتفين، إلى حين، بما أخضعوا من البلاد الواقعة في شمالي بحيرة ڤان وخلاط وآمد والرها ونصيبين، ومدناً أخرى في بلاد ما بين النهرين. انظر: Howorth: vol II p 167.

وإثارتهم ضد الحكومة المركزية. أحدث الضرب المتواصل لمدينة طرسوس شقوقاً كبيرة في الأسوار، وأنزل خسائر فادحة في الممتلكات، وأضحى سقوطها قاب قوسين أو أدنى، ومع ذلك فقد نجت من السقوط في أيدي السلاجقة بفعل عدة عوامل نذكر منها:

ـ إحجام بعض الأمراء عن اقتحامها بسبب حسدهم للصاحب شمس الدين الذي سينال الشهرة على أكتافهم، ويدل ذلك على بروز صراع داخلي بين الأمراء في بلاد الروم في الوقت الذي كانت فيه بأمس الحاجة إلى التضامن والتعاون لاجتياز المرحلة الصعبة.

ـ انهمار المطر بغزارة، في ذلك الوقت، حتى تعذَّر على الجنود الخروج من خيامهم مما أعاق العمليات العسكرية.

ـ تلقَّى الصاحب شمس الدين أنباء سيئة من العاصمة تحثُّه على العودة سريعاً.

ويبدو أن الصاحب شمس الدين رفض العودة قبل أن يتخذ إجراء ما بحق الأرمن وتثبيت الأمن على الحدود. فأرسل رسالة إلى الملك الأرميني هيثوم عاتبه على استغلاله فرصة اختلال أوضاع الدولة ليغير على أملاكها، وحذَّره إن لم يوقف تعدياته ويعتذر عما بدر منه ويرسل الضرائب المفروضة، فإنه سيخضع بلاده بالقوة.

والواقع أن الملك الأرميني كان في وضع حرج بعد انسحاب المغول من المنطقة، لذلك استجاب لنداء السلام، وأعاد قلعة براكانا وعدة قلاع أخرى كان قد استولى عليها، إلى السلاجقة، وتعهَّد بدفع الخراج المتأخر.

ـ استمرت حملة الصاحب شمس الدين الأصفهاني في بلاد الأرمن حتى عام (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) عاد بعدها إلى بلاده، ولما وصل إلى العاصمة وجد السلطان قد توفي منذ سبعة أيام[١].

وفاة كيخسرو الثاني

توفي السلطان كيخسرو الثاني في عام (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)[٢] بعد حياة حافلة بالمآسي سببها انغماسه في اللهو وجهله وظلمه وابتعاده عن تدبير الملك بنفسه، وقد وصفه المؤرخون المسلمون بالشاب اللعاب الظالم القليل العقل[٣].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠. ابن العبري: ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٢) خواند، أمير: حبيب السير ج ٢ ص ٥٤٠. منجم باشي: ج ٢ ص ٥٦٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: ج ٨ ص ٧٤٢. ابن تغري بردي: ج ٦ ص ٣٤٧.

كانت مرحلة حكم كيخسرو الثاني فاصلة بين عهدين. فمن جهة بلغت الدولة السلجوقية أقصى اتساعها ووصلت إلى القمة في العظمة والمجد، وشهدت من جهة أخرى بداية الانحلال على أثر الغزو المغولي. ويذكر المقريزي «أن الملك الصالح إسماعيل رسم أن يخطب على منبر دمشق لكيخسرو ملك الروم، فخطب له ونثر على ذلك الدنانير والدراهم، وكان يوماً مشهوداً، وحضر رسل الروم وأعيان الدولة، وخُطب بذلك في جوامع البلد»[1]. ظل الأمر على ذلك مدة عامين حين أُبطلت الخطبة للسلطان السلجوقي في عام (٦٤٠هـ/ ١١٤٢م) وخُطب للملك الصالح نجم الدين أيوب[2]، وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام تدل على ما بلغته الدولة السلجوقية من قوة في ذلك الوقت.

تزوج كيخسرو الثاني ابنة كاهن بيزنطي هي بردوليا أنجب منها ابنه عز الدين كيكاوس وهو أكبر إخوته، كما تزوج من جاريتها البيزنطية وأنجب منها ابنه الأوسط ركن الدين قلج أرسلان، وتزوج أيضاً من الأميرة الكرجية تامار، كرجي خاتون، ابنة الملكة روسودان. ويذكر ابن العبري أن الكاثوليكوس وعدداً من الكهنة رافقوا الأميرة الكرجية ومعهم أخوها الصغير داوود، وقد اعتنقت الإسلام بعد زواجها. أحبَّ السلطان زوجته الكرجية كثيراً وأُغرم بها وأنجب منها ابنه الأصغر علاء الدين كيقباد الذي فضَّله على أخويه بفعل تأثير أمه[4]، وتزوج السلطان كيخسرو الثاني أيضاً من الأميرة غازية خاتون، كما أشرنا، ولم تذكر المصادر أنه أنجب منها.

(١) السلوك في معرفة دول الملوك: جـ ١ ص ٤١٠.

(٢) تاريخ الزمان: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤. ابن بيبي: ص ٢١٣. الآقسرائي: ص ٣٦.

الفَصْلُ الثَّاني عَشَر

مرحلة الحكم المشترك

٦٤٤ ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٦٥م

عز الدين كيكاوس: كيكاوس الثاني

ركن الدين قلج أَرسلان: قلج أَرسلان الرابع

علاء الدين كيقباد: كيقباد الثاني

التنازع على الحكم في بلاد الروم

الحكم الثلاثي: ٦٤٤ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٥٧م

تشاور الأمراء والأعيان، ممن كانت لهم الكلمة النافذة في البلاد، وهم الصاحب شمس الدين الأصفهاني وجلال الدين قرطاي وخاص أوغوز وأسد الدين روزبة وفخر الدين أبو بكر برواناه، في اختيار خلف لكيخسرو الثاني، وقرَّروا تعيين ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس، فنصَّبوه على العرش، وأجلسوا أخويه ركن الدين قلج أَرسلان عن يمينه وعلاء الدين كيقباد عن يساره[1]. وفي رواية أن كيخسرو الثاني أوصى قبل وفاته بتعيين ابنه الأصغر علاء الدين كيقباد خلفاً له متأثراً برأي أمه كرجي خاتون، وكان عمره آنذاك سبعة أعوام، لكن الصاحب شمس الدين الأصفهاني أيَّد بقوة تعيين الابن الأكبر متبعاً التقليد التركي القديم، إلَّا أنه لم يستطع تجاهل حقوق أخويه. والمعروف أن القرار النهائي بشأن تعيين سلطان على بلاد الروم يعود للمغول بوصفهم محتلين وحماة للسلطنة[2]. والواضح أن الروايات التي بين أيدينا لا تشير بحصول كيكاوس الثاني على براءة التعيين من المغول إلَّا أنه أضحى سلطاناً من

(١) ابن بيبي: ص ٢٥١.

(٢) الآقسرائي: ص ٣٦.

الناحية الشرعية، واعترفت به السلطات المغولية من خلال تعاملها معه كحاكم.

كانت البلاد، في الوقت الذي اعتلى فيه كيكاوس الثاني عرش السلطنة، ترزح تحت وطأة الفوضى. فالأمراء في تنافس وتناحر من أجل السلطة، بل راحوا يتسابقون لكسب ود زعماء المغول والتزلف لهم للحصول على مكاسب سياسية. وكثرت تعديات القبائل البدوية على المدن والقرى الآمنة، وشكّلوا خطراً على أمن الدولة، كما شعر حكام المغول في آسيا الصغرى بضغطهم، فطلبوا من الحكومة المركزية وضع حد لتعدياتهم وفرض الأمن في البلاد. نجح كيكاوس الثاني في لجم ثورة البدو إلى حد ما، إلّا أن ظهور حركات ثورية أخرى، أقلقه وأقضّ مضاجع المغول. ولنا عودة إلى الحديث عن هذه الحركات الثورية في بحثنا عن أسباب زوال الدولة السلجوقية.

وحدث في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) أن توفي الخان أوكتاي في قراقورم، فتنازع الأمراء المغول فيما بينهم بشأن انتخاب خلف له. وتولت في هذه الأثناء، أرملته توراكيتا خاتون الوصاية على العرش، وساندت ترشيح ابنه الأكبر كيوك، وجاهدت مدة أربعة أعوام حتى نجحت في إقناع المعارضين، فتولى العرش المغولي في عام (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)[١].

تواترت الوفود من الشرق والغرب إلى العاصمة المغولية قراقورم لحضور حفلة تتويج الخان الجديد وتقديم الولاء والطاعة والهدايا له. وكان كيكاوس الثاني من بين المدعوين، إلّا أنه اعتذر عن الذهاب بنفسه بسبب خشيته من غدر الأرمن وطمع البيزنطيين في بعض بلاده، وأرسل أخاه قلج أرسلان الرابع بدلاً عنه، وفوَّضه بإجراء مباحثات مع المغول لتجديد معاهدة الصلح، ووعد بأن يذهب في مناسبة أخرى[٢].

توجَّه قلج أرسلان الرابع إلى العاصمة المغولية على رأس وفد سلجوقي ضمَّ بعض أتباعه من الأمراء. واستغل فرصة اجتماعه بكيوك وأقنعه بتعيينه سلطاناً على بلاد الروم مقابل إبرام معاهدة جديدة تقضي بأن يدفع السلاجقة جزية سنوية مقدارها مليون ومائتا ألف بيزنت، وخمسمائة ثوب من الحرير موشاة بالذهب، وخمسمائة حصان، ومثل هذا العدد من الجمال، وخمسة آلاف رأس ماشية، وهدايا تعادل ضعف هذا كله[٣].

---

(١) يورد الجويني تفاصيل وافية حول كيفية اعتلاء كيوك عرش المغول. جـ ١ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٤.
Grousset: L'Empire Mongol pp 303 - 306.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٠. Howorth: vol I p 164.

(٣) ابن بيبي: ص ٢٩١. الجويني: جـ ١ ص ٢٣٦. D'Ohsson: vol III p 93.

عاد قلج أَرسلان الرابع إلى بلاده، بعد انتهاء الزيارة، لاستلام منصبه الجديد، وأرسل كيوك معه ألفي فارس مغولي لمساعدته على إخضاع المعارضين، وعيَّن له وزيراً هو بهاء الدين ترجمان[١]. ولما وصل إلى بلاده أرسل رسالة إلى أخيه كيكاوس الثاني يخبره فيها بتعيينه سلطاناً على سلاجقة الروم، ويطلب منه الاعتراف بسلطنته. وقد وُجدت قطع نقدية تحمل اسم السلطان الجديد تعود لعام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)[٢].

عارض بعض أُمراء السلطنة تفرد كيكاوس الثاني بالحكم، تزعمهم جلال الدين قرطاي. واتفق هذا مع البكلبرك يوطاش على تنصيب الإخوة الثلاثة معاً، ونجح في إقناع أكثرية الأمراء في الدولة. وهكذا تقرَّر:

- تعيين كل من الإخوة الثلاثة سلطاناً، فيجلسون على تخت واحد.
- تكون السكة والخطبة باسمهم.
- تضرب لهم النوبة خمس مرات[٣].
- تسريح القوة المغولية التي اصطحبت كيكاوس الثاني وإعادتها إلى بلادها[٤].

ويبدو أن هذا الحل لم يرض الأمراء الموالين لقلج أَرسلان الرابع، وبخاصة الأمير طرنطاي الذي أصرَّ على تفرُّد سلطانه بالحكم، ودفعه ذلك إلى افتعال المشكلات التي وصلت إلى حد الصدام العسكري بين قوات قلج أَرسلان الرابع وقوات أخيه كيكاوس الثاني، في منزل القوافل السلطانية، غير أن تدخُّل القاضي الختني أمير الاسطبل حال دون تفاقم الوضع، فقرَّب بين الأخوين، واتُّفِقَ على نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة في العلاقات الودية بينهما. وسُجن الأمراء الذين تسبَّبوا في إشعال الحرب، وتوجَّه الجميع إلى قونية[٥].

وبفضل مقدرة الوزير شمس الدين الجويني الأصفهاني، استمرت الحكومة المشتركة بين عامي (٦٤٧ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٤٩ ـ ١٢٥٧م)، ظهرت أثناءها أسماء الإخوة الثلاثة على النقود، وأُقيمت الخطبة باسمهم مع استثناء أنه في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٤م)

---

(١) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٢٦٧.
(٢) Ency. of Islam. vol II p 637.
(٣) النوبة: كلمة عربية انتقلت إلى الفارسية وهي تعني موسيقى كانت تدق على باب القصر في عدة مناسبات منها أوقات الصلاة.
(٤) ابن بيبي: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٨.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩. ابن العبري: ص ٢٩١.

ضرب قلج أَرسلان الرابع اسمه منفرداً في قيصرية، لأنه أُعلن وقتذاك سلطاناً وحيداً من قِبل شمس الدين، حاكم المدينة[١].

حفلت أعوام الحكم المشترك بالمؤامرات والدسائس، وتقلَّبت فيها ميول الأمراء وفقاً للمصلحة الخاصة. وحدث خلال هذه المدة أن التجأ الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس إلى كيكاوس الثاني هرباً من منافسة تيودور لاسكاريس أمبراطور نيقية، فقرَّبه السلطان إليه وعيَّنه قائداً عاماً للجند النصارى المرتزقة، مما أثار حفيظة بعض الأمراء الذين عدُّوا هذا التصرف منافياً لعادات السلاطين السلاجقة، كما أن تدخل أخوال السلطان من النصارى في شؤون السلطنة وضغطهم عليه لاتخاذ قرارات معينة، زاد من نقمتهم، وأعطاهم انطباعاً بأنه تحوَّل إلى ديانة والدته، فشكَّكوا في إيمانه، وقد تفشَّت في الدوائر السلجوقية إشاعة، أكَّدتها محاضر محاكمة البطريرك البيزنطي أثناسيوس، تُظهر تشيع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن للسلاجقة[٢].

وحدث في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) أن انتخب منكوخان خاقاناً على المغول، فزارته وفود من مختلف الأنحاء لتهنئته وتقديم الطاعة له. ودُعي كيكاوس الثاني لتقديم الولاء للخاقان الجديد، وهدَّده منكو إذا امتنع عن القدوم إلى قراقورم، لكن السلطان كانت لديه رغبة ضئيلة بالسفر، خشية من أن يستغل أخوه قلج أَرسلان الرابع، فرصة غيابه ويتفرَّد في الحكم. بالإضافة إلى ذلك فإنه حاول دائماً أن يتجنَّب الاجتماع بالمغول[٣].

لكن كيكاوس الثاني وجد نفسه مضطراً للذهاب، بعد أن ضغط عليه الأمراء خشية من تهديدات المغول. فتوجَّه إلى قيصرية بصحبة أخويه قلج أَرسلان الرابع وكيقباد الثاني للتداول وتشكيل الوفد الرسمي. ولما وصلوا إلى المدينة تشاغل باللهو بفعل تشجيع الأمير سيف الدين تركري له، مما ضايق الأمراء، فحاولوا عزله. وعندما علم بذلك خشي على نفسه، فغادر المكان وتوجَّه إلى سيواس، ثم عاد إلى قونية، وعدل عن الذهاب بنفسه إلى قراقورم. وتوفي في هذه الأثناء، أتابكه الأمير قرطاي فازدادت خشيته، لأن وفاة هذا الأمير ستترك فراغاً يمكن أن يختل معه نظام

(١) D'Ohsson: vol III p 92. Ency. of Islam: vol II p 637.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٧٨. Rice: p 76.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٥. ابن العبري: ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦. خواند، أمير: جـ ٣ ص ٥٧.

الحكم. وأتاحت له هذه النكبة فرصة للتخلص من الذهاب، فعاد إلى قيصرية، وتشاور مع أخويه، ومع الأمراء واستقر الرأي على إرسال كيقباد الثاني إلى قراقورم على رأس الوفد السلجوقي الرسمي مع رسالة اعتذار، وأنه، أي كيكاوس الثاني، سوف يذهب بنفسه في مناسبة أخرى[(١)].

تألف الوفد الرسمي، بالإضافة إلى السلطان كيقباد الثاني، من سيف الدين طرنطاي وشجاع الدين عبد الرَّحمن والأستاذ مصلح لالا ونور الدين عبد الله قابض، فغادروا قيصرية مع الهدايا ورسالة الاعتذار، في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، عن طريق البحر الأسود عبر بلاد القبيلة الذهبية[(٢)].

استمر التنافس مهيمناً على الساحة السياسية بعد أن غادر أعضاء الوفد قيصرية في طريقهم إلى قراقورم، فقد راودت كيقباد الثاني أحلام التفرد في الحكم، وشجعه أعضاء الوفد على الاجتماع بباطوخان أثناء مرورهم ببلاده، كي يتوسط له عند الخاقان[(٣)]. وخشي قلج أرسلان الرابع من أن يشرح أعضاء الوفد للخاقان، أوضاع البلاد من وجهة نظر واحدة تعبِّر عن رأي كيكاوس الثاني، فقرَّر استبدال بعض الأعضاء بأشخاص يثق بهم. واستعمل الحيلة في ضمِّ الأميرين شمس الدين وسيف الدين جاليش[(٤)]. ويذكر ابن بيبي أنه انضم إلى الوفد أثناء الرحلة، كل من والدة كيقباد الثاني والصاحب الطغرائي ورشيد الدين أمير عارض[(٥)].

وكان لكيكاوس الثاني تحفظاته بشأن سفر أخيه، إنه خشي من أن يحصل على منشور يخوله التفرد بحكم البلاد. ويذكر الآقسرائي بأن الأخوين قلج أرسلان الرابع وكيكاوس الثاني ندما على ذهاب أخيهما كيقباد الثاني، وخشيا أن يستقل بالأمر

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧. ابن العبري: ص ٣٠٠.

(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٢٧٧. Howorth: vol II p 89 .

(٣) الآقسرائي: ص ٣٨.

(٤) Howorth: vol II pp 89 - 90.

(٥) الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٢٧٧. والطغرائي نسبة إلى من يكتب الطغراء، وهي الطرة التي تُكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الحلبي، تتضمن اسم السلطان وألقابه، إنها كلمة أعجمية محرَّفة من الطرة. والطغرائي في إدارة دولة سلاجقة الروم هو حامل الأختام، ويتولى استصدار الأوامر السلطانية وتبليغها إلى الجهات المختصة موشحة بشعار الطغرى والختم السلطاني.
وأمير عارض هو من يتقلَّد عرض الجيش، إنه يشرف على ديوان الجيش وينظم سجلات الجند وصرف مرتباتهم، وتهيئة الجيوش وتسليحها وتموينها، وعرض الجند في أي وقت يختاره للوقوف على جهوزهم. وهي إحدى الوظائف الرسمية في دولة سلاجقة الروم.

دونهما، فأرسلا الجواسيس خلفه وشخص يُدعى مصلح الخادم لالا للتخلص منه[1].

ومهما يكن من أمر، فإن وفداً تتوزع ولاءات أعضائه بين ثلاث قوى، لا يمكن أن يعرف الانسجام. فنشأ أثناء الرحلة، خلاف في وجهات النظر، كما كان لكل عضو مشكلته الخاصة التي سيعرضها على المغول، مثل الصاحب الطغرائي المقرَّب من بايجو، وكان قد عُزل عن منصب الوزارة، فأراد العودة إليه[2]، إلّا أن هذا الخلاف في وجهات النظر انحسر نسبياً بعد وفاة كيقباد الثاني المفاجئة.

تتباين الروايات في تحديد الجهة المسؤولة عن الوفاة، فيذكر ابن بيبي أن الأمراء لم يعرفوا سبب الوفاة، ولما أمرهم الخاقان منكو بفتح تحقيق حول ذلك لم تثبت أي مسؤولية على أحد[3]. ويحمِّل الأقسرائي الأخوين قلج أرسلان الرابع وكيكاوس الثاني مسؤولية مقتل أخيهما[4]، في حين يُرجع ابن العبري سبب الوفاة إلى غدر الأمراء المرافقين للسلطان، به[5]. والمعروف أن الأمراء يتصرَّفون عادة وفقاً للتوجيهات التي يصدرها السلطان، ومن الملفت أن يكتشف مصلح الخادم لالا حادثة الوفاة، عندما دخل إلى خيمة السلطان ليتفقده بعد أن استغرق في النوم[6].

والباحث هنا لا يتبنّى رواية ابن بيبي، فالأحداث السياسية في بلاد الروم، في ذلك الوقت، تؤكد حصول نزاع قوي على السلطة بين الإخوة، والأمراء أعيان الدولة منقسمون، تتوزَّع ولاءاتهم بين الإخوة، والجو السياسي محموم، ومن المستبعد أن يجهل ابن بيبي، وهو الذي عاش هذه الأحداث عن قرب، أن يلمَّ بالاتجاهات السياسية في البلاد. ويبدو أن تبرئته للأخوين كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع ناتجة عن ظروفه السياسية والوظيفية التي كان يعيشها، إنه كتب تاريخه في عهد السلطان مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني، وكان مالكاً لديوان الطغراء في عهده.

---

(١) مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار: ص ٣٩.
(٢) ابن بيبي: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٣) الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٢٩٣.
(٤) مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار: ص ٣٩.
(٥) ابن بيبي: ص ٢٩٣. ابن العبري: ص ٣٠٠.
(٦) المصدران نفساهما.

ومهما يكن من أمر، فقد انتهى عهد الحكم الثلاثي المشترك بوفاة كيقباد الثاني في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م).

الثانية في الحكم: ٦٥٥ ـ ٦٦٤هـ| ١٢٥٧ ـ ١٢٦٥م

عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أَرسلان

حكم بلاد الروم بعد وفاة كيقباد الثاني كل من كيكاوس الثاني وقلج أَرسلان الرابع بصورة منفردة حيناً ومشتركة أحياناً وفقاً لتقلُّب الأوضاع السياسية في داخل البلاد وخارجها.

كان من الطبيعي، في ظل أجواء التنازع الأسري، أن يحدث جفاء بين الأخوين، غذَّاه الأمراء باستمرار. ويُرجع ابن العبري سبب الجفاء بينهما إلى محاولة كيكاوس الثاني التخلُّص من أخيه قلج أَرسلان الرابع والتفرد بالحكم[١]، وعندما علم الأخير بأخبار المؤامرة، غادر قونية مع أتباعه متخفياً بلباس طباخ، وتوجَّه إلى قيصرية، حيث اجتمع بأعوانه وبخاصة صمصام الدين حاكم قيصرية ونصرة الدين بن سنان الدين حاكم دوالو، كما استقطب أمراء الأطراف أمثال فلك الدين خليل حاكم البستان وحسام الدين بيجار[٢].

استاء كيكاوس الثاني من فرار أخيه، لكنه حاول إغراءه للعودة إلى قونية، وكلَّف الأمير يوطاش القيام بتنفيذ هذه المهمة. ويبدو أن الأمير فشل في إقناعه، بل إن قلج أَرسلان الرابع قبض عليه وسجنه في مغارة اكسود من أعمال دوالو، ولم يُفرج عنه إلَّا بعد أن تعهَّد بالانضمام إليه[٣].

تأثَّر كيكاوس الثاني عندما علم باعتقال يوطاش، كما غضب لانقلابه عليه، وقرَّر محاربة أخيه ووضع حد لطموحه، فعبَّأ جيشه استعداداً للقاء العسكري، وفجأة وصلت إلى مقره رسالة من أخيه يعرض عليه تسوية الخلاف بينهما سلمياً. وافق كيكاوس الثاني على مبدأ التفاهم، لكنه اشترط اقتسام بلاد الروم بينه وبين أخيه على أن يقتصر حكم الأخير على سيواس وملطية وحصن زياد وآمد[٤]. ثم غادر مدينة قونية على رأس جيشه وعسكر في ولاية توزأغاج استعداداً للمواجهة العسكرية،

---

(١) تاريخ الزمان: ص ٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١. ابن بيبي: ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٢٨٠.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.

وأرسل رسالة إلى أخيه أعرب له فيها عن موافقته على عرض الصلح بالشروط التي وضعها هو. وجرت مفاوضات شاقة بين الأخوين في ظل انقسام الأمراء الموالين لكيكاوس الثاني بعد أن وافق هذا الأخير على عرض تقدَّم به أخوه قلج أَرسلان الرابع بإضافة قيصرية وقيرشهر إلى القسم المخصَّص له.

والواقع أن مشروع التفاهم بين الأخوين قد تعطَّل بعد أن اصطدمت قواتهما بسبب الخلافات بين القادة من كلا الطرفين حول مبدأ التسوية، وأسفر اللقاء عن انتصار قوات كيكاوس الثاني، وهرب قلج أَرسلان الرابع إلى أرمينية الصغرى، لكن قوات أخيه تمكَّنت من القبض عليه في دوالو وأعادته إلى قيصرية، فاستقبله أخوه وعفا عنه، وسمح له بالإقامة في برغلو[1].

انفرد كيكاوس الثاني بحكم بلاد الروم بعد هذه الأحداث، فأجرى تعديلات في المناصب الحكومية، فعيَّن أتباعه وأبعد أتباع أخيه. فكانت الوزارة من نصيب عز الدين الرازي، ومنصب البكلبرك ليوطاش، وعيَّن أَرسلان دغمش في منصب الأتابك، ونجيب الدين في نصب الاستيفاء[2]، أشهر بن عبد الحميد، مشرف الممالك[3]، ومعين الدين سليمان برواناه في منصب الحجابة، والصاحب فخر الدين، أمير داد[4]، أما وجيه القوم فكان نظام الدين خورشيد برواناه[5].

في هذه الأثناء، زاد المغول من ضغطهم على كيكاوس الثاني، فكانت رسل بايجو تأتي إلى بلاد الروم لطلب الأموال والمؤن، فتبرم الأمراء من ذلك وبحثوا الأمر مع السلطان، وتقرَّر إرسال وفد إلى تبريز لمقابلة الإيلخان هولاكو وعرض المشكلة عليه. والجدير بالذكر أن منكو عيَّن أخاه الأصغر هولاكو نائباً عنه في إدارة حكومة إيران، وأضحى هذا الرجل، بحكم منصبه الجديد، مسؤولاً عن إدارة دولة

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) الاستيفاء منصب رسمي ووظيفة إدارية مهمة في دولة سلاجقة الروم يتولاها موظف يعينه السلطان، موضوعها ضبط الأموال الديوانية وكتابة الجبايات وكل ما يجري مجرى ذلك ويسمى متوليها المستوفي.

(٣) الإشراف على الممالك أو ناظر الممالك وظيفة إدارية ومنصب رسمي في دولة سلاجقة الروم. يتولى القائم بهذه الوظيفة ضبط الحسابات الناتجة عن الصادرات والواردات والموازنة بينها، ويُعدُّ عمله متمِّماً لعمل المستوفي، ونظراً لما بينهما من علاقة يراقب المستوفي أعمال المشرف.

(٤) أمير داد هو صاحب القضاء أي العدل، يتسم عمله بالطابع الإداري، فهو من أصحاب الأقلام.

(٥) الآقسرائي: ص ٤٠.

سلاجقة الروم التي دخلت في تبعيته[1].

ترأس الوفد السلجوقي الصاحب فخر الدين أمير داد. وعندما اجتمع بهولاكو، عرض عليه الأمر، فتفهَّم مشكلات البلاد، ووعده بالتخفيف عن كاهل السلطنة. وعرَّج أعضاء الوفد أثناء عودتهم، على بايجو، وأخبروه بقرار هولاكو، فقبل به على مضض، والتفت إلى الصاحب وقال له: «لا بد لي في النهاية من أن أعبر ممالك الروم، وهكذا حرماني سيكون شؤماً عليكم»[2].

وفعلاً نفَّذ بايجو تهديداته في أواخر صيف عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، فغزا بلاد الروم واضطر السلطان إلى مغادرة مقر إقامته في قلعندة وعاد إلى قونية للتباحث مع أعيان دولته في الأمر، وتقرَّر تشكيل وفد برئاسة نظام الدين خورشيد بروانا للاجتماع به.

طلب بايجو من السلطات السلجوقية تحديد مكان له ليمضي فيه فصل الشتاء، لأن هولاكو سيشغل مقره الشتوي في موقان[3]. تداول السلطان مع أمرائه في هذا الطلب، وظهرت فئة معارضة لإجابته والموافقة عليه بزعامة عز الدين الرازي وكان أعضاؤها الأقوى على الساحة السياسية، ففرضوا رأيهم المعارض على السلطان، واستعدوا لمواجهة أكيدة مع بايجو[3]. والواضح أن أعضاء هذه الفئة افتقرت إلى الخبرة والممارسة السياسية الصحيحة، لأن هذا القرار وضع البلاد في مهب الريح في ظل ضُعف إمكانات الدولة بالمقارنة مع توفر عنصر القوة عند بايجو.

وفي المعركة التي جرت بين الجيشين السلجوقي والمغولي في صحراء الرباط العلائي قرب فندق السلطان، بين قونية وآقسرا، دارت الدائرة على الجيش السلجوقي، وقُتل الوزير الرازي والأمير يوطاش، قائد الجيش، وهرب السلطان كيكاوس الثاني مع نسائه وحواشيه من بوابة بول أحمد، متوجهاً إلى حدود نيقية عن طريق أنطالية، تاركاً العاصمة قونية تحت رحمة القوات المغولية، وفيها معظم ما يملك، وقد دبَّت فيها الفوضى[4]، وتولى الأمير نظام الدين علي بن ايلتمش، أستاذ الدار[5]، مهمة المحافظة

---

(١) الجويني: جـ ٢ ص ٢٣٧. الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ هولاكو ص ١٢٩.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤. (٣) ابن بيبي: ص ٢٨٦. الآقسرائي: ص ٤١.

(٤) المصدران نفساهما: ص ٢٨٧. ص ٤١ ـ ٤٢. ابن العبري: ص ٣٠٢.

(٥) أستاذ الدار: وظيفة خاصة بدار السلطنة، يشرف صاحبها على بيوت السلطان كلها من المطابخ والمخابز والشراب خاناه والحاشية والغلمان، ويقف على السماط، وله حرية التصرُّف في طلب ما يحتاجه بيت السلطان من نفقات.

على الأمن، وتسكين الغوغاء، وهرب الأمير أَرسلان دغمش مع أتباعه إلى برغلو للاحتماء بقلعتها[1].

استاء الأمراء المعارضون من تصرُّف السلطان الطائش الذي أوصل البلاد إلى حافة الهاوية، فقبلوا عرض بايجو الذي أمضى الشتاء في ولاية آقسرا في نواحي رباط قلج أَرسلان[2].

خلا منصب السلطنة، بعد فرار كيكاوس الثاني، فقام كل من الأميرين نظام الدين خورشد بروناه ومعين الدين سليمان برواناه بتنصيب قلج أَرسلان الرابع سلطاناً على سلاجقة الروم بعد موافقة بايجو، وذلك في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)[3].

تعقَّب بايجو كيكاوس الثاني وأرسل إليه يسوتاي، وهو أحد قادته، فاجتمع به في لاذيق وحاول إقناعه بالعودة إلى قونية والتفاهم مع بايجو، لكنه اعتذر بعد أن خرج الأمر من يده، وتفرَّدَ أخوه بالملك.

وتابع السلطان، الذي فقد عرشه، طريقه إلى نيقية لطلب مساعدة حاكمها تيودور لاسكاريس، كما أرسل رسالة إلى هولاكو يشرح له فيها تصرفات بايجو المعادية له، وأجابه هولاكو برسالة تتضمَّن اقتراحاً بتقسيم بلاد الروم بين الأخوين[4].

أقام بايجو مدة في ضيافة قلج أَرسلان الرابع في قزل ويران قبل أن يعود إلى مقر إقامته في موقان. وقد ألزم السلطان بهدم شرفات سور قونية الداخلي والخارجي، والإبقاء على سور القلعة فقط لأنه يحيط بمقابر السلاطين[5].

حين تحقَّق كيكاوس الثاني من خروج المغول من بلاد الروم، عاد إلى قيصرية، فاستقبله أخوه، وبحثا في إمكان اقتسام السلطة بينهما وفقاً لاقتراح هولاكو، لكن قلج أَرسلان الرابع أصرَّ على التفرد بالحكم، وطلب من بايجو التوسط له لمقابلة هولاكو حتى يعرض عليه مخططه. وفعلاً اجتمع قلج أَرسلان الرابع بهولاكو وتمكَّن من إقناعه بأن يعينه سلطاناً على كافة بلاد الروم، أما كيكاوس الثاني فقد دخل قونية وتربع مجدداً على العرش[6].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٨٧.

(٢) الآقسرائي: ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه. ابن بيبي: ص ٢٨٨.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٨٩. ابن العبري: ص ٣٠٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٩٠.

(٦) المصدر نفسه.

اتسمت سياسة كيكاوس الثاني بمعاداة المغول، وحتى يقوِّي نفسه قرَّر تشكيل جيش قوي من المرتزقة. فأرسل طغرل بلابا، وهو أحد أتباعه، إلى ملطية ليجند له عسكراً مرتزقاً من الأكراد والتركمان، لكن الأمير فشل في مهمته بفعل وعي الولاة المغول، كما أن سكان ملطية قاوموا الأمير الكردي أحمد بن بلاّس الذي عيَّنه حاكماً على المدينة مقابل مساعدته[1]. وعندما علم السلطان بهذه الأحداث السلبية، أرسل قائد جيشه، علي بهادر، إلى ملطية لضبط أوضاعها، فرحَّب به السكان خوفاً من صرامته[2].

وعمل المغول، في غضون ذلك، على إعادة تابعهم السلطان قلج أَرسلان الرابع إلى الحكم. فأرسلوا جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل من أجل تحقيق هذا الهدف، فأخضع نيكسار، وتمَّ تعيين معين الدين سليمان بروانه حاكماً عليها[3]، وحاصر توقات ودخل البستان وملطية، كما استسلمت له سائر القلاع. وارتكب أفراده الفظائع في معاملة السكان الذين كانوا يقضون بالآلاف، باستثناء النساء والأطفال الذين وقعوا في الأسر. ولم يوقف بايجو عن استباحة بلاد الروم سوى استدعاء هولاكو له للانضمام إليه بهدف مهاجمة بغداد[4].

بعد استيلائه على بغداد في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، استدعى هولاكو السلطانين الأخوين كيكاوس الثاني وقلج أَرسلان الرابع لتقديم الولاء له، والاعتراف به حاكماً عاماً على بلاد الروم، فلبيا الدعوة، وتقرَّر أن يقتسما بلاد الروم، فيحكم الأول القسم الغربي من حدود قيصرية إلى ساحل أنطالية حتى الحدود البيزنطية وتكون عاصمته قونية، في حين يحكم الثاني القسم الشرقي، من سيواس إلى ساحل سينوب وسمسون، وتكون توقات مقراً له، وهذا القسم هو أكثر ما يهم المغول لمجاورته حدود بلادهم، ومن أجل ذلك عيَّنوا عليه قلج أَرسلان الرابع الموالي لهم، وقد فصل نهر قزل إرماق بينهما. وأمرهما هولاكو بالذهاب إلى تبريز، والاستعداد لتقديم مساعدة عسكرية بهدف الاستيلاء على بلاد الشام ومصر. ثم سارا بصحبته حتى العراق قبل أن يعودا إلى آسيا الصغرى، وقد قنع كل منهما بنصيبه[5].
وحرص هولاكو على إنشاء حلف مكوَّن من قلج أَرسلان الرابع وهيثوم ملك أرمينية

---

(١) ابن العبري: ص ٣٠٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن بيبي: ص ٢٩٢.
(٤) المصدر نفسه. الهمذاني: ص ٢٦٦. ابن العبري: ص ٣٠٤.
(٥) ابن بيبي: ص ٢٩٤. ابن العبري: ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

الصغرى، يكون حاجزاً، لتأمين جناح جيشه أثناء غاراته المقبلة على إقليم الجزيرة وبلاد الشام من جهة وحصار كيكاوس الثاني في القسم الغربي من البلاد، من جهة أخرى، وفعلاً اجتمع العاهلان في هرقلة وتحالفا على ذلك[1].

لم ينته الصراع بين الأخوين نتيجة اقتسام السلطة، وظل قلج أرسلان الرابع وأتباعه، وعلى رأسهم معين الدين سليمان برواناه، يضايقون كيكاوس الثاني لإزاحته عن الحكم، وقد ساندهم أليجاق، الحاكم المغولي لبلاد الروم.

اضطر كيكاوس الثاني إلى البحث عن حليف يسانده في صراعه مع أخيه وحلفائه المغول، وكان نجم الظاهر بيبرس المملوكي قد بدأ يسطع في سماء المشرق الإسلامي، فوجد فيه الحليف الطبيعي الذي سيمكّنه من التصدي لخصومه وبخاصة أن بين المماليك ومغول فارس عداء مرير. فأرسل إليه رسالة يطلب منه المساعدة مقابل أن يتنازل له عن نصف بلاده، يُقطعها لمن يختاره[2]. ولم أجد هذا العرض المغري في أي مصدر سلجوقي غير أنني لا أستبعد حصوله، وذلك بفعل الأحداث الضاغطة، التي كان يتعرض لها كيكاوس الثاني. ويُعد هذا الاتصال الأول بين السلاجقة والمماليك.

استجاب الظاهر بيبرس لطلب المساعدة، ضمن سياسته الهادفة بالتوسع باتجاه الشمال، وإقامة تحالفات مع ممالك الروم، للوقوف في وجه الخطر المغولي على بلاد الشام ومصر. وجهَّز قوة عسكرية بقيادة الأمير ناصر الدين أغلمش لمساعدة كيكاوس الثاني، لكن هذه القوة لم تصل إلى بلاد الروم بدليل عدم حسم الصراع بين الأخوين، بالإضافة إلى أن كيكاوس الثاني أعلم الظاهر بيبرس في رسالة ثانية أرسلها إليه بتراجع الضغط المغولي ولم يشر فيها إلى أي دور للقوة المملوكية[3].

وبدا لكيكاوس الثاني أن الحل الجذري لمشكلاته مع أخيه وحلفائه يكمن في البلاط المغولي، فاتجه إلى عرض الأمر على هولاكو. لكن رغبته لم تتحقَّق لأن خصومه كانوا الأسرع في التحرك، فاستغلوا مراسلاته مع المماليك، وهاجموه في قونية التي كان قد استولى عليها وتحصَّن بها، وحاول عبثاً التفاهم مع أخيه. عندئذ قرَّر الخروج من المدينة وهو لا قِبل له بمواجهة خصومه، وتوجَّه نحو أنطالية.

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٥، ١٢٨.

وطارده خصومه وأجبروه على مغادرتها، فتوجَّه إلى القسطنطينية عن طريق البحر ونزل ضيفاً على الأمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغوس[1]. وتفرَّد قلج أرسلان الرابع بالحكم، إلّا أنه كان ألعوبة في أيدي المغول، وقد قبض وزيره المقتدر معين الدين سليمان برواناه على مقاليد الأمور وأدار اللعبة السياسية بتشجيع من الأمراء المغول[2].

لم ييأس أتباع كيكاوس الثاني، وكانوا بقيادة علي بهادر، واستمروا في مقاومة السلطان قلج أرسلان الرابع وحلفائه المغول، فهاجموا قونية، إلّا أنهم صُدُّوا عنها. وبرز شاه ملك كأحد المعارضين للوجود المغولي في بلاد الروم، وتحصَّن في قلعة كاتاغرا، إلّا أنه هُزم ولقي حتفه[3].

وهكذا خلا الجو لقلج أرسلان الرابع، إلّا أنه لم يؤد دوراً سياسياً بارزاً، وحجبه وزيره معين الدين سليمان برواناه عن الواجهة السياسية، فأحكم قبضته على مقدرات الدولة حتى سُمي عصره بـ«عصر برواناه»[4].

عُرف عن برواناه بأنه ذكي واسع الحيلة، يغتنم كل فرصة تتاح له لتقوية نفوذه وتحقيق غاياته. وحدث أن توفي هولاكو في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) وخلفه أباقا، فكتب إلى حكام الولايات والممالك الخاضعة لسيطرة المغول، يخبرهم بجلوسه على العرش ويدعوهم لحضور حفلة تتويجه، وتجديد الطاعة له وتقديم الهدايا، وكان قلج أرسلان الرابع من بين المدعوين، فتوجه إلى البلاط المغولي في فارس لتأدية واجب الطاعة وصحبه وزيره برواناه. وأثناء الاجتماع بالزعيم المغولي، طلب الوزير السلجوقي، تجديد معاهدة الحماية والمساندة لسلاجقة الروم، والسماح باستعادة المناطق التي فقدتها الدولة السلجوقية أثناء صراع الإخوة، وبخاصة مدينة سينوب التي استولى عليها كمناقوس ملك جانيت في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)[5].

عاد قلج أرسلان الرابع إلى بلاده بعد انتهاء الزيارة، بينما بقي برواناه في البلاط المغولي، ويبدو أنه كان يخطط للتخلص من السلطان بدليل أنه أسرَّ لأباقا أنه يغلب على سلاطين بني سلجوق التذبذب، وربما كانت لقلج أرسلان الرابع علاقة

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٩٧. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٧١.

(٢) Camb. Hist. of Islam: vol I p 250.

(٣) ابن بيبي: ص ٢٩٨. اليونيني: جـ ٢ ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٤) Ibid.

(٥) اليونيني: جـ ٢ ص ٣٤٧.

سرية مع المماليك في مصر، وأقنع الإيلخان بتعيينه في منصب نيابة السلطنة، على أن يتخلّص من كل شخص يخالفه أو يشك فيه، وأذن له باستعادة سينوب[1]. وفعلاً استعاد السلاجقة مدينة سينوب وقتلوا حاكمها غفراس[2]. وادعى برواناه أن المدينة من فتوحه، وكتب إلى أباقا يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه، في خطوة للسيطرة على دولة سلاجقة الروم، فازداد قدره عند المغول. وفي المقابل شكَّ السلطان في ولائه له، وأوجز منه خيفة، وراح كل واحد يخطِّط للتخلص من الآخر[3].

ووضع برواناه عيناً على السلطان هو شرف الدين مسعود بن الخطير الهربكي قائد جيش نكيدة ليراقب تحركاته. وعلى الرغم من معرفة السلطان بأمره إلَّا أنه عجز عن اتخاذ تدبير ما بحقه أو عزله من منصبه[4].

انزعج السلطان من تصرفات وزيره تجاهه، وأسرَّ يوماً لبعض جلسائه بأنه سيذهب إلى البلاط المغولي لعرض الأمر على المغول والطلب منهم السماح له بعزل شرف الدين بن الخطير والتخلص من برواناه[5].

علم برواناه وحليفه شرف الدين بن الخطير بنوايا السلطان، فلفَّقا له تهمة، واستقطبا المحققين المغول الذين حققوا فيها، وصدر قرار بالتخلص منه. واستُدعي السلطان إلى آقسرا وهو يجهل ما يدبَّر له، ولما اجتمع بالمحققين المغول عاتبوه على نواياه السيئة بالتخلُّص من برواناه، ومكاتبة المماليك في مصر. فدُهش السلطان لدى سماعه كلام المحققين ودافع عن نفسه نافياً التهم الموجهة إليه، لكن القرار صدر بقتله. ونُفِّذ الحكم يوم الأربعاء في (٨ جمادى الأولى عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، بوضع السم في قدحه ثم خُنق بوتر القوس[6].

نهاية كيكاوس الثاني

أقام كيكاوس الثاني مدة في العاصمة البيزنطية، ومنحه الأمبراطور البيزنطي مدينة دوبروجا الواقعة بين نهر الدانوب والبحر الأسود، كإقطاع له، فانتقل إليها، واصطحب معه قبيلة صلتق التركمانية وبعض العائلات التركية الأخرى الذين استقروا في تلك المنطقة، وشكَّلوا النواة الأولى التي سكنت أوروبا بعد ذلك. ويُذكر

(١) اليونيني: جـ ٢ ص ٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن بيبي: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٥) المصدر نفسه: ٣٠١. اليونيني: جـ ٢ ص ٤٠٤.
(٦) ابن بيبي: ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣. خواندا، أمير: جـ ٢ ص ٥٤٠. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٧٢.

بأن عدد المهاجرين تراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف مهاجر.

ويبدو أن السلطان السلجوقي لم يلتزم بالهدوء الذي يمليه عليه وضعه كلاجىء، واشترك في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) في مؤامرة للتخلُّص من الأمبراطور البيزنطي، حاكها قسطنطين تيش ملك البلغار.

ولما علم الأمبراطور بالمؤامرة، طرد السلطان السلجوقي من دوبروجا ونفاه إلى بلدة آينوس الواقعة على الساحل الجنوبي لمنطقة الرومللي، وسُجن في إحدى قلاعها مع ابنيه ووالدته. وقُتل في هذه المؤامرة علي بهادر الذي كان يرافق السلطان، لثبوت اشتراكه الفعلي بها، كما سملت عينا أمير الاسطبل أوغسلو. وتشتَّت أتباع السلطان، فمنهم من تنصَّر حتى يتجنَّب التعذيب، ومنهم من ثبت على دينه، وتحمَّل أنواعاً مختلفة من العذاب[١].

وقرَّر السلطان قلج أرسلان الرابع آنذاك، أن يساعد أخاه، بتحريره من الأسر، فأرسل رسالة إلى بركة خان ملك القبيلة الذهبية[٢] طلب منه القيام بحملة عسكرية ضد أملاك الأمبراطورية البيزنطية بهدف تحرير كيكاوس الثاني. وكان بركة خان يأمل في أن يكسب نفوذاً في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في بلاد الشام والتنسيق معهم ضد إيلخانات فارس، وقطع الطريق على هؤلاء ومنعهم من الوصول إلى البحر، والاتصال المباشر مع دول الغرب الأوروبي، لذلك تعاون مع الظاهر بيبرس في تقديم المساعدة المطلوبة لكيكاوس الثاني.

وخرجت حملة مغولية من بلاد القبجاق تُقدَّر بعشرين ألف مقاتل، وتوجَّهت إلى الأراضي البيزنطية عن طريق الدانوب، وطاردت القوات الأمبراطورية حتى وصلت إلى بلدة آينوس وحاصرت القلعة التي سُجِن فيها السلطان السلجوقي، وقدَّم

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨. Howorth: vol II p 122 .

(٢) بركة خان: ثالث أبناء جوجي خان زعيم القبيلة الذهبية. اعتنق الدين الإسلامي وتعلَّم القرآن في حداثته في بلدة خوقند على يد أحد فقهائها، وعندما أضحى ملكاً على القبيلة الذهبية اهتم بنشر تعاليم الإسلام في بلاده وبين قومه. أزعج بركة خان ما حازه هولاكو، الذي عدَّ نفسه حامي النصارى، من سطوة، وغضب عندما دمَّر بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم، كما أنه نظر بقلق إلى تأسيس هولاكو دولة مغولية خاصة في إيران لا سيما بعد أن ضمَّ بلاد أرَّان وأذربيجان مع أنهما كانتا من إرث جوجي والد بركة استناداً إلى وصية جنكيزخان. وفي رواية أن العداء بين الرجلين نشأ نتيجة عدم تأييد بركة للخاقان قوبيلاي، وحتى يقوِّي موقفه، ويمنع حكام إيران من الوصول إلى البحر المتوسط تحالف مع الظاهر بيبرس.

انظر: العريني: المغول ص ٢٥٢ ـ ٢٦٨. Ibid: pp 122 - 123 .

ملك البلغار قوة عسكرية اشتركت في حصار القلعة، والمعروف أن هذا الأخير كان في نزاع مع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن.

استطاع الحلفاء أن ينزلوا هزيمة قاسية بالأمبراطور البيزنطي الذي كاد أن يلقى مصرعه، لولا أن فرَّ من ميدان المعركة، وعاد إلى القسطنطينية تاركاً آينوس تحت رحمة المهاجمين. واضطر سكانها تحت ضغط الحصار إلى تسليم كيكاوس الثاني حياً مقابل انسحاب الجيش المغولي.

ونُقل السلطان إلى بلاد القرم حيث منحه بركة خان إقطاعاً يتضمن مدينتي سوداك وسواك، ووعده بتأسيس دويلة فيهما، وزوَّجه إحدى بناته. وأثناء إقامته في بلاد القرم، حاول كيكاوس الثاني تجهيز قوة عسكرية بهدف استعادة عرشه المسلوب، إلَّا أن أتباعه رفضوا الانضمام إليه، ويبدو أنه طاب لهم مناخ المنطقة واعتادوا على حياة الرفاه. وتفرَّقت عائلة كيكاوس الثاني، فقد بقي اثنان من أولاده في القسطنطينية في حين صحبه الثالث إلى بلاد القرم، وانتحرت والدته وكانت في القسطنطينية عندما أخبرها أحد الأشخاص من ذوي النيات السيئة أن السلطان قد توفي في الطريق(١)، ولا استبعد أن يكون للأمبراطور البيزنطي دور في هذه الحادثة.

وحدث أن توفي بركة خان في عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، وخلفه منكوتمر، وقد اختلفت سياسته تجاه كيكاوس الثاني عن سياسة سلفه، فقبض عليه وسجنه مع ابنه مسعود في قرية على شاطىء البحر الأسود، وبقي كيكاوس الثاني في إقامته الجبرية حتى توفي في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)(٢).

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٩٨. الآقسرائي: ص ٧٥ ـ ٧٦. اليونيني: جـ ٣ ص ٦٧. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ص ٩٣ ـ ٩٤. Howorth: vol II pp 122 - 123.

(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٣٣٤. الآقسرائي: المصدر نفسه ص ٧٦. ابن شداد: ص ٧٨. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٧٢.

الفصل الثالث عشر

السنوات الأخيرة من عمر السلطنة

٦٦٤ ـ ٧٠٤هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٣٠٤م

غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان: كيخسرو الثالث

٦٦٤ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٣م

تمهيد

تميَّزت السنوات الأخيرة من عمر السلطنة بسرعة التقلبات السياسية بفعل اشتداد الصراع الخارجي في المنطقة بين المغول والمماليك، مما أثَّر سلباً على أوضاع البلاد، لأن القيِّمين على السلطة انقسموا فيما بينهم بشأن السياسة الخارجية، كما كان لنزاعات الولاة المغول فيما بينهم آثاراً سلبية أخرى. وزادت السياسة الداخلية للسلاطين والأمراء الأوضاع حرجاً، في ظل التنافس الحاد، ونجح الأمراء في حجب السلاطين وتشديد قبضتهم على مقدرات الدولة، ولا يجب أن نتجاهل في هذا المقام، الثورات الداخلية التي كثرت في هذه المرحلة، فأنهكت البلاد والعباد.

وحدث بعد مقتل السلطان ركن الدين قلج أَرسلان الرابع، أن نصَّب برواناه غياثَ الدين كيخسرو الثالث ابن السلطان المغدور سلطاناً على بلاد سلاجقة الروم، بالاتفاق مع الوالي المغولي نابشي، وعمره ستة أعوام، وفي رواية عامان ونصف. وتولَّى برواناه، بالاشتراك مع الصاحب فخر الدين، تربيته ورعايته وتعليمه، ولما شبَّ بعد مرور عشرة أعوام، تسلَّم رسمياً مقاليد الأمور[1].

والواقع أن هذا السلطان لم يؤد أي دور بارز خلال حياته السياسية، نظراً لصغر سنه من جهة، وازدياد نفوذ الأمراء وبخاصة برواناه من جهة أخرى، وقد

---

(١) ابن بيبي: ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣. الآقسرائي: ص ٨٧. ابن العبري: ص ٣٢٥. يذكر هذا المؤرِّخ أن غياث الدين كيخسرو كان عمره أربعة أعوام عندما نصَّبه برواناه.

ارتبط مصيره بمصير هذا الوزير المقتدر. وما حدث في البلاد من مشكلات متعددة كثورة القرمانيين، وثورة أبناء الخطير، كانت تتطلَّب رجالاً أكفَّاء للوقوف في وجهها. وبرز في عهد كيخسرو الثالث ظهور المماليك على مسرح الأحداث في المنطقة وازدياد قوتهم واصطدامهم مع المغول، مما غيَّر موازين القوى في المنطقة، ودخلت بلاد الروم في دوامة الصراع المغولي ـ المملوكي.

اتساع رقعة الدولة المغولية

حقَّق المغول ما وضعه منكوخان من خطة ترمي إلى القضاء على الحشيشية، وتدمير الخلافة العباسية، وانتزاع ما يخضع لها من الأقاليم في إيران وبلاد الشام ومصر. والمعروف أن الخاقان المذكور قد عهد إلى أخيه هولاكو القيام بتنفيذ خطته بعد أن منحه إقليم إيران والولايات الغربية[1].

والواقع أن المغول استفادوا من الأوضاع السيئة التي أحاطت بإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى للقيام بتنفيذ مخططهم. ونجح هولاكو في إقامة دولة مستقرة للمغول في إيران، ودخل الحكام المحليون في تبعيته باستثناء الحشيشية الذين اعتصموا بقلاعهم في قهستان بين هراة ونيسابور فاصطدم بهم وأخضعهم، ثم التفت نحو بغداد مركز الخلافة العباسية[2].

كانت الأوضاع في بغداد، آنذاك، سيئة جداً. فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بعدم جديته في إدارة الشؤون العامة، وكانت الأخبار تصل إلى مسامعه تباعاً باقتراب جيوش المغول، ومع ذلك لم يستعد لمواجهتهم ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والدهاء، أمام خطرهم[3].

والواقع أنه تعدَّدت مراكز القوى آنذاك في عاصمة الخلافة، واختلف القيمون فيها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. فأرباب السلطان ومن بيدهم إدارة الشؤون العامة، متنازعون، متباغضون، كل منهم يحيك المؤامرات ضد الآخر، ويسفِّه رأيه أمام الخليفة الذي وقف عاجزاً عن وضع حد لهذه المشكلات، فترتب على ذلك أن اشتهرت الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، وكان سني المذهب،

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ص ١٢٨.

(٢) رشيد الدين: ص ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤. ابن العبري ص ٣٠١ ـ ٣٠٢. الجويني: جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٣) ابن طباطبا، محمَّد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٣٣٣. الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ ص ٢٥٢.

وبين مؤيد الدين بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعي المذهب، مما كان لها أثرها السيء في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة[1].

وكان سكان بغداد، من أهل السنة والشيعة والنصارى واليهود، في تناحر مستمر، وخلاف مذهبي مستحكم، وبخاصة بين الطائفتين الأولى والثانية، كما كانوا يختلفون في المسائل السياسية.

وعمد الوزير ابن العلقمي، بعد أن أثارته الاضطرابات المذهبية ضد الشيعة، إلى مراسلة هولاكو وأطمعه في ملك بغداد[2]. لكن الواقع أنه لم يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما في وقت لاحق؛ من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة.

في هذه الظروف الحرجة، طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش من عنده ليشترك مع الجيوش المغولية في القضاء على الحشيشية، لكن المستعصم رفض طلبه هذا بعد مشاورات مع معاونيه، على الرغم من معارضة الوزير ابن العلقمي[3]، فأسرَّها هولاكو في نفسه، ولما فرغ من القضاء على الحشيشية أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمَّن تهديداً وطلب منه أن:

- يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه.
- يحضر لمقابلته، أو يرسل الوزير سليمان شاه والدواتدار[4].

ردَّ الخليفة، بالرفض أيضاً، في محاولة منه لمعارضة بسط سيطرة المغول على عاصمة الخلافة العباسية، وقد اتَّسم ردَّه بالتهديد أيضاً، ظناً منه أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يُقدم على خطوته.

وأخيراً كان لا بد من المواجهة بين الطرفين. وحاصرت الجيوش المغولية عاصمة الخلافة، ثم دخلت إليها عنوة في (شهر صفر عام ٦٥٦هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨م)، ودمرتها[5]، وكان الخليفة قد خرج منها وسلَّم نفسه للزعيم المغولي دون

---

(١) صفا، ذبيح الله: تاريخ أدبيات درإيران جـ ٢ ص ١٢٠.

(٢) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٠١.

(٣) انظر نص الرسالة في فتح بغداد المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي، والملحقة بكتاب تاريخ قاهر العالم للجويني جـ ٢ ص ٣٦٣.

(٤) رشيد الدين: ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٥) انظر فيما يتعلَّق بالفظائع التي ارتكبها المغول في بغداد، ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٠٣.

قيد أَو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان[١].

وقد انتهت هذه الأحداث المفجعة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أَبي العباس أحمد، وأَبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، ثم استسلمت الحلة والكوفة وواسط والموصل[٢].

ونشير في هذا المقام إلى أن النصارى في الشرق، وجدوا في غزوة هولاكو لبغداد فرصة طيبة، فاشتركت نسبة كبيرة من النساطرة والأرمن في جيوشه، وقد حظي هؤلاء بالعناية بفعل مؤازرة طوقوز خاتون زوجة هولاكو النصرانية، لهم[٣].

وما حدث بعد ذلك من زحف المغول باتجاه بلاد الشام وسيطرتهم على مدنه وقلاعه[٤]، مما زاد في اتساع رقعة دولتهم، وجاوروا دولة المماليك في مصر.

قيام دولة المماليك في مصر

عندما يتفحص الباحث تاريخ الشرق العربي بعامة، وتاريخ بلاد الشام ومصر بخاصة، منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي حتى مطلع العصور الحديثة؛ يلاحظ أنه تأثر بالدور الذي أدَّاه المماليك الأَتراك الذين قدموا إِلى غربي آسيا نتيجة السبي في الحروب أَو الشراء، وكانت بلاد ما وراء النهر والقبجاق مصدراً رئيسياً لجلب الرقيق الأبيض التركي.

وظل هؤلاء يتوافدون على مصر دون انقطاع منذ العصور العباسية المتأخرة، وقد أتاحت لهم التطورات نوعاً من الهيمنة العسكرية والسياسية، حيث كان من العسير عليهم ألا يتدخلوا في شؤون الإمارات الإِسلامية، ليخطُّوا لهم طريقاً ونهجاً خاصاً في الحكم، ويتركوا بصمات واضحة في تاريخ منطقة الشرق العربي. فاستخدمهم الطولونيون في مصر واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم واستمرارها (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)، ومنذ ذلك الوقت أضحى جند مصر وولاتها من المماليك الأَتراك. وقد نهجت الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) التي خلفت الدولة الطولونية في مصر نهج هذه الأخيرة في الاعتماد على المماليك. ولما استولى الفاطميون على مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) بعد قيام دولتهم في شمالي

---

(١) الصياد: ص ٢٦٣.

(٢) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٠٥. الطوسي: ص ٣٠٧.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٥٢٢.

(٤) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص ٧٠ ـ ٧٣.

إفريقية، اعتمد حكامهم على عدة عناصر، كان الأتراك من بينهم. وعندما قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، أقبل الملوك والأمراء الأيوبيون على شراء أعداد كثيرة منهم لزيادة قدراتهم العسكرية، وللاعتماد عليهم في حروبهم الداخلية. وقد ظل هؤلاء المماليك الأتراك والجركس أداة طيعة في يد أصحابهم طالما كان أولئك محتفظين بقوتهم. ويعود الفضل لهم في احتفاظ كل من الملك العادل والملك الكامل محمَّد بتفوقهم العسكري، وصمودهم في وجه الصليبيين في بلاد الشام. وبتفاقم الخلافات بين فروع البيت الأيوبي، ونشوب النزاعات الدامية بينهم، ازداد نفوذ المماليك وأضحوا الأداة التي لا يمكن الاستغناء عنها في احتفاظ الملوك الأيوبيين بسلطانهم.

وهكذا تضخَّم نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية بفضل شعورهم بأهميتهم العسكرية، ومن ثَمَّ راحوا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية. من ذلك تدخلهم في مؤامرة لعزل العادل الثاني وإحلال الصالح نجم الدين أيوب مكانه(١)، الأمر الذي أدَّى بهذا الأخير إلى إدراك أهميتهم العسكرية، مما دفعه إلى الإكثار من شراء المماليك تمتيناً لسلطته، وبخاصة بعد أن تبين له عدم جدوى الاعتماد على الخوارزميين، وجعلهم بطانته، وأضحى بفضلهم حاكماً على مصر، واختار جزيرة الروضة في نهر النيل لتكون مقراً له فشيَّد فيها قصراً، وبنى قلعة خاصة لمماليكه وأسكنهم فيها، ومن أجل ذلك عُرِف هؤلاء المماليك باسم «المماليك البحرية الصالحية»، الذين سيشكِّلون، فيما بعد، عماد الدولة المملوكية الأولى(٢).

ويرجع الفضل لهؤلاء المماليك في تصدِّي سلاطين مصر، منذ أيام الصالح نجم الدين أيوب، للصليبيين، الأمر الذي جعلهم يعتدُّون بقوتهم، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية في مصر تعاني من مظاهر الضعف، وبخاصة بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب في عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، ذلك أن ابنه وخليفته توران شاه قد فَقَدَ ثقته بهم عندما شعر بأن له من القوة ما يكفي لأن يملأ وظائف الدولة بثقاته الذين أحضرهم معه من إقليم الجزيرة، وحرم المماليك منها. ولما احتج هؤلاء ردَّ عليهم بالتهديد، وأهان في الوقت نفسه زوجة أبيه شجرة الدر، مما حملها على طلب حمايتهم. وهكذا تخوَّف المماليك من توران شاه وتربصوا به إلى أن

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦.

(٢) انظر كتابنا: تاريخ المماليك... ص ٢٦ ـ ٢٧.

سنحت لهم الفرصة فقضوا عليه في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[١].

انتهى بمقتل توران شاه حكم الأيوبيين في مصر، لأن المماليك اختاروا شجرة الدر كسلطانة، وكانت بحكم أصلها التركي أو الأرميني أقرب إلى المماليك، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك[٢]. ونصَّب المماليك أتابك العسكر عز الدين أيبك وصياً على العرش، وما لبث هذا الأخير أن تزوج بشجرة الدر، ثم نصَّبه الأمراء البحرية سلطاناً[٣].

وهكذا قامت دولة المماليك البحرية في مصر لتنفخ في المسلمين روحاً جديدة بما هيأت لهم من طاقة عسكرية هائلة مكنتهم من التصدي للمغول، والقضاء على ما تبقَّى من الصليبيين في المشرق الإسلامي.

الصراع المغولي ـ المملوكي في عهد كيخسرو الثالث

معركة عين جالوت[٤]

شهدت دولة المماليك في بداية حياتها السياسية تطورات داخلية سريعة. ذلك أن شجرة الدر دبَّرت مؤامرة لقتل زوجها عز الدين أيبك في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، فما كان من مماليكه إلَّا أن انتقموا لمقتله، فقتلوا شجرة الدر في السنة نفسها، ونصَّبوا ابن أيبك نور الدين علي وعمره خمس عشرة سنة، ولقبُّوه بـ «الملك المنصور»[٥].

وبدت الدولة المملوكية ضعيفة في ظل حكم صبي قاصر حين تعرَّضت لضغط خارجي من قِبل بقايا الأيوبيين في الوقت الذي اشتد فيه الضغط المغولي على بلاد الشام. خلقت هذه الظروف الخارجية وضعاً حرجاً يتطلَّب وجود رجل قوي على رأس السلطنة، فوجد قطز، وهو أحد الأمراء المماليك البارزين، الفرصة سانحة ليتبوأ عرش مصر، فعزل المنصور في (شهر ذي القعدة عام ٦٥٧هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٩م) بمساعدة الأمراء المعزِّية، ونصَّب نفسه سلطاناً[٦].

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين... ص ٣٨٧ ـ ٣٩٠.

(٢) انظر فيما يتعلق بنهاية الدولة الأيوبية في مصر وبداية الدولة المملوكية، كتابنا: تاريخ المماليك... ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) انظر كتابنا: تاريخ المماليك... ص ٣٥ ـ ٣٦، ٤٣ ـ ٤٥.

(٤) عين جالوت: بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. الحموي ج ٤ ص ١٧٧.

(٥) انظر كتابنا: تاريخ المماليك: ص ٥١ ـ ٥٢، ٥٨.

(٦) المرجع نفسه: ص ٥٩ ـ ٦٠.

استأنف المغول، في غضون ذلك، توسعهم باتجاه الغرب، وكان طبيعياً أن يتلو غزو العراق مهاجمة بلاد الشام. وكان هولاكو قد أرسل أثناء حصار بغداد فرقة عسكرية بقيادة أريق نوين، استولت على إربل، فأشرف المغول بذلك على بلاد الشام[١].

وقاد هولاكو جيشه في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) للاستيلاء على شمالي غربي بلاد الشام تمهيداً للوصول إلى هذه البلاد، فسقطت في يده مدن ميافارقين، نصيبين، حران، الرها، البيرة وحارم، ثم توجَّه إلى حلب واستولى عليها في (شهر صفر عام ٦٥٨هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٦٠م)، كما استولى على دمشق في (أواخر صفر/ شباط)[٢].

لم يبق خارج نطاق حكم المغول من العالم الإسلامي في الشرق العربي سوى الديار المصرية والحجاز واليمن. وكان هولاكو قد وجَّه في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وهو في بلاد الشام، إنذاراً إلى قطز يطلب منه الاستسلام[٣]. وفي الأسابيع الثلاثة التي أعقبت احتلال دمشق أتمَّ المغول السيطرة على بلاد الشام وتقدموا نحو فلسطين دون أن يلقوا مقاومة تُذكر، وأغاروا على بعض مدنها مثل نابلس والخليل، ولكنهم لم يطأوا بيت المقدس[٤].

وعقد قطز اجتماعاً عاجلاً مع أمرائه لدرس الموقف، وتمخَّض الاجتماع عن قرار يقضي برفض الإنذار وقتل الرسل الذين حملوا الرسالة إلى مصر. والحقيقة أنه كان من الصعب على المماليك في مصر أن يقفوا في وجه هولاكو وجيوشه الجرارة. فما الذي تبدَّل في المناخ السياسي حتى اتخذ قادة المماليك هذا القرار الرافض؟.

الواقع أن هولاكو غادر آنذاك بلاد الشام على عجل متوجهاً إلى العاصمة المغولية قراقورم، وقد سحب معه معظم جيشه، وأبقى في المنطقة عشرة آلاف مقاتل بقيادة كتبغا نوين. أما دوافع عودته المفاجئة فترجع إلى عاملين:

الأول: وفاة الخان الكبير منكو في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، وبروز بوادر صراع على السلطة بين أخوي هولاكو قوبيلاي وأريق بوغا، فأراد أن ينافسهما على الزعامة

---

(١) ابن العبري: ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) انظر فيما يتعلَّق بسيطرة المغول على بلاد الشام، كتابنا: تاريخ المماليك... ص ٧٠ ـ ٧٣.

(٣) انظر نص الرسالة عند المقريزي: جـ١ ص ٥١٤. رشيد الدين: ص ٣١٠.

(٤) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان جـ ١ ص ٢٣٢. ابن تغري بردي: جـ٧ ص ٧٧.

المغولية، معتقداً أنه سوف يُنتخب خاناً أعظم نظراً لأهمية توسعاته.

الثاني: تعرُّض أملاكه في إيران لضغط متواصل من قِبَل ابن عمه بركة خان زعيم القبيلة الذهبية وحاكم القبجاق، وبخاصة أنه اعتنق الإسلام وراح يهدِّد هولاكو ويتوعده بسبب ما اقترفه من مذابح بحق الآلاف من المسلمين، ولتجرُّئه على مقام الخلافة العباسية، وقتل الخليفة[1].

أضحى كتبغا نوين يحكم بلاد الشام بقوة قليلة العدد نسبياً مما أتاح بصيصاً من الأمل للمماليك الذين أثارهم توغل المغول في فلسطين. يضاف إلى ذلك ما عُرف عن القائد المغولي تقرُّبه من النصارى، لا لأنه يدين بالنصرانية، بل لأنه أدرك مدى أهمية قيام تحالف مغولي ـ نصراني في الشرق يقف في وجه الإسلام والمسلمين. وعلى الرغم من أن بوهيموند السادس أمير أنطاكية، وهيثوم ملك أرمينية الصغرى، كانا يشاركان كتبغا نوين هذا الشعور، فإن الصليبيين في عكا ظلوا ينظرون إلى المغول كبرابرة، وفضَّلوا التعاون مع المسلمين[2].

ويبدو أن قطز أدرك مغزى هذه المواقف، لأن كتبغا نوين لم يكن ليستطيع أن يحتفظ بفتوح المغول إلَّا عن طريق تحالفه مع الصليبيين النازلين على الشاطىء، وما دام هؤلاء الصليبيون قد نفضوا أيديهم من هذا الحلف، فقد أضحت الفرصة مؤاتية ليس للوقوف أمام المغول فحسب بل والانتصار عليهم أيضاً[3].

في ظل هذه الأوضاع استقر رأي المماليك في مصر على ضرورة المقاومة، ومن خلال هذه المعطيات كان القرار الرافض بالاستسلام وقتل الرسل. ووضع قطز خطة عسكرية تكفل له الانتصار على المغول، وعبَّأ المجتمع المصري استعداداً للمواجهة معهم، فأمَّن بذلك الجبهة الداخلية وتفرَّغ وهو مطمئن لخوض المعركة التي عدَّها بمثابة حياة أو موت[4].

قضت الخطة العسكرية أن يخرج قائده بيبرس البندقداري[5] على رأس قوة

---

(١) رشيد الدين: ص ٣١١.

(٢) Grousset: L'Empire des Steppes p 437.

(٣) الصياد: ص ٣٠٥.

(٤) انظر كتابنا: تاريخ المماليك... ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٥) البندقداري: نسبة إلى البندقدار، وهو لفظ فارسي مركب معناه حامل البندق خلف السلطان أو الأمير. وقد سُمي بيبرس بالبندقداري لأنه كان في أول أمره مملوكاً للأمير أيدكين البندقدار وهو ينتمي إلى الأتراك القبجاق، ثم انتقل إلى الصالح نجم الدين أيوب وأضحى من مماليكه. ولما قدم إلى الشام لأول مرة مع عدد من الأرقاء جرى عرضه للبيع على أمير حماة، وتَمَّ شراؤه ليلحق بالمماليك السلطانية، فارتفع شأنه بسرعة نظراً لما كان يتمتع به من ذكاء حاد، ولما انتصر على الصليبيين في =

استطلاعية لدرس الموقف على الأرض. تقدَّم هذا القائد في شهر (شعبان ٦٥٨هـ/ تموز ١٢٦٠م) قاصداً غزة، وقد تمركزت فيها حامية عسكرية مغولية بقيادة بيدرا، فأرسل هذا الأخير رسالة إلى كتبغا نوين، الذي كان يعسكر بالقرب من بعلبك في سهل البقاع، يعلمه فيها بالتحرك المملوكي، ويطلب منه نجدة على وجه السرعة[١].

اصطدم بيبرس بالحامية وأجلاها عن غزة، وطارد أفرادها حتى نهر العاصي[٢]. وتجهَّز كتبغا نوين للزحف إلى وادي الأردن عندما بلغته أنباء تحرك المماليك، غير أن ما حدث من نشوب ثورة المسلمين في دمشق، أخَّر تقدمه، مما أعطى الفرصة لهؤلاء بالإسراع بالزحف.

وخرج قطز من مصر في شهر (رمضان ٦٥٨هـ/ آب ١٢٦٠م) متوجهاً إلى فلسطين عن طريق الساحل معتمداً على المعاهدة المعقودة بين الملك الناصر يوسف الأَيوبي وصليبيي عكا في عام (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م). وعلم وهو في عكا بأن كتبغا نوين عبر الأردن ووصل إلى عين جالوت، فتحرَّك باتجاه نهر الأردن، وسبقه بيبرس البندقداري إلى عين جالوت وراح يناوش الجيش المغولي حتى لحق به قطز. وفي المعركة التي جرت بين الجيشين الإسلامي والمغولي في ذلك المكان، انتصر المسلمون انتصاراً واضحاً، وتعرَّض الجيش المغولي للدمار وقُتل كتبغا نوين في المعركة وتشتَّت جيشه. وقد جرت المعركة في صبيحة يوم الجمعة (٢٦ رمضان/ ٣ أيلول)[٢].

نتائج معركة عين جالوت

تُعدُّ معركة عين جالوت إحدى الوقائع الهامة في التاريخ، وترتَّبت عليها نتائج بالغة الأهمية، أهمها:

ـ لقي المغول، لأول مرة في تاريخهم في الشرق، هزيمة حاسمة، وتعرَّض جيشهم للدمار التام، وقضى المماليك على الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يُغلبون.

= عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) عُدَّ أكفأ عساكر المماليك، ودلَّت تصرفاته بعد ذلك على أنه رجل سياسي من طراز بالغ الرفعة، لا يقف في سبيله ذرة من الشرف أو عرفان بالجميل أو الرحمة.

(١) رشيد الدين: ٣١٣.

(٢) انظر فيما يتعلَّق بمعركة عين جالوت: ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢. رشيد الدين: ص ٣١٣ ـ ٣١٤. النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٩ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٥. العيني: جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

ـ سيطر المماليك، بعد عين جالوت، على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات، وحقَّقوا وحدة مصر وبلاد الشام بعد أن أدَّى ضعف أبناء صلاح الدين الأيوبي وتنازعهم، إلى تمزيقها.

ـ الواقع أن ما أحرزه المماليك من انتصار في عين جالوت، أنقذ الإسلام والمسلمين من أشد ما تعرَّضوا له من أخطار.

ـ أدَّى الانتصار في عين جالوت إلى احتفاظ مصر بما لها من حضارة ومدنية، فلم تتعرَّض لما تعرَّضت له بغداد من الدمار والخراب، وأضحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء.

ـ جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك، القوة الأساسية في الشرق العربي الإسلامي في القرنين التاليين إلى أن قامت دولة الخلافة العثمانية.

ـ حقَّقت دولةُ المماليك الناشئة الدعامةَ الشرعية التي اعتمدت عليها للبقاء في الحكم.

ـ نفخ النصر في عين جالوت روحاً جديدة في المسلمين، وبخاصة مسلمي إيران الرازحين تحت الحكم المغولي، فقوي موقفهم، وتمكَّنوا من الصمود أمام تحديات النصارى، وشجَّعهم هذا النصر على دعوة المغول للدخول في الدين الإسلامي.

ـ توطدت العلاقة بين الحكام المماليك وبين الحكام المسلمين من المغول في بلاد القبجاق، وتحالف الطرفان ضد عدوهما المشترك المتمثِّل في أسرة هولاكو في إيران.

ـ أدَّى الانتصار في عين جالوت إلى فشل سياسة الصليبيين في الشرق العربي القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين، وإلى التعجيل بزوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

نهاية قطز واعتلاء بيبرس الحكم في مصر

استأنف قطز رحلة العودة إلى القاهرة، بعد ترتيب أوضاع بلاد الشام بعد أن زال الخطر المغولي الذي أجبر المماليك جميعاً على الاتحاد. فتجدَّدت النزاعات بين قطز ومماليكه المعزية من جهة وبين المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري من جهة أخرى. وكان هذا الأخير يتحيَّن الفرص للتخلُّص من قطز انتقاماً لمقتل أقطاي الذي شارك قطز في قتله من جهة، كما أنه استاء من تراجع قطز عن وعده بمنحه نيابة حلب إذا انتصر على المغول، من جهة أخرى. واشتد ارتياب قطز في

قائده، فاحترس منه، وكان يتجنبه ما استطاع. ويُذكر أن المماليك البحرية دفعت بيبرس للإقدام على اغتيال قطز[1].

والواقع أن الخلافات بين الزعماء المماليك ترجع إلى أسباب مادية تتمثَّل في الصراع على السلطة، وأن قطز أظهر قصر نظر في الحقل السياسي حين تجاهل مكانة بيبرس التي ارتفعت بين المماليك بعد معركة عين جالوت.

وحدث أن صمَّم بيبرس على الانتقام من قطز، وقتله يوم السبت في (١٥ ذي القعدة عام ٦٥٨هـ/ ٢٢ تشرين الأول عام ١٢٦٠م) وهو عائد إلى القاهرة، وتربع مكانه على دست الحكم.

أعمال بيبرس في بلاد الشام

وضع بيبرس نصب عينيه هدفين راح يعمل على تحقيقهما.

الأول: داخلي، يرمي إلى تثبيت أقدامه في الحكم.

الثاني: خارجي، يرمي إلى القضاء على الصليبيين وطردهم من بلاد الشام، ومحاربة الأرمن وصليبيي أنطاكية لمحالفتهم مغول إيران، ثم التوسع على حساب هؤلاء في شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى، والاتصال بمغول القبجاق المسلمين، للتنسيق معهم ضد مغول إيران.

لم يلق بيبرس معارضة في مصر، إنما جاءت المقاومة ضده من قبل سنجر الحلبي نائبه في دمشق، وما حدث آنذاك من هجوم المغول على حلب وتقدمهم نحو حماة ومصر، هدَّد نفوذه في بلاد الشام، غير أن أميري المدينتين المذكورتين استطاعا أن يُنزلا الهزيمة بالمغول، في حين زحف بيبرس على دمشق وتغلَّب على عساكر سنجر الحلبي ودخل المدينة في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) وأعاد تنظيم شؤونها[2].

بعد أن ثبَّت أقدامه في الداخل التفت بيبرس إلى الناحية الخارجية، وبدأ بتنفيذ مخططه بمهاجمة الصليبيين في بلاد الشام. ففتح في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) قيسارية ويافا وأرسوف، وهاجم قلاعاً أخرى، كما فتح في العامين التاليين صفد والرملة

---

(١) النويري: جـ ١٩ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨. المقريزي: جـ ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢١. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٢٠. المقريزي: جـ ١ ص ٥٣٥.

وتبنين والقليعات وحلبا وعِرقة[1]، وهذه الحصون الثلاثة الأخيرة كانت تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي. وتُعدُّ سيطرة المماليك عليها خطوة متقدمة في سبيل فتح طرابلس نفسها بعد ذلك.

التفت بيبرس بعد ذلك إلى معاقبة الأرمن وصليبيي أنطاكية، وكان قد أرسل في (أوائل عام ٦٦٠هـ/ أواخر خريف عام ١٢٦١م) جيشاً للسيطرة على حلب بعد أن أعلن أميرها المملوكي العصيان، ولشن غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية. وتجدَّدت الغارات في الصيف التالي وجرى تهديد أَنطاكية نفسها، إلَّا أن هيثوم ملك أرمينية الصغرى استنجد بهولاكو الذي أمدَّه بقوة عسكرية مغولية اشتركت مع الجيش الأرميني لإنقاذ أَنطاكية[2]. وإذ ظلَّت سلطة المغول في شمال شرقي بلاد الشام من القوة ما يكفي لإخافة بيبرس، لم يسعه إلَّا الالتجاء إلى السياسة لمعاجة الصعاب التي يصادفها.

وحدث وقتذاك أن أعلن بركة خان عن استعداده للتحالف مع بيبرس، وكانت نتيجة ذلك إطلاق سراح السلطان السلجوقي كيكاوس الثاني كما مرَّ معنا، في حين استقر زعيم تركماني يدعى قرمان في جنوبي شرقي قونية فيصح استخدامه في أن يقوم بضغط مستمر على الأرمن[3].

وعلى الرغم من مشكلاته مع القبيلة الذهبية التي منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك، فإن هولاكو ما زال يدخر من القوة والبأس ما يكفي لمنعهم من مهاجمة حلفائه. وفي الوقت الذي عدَّ فيه التحالف مع البيزنطيين بالغ الأهمية على أنه وسيلة لضبط الأتراك في الأناضول والسيطرة عليهم؛ أجرى مباحثات مع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل انتهت إلى ضمِّ ماريا، الابنة غير الشرعية لميخائيل، إلى زوجات هولاكو، لكن يبدو أن هذه الخطوة لم تتحقَّق بسبب وفاة هولاكو في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)[4].

أتاحت وفاة هولاكو فرصة طيبة للمماليك، إذ أضعفت مغول إيران في لحظة حرجة، كما أثَّرت سلباً على أوضاع حلفائه الأرمن والكرج والصليبيين. ذلك أن أرملته طوقوز خاتون كفلت ولاية العرش لابنه آباقا، غير أنه لم يتم تنصيبه إيلخاناً

(١) ابن عبد الظاهر: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٩. المقريزي: جـ ٢ ص ٣٣ ـ ٣٦.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) Cahen: La Syrie du Nord: p 711.

(٤) ابن العبري: ص ٣٣٤. Howorth: vol III pp 206 - 210.

من الناحية الرسمية إلَّا بعد مرور أربعة أشهرعلى وفاة والده، كما لم يتم إعادة توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات إلَّا بعد مرور أربعة أشهر أخرى. وتعرَّض آباقا في هذه الأثناء، للتهديد المستمر من جانب أبناء عمومته في القبيلة الذهبية الذين أغاروا على بلاده في الربيع التالي[1]، فكان مستحيلاً على حكومة مغول إيران أن تتدخَّل في شؤون غربي بلاد الشام. أما بيبرس الذي سبَّب بسياسته المتاعب للإيلخان في الشمال، فأضحى بوسعه أن يستأنف حملاته ضد الصليبيين دون أن يخشى تدخلاً مغولياً.

وإذ حرص المغول الإيلخانيون في إيران أن يؤلفوا جبهة يشترك فيها الأرمن والكرج والصليبيين، وينضم إليها سلاجقة الروم والبيزنطيون، لمناهضة المماليك وحلفائهم مغول القبجاق، كان بيبرس حريصاً من جهته على توطيد مركزه في شمالي بلاد الشام للانطلاق إلى الأناضول، وذلك باستقطاب سلاجقة الروم، ليتخذ من المنطقة حاجزاً في وجه المغول الإيلخانيين من جهة ويتصل بمغول القبجاق من جهة أخرى.

وتنفيذاً لسياسته، راح بيبرس يشن الغارات حتى بلغت طرابلس وأَنطاكية[2]. وتوقع الأرمن أن يصل دورهم، فاضطر هيثوم أن يفتح باب المفاوضات مع بيبرس، وتردَّدت السفارات بينهما، فطلب الأخير أن:

- يدخل هيثوم في طاعته.
- يؤدي له الجزية.
- يفتح طريق الدروب أمام القوات المملوكية.
- تمكين الناس من شراء القمح.

والمعروف أن هيثوم كان قد فرض حصاراً اقتصادياً ضد المماليك في مصر، فمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر[3].

إلَّا أن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية، ويبدو أن خوف هيثوم من المغول هو السبب في ذلك. ولما شعر هذا الأخير بأن الحرب واقعة لا محالة وأن قواته العسكرية لا يمكنها مقاومة القوات المملوكية، هرع إلى تبريز في عام (٦٦٤هـ/

(١) انظر فيما يتعلق بحروب مغول إيران ومغول القبجاق: الصياد: الشرق الإسلامي في عهد المغول الإيلخانيين ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠. Howorth: vol III pp 215 - 218.

(٣) انظر كتابنا: تاريخ المماليك... ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

١٢٦٦م) يلتمس المساعدة من المغول[١].

وهاجم المماليك بقيادة المنصور الثاني أمير حمص، في تلك الأثناء، جيشاً أرمينياً مرابطاً عند دروب الشام بقيادة ولدي هيثوم ليون وثوروس. ودارت بين الطرفين رحى معركة قاسية قرب دربساك في شهر (ذي القعدة ٦٦٤هـ/ آب ١٢٦٦م) دارت الدائرة فيها على الجيش الأرميني، ولقي ثوروس مصرعه في حين وقع ليون في الأسر[٢].

وانساب الجيش المملوكي على إثرها إلى قيليقية، فنهب إياس وأذنة وطرسوس، وتجاوز المصطبة إلى سيس فنهبها وأشعل النار فيها وجعل عاليها سافلها، ثم انسحب من المنطقة، في نهاية شهر أيلول عائداً إلى حلب ومعه الأسرى والغنائم[٣].

وشنَّ بيبرس في شهر (رمضان ٦٦٦هـ/ أيار ١٢٦٨م) هجوماً على أَنطاكية، وكان أميرها بوهيموند السادس آنذاك في طرابلس، فتولى الكندسطبل سيمون مانسل الدفاع عنها، ولم تكن الحامية من كثرة العدد ما تستطيع أن تحمي كافة الأسوار. ويبدو أن سيمون لم يكن قائداً على مستوى الأحداث، فشنَّ هجوماً طائشاً على القوات المملوكية ووقع في الأسر، واستخدمه بيبرس ورقة ضغط على الحامية. ثم جرى اقتحام المدينة بعد فشل المفاوضات مع حاميتها ودخلها الجيش المملوكي[٤].

وإذ سقطت أَنطاكية، وضعفت أرمينية الصغرى، بعد الضربات التي وجَّهها إليها بيبرس، أضحى المماليك على أبواب الأَناضول.

السلاجقة بين المغول والمماليك

دخل سلاجقة الروم في الأَناضول، بحكم موقع بلادهم المهم، في دوامة الصراع بين المغول والمماليك، وتقلَّبت سياساتهم وفقاً لتغير ميزان القوى. فهم تارة مع المغول يستمدون العون منهم، ويحاربون في صفوفهم، وتحت رايتهم، وتارة أخرى مع المماليك يستنجدون بهم ليحرروهم من سيطرة المغول، إلَّا أنه وُجدت فئة من الأمراء حملت لواء المعارضة للوجود المغولي في البلاد، فتعرَّضت للضغط الشديد واضطرت إلى الهجرة إلى بلاد الشام ومصر. وسنرصد في السطور التالية،

---

(١) ابن العبري: ص ٣٢٥.
(٢) ابن عبد الظاهر: ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧١. المقريزي: جـ ٢ ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٤) ابن عبد الظاهر: ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩. رنسيمان: جـ ٣ ص ٥٥٧.

الاتجاهات السياسة للسلاجقة بين المغول والمماليك.

بعد فتح أنطاكية على أيدي المماليك، طلب الصليبيون مساعدة المغول. وفي الوقت نفسه كان هؤلاء يرصدون تحركات السلطان المملوكي في البلاد الجزرية وشمالي الشام. ونتيجة لهذا الطلب أمر آباقا القوات المغولية المرابطة في الأناضول بقيادة القائد سمغار بالتقدم نحو بلاد الشام، كما أمر برواناه بالانضمام إلى هذه القوة. وتلقَّى الوزير السلجوقي الأمر بينما كان عائداً من البلاط المغولي في تبريز بصحبة السلطان كيخسرو الثالث بعد إخماد ثورة آل الخطير.

واحتشد عشرة آلاف مقاتل مغولي مع قوة سلجوقية، وتوجَّهوا في عام (٦٧٠هـ/ ١١٧١م) نحو البستان، ومنها تابعوا زحفهم نحو مرعش. وأبلغهم الجواسيس بأن بيبرس قابع في دمشق، فأرسلوا قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة فارس طليعة، لتسقُّط الأخبار والإغارة على أطراف حلب، ووصلت غاراتهم إلى عينتاب وقسطون، وصادفوا هناك بعض التركمان معسكرين بين حارم وأنطاكية، فقضوا عليهم، ثم تابعوا زحفهم حتى وصلوا إلى أفامية.

انسحبت القوات المملوكية من المنطقة، تجاه هذا التقدم المغولي، إلى دمشق. واضطر بيبرس أن يطلب نجدة سريعة من مصر، ولما وصلت إلى دمشق خرج على رأسها للتصدي للقوة المغولية، فسبقه خبر خروجه، فغادر المغول عندئذ المنطقة وانسحبوا نحو الشمال، فأرسل قوة عسكرية بقيادة الأمير شمس الدين الفارقي سارت خلفهم حتى مرعش، ولما لم يجد أفرادها أحداً عادوا إلى حلب[1].

وتعرَّض آباقا آنذاك، لضغط شمالي، فوقع بين فكي الكماشة الشمالية المتمثِّلة بخانات القبيلة الذهبية، والجنوبية المتمثِّلة بالمماليك، فاضطر إلى فتح باب المفاوضات مع بيبرس لحل المشكلات العالقة بينهما بالطرق السلمية. ويبدو أن برواناه أدَّى دوراً بارزاً في التقريب بين وجهات النظر ليجنِّب بلاده مزيداً من البؤس لأن المعركة المقبلة، إذا حصلت، ستجري على أرض الروم.

وأرسل آباقا رسلاً إلى دمشق يعرض على بيبرس إبرام معاهدة صلح. وافق الثاني على ذلك، وأرسل من جانبه إلى آباقا يعرض عليه إعادة بلاد المسلمين التي استولى عليها مقابل إبرام الصلح. رفض الزعيم المغولي هذا العرض، واقترح بأن يحتفظ كل طرف بما في يده، فرفض بيبرس هذا الاقتراح. وانتهت المفاوضات

---

(١) اليونيني: جـ ٢ ص ٤٥٧، ٤٦٧ ـ ٤٦٨. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨. المقريزي: جـ ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧.

بالفشل نتيجة التصلب في المواقف. واستعدت بلاد السلاجقة لموجة أخرى من الحرب[1].

والواقع أن سياسة بيبرس تجاه السلاجقة قامت على أساس ضمِّ أملاكهم إلى أملاكه في بلاد الشام ومصر، بدافع عاملين:

الأول: أن ضمَّه لهذه البلاد سيمكِّنه من الاتصال بمغول القبجاق، والتنسيق معهم للوقوف في وجه مغول إيران.

الثاني: التخفيف من الضغط المغولي الإيلخاني الواقع على بلاد الشام.

ونتيجة لازدياد الضغط المغولي على بلاده، استغل برواناه فرصة وجوده عند آباقا مع رسل بيبرس، وشكا له من تسلط أخيه آجاي والقائد سمغار، وأن الأول يكلِّفه بما لا يطيق ويتوعده، فأمره آباقا بأن يخفي ذلك حتى يتحقَّق من الأمر. فلما عاد إلى بلاده أعرض عنه آجاي، عندئذ فكَّر جدياً بالتعاون مع بيبرس، وبعث إليه برسالة عرض فيها الولاء له مقابل:

- اعترافه باستقلال بلاد الروم، وبالسلطان كيخسرو الثالث حاكماً عليها.
- أن يرسل فرقة عسكرية ترابط في البلاد بشكل دائم للاستعانة بأفرادها لقتال المغول عند الحاجة.

رحَّب بيبرس بالتعاون مع الحكومة الرسمية للسلاجقة، إلَّا أنه اعتذر عن عدم القدوم فوراً على أن يوافيه في العام القادم[2].

والواقع أن الظروف لم تكن مؤاتية للمجازفة بحملة عسكرية غير مضمونة النتائج، لأن مثل هذه الحملة، تتطلَّب استعدادات ضخمة نظراً لبُعد المسافة، وقوة العدو من جهة، وحتى يتحقَّق من ولاء السلاجقة التام له، من جهة أخرى.

واستمرت الخلافات آنذاك، بين برواناه والقائد المغولي آجاي. وحاول الأول الإيقاع بالثاني وإخراجه من بلاده، وسنحت له الفرصة في عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) عندما وجَّه آباقا دعوة لكيخسرو الثالث ووزيره للحضور إلى بلاطه للتحقيق في مقتل السلطان قلج أَرسلان الرابع، غير أن برواناه لم يتجرأ للتعرُّض إلى آجاي، وانتهت الزيارة بإجراء بعض الترتيبات الإدارية. ولما وصل أعضاء الوفد إلى سيواس بلغهم أن آجاي تعرَّض لنواب برواناه بالضرب والإهانة وبخاصة ضياء الدين بن الخطير،

---

(١) ابن شداد، عز الدين محمَّد. تاريخ الملك الظاهر ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ابن شداد: ص ٧٩. اليونيني: جـ ٣ ص ٣٤.

فكتب عندئذ الوزير السلجوقي رسالة إلى آباقا يشرح له فيها أعمال آجاي، وأرسل هذا الأخير رسالة إلى آباقا يدافع فيها عن نفسه. ولما اطلع على رسالته كتب إليه يطلق يده في بلاد الروم وأوكل إليه البرواناه يرى فيه رأيه، واضطر هذا الأخير إلى ملاطفته بالهدايا، حتى يأمن شرَّه[1].

لم ييأس برواناه من الإيقاع بخصمه واستخدم ذكاءه ودهاءه من أجل ذلك، فلفَّق له تهمة التعامل مع بيبرس. وجرى نشر الإشاعة في البلاد حتى وصلت إلى مسامع آباقا، فاستدعى الجميع للتحقيق في هذه التهمة الخطيرة. واصطحب برواناه أثناء ذهابه بعض الأمراء من الذين تعرضوا للمضايقة من قِبل آجاي ليعرضوا ظلاماتهم أمام الإيلخان. وبعد أن استمع إلى وجهات النظر المختلفة أمر بإبقاء آجاي عنده، وقتل سبعة من أصحابه ممن اشتركوا في المظالم[2].

بعد أن سوَّى الأمر، وحقَّق برواناه غايته، غادر أعضاء الوفد السلجوقي البلاط المغولي عائدين إلى الأناضول. وما إن وصلوا حتى جاءهم الأمر من الإيلخان بأن يخرجوا على رأس قواتهم وينزلوا على البيرة بهدف الاستيلاء عليها[3].

وخرج جيش مغولي ـ سلجوقي مشترك قوامه ثلاثون ألفاً نصفه من المغول بقيادة نابشي وأقطاي نوين والنصف الآخر من العساكر السلجوقية بقيادة برواناه، ولما وصلوا إلى البيرة كان الفصل شتاء فضربوا الحصار عليها[4].

وأثناء وجوده على البيرة، راح برواناه يتسقَّط أخبار بيبرس علَّه يكون قريباً فيتعاون معه للقضاء على المغول. فأرسل أربعمائة فارس مغولي ليترصدوا أخبار الجيش المملوكي، وكانت غايته الإيقاع بهم بأيدي القوات المملوكية. فإذا تم ذلك، وعلم أن بيبرس قريب من المكان، هاجم القوات المغولية المحاصرة لقلعة البيرة، ثم يتوجه إلى بيبرس ليفي بما كان قد وعده به من السيطرة على بلاد السلاجقة ومحاربة المغول.

وعندما عبرت القوة المغولية الفرات إلى بلاد الشام، التقت بالرسل الثلاثة الذين كان برواناه قد أرسلهم إلى بيبرس، وهم في طريقهم إلى البيرة ومعهم كتب تشجيع للوزير السلجوقي من بيبرس تحثه على الصمود في وجه المغول والتعاون

(١) اليونيني: جـ ٣ ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) ابن شداد: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٢٥. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٣٤٠.

مع المماليك، ولما أُحضر الرسل إلى القائد المغولي واطلع على مضمون الرسائل، عزم على قتل برواناه والقضاء على جيشه. فأشار عليه أحد القادة الأرمن ويدعى سمعان بألا يُقدم على هذه الخطوة حتى لا يضطرهم إلى اللجوء إلى البيرة، فيتحصَّنوا بها، واقترح عليه أن يقضي عليهم في بعض الأماكن بعد أن يرحلوا عن البيرة[1].

استدعى أقطاي برواناه، لمواجهة الرسل أمامه، فأنكر علاقته بهذه القضية. وقَبل القائد المغولي عذره ظاهرياً، وأبطن له الشر، ثم قتل الرسل وأرسل الكتاب سراً إلى آباقا[2].

والواقع أن البيرة استعصت على المغول بسبب هبوط الثلج وتراكمه واشتداد البرد، ففكوا الحصار عنها وعادوا إلى الأَناضول بعد أن دمَّروا معداتهم وأحرقوها حتى لا تقع في أيدي العدو[3]. وعندما أُبلغ بيبرس وهو بدمشق بنزول المغول على البيرة، خرج على رأس جيش للتصدي لهم، إلّا أن المغول كانوا قد رحلوا عنها[4].

بعد فشل المغول في الاستيلاء على البيرة، ازداد برواناه تعلقاً بدفع بيبرس للقدوم إلى بلاد الروم، وأدرك أنه لا مقام له في البلاد مع وجود المغول فيها، فأغرى بعض الأمراء ممن هم على مثل رأيه، على منابذتهم والتعاون مع بيبرس، كان منهم حسام الدين بيجار صاحب ديار بكر وولده بهادر، وشرف الدين مسعود بن الخطير، وضياء الدين محمود، أخاه، وأمين الدين ميكائيل، وعارضه الأمير جلال الدين المستوفي والأتابك مجد الدين، أما الأمير سيف الدين طرنطاي البكلبركي، فإنه وقف على الحياد ولزم بيته[5].

وأرسل برواناه نسخة من كتاب التأييد إلى بيبرس يحثه على المجيء فوراً إلى بلاد الروم بغية القضاء على المغول فيها، على أن يعترف بسلطنة كيخسرو الثالث مقابل منحه من الامتيازات ما كان يمنحه للإدارة المغولية.

ويبدو أن بيبرس لم يكن مستعداً بعد للقيام بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج، لأنه علم بأن أمراء السلاجقة منقسمون على أنفسهم بين مؤيد له ومعارض، لذلك اعتذر لبرواناه بأن عساكره لا يمكنها قطع الدربند في هذا الوقت من السنة إلّا

---

(1) ابن شداد: ص ١٢٦.
(2) المصدر نفسه. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٣٤٠.
(3) اليونيني: جـ ٣ ص ١١٦.
(4) ابن شداد: ص ١٢٧.
(5) اليونيني: جـ ٣ ص ١١٦ ـ ١١٧.

بعد انقضاء فصل الربيع، وهو مصمم على التوجه إلى بلاد الروم إن عاجلاً أو آجلاً[1].

واستدعى آباقا برواناه للتحقيق معه حول الرسائل المتبادلة بينه وبين بيبرس، وأصرَّ على حضوره على وجه السرعة. وحتى يتخلص من هذا المأزق، اتفق الوزير السلجوقي مع الأمير طرنطاي بأن يرسل إليه أثناء وجوده في المعسكر المغولي كتباً متواترة يخبره فيها بتقدم القوات المملوكية، وإن لم يأت للتصدي لها فإنها ستحتل البلاد. ولما أطلع برواناه آباقا على الكتب الواردة إليه، انطلت الخدعة عليه، فأذن له بالعودة إلى بلاده، وأرسل معه جيشاً مغولياً تعداده ثلاثون ألف فارس بقيادة القائدين تودان نوين وتوغو آغا لمساعدته على التصدي لبيبرس[2].

وهاجر، في هذه الأثناء، الأمراء الموالون لبيبرس، إلى دمشق، كان من بينهم مبارز الدين الجاشنكير وسيف الدين جندار وولده بدر الدين ميكائيل وحسام الدين بيجار وولده بهادر، واجتمعوا مع بيبرس، وقد رحَّب بقدومهم. كما انتشرت الفتن والثورات في بلاد الروم نتيجة للفوضى السياسية، نذكر منها ثورة شرف الدين مسعود بن الخطير. وراح الثوار يهاجمون الحاميات المغولية المنتشرة في المدن الرئيسية. وتعاون الأمير محمَّد بن قرمان مع الثوار، وهاجم المناطق الساحلية للاستيلاء عليها والتحصُّن بها، وكاد الموقف يخرج عن سيطرة برواناه[3].

وأشاع شرف الدين مسعود بن الخطير، في أرجاء البلاد عن قرب وصول الجيش المملوكي، فخرج وفد سلجوقي إلى بلاد الشام واجتمع مع بيبرس في حمص، وحثَّه على المسير بسرعة لإنقاذ الموقف[4].

ويبدو أن الوقت لم يحن بعد، بدليل قول بيبرس لأعضاء الوفد «أنتم استعجلتم في البابينة، فإني كنت قد وعدت برواناه أنني أطأ أرضه في أواخر هذه السنة» ثم طلب منهم العودة إلى بلادهم، على أن يتحصَّنوا بقلاعهم بانتظار قدومه[5].

وإذ أضحى عصيان شرف الدين مسعود بن الخطير علنياً، قامت الغوغاء في البلاد بأعمال السلب والنهب، واضطر شرف الدين مسعود إلى الخروج مع أتباعه

---

(١) ابن شداد: ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) اليونيني: جـ ٣ ص ١٦٥.
(٣) ابن شداد: ص ١٥٤ ـ ١٥٥، ١٦١.
(٤) ابن بيبي: ص ٣١٣.
(٥) ابن شداد: ص ١٦٠.

إلى صحراء مشهد. ونزل كيخسرو الثالث في جمال طاسي ثم التحق بشرف الدين مسعود بن الخطير بعد أن استدعاه هذا الأخير، حيث نادوا بشعار الملك الظاهر بيبرس، ثم توجه الجميع إلى نكيدة للإقامة بها، غير أن الثورة التي أشعلها شرف الدين بن مسعود بن الخطير قد أُخمدت، وقُبض عليه وسيق إلى المعسكر المغولي للمحاكمة، بحضور كيخسرو الثالث وبعض الأمراء[1].

وعُقد في ديوان آباقا مجلس للمحاكمة، طلب المغول أثناءها من السلطان تفسيراً لانحيازه إلى المماليك وخلع طاعتهم، فأجابهم: «أنا صبي وما علمت الصواب، ولما رأيت أكابر دولتي قد فعلوا ذلك، خفت أن يسلموني إذا لم أوافقهم». ثم أحضر كل من سيف الدين طرنطاي ومجد الدين أتابك وجلال الدين المستوفي، وسألهم آباقا عن سبب خلع طاعة المغول، فأجابوه بأن شرف الدين مسعود بن الخطير أمرهم بذلك، وضغط عليهم وهدَّدهم،فخافوا على أنفسهم من القتل. ثم أُحضر شرف الدين مسعود بن الخطير ووجِّهت إليه تهمة خلع طاعة المغول والاتصال بالمماليك وحكم عليه بالقتل، وبرِّئت ساحة عدد من الأمراء[2].

بيبرس يغزو بلاد الأناضول

تمهيد

أضحى باستطاعة بيبرس في عام (٦٧٤هـ/ ١١٧٥م) أن ينفِّذ مشروعه بضمِّ بلاد الروم، إذ أن الأوضاع السياسية أصبحت ملائمة. فالسلطان السلجوقي كيخسرو الثالث كان لا يزال صبياً، أما بروانا‌ه، الحاكم الفعلي للبلاد، فإنه لم يستطع، على الرغم مما بذله من جهد، أن يضبط الأوضاع الداخلية المتدهورة، وإخماد الفتن، والثورات المؤيدة للمماليك، كما أنه عجز عن ضبط الإمارات التي أخذت في الظهور، وأهمها إمارة القرمانيين، واحتفظ الإيلخانات بحماية مفكَّكة على سلطنة سلاجقة الروم بسبب تكاثر الانتفاضات ضد حكمهم، وقد عجزت الحامية المغولية القوية المرابطة في البلاد عن وضع حد لها.

أما الأرمن في قيليقية، فقد ضعفوا بسبب تواصل الغارات المملوكية عليهم منذ عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).

أما أَنطاكية، فقد تمَّ إخضاعها وتدميرها في عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م)، ولم

---

(١) ابن شداد: ص ١٦٢. ابن بيبي: ص ٣١٤.

(٢) ابن بيبي: ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

تنهض بعدها مطلقاً، كما فقدت أهميتها التجارية، ولم يعد لها من مكانة سوى أنها أضحت قلعة بالطرف الإسلامي.

أما الصليبيون، فقد انكمشوا في إمارات متباعدة، نجح بيبرس في عزلها وراح يهاجمها واحدة إثر واحدة حتى تمكن من استعادة معظم مدن الشريط الساحلي الفلسطيني والشامي، بالإضافة إلى بعض القلاع الداخلية، وما تبقَّى منها أصابه الضعف. كما عقد هدنة في قيسارية مع حكومة عكا في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م) مدتها عشرة أعوام وعشرة أشهر وعشر ساعات، بهدف منع أي تدخل غربي آخر في أمور الشرق يؤثِّر على خططه.

معركة البستان

خرج بيبرس من القاهرة على رأس جيش كبير يوم الخميس في (٢٠ رمضان عام ٦٧٥هـ/ أواخر شباط عام ١٢٧٧م) متوجهاً إلى دمشق، وقد صحبه الأمراء السلاجقة الذين التجأوا إليه، فوصل إليها يوم الثلاثاء في (١٧ شوال/ ٢٤ آذار)، ثم انتقل منها إلى حلب، وأرسل نائبها الأمير سيف الدين علي بن مجلي إلى الساجور[(١)] على رأس قوة عسكرية ليرابط على الفرات ويحفظ المعابر، لئلا يعبر منها المغول إلى بلاد الشام في أثناء غيابه في الأناضول[(٢)].

وتوجَّه من حلب إلى حيلان ثم إلى عينتاب، فدلوك، فمرج الديباج، وكينوك[(٣)]، ثم عبر النهر الأزرق وقطع الدربند وبات في أرض سهلة، والتقت طليعته، بقيادة الأمير سنقر الأشقر، بطليعة مغولية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، فهزمها وأسر كثيراً من أفرادها[(٤)].

كان الأرمن في قيليقية أول من رصد تقدم القوات المملوكية باتجاه الأناضول، فأرسل ملكهم ليون الثالث رسلاً إلى آباقا يخبره بذلك ليكون على بيِّنة من الأمر.

وتحرَّك بروانا، من جهته، ضمن دائرة مصلحة بلاده، فأرسل إلى الزعيم

---

(١) الساجور: اسم نهر في منبج. الحموي: جـ ٣ ص ١٧٠.

(٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٩٧. النويري: جـ ٣٠ ص ٣٥١.

(٣) كينوك: هي الحدث الحمراء.

(٤) ابن عبد الظاهر: ص ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٨. والجدير بالذكر أن القاضي ابن عبد الظاهر قد رافق الحملة إلى بلاد الروم، فهو يصف الأحداث كشاهد عيان.

المغولي رسالة يكذِّب ادعاءات ليون الثالث، ويطمئن المغول عن الوضعين السياسي والعسكري في البلاد، مما حمل الإيلخان على تصديقه.

ويبدو أن أنباء توغل القوات المملوكية في بلاد الروم وصلت إلى مسامع آباقا، فقرَّر مواجهة الموقف، ووضع خطة للتصدي للمماليك من شقين:

الأول: أنه أراد استغلال خروج بيبرس من بلاد الشام ليغير عليها حتى يخفِّف الضغط عن قواته في بلاد الأناضول، فأرسل قوة عسكرية من عرب خفاجة لإزاحة العساكر المملوكية المقيمة على المعابر.

الثاني: أنه أصدر أوامره إلى القوات المغولية والسلجوقية بالتحرك إلى البستان للتصدي للقوات المملوكية[1]، وقد اشترك الكرج بثلاثة آلاف مقاتل.

ومع كل هذه الاستعدادات، لم يحقِّق آباقا هدفه، ذلك أن القوات المملوكية المرابطة على معابر الفرات استطاعت أن تنزل الهزيمة بعرب خفاجة. وبذلك يكون بيبرس قد أحبط محاولة آباقا، وتفرَّغ لبلاد الأناضول وهو مطمئن على بلاد الشام.

وتحرَّكت القوَّات المغولية ـ السلجوقية المشتركة بقيادة القائدين المغوليين تودان نوين وتوغو آغا، يصحبهما بروانا، على طريق البستان، ولما وصلت إلى الجبال المشرفة على صحراء هوني، علم القادة، عن طريق الجواسيس، بأن الجيش المملوكي سيصل إلى هذا المكان في صباح اليوم التالي، فنزلوا من الجبل وعسكروا على نهر جيحان، وعبَّأوا قواتهم أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف مقاتل، وشكَّلت الخيالة المغولية طلباً منفرداً، وعزلوا العساكر السلجوقية عنهم لأنهم كانوا يشكُّون في مقدرتهم القتالية، كما أنهم خشوا من أن يكونوا متفقين مع بيبرس عليهم[2].

وصلت القوَّات المملوكية في اليوم التالي إلى الجبال، فرأى بيبرس جنود العدو متأهبين في السهل، فنزل وعبَّأ جنده، مقابلهم.

جرت المعركة يوم الجمعة في (١٠ ذي القعدة ٦٧٥هـ/ ١٦ نيسان ١٢٧٧م) في يوم بارد جداً، تقدم في بدئها الجيش المغولي باتجاه القوَّات المملوكية للاصطدام بها. ودارت بين الجيشين مناوشات استعملت فيها السهام. وحثَّ بيبرس رجاله وشجعهم على الجهاد المقدَّس ضد الوثنيين. ثم حصل الاشتباك، وتلاقى

---

(١) ابن العبري: ص ٣٣٥. اليونيني: جـ٣ ص ١٧٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص ٤٥٦، ٤٦٢

العسكران. فحملت ميسرة المغول على قلب الجيش المملوكي حتى وصلت إلى السناجق، واخترقت القلب فشقته، ثم انقلبت على الميمنة، فأردفها بيبرس بنفسه، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الميسرة قد أناخت تحت ضغط ميمنة المغول، وكادت أن تفنى، فأردفها بجماعة من الفرسان. وحملت ميمنة المماليك في إحدى مراحل المعركة على قوة مغولية وأبادتها. وترجَّل المغول عن خيولهم من شدة وطأة القتال، وقاتلوا قتال من يطلب الموت حتى كثر القتل فيهم.

وحمل تودان وتوغو حملات متواترة مزَّقت صفوف المماليك، إلَّا أن كفة هؤلاء رجحت في النهاية، فتضعضعت القوات المتحالفة، وبدأ أفرادها يفرون لا يلوون على شيء. وانجلت المعركة عن هزيمة قاسية للقوات المتحالفة. فقُتل من المغول ستة آلاف وسبعمائة وسبعون رجلاً بينهم القائدان تودان وتوغو وأُسر كثير منهم، كما قُتل ألفا فارس من الكرج بالإضافة إلى عدد من الأمراء السلاجقة(١).

ونهب المماليك المعسكر المغولي، وقتلوا الأسرى. واستناداً إلى معلومات أوردها ابن العبري، فإن بروانا قدَّم للفرسان المغول قبل بدء المعركة لحماً وخمراً، وعندما ابتدأت، كان هؤلاء قد لعبت الخمرة برؤوسهم، فلم يستطيعوا تحقيق التوازن على الحصان، كما أنهم لم يتمكَّنوا من التركيز خلال القتال، مما أثَّر في النتيجة النهائية للمعركة(٢).

ولما رأى بروانا ما حلَّ بالجيش المغولي، فرَّ من أرض المعركة. ونزل بيبرس بعد انتصاره في معسكر المغول، وأحضر إليه من أُسر من أمرائهم فعفا عنهم، وأطلق سراحهم. وأرسل الأمير سنقر الأشقر على رأس قوة عسكرية لمطاردة فلول الهاربين، ثم توجَّه إلى قيصرية ومعه كتاب بالأمان إلى سكانها، فأمر بإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية(٣).

ذيول معركة البستان

دخلت بعض مدن الروم في طاعة بيبرس مثل لارندا ودوالو. واستقبله السكان بالترحاب، فضرب خيامه في صحراء مشهد بالقرب من دوالو، وأقبل عليه السكان من مختلف طبقاتهم يهنئونه بالنصر. وضُربت له نوبة آل سلجوق، وحضر أصحاب

---

(١) ابن عبد الظاهر: ص ٤٥٦، ٤٦٢. (٢) تاريخ الزمان: ص ٣٣٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص ٤٦٢.

الملاهي، كما هي عادة السلاجقة، فنهاهم عن الضرب بالآلات لأن الموقف هو موقف الشكر لا الغناء.

وبعد أن رتَّب الأمور الإدارية في الأماكن المفتوحة، كتب إلى أولاد قرمان، أمراء التركمان، وأنعم عليهم، ثم دخل قيصرية، وجلس على عرش السلاجقة، وخُطب له على المنابر، وضُربت السكة باسمه[1].

أرسل برواناه يُهنِّىء بيبرس بالجلوس على العرش. فكتب إليه يأمره بالحضور ليفوِّض إليه أمور البلاد. فطلب الأول بأن يمهله خمسة عشر يوماً، وكان قد خطَّط بالاستعانة بالمغول، ولعله أراد إنهاك قدرة الطرفين حتى تخلو الساحة للسلاجقة. والجدير بالذكر أن برواناه تميَّز بسياسة متقلبة. ومهما يكن من أمر، فقد كتب إلى آباقا يحثه على إرسال نجدة على وجه السرعة تعيد الأمور إلى نصابها[2].

أقام بيبرس مدة عشرة أيام في قيصرية، علم أثناءها بمراسلة الوزير السلجوقي لآباقا، فخرج من المدينة خشية منهم لأن عساكره قد أنهكها التعب، ونفدت الأقوات، ونقص العلف، ونفق معظم خيله، فلا يستطيع والحالة هذه، مجابهتهم، ونزل في قيرلو، فجاءه رسول من قِبَل برواناه ليستوقفه، ويبدو أنه أراد تأخير رحيله حتى يصل الجيش المغولي. لكن بيبرس كان أدهى من أن يقع في حبائل برواناه، فأجابه بأن السلاجقة «شرطوا شروطاً لم يفوا بها، وأنه عرف الروم وطرفه، وما كان جلوسه على التخت رغبة فيه إلَّا ليعلم حكام السلاجقة أنه لا عائق له عن شيء يريده، وأن المسافة التي تفصل بلاده عن الروم، وهي مسيرة سبعة أيام، تُعتبر بنظره خطوة يقطعها في أي وقت شاء»، ثم رحل عائداً إلى دمشق[3].

والواقع أن بيبرس لم يحقِّق هدفه بضمِّ بلاد الروم والاتصال بمغول القبجاق، ولعل الظروف السياسية والعسكرية والجغرافية كانت أقوى من إمكاناته فعاد إلى بلاده قانعاً بما أحرزه.

وأرسل برواناه حين وصل إلى توقات بصحبة كيخسرو الثالث، الأمير سيف الدين الأربكي إلى البلاط المغولي لإعلام الإيلخان بالوضع المستجد، ويحثه على القيام بمبادرة ما ليدرك البلاد قبل أن تقع كلها في أيدي المماليك[4].

---

(1) ابن عبد الظاهر: ص ٤٦٣ ـ ٤٦٧. ابن بيبي: ص ٣١٧.

(2) ابن عبد الظاهر: ص ٤٦٨.

(3) ابن بيبي: ص ٣١٧ ـ ٣١٨. ابن شداد: ص ١٨٣. Howorth: vol III p 258.

(4) ابن بيبي: ص ٣١٨.

وما أن علم الإيلخان بأنباء هذه الكارثة التي حلَّت بقواته، حتى استشاط غضباً، وتولَّى بنفسه قيادة جيش بلغ تعداده خمسون ألفاً، خرج على رأسه من تبريز متوجهاً إلى بلاد الروم لوضع حد لطموحات بيبرس، فوصل إلى حدود أرزنجان في الوقت الذي اشتدت فيه الثورة في الأناضول، واستشرت الفوضى، حتى استولى القرمانيون على العاصمة قونية، ثم توجَّه نحو البستان عن طريق دفركي حيث انضم إليه أركان الدولة ومن بقي من الجيش السلجوقي، ولما وصل عاين أرض المعركة، وتفقَّد القتلى، ولما رأى أن غالبيتهم من المغول، شقَّ عليه ذلك. ثم عاين مكان تمركز القوَّات المملوكية، ولما علم بعدد أفرادها، اتَّهم برواناه بالخداع، وبأنَّه لم يقدِّم إليه تقريراً صحيحاً عن القوة المملوكية، فأنكر هذا الأخير علمه بذلك، وأنه لم يشعر بهم إلَّا عندما دخلوا البلاد، فلم يقبل منه آباقا عذره وغضب عليه وقال له: «بحق ما قالوا إن لك باطناً مع صاحب مصر»[١].

وأرسل آباقا رسالة إلى بيبرس يدعوه فيها للعودة والمواجهة وليس الهرب كما فعل. وبعث في الوقت نفسه بعضاً من قواته للتوغل في الأراضي الشامية لاستطلاع أخبار الجيش المملوكي، لكنها لم تتمكَّن من التوغل بعيداً. ولما عاد أفرادها أبلغ قائدها الزعيم المغولي بأن القوَّات المملوكية تغير على المخافر الأمامية في غزوات خاطفة ثم تلتجىء إلى القلاع[٢].

وقرَّر الإيلخان خوض حرب تكون نتائجها حاسمة، لأنه أدرك أنه إذا ظل بيبرس يملك زمام المبادرة، فإن مغول إيران سوف لا يعرفون الراحة، لكن قواته كانت منهكة، كما نفق أكثر خيله، فوجد نفسه عاجزاً. عندئذ عدل عن غزو بلاد الشام وعاد إلى قيصرية، فنهبها وانتقم من سكَّانها، وشمل القتل الكثير من الفقهاء والقضاة، كما دمَّر توقات وأحرق قصر برواناه[٣]، ثم اعتقل هذا الأخير، وعيَّن أخاه كنغرطاي والياً على بلاد الروم، وعاد إلى بلاده.

وعاد في هذه الأثناء، الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى بيبرس، فأخبروه بأنَّهم سمعوا من المماليك بأن حملة بيبرس تمَّت بتشجيع من برواناه، كما حصلوا على نسخ من الرسائل المتبادلة بينه وبين بيبرس. عندئذ لم يعد من مجال الإبقاء على

---

(١) اليونيني: جـ ٣ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٦. Howorth: vol III p 258.

(٣) المصدر نفسه. ابن شداد: ص ١٨٣.

حياته بعد أن ثبتت عليه التهمة[1].

وفي ألاداغ[2] حوكم بروانا أمام مجلس القواد وأدين بعد أن وُجد مذنباً بثلاث تهم هي:

١ ـ هرب أمام العدو.

٢ ـ لم يُنذر آباقا بالهجوم المملوكي.

٣ ـ لم يلجأ إلى الإيلخان بعد المعركة.

وكلَّف آباقا بعض القادة المغول فقتلوه[3].

أحكم المغول قبضتهم على بلاد الروم بعد التخلص من بروانا، وتولوا الإدارة، وشغلوا الوظائف الرئيسية، كما أدخلوا نظامهم المالي في أجهزتها، وضعف مركز السلطنة، وأرسل الإيلخان الوزير شمس الدين الجويني لينظم شؤون البلاد الإدارية[4].

وشُغِل السلطان كيخسرو الثالث في هذه الأثناء، بإخماد الفتن والثورات التي تفاقمت، فحارب القرمانيين، وأخمد ثورة جمري، إلَّا أنه وقف عاجزاً أمام أطماع الولاة الذين استغلوا الأوضاع السيئة التي باتت عليها الدولة فاستقلوا بولاياتهم.

وفاة كيخسرو الثالث

عيَّن السلطان كيكاوس الثاني، قبل وفاته، ابنه الأكبر مسعود وريثاً له في الحكم، ونصحه والده بالتعاون مع المغول حتى يسترد أملاك آبائه وأجداده. ونافسه أخوه الأوسط فرامرز[5] الذي عبر البحر الأسود من بلاد القرم إلى قسطموني، ثم تنكَّر وهرب إلى أماسية في طريقه إلى إحدى ولايات الأطراف كي يؤلب جموع التركمان ويتقوَّى بهم، إلَّا أنه قُبض عليه، وأعيد إلى قسطموني وسُجن في قلعتها[6].

---

(١) ابن بيبي: ص ٣١٩. Howorth: vol III p 259 .

(٢) ألاداغ: مدينة تقع في شمالي أذربيجان وجنوبي القوقاز وشرقي أرمينية الحالية، بها مراع كثيرة جيدة ومياه غزيرة وأماكن عديدة للصيد، ولهذا اختارها المغول الإيلخانيون مصيفاً لهم.

(٣) ابن العبري: ص ٣٣٦. ابن شداد: ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

D'Ohsson: vol III pp 498 - 499. Howorth: Ibid p 259.

(٤) ابن بيبي: ص ٣٢٩.

(٥) ورد اسم فرامرز عند ابن بيبي كيومرس. ص ٣٣٤.

(٦) المصدر نفسه.

وغادر مسعود بلاد القرم في عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) مع عدد من أتباعه ووصل إلى سينوب، فاجتمع بقادة المغول وعرض عليهم السماح له بالذهاب إلى المعسكر المغولي لمقابلة الإيلخان آباقا. وفعلاً، استقبله آباقا ومنحه إنعامات كثيرة وأعطاه سيواس وأرزن الروم وأرزنجان يحكمها بشكل مستقل عن أملاك كيخسرو الثالث[1].

والواقع أن آباقا انتهج أسلوب هولاكو في تقسيم السلطة في بلاد الروم بين السلاطين حتى تسهل سيطرة المغول على البلاد، إلَّا أن كيخسرو الثالث رفض مبدأ القسمة، وتحصَّن في أرزنجان، وكان ذلك في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)[2].

وحدث في تلك السنة أن توفي آباقا في شهر (ذي الحجة/ نيسان ١٢٨٢م) وخلفه أخوه أحمد تكودار. ويبدو أن الإدارة المغولية الجديدة قرَّرت التخلص من الأشخاص الذين ساندوا التمرد الذي قاده الأمير كنغرطاي في بلاد الروم، ومن بينهم كيخسرو الثالث. والمعروف أن السلطان المذكور أقام علاقات ودية مع الأمير المغولي، ولما هوى هذا الأخير في صراعه مع الإيلخان أحمد، كان على السلطان كيخسرو الثالث أن يلقى جزاءه. وتقرَّر أن يتولى مسعود التخلص منه، فأعطاه دواء ساماً توفي على أثره في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)[3].

غياث الدين مسعود بن عز الدين كيكاوس الثاني: مسعود الثاني

(المرة الأولى: ٦٨٠ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢٨١ ـ ١٢٩٦م)

خلا الجو السياسي لمسعود الثاني الذي عزَّز مركزه وحكم دولة سلاجقة الروم؛ لكن لم يكن له من الحكم إلَّا صورته. ونازعه أخاه الأصغر ركن الدين قلج أرسلان الذي استغل انهماك المغول في ترتيب أمورهم الداخلية بعد وفاة الإيلخان أرغون في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، وقاد ثورة مسلَّحة ضد أخيه بمساعدة التركمان في الأطراف.

ولما استقر الحكم المغولي للإيلخان كيغاتو زحف إلى بلاد الروم على رأس جيش كبير لإخضاع الثورة ضد الحكم المركزي، واشترك الجيش السلجوقي مع الجيش المغولي. وبعد اصطدامات حامية مع القوى المعادية تمكَّن الحلفاء من إنزال

(١) ابن بيبي: ص ٣٣٤ ـ ٣٣٧. الآقسرائي: ص ١٣٤.

(٢) الآقسرائي: ص ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٨ ـ ١٣٩. ابن العبري: ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

الهزيمة بالثوَّار، وقُتل ركن الدين قلج أَرسلان[١].

وأضاع مسعود الثاني نفسه في خضم النزاعات المغولية الداخلية في بلاد الروم وبخاصة بين بالتو وكتلغ شاه، وقد ساند الأول، ولما انتصر الثاني وضعه في الإقامة الجبرية وجرَّده من صلاحياته، وذلك في عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)[٢].

علاء الدين كيقباد بن فرامرز بن مسعود الثاني: كيقباد الثالث

(٦٩٦ ـ ٧٠١هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٣٠١م)

على أثر شغور منصب السلطنة، بعد تحديد إقامة مسعود الثاني، عيَّن الإيلخان غازان بتدبير من الوزير المغولي صدر الدين الخالدي صاحب الديوان، علاء الدين كيقباد بن فرامرز سلطاناً على بلاد السلاجقة، ويبدو أن كيقباد الثالث هذا كان حاكماً على قسم من بلاد الروم في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) وفقاً لسياسة المغول العامة القاضية بتقسيم البلاد وتعيين أكثر من سلطان حاكم في الوقت نفسه، يدلنا على ذلك، الوثيقة التي أعطاها لعثمان غازي، مؤسِّس الدولة العثمانية، بإقطاعه منطقة في الشمال الغربي من البلاد ملاصقة للحدود البيزنطية[٣].

لم تقع أحداث مهمة في عهده سوى تمرد سولميش على الإدارة المركزية المغولية في بلاد الروم، وانهمك في اللهو واللعب، واشتهر بمظالمه، ودفع حياته ثمناً لها[٤].

غياث الدين مسعود بن عز الدين كيكاوس: مسعود الثاني

(المرة الثانية: ٧٠١ ـ ٧٠٤هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٠٤م)

عيَّن الإيلخان غازان، بعد مقتل كيقباد الثالث، مسعود الثاني سلطاناً على سلاجقة الروم، للمرة الثانية، وكان وزيره الصاحب علاء الدين[٥]. وفي عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) أصيب السلطان بالفالج، فعجز عن النطق واللمس والحركة، ولم يستطع مقاومة ذلك البلاء، وبقي مدة سنة يعاني من الآلام إلى أن توفي[٥]. وغرقت بلاد الروم من بعده في بحر من الفوضى ووقع الخلل في السلطنة وانقسمت البلاد

---

(١) الآقسرائي: ص ١٤٠، ١٧١، ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣) تاريخ جودت: ج ١ ص ٣٤.

(٤) الآقسرائي: ص ٢٨٠ ـ ٢٩١.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٩٤.

إلى عشر إمارات تركمانية[1]، وظلَّت السيطرة المغولية واضحة. فعيَّن المغول حاكماً عسكرياً هو جمري آغا وفوَّضوا إليه حكم البلاد مباشرة. وتتابع بعد ذلك تعيين الحكَّام المغول وفقاً للتقلبات السياسية التي كانت تحصل في الدولة المغولية.

ولم يُنقذ البلاد من التشرذم والفوضى سوى بروز الإمارة العثمانية التي أخذت على عاتقها توحيد آسيا الصغرى.

---

(١) بعد أن زالت دولة سلاجقة الروم تجزأت أملاكهم في الأناضول إلى عشر إمارات تركمانية تتفق حدودها مع حدود المقاطعات اليونانية القديمة في آسيا الصغرى. وهذه الإمارات هي:

- قرمان: أكبر هذه الإمارات. هي ليقونية القديمة. أشهر مدنها: تونية، لاذيق، آقسرا، نكيدة.
- تكة: تقع على ساحل البحر المتوسط الجنوبي وتشتمل على ليقية وبمفيلية. أشهر مدنها: أنطالية، والعلايا.
- حميد: تقع في الداخل. وتضم بسيديا وأيزوريا. أشهر مدنها: آقشهر، بقشهر، أكريدور.
- كرميان: وتضم فريجيا. أشهر مدنها: لاذيق، عمورية.
- قزل أحمدلي، تقع على ساحل البحر الأسود وتضم بفلغونية. أشهر مدنها: جنجرة، قسطموني.
- منتشا: تقع على ساحل بحر إيجة. إنها مملكة كارية القديمة. أشهر مدنها: مغلة، كل حِصار، ميلاس.
- آيدين: تقع على ساحل بحر إيجة في مملكة ليدية القديمة. أشهر مدنها: إزمير، أياسلوق، بركي.
- صاروخان: تقع على ساحل بحر إيجة في مملكة ليدية القديمة أيضاً. أشهر مدنها: مغنيسية، فوجة.
- كره سي: تقع على ساحل بحر إيجة أيضاً وهي ميسية القديمة. أشهر مدنها: برغمة.
- الولاية العثمانية: كانت في أول أمرها تشمل مقاطعة فريجية، وتجاور أراضي بيثينيا العالية. أشهر مدنها: ملاجنة، أزنيق، برصي، دوريليوم.

انظر: القرماني ص ٢٩٥. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٧٥. ليسترينج، كي: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٦ - ١٧٧.

الفصل الرابع عشر

أسباب زوال سلطنة سلاجقة الروم

تمهيد

إذا كانت بعض النظريات الاجتماعية تعطي للدول أعماراً كأعمار الأشخاص، وتقول بأن الدول تشيخ وتهرم بفعل مرور الزمن وتغيُّر طبيعة أجيالها[1]، إلَّا أن الدول تتجدَّد بتجدُّد رجالها، فهي قوية ما داموا أقوياء، وضعيفة إذا كانوا ضعفاء حتى تزول بزوالهم لتحيا في قلوب غيرهم ممن يعملون للحياة، فالدول تموت إذن بموت أهلها.

وإذا كان لا بد لكل نهاية من أسباب أدَّت إليها، فإن الأسباب التي أدَّت إلى ضعف سلطنة سلاجقة الروم ومن ثَمَّ زوالها تنقسم إلى قسمين:

- داخلي، يتمثَّل في صراع السلاطين، صراع الأمراء، فساد الإدارة والثورات الداخلية.

- خارجي، يتمثَّل في الاحتلال المغولي للبلاد وما نجم عنه من صراعات بين المغول وأعدائهم من جهة، وبين بعضهم البعض من جهة أخرى.

الأسباب الداخلية

صراع السلاطين

ظهرت سلطنة سلاجقة الروم في وقت كان فيه السلاجقة بعامة يسيطرون على فارس والعراق وكرمان، ثم أخذت الدولة تقوى شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها وبخاصة البيزنطيين. وحاول السلاطين في بداية حياة الدولة أن يفرضوا وجودهم في المناطق المفتوحة أمام القوى الموجودة فيها معتمدين على سلاح القوة. وبعد أن اكتمل نمو الدولة، فرضت سيطرتها على أكثر أجزاء آسيا الصغرى وبعض مناطق

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة جـ ٢ ص ٦٥٥ ـ ٦٥٧.

إقليم الجزيرة وأرمينية حتى أضحت في وقت من الأوقات أكبر قوة عسكرية وسياسية في منطقة الشرق الأدنى.

هذا وإن الدارس لتاريخ سلطنة سلاجقة الروم بحاجة إلى الوقوف طويلاً أمام طول عهدها بالمقارنة مع عهود الدول السلجوقية الأخرى في المشرق الإسلامي[1]. والحقيقة أن سلطنة سلاجقة الروم كانت كالسنبلة الخضراء تميل مع الهواء ولا تنكسر. لقد حاربت الصليبيين، وعلى الرغم من بعض خسارتها إلّا أنها نهضت مجدداً من كبوتها، كما جابهت البيزنطيين الذين لم يستطيعوا استئصالها، وهادنت المغول الأقوياء، فدخلت في طاعتهم، واعترفت بتبعيتها لهم فكان ذلك سبباً رئيسياً في إطالة أمد عمرها، وهذه ميزة انفرد بها سلاطين هذه الدولة وأمراؤها بعامة الذين عُرفوا بحسن السياسة.

لكن الصراع الأسري في سبيل الحصول على العرش والحروب الدامية التي نشبت بينهم، أدّى إلى ضعف السلطنة. والواقع أن التصدع بدأ يظهر في جسمها منذ وفاة السلطان قلج أرسلان الثاني في عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، إلّا أنه لم يؤثر على أوضاعها تأثيراً بالغاً نظراً إلى أنها كانت لا تزال فتية.

لقد شرحنا في الفصول السابقة أوضاع السلاطين وصراعاتهم بما فيه الكفاية، وحسبنا من تكرار لا يجدي، إلّا أنني أود أن أشير إلى أنه كلما طال أمد الدولة كان التصدع يظهر أكثر فأكثر حتى أصابها في أواخر أيامها نوع من الاشتراكات السياسية لفّها من كافة جوانبها ونفذ إلى الداخل إلى أن انهارت تحت ضربات المغول.

صراع الأمراء

أود أن أشير قبل الدخول في تدوين أحداث صراعات الأمراء، إلى القاسم المشترك لكل من ابن بيبي والآقسرائي في تدوين تفاصيلها لأنهما عاشا هذه الأحداث بوصفهما كانا موظفين حكوميين، فاطلعا بحكم عملهما على ما كان يجري داخل أجهزة الحكم، فرواياتهما كشاهدي عيان تُعدُّ بالغة القيمة.

برز نفوذ الأمراء واضحاً في سلطنة سلاجقة الروم منذ عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) على أثر وفاة السلطان كيكاوس الأول، حيث راحوا يتدخّلون في اختيار السلاطين وتوليتهم أو عزلهم، ولم يكن لهم قبل ذلك من دور سياسي إلّا بقدر ما يسمح به

(١) انظر فيما يتعلّق بحياة كل دولة من دول السلاجقة: الخضري، محمد بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية ص ٤١٨ ـ ٤٢٠.

السلطان. ومما لا شك فيه أن هذا الظهور على مسرح الأحداث كان نتيجة طبيعية إما لضعف السلاطين الذين انغمسوا في الملذات تاركين شؤون الحكم بيد أمرائهم، وإما لصغر سن هؤلاء.

ففي عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) اختار الأمراء كيقباد الأول سلطاناً وفضَّلوه على مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان، كما أعرضوا عن أخيه الأصغر فريدون[١]. والملفت للنظر أنهم لم يتفقوا على اختيار كيقباد الأول إلَّا بعد مشاورات مضنية لأن أهواءهم كانت موزَّعة بين الأشخاص الثلاثة. وتميز كيقباد الأول بالقوة، فلم يُتح لأمرائه التحكم به وشغلهم بالفتوح لصرف أنظارهم عن التفكير في تدبير المؤامرات، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول بعضهم الخروج على طاعته، إلَّا أنه تمكَّن من تأديبهم.

وفرض السلطان كيخسرو الثاني نفسه على أمرائه، وهدَّد كل معارض لاعتلائه العرش. والمعروف أن تنصيبه جاء مغايراً لإرادتهم وإرادة السلطان المتوفى كيقباد الأول الذي كان قد أوصى لابنه عز الدين[٢].

وبدأت النكبات تحل بسلطنة سلاجقة الروم، في عهد هذا السلطان. وجاءت أول ضربة من جانب الخوارزميين الذين عارضوا سياسة كيخسرو الثاني، ورفضوا التعاون معه، فغادروا البلاد إلى الشام، وحاول السلطان المذكور أن يعيدهم بالقوة، إلَّا أنه فشل في ذلك. وقد هيأت هذه الحادثة لظهور خلافات بين أركان الحكم. فملك الأمراء سعد الدين كوبك أوغر صدر السلطان ضد الخوارزميين بهدف البروز سياسياً، ثم راح ينتقد الأمير كمال الدين كاميار قائد القوة العسكرية التي فشلت في إعادة الخوارزميين، وقد وضع خطة تقضي باستغلال الخلافات الداخلية بين الأمراء والتخلص من الأقوياء منهم والتفرد بالسلطة، فتقرَّب أولاً من السلطان واستطاع أن يحصل منه على خاتمه، ثم راح يفتك بالأمراء واحداً إثر واحد، وكان الأمير شمس الدين التونبي أول ضحاياه، ولم يتجرأ أحد من أركان الدولة أن يسأله لماذا وكيف فعل ذلك[٣]، ولكن دار همس بين بعض الأمراء بشأن هذا التصرف الجريء الشنيع في آن، والتفت الصاحب شمس الدين محمَّد الأصفهاني إلى الأمير كاميار وقال له: «إن لم نتدارك مثل هذا الأمر فإن كوبك سيزداد سوءاً وسيصل شره إلى الآخرين،

---

(١) ابن بيبي: ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٠٩ ـ ٢١٢.

فينبغي منع مثل هذه الأعمال»[1].

والواقع أن كاميار لم يأخذ نصيحة الصاحب على محمل الجد، ولم ير أن من المصلحة الوقوف في وجه الأمير الجريء. فهل كان تصرفه عن عمد، أم عن تقصير في التفكير؟

الحقيقة أنه كان بين الصاحب وكاميار بعض الجفاء بسبب كلام صدر عن الأول بحق الثاني في إحدى مجالس السلطان، فعدَّ كاميار كلام الصاحب بمثابة تحريض لإشعال الفتنة[2].

التفت كوبك بعد ذلك إلى الأمير تاج الدين بروانا، وسعى، سراً وجهراً، للتخلص منه، ولما علم هذا الأخير بما يُدبر له غادر العاصمة إلى إقطاعه في أنقرة[3]، إلَّا أنه لم يتركه وشأنه. وحدث أن أوصل جواسيسه إلى مسامعه، أن تاج الدين بروانا قد زنى بإحدى المطربات من بنات حصن زياد، فما كان منه إلَّا أن استحصل على فتوى قضائية برجمه، وعرض الفتوى على السلطان الذي كان في حال السكر، وطلب منه الإذن بتنفيذ الحكم، فوافق السلطان على ذلك. وأقيم الحد على تاج الدين بروانا ورُجم حتى الموت، وصودرت أمواله وممتلكاته[4].

ازداد نفوذ كوبك بعد هذه الحادثة، وسطع نجمه في سائر أنحاء السلطنة دون أن يجرؤ أحد على معارضته، وأطاعه معظم الأمراء رغبة أو رهبة، في حين تململ بعض الأمراء الآخرين، وحتى يمتص نقمتهم شغلهم بالفتوح، ففتح سميساط واستولى على عدة قلاع[5]. ولم يتوقف نشاطه الإرهابي، فاتهم الأمير حسام الدين قيمري بارتكاب جريمة، فسجنه في قصر السلطنة في ملطية، وصادر أمواله، وخصَّص له راتباً شهرياً ليقيم به أوده ثم عاد إلى قونية، وقتل كمال الدين كاميار[6].

تجاه هذه التصرفات اللاإنسانية، ماذا كان موقف السلطان من كوبك؟ هل وافقه على أعماله أم عارضه؟ هل رأى فيه الشخص المطلوب للتخلص من الأمراء المعارضين لحكمه؟

الواقع أن السلطان قد تألَّم لمقتل الأمراء، إلَّا أنه وقع تحت تأثير شخصية هذا الأمير، ولم يع إلَّا عندما راح كوبك يدخل عليه بسلاحه، فخشي على نفسه، وراح

---

(1) ابن بيبي: ص ٢١٢.
(2) المصدر نفسه: ص ٢١١ ـ ٢١٢.
(3) المصدر نفسه: ص ٢١٢.
(4) المصدر نفسه: ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(5) المصدر نفسه: ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
(6) المصدر نفسه: ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

يخطط للتخلص منه، وكلَّف قراجة الحارس، حاكم سيواس، فقتله[1].

وعلى الرغم من هذا الصراع على السلطة بين الأمراء، استمرت أوضاع السلطنة مستقرة، وذلك بفضل ما كان للسلاطين من نفوذ. إلَّا أن بداية الوهن الفعلي بدأ مع ظهور الحركة البابائية والغزو المغولي للبلاد، وقد أدَّى ذلك إلى ازدياد ضعف السلاطين، وبروز الأمراء بشكل أكثر فاعلية. فقد تسابقوا للحصول على قدر أكبر في السلطة، واقتناء الأموال، وامتلاك الإقطاعات، فدبَّ الحسد في نفوسهم، ولم تعد مصالح الدولة لتهمهم في شيء. وكان الحسد أحد الأسباب في فك الحصار عن طرسوس. إذ كيف يفتح الأمراء هذه المدينة ويحتكر الصاحب الفضل في ذلك[2]؟

استمر التنافس بين الأمراء في عهد السلطان كيكاوس الثاني الذي خلف كيخسرو الثاني، وبخاصة أن هذا السلطان انصرف إلى المطالعة ومجالسة الزهَّاد والعلماء، وترك شؤون الدولة في أيدي وزرائه، مما شجع هؤلاء على التمادي في تدبير المؤامرات ضد بعضهم البعض. نذكر من بين الأمراء الذين اشتد التنافس بينهم في هذه المرحلة: الصاحب شمس الدين محمَّد الأصفهاني، جلال الدين قرطاي، خاص أوغوز، أسد الدين روزبة، عز الدين العطار، مبارز الدين بهرام شاه، نصرة ديڤاني، أبو بكر بروانا وشرف الدين الأرزنجاني، وراح كل واحد يحيك المؤامرات ضد الآخر لإزاحته. وشهدت السلطنة عاصفة من الاغتيالات السياسية أثَّرت سلباً على قدراتها[3].

واشتدت النزاعات بين الأمراء في السنوات الأخيرة من عمر الدولة في ظل سلاطين ضعاف أو صغار، وبلغ التزلف أشده للمغول في سبيل الحصول على منصب في الدولة.

هذه بعض الصور من صراع الأمراء فيما بينهم، توضح مدى ما وصلت إليه الحالة العامة في سلطنة سلاجقة الروم من فوضى سياسية، وضعف البلاد، في جو مشحون، مليء بالمؤامرات والخيانة والغدر، فصرفت أنظار السلاجقة عن الفتوح ومقاومة الاحتلال المغولي مما كان سبباً من أسباب زوال السلطنة.

---

(١) ابن بيبي: ص ٢١٧ ـ ٢١٩. (٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٩، ٢٥٣ ـ ٢٧٧، ٣٠٦ ـ ٣٠٨.

ابتليت بلاد الروم في أواخر أيامها بأمراء ووزراء اتَّصفوا بالطمع والشره والأنانية، فأفسدوا الإدارة بتصرفاتهم، وأثقلوا كاهل السكان بالضرائب. وقد تفرَّد الآقسرائي بتدوين أخبار الفساد الذي استشرى في أجهزة الدولة، وقد عاش هذه الأحداث عن قرب، فروى ما عاينه وشاهده.

وحدث في عام (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) أن عيَّن المغول فخر الدين القزويني في منصب الوزارة، ومجير الدين أمير شاه في منصب نيابة السلطنة، وتعهَّدا بدفع مبلغ ضخم كجزية. تميز عهدهما بالقساوة، ففرضا على السكان ضرائب باهظة، وتعدَّيا على الأملاك الخاصة بهدف تأمين المال اللازم للمغول. ومما زاد الأوضاع تفاقماً، أن الصاحب عيَّن شقيقه جمال الدين في منصب الاستيفاء، فأوقع الظلم على الناس، كما نصَّب شقيقاً آخر في وظيفة البروانكي، فنفر الناس منه. ومع إدراكه بأن أعماله التعسفية هذه ستؤدي إلى الخراب، فإنه استمر في سياسته المالية المتعسِّفة[(١)].

وبفعل الحالة المتردية التي وصلت إليها الأوضاع المالية، قسَّم المغول إدارة البلاد إلى قسمين، يتولى إدارة كل قسم وزير مستقل يكون مسؤولاً أمامهم عن أعماله. فعُيِّن الوزير الصاحب فخر الدين القزويني على القسم الخاص الذي يحكمه كيكاوس الثاني، والذي يمتد من قيصرية إلى حدود ولاية أوج، يعاونه أمير مغولي يدعى إيجي، في حين عُيِّن مجير الدين أمير شاه على القسم الخاضع لسلطة قلج أرسلان الرابع، من سيواس وتوقات إلى ولاية قسطموني وسواحل سينوب بما فيها ولاية دانشمند، يساعده تولاداي المحقِّق الأكبر للجيش المغولي[(٢)].

ويبدو أن مجير الدين أمير شاه نفَّذ سياسة حسنة في حين استمر فخر الدين القزويني في تنفيذ سياسة التعسف، فأطلق عنان أتباعه يتصرَّفون في أجهزة الدولة وفق أهوائهم. فعمَّت الفوضى في كل ناحية، وفارق الناس الشعور بالأمن، ويئس الجميع من حدوث أي إصلاح[(٣)].

قضى الصاحبان مدة عامين في منصبهما، ثم عزلهما سعد الدولة اليهودي، وزير الإيلخان أرغون، وعيَّن مكانهما أولاد قلاووز مع الصاحب شمس الدين أحمد لاكوشي[(٤)].

---

(١) الآقسرائي: ص ١٤٦ ـ ١٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٥٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

لم يكن القيّمون الجدد بأفضل حالاً ممن سبقهم، وكثرت التعديات وازدادت الفوضى، فكرههم الناس وتمنوا الخلاص، وحاول سمغار الحاكم المغولي وقفهم عند حدهم، إلّا أنه فشل في ذلك، ولم يُرفع هذا الكابوس إلّا بوفاة الإيلخان وقتل وزيره[1].

وبتبدل الحكام في بلاد المغول، كان الأشخاص في بلاد السلاجقة يتبدلون هم أيضاً. ففي عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) عيَّن الإيلخان غازان كلاً من معين الدين محمَّد في منصب البروانكي أمير مطلق الصلاحية ووالياً على قسطموني، وجمال الدين محمَّد في منصب الوزارة، وكمال الدين التفليسي في منصب نيابة السلطنة ووالياً على أماسية، وشرف الدين عثمان في منصب الاستيفاء ووالياً على نكيدة. استغل هؤلاء الأمراء مناصبهم لجمع الأموال عن طريق فرض ضرائب جديدة ومصادرة الأملاك، ومضايقة الناس. وظهر عجزهم في إدارة شؤون الدولة[2]، إذ أنهم لم يهتموا بتطوير الإدارة وتحسين أوضاع البلاد والعباد وأهملوا مصالح الناس. وشعر المغول بتصرفاتهم الشاذة، فأرسلوا المحققين للإطلاع على حساباتهم، وعقدوا مجلساً في منطقة آوجي بصحراء قونية من أجل ذلك. ويذكر الآقسرائي بأن المحققين المغول طالبوه شخصياً بكشف حسابات الأمراء الأربعة بوصفه مسؤولاً عن الدفاتر الحسابية. وصادف في تلك الليلة أن هبَّت عاصفة شديدة اقتلعت الخيام وبعثرت أوراق الحسابات، فاختفت في الظلام وضاعت بعد ذلك، ولم يُعثر لها على أثر، فلم يبق مجال لا للسؤال ولا للجواب، وكتم كل من يعلم أمراً أمره، ووقع المحققون في الحيرة، واضطروا إلى التخلي عن مهمتهم. ويضيف الآقسرائي أنه نجا من تلك المحنة لأنه لو تمَّ التحقيق في القضية واطّلع المحقِّقون على دفاتر الحسابات فسيناله العقاب بسبب تكتمه وتستره على المخالفات. وهكذا نجا أصحاب المناصب من هلاك محقَّق[3].

وابتلي السلاجقة في عام (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) بوزير مغولي شره هو نظام الدين يحيى، أرسله المغول لتحصيل الضرائب المفروضة على العوامل[4] بعد أن حدَّد

---

(١) الآقسرائي: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٩ ـ ٢١٠. منجم باشي: جـ ٢ ص ٥٧٤.

(٣) الآقسرائي: ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٤) العوامل: هي بقر الحرث والديَّاسة. وفي حديث الزكاة: ليس في العوامل شيء. والعوامل من البقر، جمع عاملة وهي التي يُستقى عليها ويُحرث، وتستعمل في الأشغال. وهذا الحكم مطرد في الإبل. ابن منظور: لسان العرب جـ ١١ ص ٤٧٧.

مقدارها الوزيران المغوليان رشيد الدين وسعد الدين، وقد اصطحب معه حاشية كثيرة العدد من الجباة والمحاسبين والمعاونين. وتمادى هؤلاء في إيقاع الظلم على الناس بحجة تحصيل الأموال، ولم ينج السلطان كيقباد الثالث من تعدياتهم، إذ صادف ذهابه إلى المعسكر المغولي لتقديم الطاعة ومعه من الهدايا الشيء الكثير، فطمع الوزير المغولي بما يحمله واستولى عليها بالقوة. وتعرَّضت كافة المدن السلجوقية للسلب والنهب[1].

وكتب القيِّمون من السلاجقة إلى المعسكر المغولي يشكون أعمال الوزير الشاذة، فاستدعي للتحقيق وعُدَّ مقصِّراً، وقُتل أخيراً على يد أولاد عبد الرَّحمن المستوفي الذي كان قد قتل أباهم[2].

وحدث بعد إخضاع ثورة سولميش أن استعاد كيقباد الثالث مركزه كسلطان حاكم على السلاجقة. وعيَّن له المغول حاشية، لتساعده في لَمِّ شعث البلاد وتحسين أوضاعها الاقتصادية والإدارية والحياتية. ولما كانت بلاد الروم قد أضحت أرضاً خصبة لارتكاب المظالم بسبب الفوضى المتفشية في أرجائها، فلم تختلف سيرة هؤلاء عن سيرة من سبقهم، بل إن السلطان نفسه شاركهم بالتعدي على حرمات الناس[3].

وتدنى، نتيجة ذلك، العمل الإداري على صعيد الحكم المركزي بفعل غياب الدولة القوية، وضعف الجهاز الإداري في البلاد، وأضحى تفكير جميع القيمين من سلاجقة ومغول منحصراً في جمع الثروات وتكديسها، فازدادت الدولة وهناً على وهن، وتفشى فيها المرض المزمن الذي لا تكاد تنفع معه العلاجات، ولا يكون لها معه شفاء إلى أن انقرضت، وكانت هذه الفوضى الإدارية من أسباب زوال السلطنة.

الثورات الداخلية

الحركة البابائية

زادت الثورات الداخلية من تصدع الدولة السلجوقية وزلزلت كيانها على الرغم من الازدهار الذي احتفظت به في الظاهر.

واندلعت أولى هذه الثورات في عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) في عهد السلطان

(١) الآقسرائي: ص ٢٥٨ ـ ٢٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٩ ـ ٢٨٣.

كيخسرو الثاني في مناطق كفرسود ومرعش، وقام بها البدو التركمان. وقد أثَّرت هذه الثورة في مقدرات الدولة وشغلتها عن مواصلة التوسع والفتوح، ولم يستطع كيخسرو الثاني قمعها إلَّا بشق النفس.

ولا بد لنا، قبل الشروع في تناول هذه الحركة وشرح تأثيرها على أوضاع الدولة والبلاد، من أن نتطرَّق إلى الأساس الذي انبثقت منه ودفعها إلى الظهور.

كانت الهجرة التركية إلى آسيا الصغرى، حركة أساسها شعور هذا العنصر بالقوة وحاجته إلى الاستقرار، وكان المهاجرون قد حملوا معهم الشعار الإسلامي القائل بأن غاية كل فتح هو نشر الإسلام، وصَاحَبَ هذه الحركة الدينية المظهر ميل الأتراك إلى التصوف وتأثرهم بالغيبيات.

وتدفقت على بلاد سلاجقة الروم، على أثر الغزو الخوارزمي ومن ثَمَّ المغولي لإيران، قبائل التركمان هاربة من وجه الخطر. والواقع أن تدفق هؤلاء كان لا ينقطع منذ فتح السلاجقة بلاد الأناضول، لكن الغزو المغولي بشكل خاص، كان عاملاً ساعد على زيادة كثافة الهجرة.

وكان من بين المهاجرين نسبة مرتفعة من القرويين وسكان المدن، كما كان من بينهم نسبة عالية من التجار الأغنياء والمفكرين والفنانين والدراويش[١]. وسكن هؤلاء البدو في المناطق الجبلية وبخاصة في طوروس البعيدة عن التطور الاجتماعي والديني حيث ظلوا محتفظين بعاداتهم القديمة، وقد تسرَّبت إليهم تعاليم الهراطقة، فأصبحوا أكثر عزلة.

في هذا الوقت المليء بالقلق على المصير، قام جلال الدين الرومي بزيارة لبلاد الأناضول، واستقر في سيواس أولاً ثم في قونية[٢]. وكان الأسلوب الأرستقراطي الذي اتبعه في تكوين طريقته، وتشجيعه للحرف وحضِّه الناس على ممارستها، عاكساً بذلك الأرستقراطية في النسب[٣]. كان ذلك يعني مسايرته لسياسة السلاجقة في الاستقرار وإيقاف الغزو باتجاه المناطق البيزنطية، مما خلَّف فراغاً في المجتمع التركماني الذي كان يقطن المناطق الجبلية، وهو المجتمع الجديد على

---

(١) كوبرولو، فؤاد: قيام الدولة العثمانية ص ٧٢.

Wittek, Paul: The Rise of the Ottoman Empire p 31.

(٢) Brown: Literary History of Persia vol II p 518.

(٣) كان جلال الدين الرومي بكرياً عن طريق آبائه وأجداده، ونُسب كذلك إلى علي بن أبي طالب وإبراهيم بن أدهم وخوارزمشاه عن طريق جدته. انظر:

Huart: Saint Des Deruiches Tourneurs vol I pp 60-61.

هذه البلاد، وفي أمسِّ الحاجة إلى التوسع على أمل الاستقرار في غير المناطق الفقيرة التي ينزل فيها.

كان هذا التداعي في المجتمع وتألُّبه على جلال الدين الرومي، فرصة لصوفي من كفرسود بضواحي حلب، ليثير في التركمان روح الفتح والعزيمة على التوسع تحت شعار الثورة على ظلم السلطان كيخسرو الثاني الذي كان منهمكاً بشؤونه الخاصة، مهملاً لأمور الدولة، وكانت هذه الحركة نواة لفرق صوفية أخرى وبخاصة البكتاشية[1].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المصادر المعاصرة لهذه الحركة التي ينسبها الباحثون إلى بابا إسحاق الكفرسودي التركماني، أشارت مرة إلى بابا إسحاق بكونه زعيماً للحركة، ومرة إلى بابا إلياس بوصفه كذلك. فقد ذكر ابن العبري أنه في سنة ٦٣٨هـ ظهر رجل تركماني في أماسية ادَّعى النبوة وزعم أنه رسول الله حقاً وسمَّى نفسه بابا، وكان له مريد اسمه إسحاق تزيًّا بزي المشايخ، فأرسله إلى أطراف الروم ليدعو التركمانيين، فوصل إلى سميساط، وأظهر الدعوة لـ بابا[2]، وقد سمَّى القرماني شيخ الطريقة بـ بابا إلياس[3]. غير أن مصادر أخرى، ومنها ابن بيبي، تجعل من بابا إسحاق رئيساً للحركة، وبابا إلياس شريكاً له بقي بعد مقتل إسحاق[4]، وقد حمل البابا أتباعه على أن يقولوا «لا إله إلاّ الله البابا رسول الله»[5].

ومهما يكن من أمر، فقد كان قائد هذه الثورة التركمانية صوفياً خراسانياً نزح من هناك بعد استيلاء جنكيزخان على بلاده، وبدأت شهرته في بلاد الروم في عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤١م)[6]. وقد سمَّى رئيس الحركة نفسه بابا أو بابا رسول الله[7]. ومجرد تذكُّرنا للنبوءة يتبين أن النبوة البابائية لم تكن شريعة بالمعنى المفهوم لهذا الاصطلاح. يضاف إلى ذلك، أن الفكرة كانت معروفة في بلاد الأناضول آنذاك، وقد أشار إليها جلال الدين الرومي عندما صلَّى خلف صدر الدين القونوي، فقال: «من صلَّى خلف إمام تقي فكأنَّما صلَّى خلف نبي»[8]. ومما يؤيد ذلك، ما رواه المؤرخون من أن البابائيين ادعوا أنَّهم كانوا يقتدون بالخلفاء الراشدين، كما اعترف

(١) الشيبي، كامل مصطفى: الصلة بين التصوف والتشيع جـ٢ ص ٣٣٢. والبكتاشية نسبة إلى حاجي بكتاش.

(٢) تاريخ الزمان: ص ٢٨٥.

(٣) أخبار الدول: ص ٢٩٣.

(٤) ابن بيبي: ص ٢٢٧. كوبرولو: إيلك متصوفلر. هامش ص ٢٣٣.

(٥) المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٩.

(٦) كوبرولو: هامش ص ٢٣٣.

(٧) ابن بيبي: ص ٢٣٠.

(٨) الجامي: نفحات الأنس ص ٥.

الغلاة منهم أن البابا كان فعلاً رسول الله، وقد حملوا شعار «لا إله إلَّا الله البابا رسول الله»[١]. وذكر فؤاد كوبرولو أن البابا سمَّى نفسه أمير المؤمنين[٢].

لقد غلبت على هذا الحركة معالم الصوفية، وكانت مقدمة للحركات الصوفية التي ظهرت في إيران بعد ذلك[٣]، وللتيار البكتاشي، وحركات البدو والهراطقة، التي استمرت في بلاد الأَناضول حتى القرن السابع عشر الميلادي وقيام الدولة الصفوية في إيران. ويكفي أن نذكر أن هذه الحركة ظهرت في منطقة كان يسكنها البيالصة قديماً[٤].

ذكرنا أن مؤسِّسها كان صوفياً اتَّخذ من المجاهدة والكرامة طريقاً. شُغل في أول أمره بطلب العلم، ومهر في صنع الحيل المبنية على الشعوذة، فسيطر على عقول أتباعه التركمان بإفراغ آرائه الاجتماعية في قالب مثالي يصوِّر لهم مدينة فاضلة، ويعدهم بتحقيقها بزعامته الروحية[٥]. واستمال الجهلة من الأَتراك بما كان يفتيه لهم من فتاوى ضلالية تثير فيهم الحماسة الدينية، متظاهراً بالبكاء أمامهم في بعض الأحيان. كما استمال آخرين بمظهره الرث وبنحافة جسمه الناتجة عن التعبد والصيام[٦]. تظاهر بالورع والأمانة، لم يقبل شيئاً من صدقة، قانعاً بقوته البسيط، وبلغ من أمره أن اعتقد فيه الرجال والنساء حتى راجعوه في كل أمورهم إلى حد التوفيق بين المرء وزوجه عن طريق التعاويذ[٧]. كما وجد فيه التركمان الزعيم المنشود الذي طال انتظارهم له، فأخرجوه من صفته الإنسانية، واتَّخذوه رمزاً لخلاصهم، ومن أجل ذلك، فإنَّهم لم يتوقفوا عن القتال عقب مصرعه، ولم يتفرَّقوا بانتهاء حياته، وإنما التفوا حول رمزيته بوصفه خالداً[٨].

وعندما رأى تعلُّق الناس به، اختفى فجأة من حياتهم ليثير الرغبة فيهم، ثم

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٣.

(٢) إيلك متصوفلر: ص ٢٣٣.

(٣) الشيبي: جـ ٢ ص ٣٣٠.

(٤) البيالصة فرقة نصرانية شرقية، يستند مذهب أتباعها على التفرقة بين إله الخير وإله الشر، ولاعتقادهم بأن المادة شر. أنكروا أن للمسيح جسماً مادياً مع ما يرتبط به من فكرة الخلاص والفداء، كما عدُّوا أن أهم رسالة للمسيح هي تعاليمه، لذلك رفعوا مكانة الأناجيل. وقد أدى بهم هذا الاعتقاد إلى إنكار الصليب والصور. ظهر هذا المذهب في القرن السابع الميلادي في قرية صغيرة قرب سميساط يدين أهلها بالمانوية، لذلك جاءت تعاليم المذهب وسطاً بين المبادىء المجوسية والنصرانية.

(٥) ابن بيبي: ص ٢٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٧) المصدر نفسه: ص ٢٢٨.

(٨) المصدر نفسه.

ظهر فجأة في إحدى قرى أماسية، وراح يعمل بالرعي أسوة بالأنبياء[١]، ثم بنى صومعة سجن نفسه فيها متظاهراً بالزهد[٢]، معتمداً على بعض المريدين الذين كان يرسلهم إلى الأطراف للدعوة له، ووصل الأمر به إلى دعوة الخوارزميين في بلاد الشام إلى الإيمان بدعوته[٣].

والمعروف أن حركته لم تهمل الجانب الاقتصادي، فأباح لأتباعه الاستفادة من الأسلاب والغنائم والسبي بوصفها حقاً للمنتصر[٤].

ويبدو أن الحركة البابائية قد صادفت تأييداً كبيراً في بلاد السلاجقة، بدليل انتشارها في كافة أرجاء البلاد، ودخول الكثير من السكان على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم فيها. وقد لقيت الجيوش السلجوقية مصاعب كبيرة في القضاء عليها، بسبب انتشارها الواسع بين الجنود، وقد امتنعوا في بعض الأحيان عن المشاركة في القتال ضدها لأسباب اعتقادية بشرعية أهدافها، كما انتشرت الشائعات بأنها لا تُهزم، لذلك جنَّدت الحكومة المركزية المرتزقة من النصارى لمحاربتها والقضاء عليها[٥].

من الممكن أن يكون بابا إسحاق قد لقي تأييداً وتشجيعاً من العشائر الخوارزمية في بلاد الشام على القيام بالثورة أثناء إقامته في عينتاب وحلب، وقد شرحنا من قبل سياسة السلطان كيخسرو الثاني العدائية تجاه هذه الجماعات الخوارزمية. ومن المحتمل أيضاً أن يكون بابا إسحاق قد لقي تشجيعاً من بعض الأمراء الأيوبيين الذين كانوا آنذاك مناهضين لسياسة السلاجقة، أو من المغول الذين كانوا يهدِّدون في ذلك الوقت، حدود آسيا الصغرى.

ومما يوضح علاقة البابائيين بالخوارزميين أن قوة كبيرة من الفرسان والمشاة الناقمين على الحكم السلجوقي، قد التحقوا بالخوارزميين في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) بقيادة دودي أوغلي[٦].

اتصف بابا إسحاق بالتأني والبراعة السياسية، فلم يعط أتباعه إشارة البدء بالثورة إلَّا عندما كانت القوات السلجوقية منهمكة كلها في المناطق الشرقية. ومما يكشف أيضاً عن حسن توقيت البدء بالثورة، أن توالي الحروب في تلك المرحلة، أدَّى إلى رفع نسبة الضرائب وتأخُّر الوضع الاقتصادي، وفساد الإدارة، وازدياد سخط

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه. الشيبي: جـ ٢ ص ٣٣٤.
(٥) ابن العبري: ص ٢٨٦.
(٦) كوبرولو: قيام الدولة العثمانية ص ٨٤.

الطوائف الاجتماعية على حكم السلاجقة[1].

وعندما نضجت ظروف التحرك، أرسل بابا إسحاق مريداً إلى كفرسود، وآخر إلى مرعش، لتعبئة القبائل، وحدَّد لهما يوم إعلان الثورة، على أن يقتلا كل من يتخلَّف عن تلبية نداء الثورة[2]، مع الإفادة بأن هؤلاء التركمان لم يكونوا بحاجة للتعبئة، فقد كانوا على استعداد دائم للثورة والحرب، لأنهم كانوا يعلمون أنَّه سيدعو للجهاد يوماً ما.

وفي اليوم المحدَّد للثورة، تعرَّض بابا إسحاق للسلطان كيخسرو الثاني بلسانه، وفضح أعماله الفاسدة، وترفه الزائد. وكان هذا الهجوم الكلامي إشارة البدء بالثورة، فانقضَّت جموع التركمان، من أتباعه، على المدن والقرى يحدوهم الطمع في الغنائم والرغبة في الجنَّة، ثم انتشروا في أطراف السلطنة، وقتلوا كل من أنكر عليهم عملهم هذا.

تصدَّى لهم، في بادىء الأمر، الأمير مظفر الدين بن علي شير، إلَّا أنه انهزم أمامهم، وهرب إلى ملطية حيث جمع جيشاً آخر من الأكراد والقرمانيين واشتبك معهم في معركة ثانية، وهُزِم أيضاً[3].

ازدادت جرأة البابائيين إثر هذين الانتصارين، فتقدموا إلى نواحي سيواس، فتصدَّى لهم السكان، ثم توجهوا إلى توقات وأماسية، والتحق التركمان بهم، وراحوا يعيثون فساداً في النواحي، ولم ينج السكان من تعدياتهم دون تفرقة بين المسلمين والنصارى.

استفاقت الحكومة المركزية بعد هذه الانتهاكات من جانب البابائيين، ووضع كيخسرو الثاني خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي عليهم، نفَّذها أرمغان شاه قائد جيش أماسية، فحاصر بابا إسحاق وقبض عليه وقتله مع عدد من أتباعه، وطارد من أفلت منهم، واستشهد في إحدى معاركه معهم. وازداد البابائيون شراسة بعد قتل زعيمهم، فهاجموا أماسية وحاصروها[4]. وعجز جيش أرمغان شاه عن وضع حد لهم، فاضطر كيخسرو الثاني إلى تجهيز جيش ثان قوامه ستون ألفاً مطعمين بألف فارس من النصارى المرتزقة، وعيَّن على رأسه ثلاثة من أشهر قادته هم بهرام شاه

---

(١) كوبرولو: قيام الدولة العثمانية ص ٨٤.
(٢) ابن بيبي: ص ٢٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠. ابن العبري: ص ٢٨٦.

جاندار، ابن كرجي وفركخلا الإفرنجي. تحرَّك هذا الجيش من أرزن الروم إلى قيصرية، واجتمع ستة آلاف من البابائيين، في الوقت نفسه، في صحراء ماليا بولاية قيرشهر[١]، ثم عسكر الجيشان في مواجهة بعضهما والتحما في رحى معركة رهيبة تحمَّل النصارى في الجيش السلجوقي العبء الأكبر منها، وانتهت بهزيمة الخوارج، فقُتل أربعة آلاف منهم واحتمى الباقون بعائلاتهم وأمتعتهم، فحاصرتهم القوات السلجوقية. وحين وصل السلطان إلى أرض المعركة كان كل شيء قد انتهى[٢].

وهكذا انتهت الحركة البابائية بالفشل، ولم تحقِّق ما كانت تهدف إليه، على الرغم من انتصاراتها الجزئية.

لا يُعرف إلَّا القليل عن الناحية الفكرية للحركة، إلَّا أن بعض الباحثين يشيرون إلى أنها كانت نابعة من التشيع الباطني الذي نقله بابا إسحاق من موطنه في خراسان لدى فراره أمام المغول إلى بلاد الروم[٣]، مع الإشارة إلى أن حلب وأطرافها كانت في ذلك الوقت مصهورة بالعقيدة الإسماعيلية المنبثقة عن المذهب الفاطمي الشيعي، ومليئة بالإسماعيليين وبأصحاب الغلو من الشيعة[٤]، حتى أن الملك الأفضل الأيوبي الذي كان يحكم سميساط البلد الأول لبابا إسحاق كان معروفاً بالتشيع[٥].

ومهما يكن من أمر، فإن الإجماع يكاد ينعقد على أن الحركة البابائية كانت ذات اتصال وثيق بالتشيع الغالي[٦].

وبذلك تبدو هذه الدعوة شيعية الجوهر اتخذت المظهر الصوفي الذي كان منتشرا في المجتمع التركي وسائر المجتمعات الإسلامية، غطاء لها، بوصفه المظهر المقبول للإيثار الأخلاقي والشكل المثالي للمسلم والزعيم[٧].

وتجدر الإشارة أخيراً، إلى أن الهدف الحقيقي لهذه الحركة كان تحقيق غاية سياسية محدَّدة هي إعلاء شأن التركمان وتثبيتهم في مجتمعهم الجديد بعد اكتساح المغول لأوطانهم، وتأسيس دولة لهم تحت قيادة الزعماء الروحيين. ويظهر أن هؤلاء التركمان الذين تصفهم المصادر بأنَّهم سود الملابس، حمر القلانس، في أرجلهم أخفاف، يمثِّلون من الناحية الاجتماعية، النموذج التركماني نفسه الذي انحاز

---

(١) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه. ابن العبري: ص ٢٨٦.

(٣) Wittek: p 31.

(٤) الشيبي: ج ٢ ص ٣٣٥.

(٥) ابن كثير: ج ١٣ ص ١٠٨.

(٦) الشيبي: ج ٢ ص ٣٣٥.

(٧) المرجع نفسه.

إلى القرمانيين أثناء حكم المغول لبلاد الروم، واشترك معهم في السيطرة على قونية وتأسيس دولة لهم[1]. وتذكر المصادر التاريخية أن نورة الصوفي، أحد أتباع بابا إلياس، استطاع بعد فشل الحركة البابائية، أن يتقرَّب من السلطان السلجوقي كيقباد الثاني بزهده وتصوفه اللذين تعلَّمهما من بابا إسحاق وبابا إلياس. وورث نورة الصوفي هذا ابنه قرمان بعد وفاته، فقرَّبه السلطان السلجوقي وزوَّجه أخته وولاَّه إمارة لارندا[2]. وحقَّق قرمان الحلم القديم بتأسيسه دولة مستقلة هي الدولة القرمانية، وكانت امتداداً أساسياً للحركة التركمانية المذكورة التي لم تمت بقتل زعمائها وتفرقهم[3].

وينبغي أن نذكر هنا أن الاضطراب الديني والسياسي والاقتصادي كان عاملاً أساسياً في تقبُّل الناس لهذه الحركة واقتناعهم بصوابيتها، وأن فشلها قد أعاد الأمور إلى سابق عهدها.

ثورة آل الخطير[4]

إذا كانت الثورة البابائية قد اتخذت المظهر الصوفي، واستغلت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتحقيق هدفها السياسي، فإن ثورة آل الخطير قد اتسمت صراحة بالطابع السياسي، فكانت ثورة على النظام والاحتلال المغولي. والمعروف أن مظاهر الإذعان للحكم المغولي كان قوياً في الشطر الشرقي من آسيا الصغرى في حين تركَّزت المقاومة في جوف الأناضول. وضمَّ حزب المعارضة المسلمين السنَّة الذين أزعجتهم وثنية المغول وتعاطفهم مع نصارى آسيا الصغرى، يضاف إليهم التركمان الذين شعروا بما تتعرَّض له مراعيهم من التهديد المستمر، فحرصوا على مناهضة المغول. كما أن جموعاً كثيرة من التركمان سبق أن اشتبكت في قتال مع الفرق المغولية في جهات أخرى، واضطرت إلى الجلاء عن أراضيها باتجاه الغرب، على أنه لم يحدث بين هذه الفئات التي جمعتها مصلحة قتال المغول فقط، نوع من التحالف، وهذا هو السبب في ضعفها وفشلها.

تزعَّم هذه الثورة أخوان استطاعا بفضل مهارتهما السياسية، تكوين جبهة معارضة ضد نظام السلطان كيخسرو الثالث ووزيره القوي برواناه، ومقاومة الاحتلال

---

(١) كوبرولو: ص ٨٤.

(٢) القرماني: ص ٢٩٣. Wittek: p 37.

(٣) الشيبي: جـ ٢ ص ٣٣٦.

(٤) لفظ الخطير هو لقب من ألقاب الملوك، ويعني الكبير الجليل القدر. القلقشندي: جـ ٦ ص ٨١.

المغولي الذي جثم على صدر الدولة.

برز الأخ الأكبر، وهو شرف الدين مسعود بن الخطير، في عهد السلطان قلج أرسلان الرابع حيث أُسند إليه منصب قيادة الجيش، فأبدى بسالة ونجح في إحداث نقلة نوعية في النظام العسكري السلجوقي، فكافأه السلطان ومنحه ولاية نكيدة كإقطاع[١]، واستمر في منصبه في عهد السلطان كيخسرو الثالث[٢].

أما شقيقه الأصغر ضياء الدين، فكان نائباً لبرواناه وحاجباً له، وكثيراً ما عهد إليه بتنفيذ مهمات صعبة وخطيرة[٣].

التفَّ الأخوان في بداية حياتهما السياسية حول زعامة برواناه في الوقت الذي راح فيه شرف الدين يحصِّن نكيدة ويملأ مخازنها بالمؤن والذخائر بهدف القيام بالثورة على الحكم المغولي، مقتدياً بحسام الدين بيجار الكردي حاكم ديار بكر، فهو أول من أعلن الثورة على المغول.

ويبدو أنه جرت اتصالات سرية بين الرجلين بهدف التنسيق، بدليل أن عبارة الآقسرائي «وكان هو أول من أثار الخلاف بين الأمراء» تدل على تغيير حصل في موقف الأمراء من السياسة العامة للدولة[٤].

وعندما قويت شوكة المماليك بعد انتصارهم على المغول، جرت اتصالات بين الأخوين وبين بيبرس، واتفق الجانبان على مساندة المماليك للثوار عسكرياً، على أن يتبع ذلك غزو مملوكي لبلاد الأناضول، وقد علم برواناه بهذه المفاوضات، ولعله شارك في بعض مراحلها. واستقطب الأخوان بعض الأنصار في ولايات الأطراف استعداداً لساعة الصفر.

وفي عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) انتهز شرف الدين فرصة ذهاب الصاحب وبرواناه إلى المعسكر المغولي، وأعلن الثورة على الوجود المغولي. وحتى يقوِّي موقفه أجبر السلطان على تأييده، ونقله من قيصرية إلى مركز المقاومة في نكيدة. وعجز القائدان اللذان كلفهما برواناه بالتصدي له، وهما تاج الدين كيوي وسنان الدين أرسلان دغمش، من الوقوف في وجهه، وعندما حاولا مقاومته لقيا مصرعهما[٥].

أرسل شرف الدين أخاه ضياء الدين إلى بلاد الشام للاجتماع ببيبرس وشرح

---

(١) الآقسرائي: ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٠٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣١١ ـ ٣١٣.

الأوضاع المستجدة في بلاد الروم أمامه، والطلب منه مساعدة عاجلة، ودعا، في الوقت نفسه، القرمانيين وتركمان الأطراف إلى الالتفاف حوله[1].

وإذ أضحى عصيان آل الخطير علنياً، نشبت الاضطرابات في البلاد وقامت الغوغاء بأعمال الفتن والسلب والنهب، واضطر الأمراء والأعيان إلى رفع الأذى عنهم ببذل المال، وسرت الإشاعات عن قرب وصول الجيش المملوكي.

وساند بعض الأمراء المعزولين الثورة، نذكر منهم الأمير شمس الدين كنجة الذي أُعفي من منصبه ومُنع من التدخل في الشؤون العامة، ويرجح الآقسرائي بأنّه كان محركاً للفتنة، وناصحاً لشرف الدين، وأدّى دوراً بارزاً في الاتصالات مع المماليك[2].

كانت نكيدة مركز تجمُّع القوات المتحالفة، فاغتر شرف الدين بضخامة ما وصل إليه من تركمان وقرمانيين، وأعلن الثورة على الرغم من عدم نضوج الظروف الخارجية بالتنسيق مع المماليك، إذ أن القوة المملوكية التي أُرسلت من بلاد الشام إلى البستان لمساندة الثوار ما لبث أفرادها أن عادوا من حيث أتوا عندما واجهتهم قوة مغولية[3].

لم يستطع شرف الدين الصمود في وجه قوة المغول، فقبضوا عليه، وسيق إلى مشتى كنغرطاي في دلوجة حيث خضع للتحقيق والاستجواب ثم أُدين وقُتل. أما أخوه ضياء الدين فقد قُتل في معركة البستان بعد ذلك[4].

نتائج ثورة آل الخطير

- انتهت ثورة آل الخطير بالفشل، وربما كان لتسرُّع زعيمها شرف الدين، السبب البارز في ذلك، إذ لا بد لإنجاح الحركات الثورية من توفير عاملين: داخلي، يتمثَّل بتعبئة الرأي العام واستقطاب الزعماء البارزين، وخارجي، يتمثَّل في كسب تأييد وعطف الدول الصديقة والمجاورة، وقد أحسن شرف الدين في تأمين الدعم الداخلي، إلَّا أنه أخطأ في تقدير العامل الخارجي. صحيح أن بيبرس كان ينوي مساعدة الثوار إلَّا أن شرف الدين لم يحسن التنسيق معه، فكانت نهايته سريعة ووقع ضحية خطئه.

---

(١) ابن بيبي: ص ٣١٣. الآقسرائي: ص ١٠١ - ١٠٢.
(٢) المصدران نفساهما: ص ٣١٤. ص ١٠٢.
(٣) الآقسرائي: ص ١٠٢ - ١٠٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٠٤.

ـ ألهبت ثورة آل الخطير حماس مختلف القبائل التركمانية ودفعتها إلى مقاومة الاحتلال المغولي، والثورة على النظام القائم، بدليل أنه أعقبتها عدة ثورات كان بعضها ناجحاً مثل ثورة القرمانيين.

ـ كشفت ثورة آل الخطير عن ضعف الدولة السلجوقية، لدرجة أنها عجزت عن إخمادها والقضاء عليها، فاستعانت بالمغول لتحقيق ذلك.

ـ أثارت هذه الثورة طمع الدول المجاورة، إذ أن الدولة الضعيفة تكون عادة هدفاً سهلاً للدول القوية تقتطع منها ما تشاء وكيف تشاء. فقد طمع بيبرس بضمِّ بلاد الروم، وما جلوسه على عرش السلاجقة وضرب السكة باسمه والخطبة له على المنابر، سوى أدلة واضحة على ذلك، غير أن الوجود المغولي المكثَّف على الساحة السياسية حال دون تحقيق أطماعه لمدة طويلة.

ـ تُعدُّ ثورة آل الخطير تعبيراً عن الشعور الوطني المتفجِّر في وجه الاحتلال المغولي، وثورة على النظام الذي رضخ إلى هذا الاحتلال، نلاحظ ذلك من المباحثات التي جرت بين المعارضين والمماليك. فقد اشترطوا على بيبرس، لقاء تأييده، أن يعترف بشرعية الحكم المركزي السلجوقي وعلى رأسه السلطان، لأنهم غير مستعدين باستبدال احتلال مغولي بآخر مملوكي، غير أن هذا الشعور الوطني كان لا يزال وليداً مما كان سبباً في فشل الثورة.

الثورة القرمانية وفتنة جمري

أقام الأمويون والعباسيون، بسبب صراعهم المستمر مع البيزنطيين، تشكيلات خاصة في مناطق الحدود لصد الغارات البيزنطية، ومهاجمة الأَراضي البيزنطية. وقد حذا السلاجقة حذوهم في القرن الثاني عشر الميلادي، فأقاموا تشكيلات مماثلة هي تشكيلات الأوج أو الأطراف، على الحدود الشرقية والغربية لبلادهم، اعتمدت أساساً على التركمان.

ولعل أهم هذه الحاميات في القرن الثالث عشر الميلادي، تلك التي كانت ترابط على شاطىء البحر المتوسط في المنطقة التي تتاخم حدود أرمينية الصغرى، وبالقرب من بعض الموانىء أمثال أنطالية والعلايا، لكن أكثر هذه الحاميات أهمية تلك التي كانت ترابط في غربي الأَناضول على الحدود البيزنطية.

وكانت الدولة السلجوقية تُعيِّن بعض القادة للدفاع عن المناطق الساحلية وتضع تحت إمرتهم بعض أمراء السواحل، كما اعتادت أن تُضفي لقب «أوج بكي» أي حاكم الحدود على كل رئيس عشيرة يعظم أمره ويلتحق به عدد من العشائر

الصغيرة، لكنها كانت تحدد صلاحياته وتعيِّن عليه رئيساً أو عدداً من الرؤساء يلقب كل منهم بلقب «أوج أميري» أي أمير الحدود[1].

وتذكر المصادر أسماء عدد من الأسر وحكام الحدود، أشهرهم محمَّد بك الذي هيمن في وقت من الأوقات على القبائل المتمركزة في المناطق الساحلية مثل أنطالية، وعلى الحدود الجنوبية الغربية على شواطىء نهر مندريس[2].

كانت سلطة الإدارة المركزية ضعيفة على أمراء الحدود حتى في الوقت الذي كانت في عنفوان قوتها، فكان هؤلاء يغيرون على الأراضي البيزنطية دون تنسيق معها، يبتغون من وراء ذلك منافع مادية. وعلى الرغم من أنهم كانوا خاضعين لهذه الإدارة، من الناحية الشكلية على الأقل، إلَّا أنهم لم يتورعوا عن شق عصا الطاعة والتصرف باستقلالية مطلقة، فكانوا يسبِّبون لها مشكلات سياسية مع البيزنطيين، كما كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب، وتدخلوا في الشؤون الداخلية لأهل الحكم يؤيدون سلطاناً ويعارضون آخر.

واتخذ أمراء الحدود موقفاً عدائياً من المغول، ومسانداً للمماليك، كما استفادوا من ضعف الإدارة المركزية بعد وفاة السلطان كيخسرو الثاني لتقوية نفوذهم المحلي، وتهيأت لهم الفرصة للمطالبة باستقلالهم، وكان صاحب آتا ومحمَّد بك القرماني من بين هؤلاء الأمراء.

ابتدأ القرمانيون حياتهم السياسية كحركة مناهضة للاحتلال المغولي، وانتهى بهم الأمر إلى تأسيس إمارة مستقلة في القرن الرابع عشر الميلادي حيث استقروا في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) في قونية، بوصفهم أقوى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم وأعلنوا بأنهم خلفاء هذه الدولة ووارثوها[3].

تنتسب القبيلة إلى زعيمها قرمان الذي خلف أباه نورة الصوفي في عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) كزعيم لهذه القبيلة، واستقر في جنوب شرقي قونية، واستخدمه السلاجقة آنذاك للضغط على أرمينية الصغرى في قيليقية[4]. ويذكر ابن بيبي أن والد القرمانيين كان في ابتداء أمره من الفحامين التركمان في بلاد الأرمن ومعروف باسم قمر الدين، كان يحمل الفحم من الجبال إلى لارندا[5].

---

(١) كوبرولو: ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٣٣ ـ ١٣٤. الآقسرائي: ص ٧٤.

(٣) Camb. Hist of Islam: vol I p 252.

(٤) Cahen: p 711.

(٥) الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٣٢١.

واشتهر قرمان منذ عهد بايجو بما كان يشنه من غارات على القوافل التجارية، وقَطْع الطرق، ثم شرع في أعمال السرقة، وبعد أن كان راجلاً أصبح فارساً نتيجة ما كان يغنمه[١].

ويبدو أن قرمان لم يفكر في تلك المرحلة المبكرة بالاستقلال التام عن الدولة السلجوقية أو مقاومة الاحتلال المغولي، بدليل أنه دخل في طاعة السلطان قلج أَرسلان الرابع عندما انفرد بحكم السلطنة[٢]، وعيَّنه السلطان المذكور أميراً في ولاية الأرمن. وبعد أن ازدادت قوته، وقوي أمره، نضجت في رأسه فكرة الثورة والاستقلال بما تحت يده عن الإدارة المركزية، وبخاصة أن البلاد تمر في مرحلة فوضى وضبابية. لكن السلطان لم يتح له تحقيق حلمه وقضى عليه في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، حين كان مختبئاً في غابة، فأشعلت القوات السلجوقية النار في الغابة، فقضى محترقاً[٣]، وعَجز أخوه بونسوز ومساعده زين الحاج في الوقوف بوجه القوات السلجوقية، وفشلا في إعادة إحياء القوة القرمانية، فقُبض عليهما وصُلبا على باب قلعة قونية، وسُجن أولاد قرمان في قلعة كاولة، حيث أطلق بروانا سراحهم بعد ذلك باستثناء علي بك الذي ظل مسجوناً في قيصرية[٤].

تزعم القرمانيين بعد هذه النكبة شمس الدين محمَّد بك ابن قرمان، فأعاد تنظيم صفوف أتباعه، وانضوى إليه الأَتراك في ولاية الأرمن وتركمان الحدود؛ وهاجم قونية[٥]، إلَّا أنه فشل في اقتحامها، وتراجع إلى مقره وراح يترقب تطور الأوضاع السياسية التي تسمح له بالتدخل.

وعندما نشبت ثورة آل الخطير، ساندهم القرمانيون، فكافأ شرف الدين بن الخطير محمَّد بك وعيَّنه حاكماً على ولاية الأرمن. وبعد القضاء على هذه الثورة، تسلَّم محمَّد بك زمام المبادرة وقاد ثورة ضد النظام، وامتنع عن دفع الضرائب، فهاجمه بدر الدين بن إبراهيم بن القاضي الختني حاكم ولاية الأرمن السابق، بتشجيع من المغول، إلَّا أنه انهزم أمامه عند معبر كوكسو حين حشر نفسه وجيشه في هذا المضيق، وفرَّ بعد المعركة إلى إحدى حصون ولاية الأرمن وتحصَّن بها.

---

(١) ابن بيبي: ص ٣٢١ ـ ٣٢٢. (٢) المصدر نفسه: ص ٣٢٢.

(٣) لين بول، ستانلي: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة جـ ٢ ص ٤١٥.

(٤) ابن بيبي: ص ٣٢٢. الآقسرائي: ص ٧١ ـ ٧٢. Camb. Hist of Islam: vol I p 252.

(٥) Ibid.

وغنم القرمانيون ما كان يحمله من أموال وذخائر، وسيطروا على أنحاء الولاية[١]. وفشلت محاولة أخرى قام بها برواناه لإخضاعهم وتعرَّض الجيش الذي أرسله بقيادة أمين الدولة ميكائيل نائب السلطنة للهزيمة، لكن أفراد هذا الجيش نجحوا في فك الحصار عن بدر الدين[٢].

انتشرت الفتنة في كافة أنحاء البلاد، بعد هذه المحاولات الفاشلة، وهاجم التركمان القوافل التجارية، وخشي أركان الدولة على أنفسهم. وعلى أثر انتصار بيبرس على المغول، وما ترتب على ذلك من ذيول أدَّت إلى القضاء على بروناه، اشتعلت الفتن بصورة أعنف، وتسبَّب عصيان القرمانيين في إيقاع الدمار والمحن، وهلك كثير من الأمراء والقادة في المواجهات التي جرت معهم، وخلت قونية من المدافعين عنها، فعزم محمَّد بك على دخولها، وحتى يُكسب حركته صفة شرعية حاول استمالة السلطان إلى جانبه أَو الاتصال بأحد أولاد السلطان كيكاوس الثاني الموجود في القسطنطينية لتنصيبه سلطاناً على عرش السلاجقة[٣].

وصادف في هذه الأثناء ظهور شخص يدعى جمري، وهو من جملة الأراذل، ويعيش على السرقة وقطع الطرق، راح يطوف في القبائل مدعياً أنه ابن السلطان كيكاوس الثاني، فاتصل به محمَّد بك، واعترف بنسبه، وتعاونا في مهاجمة قونية وفرضا حصاراً مركَّزاً عليها، ونجحا في دخولها. وانتشر التركمان في أحياء المدينة ونهبوها، وجلس جمري على العرش واعترف به محمَّد بك سلطاناً على السلاجقة، وخُطب له على منابرها وسك النقود باسمه، وأطاعه السكان خوفاً على أرواحهم[٤].

باشر جمري ممارسة سلطته كسلطان حاكم، فأرسل الأوامر إلى ولايات الأطراف، وجعل اللغة التركية اللغة الإلزامية في دوائر الدولة، وعيَّن محمَّد بك وزيراً، وخطب بنت السلطان قلج أَرسلان الرابع، ثم استعد لمحاربة أولاد الصاحب فخر الدين الذين أعلنوا التمرد على حكمه في آق شهر، وانتصر عليهم[٥].

توجَّه الثوار بعد ذلك إلى مدينة قرا حصار دولة، وهاجموها، إلَّا أنهم عجزوا عن اقتحامها، وعادوا إلى قونية. وخطط جمري بعد ذلك لمحاربة المغول إلَّا أنه

---

(١) ابن بيبي: ص ٣٢٢. الآقسرائي: ص ١١١ ـ ١١٢.

(٢) الآقسرائي: المصدر نفسه ص ١١٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٢. ابن بيبي: ص ٣٢٣.

(٤) المصدران نفساهما: ص ١٢٣ ـ ١٢٤. ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

(٥) ابن بيبي: ص ٣٢٦.

تخلَّى عن هذه الفكرة بعد أن عجز عن تجنيد العدد الكافي[١]. لكن المغول لم يتركوه وشأنه وهاجموه في قونية وأجبروه على الخروج منها. ولما غادروها، عاد إليها لكنه فشل في دخولها مرة أخرى بفعل مقاومة السكان، واكتفى بتخريب ربضها وضواحيها، وتوجَّه إلى ولاية الأرمن[٢].

ونتيجة لانتشار الاضطرابات والفتن، وعَجْز الأمير المغولي كنغرطاي عن إعادة الاستقرار والهدوء، أرسل الإيلخان آباقا في عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) الوزير شمس الدين الجويني على رأس جيش مغولي آخر لإخماد الفتن وضبط الحسابات المالية وإصلاح ما فسد[٣].

اندفع هذا الجيش باتجاه الساحل عن طريق لارندا، وتمكَّن من أسر عدد كبير من التركمان الثائرين في ولاية الأرمن، إلَّا أن حلول فصل الشتاء أوقف عملياته العسكرية، وتأجَّلت بالتالي عملية القضاء على الثوَّار، فذهب الجويني إلى كازوفا في منطقة توقات ليقضي فيها فصل الشتاء وترك قوة مغولية تحت تصرف السلطان كيخسرو الثالث ووزيره الصاحب فخر الدين اللذين توجَّها إلى قونية[٤].

استأنف السلطان حملاته ضد القرمانيين في فصل الربيع بمساعدة المغول، وتمكَّن بعد معركة جرت في صحراء موت من هزيمتهم، وقُتل محمَّد بك وشقيقاه في المعركة[٥]. استغل السلطان انتصاره هذا وتابع حملته العسكرية للقضاء على جمري الذي تحصَّن في قرا حصار دولة. وجرى اللقاء العسكري بين الطرفين في أطراف قرا حصار، وأسفر عن فوز القوات السلطانية. ووقع جمري في الأسر، فسلخ حياً ومُلىء جلده بالتبن، وطيف به في أنحاء البلاد ليكون عبرة لغيره ممن تسوِّل له نفسه بالعصيان[٦].

توجَّه السلطان بعد هذا الانتصار الساحق إلى برغلو حيث اجتمع بسكان لاذيق وخوناس، وقد سلَّموه علي بك أمير أوج، وكان قد استغل فرصة انهماك أجهزة الدولة بقمع فتنة جمري، وأعلن العصيان على الدولة، فسجنه السلطان في قرا

---

(١) ابن بيبي: ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨. الآقسرائي: ص ١٢٢.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩. ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٥) ابن بيبي: ص ٣٣٠.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣. الآقسرائي: ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

حصار دولة ثم هلك من الخوف[1].

وطاف السلطان في أنحاء السلطنة لتثبيت هيبة الدولة وقمع الحركات التمردية الصغرى. وعلى الرغم من ذلك، فإن ثورة القرمانيين لم تخمد تماماً بمقتل زعيمها محمَّد بك، واستمروا في إثارة القلاقل ضد الحكومة المركزية. فأغاروا في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) على منطقة قونية، وكانوا بقيادة جفري بك، في حين أغار سليمان بك على قونية نفسها، وآق شهر. ونظراً لانهماك المغول في شؤونهم الداخلية بعد وفاة آباقا، فقد واجه السلطان مسعود الثاني هذه الثورة منفرداً في بادىء الأمر، ثم أنجده الإيلخان أحمد تكودار بقوة عسكرية بقيادة أخيه كنغرطاي. واجتاحت القوات المتحالفة مدينة آقسرا بوحشية بالغة، ووصلت إلى ولاية الأرمن حيث تجمَّع القرمانيون، فهاجمتهم، ونفَّذت عمليات انتقامية بحق سكان المدن، فأثارت رد فعل غاضب من جانب المماليك الذين احتجوا أمام الإيلخان أحمد، فاستدعى أخاه وحقَّق معه، وحاسبه على أعماله، ولما وجده مذنباً قتله في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م). وعلى الرغم من هذا الاضطهاد البالغ الشدة ظل القرمانيون أقوياء.

وازدادت الأوضاع تعقيداً بظهور جماعة ثورية أخرى قامت في وجه الحكومة المركزية متخذة من كوتاهية مركزاً لها ألا وهي الحركة الكرميانية.

وتعرَّض القرمانيون منذ عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) لعدة حملات عسكرية سلجوقية ـ مغولية مشتركة، أصابت مناطقهم بالدمار، واضطرُّوا إلى مهادنة المغول في أوقات الشدَّة، واستمروا على ذلك بين مد وجزر حتى زالت الدولة السلجوقية، فاستقلوا بمناطقهم واتخذوا من قونية عاصمة لهم.

وظهر في بلاد الروم في عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) متمرد آخر هو ولد جاهي، وتحصَّن في دولة حصار بين نكيدة وآقسرا ورفع راية العصيان ضد الدولة، وتصرَّف بأموال القرى التي سيطر عليها، ولم تتمكَّن الحكومة المركزية من وضع حد لعصيانه[2].

تلك كانت أهم أحداث الثورات الداخلية والحركات الاستقلالية التي قامت في وجه الدولة السلجوقية والاحتلال المغولي.

لقد أنهكت هذه الثورات الدولة، وصرفتها عن الاهتمام بالشؤون الخارجية

(١) ابن بيبي: ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤. الآقسرائي: ص ١٣٣.

(٢) الآقسرائي: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

مما أعطى المغول فرصة، فشدَّدوا قبضتهم على أجهزتها. لكن هذه المحاولات الثورية والاستقلالية زعزعت كيان الدولة فازدادت ضعفاً على ضعف مما يصح القول بأنَّها كانت أحد أسباب زوال السلطنة السلجوقية.

الأسباب الخارجية

الصراع الأجنبي على أرض الروم

فساد الإدارة المغولية

تُشكِّل الصراعات الأجنبية في بلاد الأَناضول، القسم الثاني من أسباب زوال السلطنة السلجوقية، وتُمثِّل السبب الخارجي لأنها حصلت بين أطراف غريبة عن البلاد. وتنقسم هذه الصراعات بدورها إلى قسمين، صراع مغولي ـ مملوكي وقد تحدَّثنا عنه في فصول سابقة، وصراع مغولي داخلي سنفصِّله في السطور التالية.

غدت بلاد سلاجقة الروم بعد معركة كوسى داغ تحت السيطرة المغولية، لكن بلغ من بُعدها جغرافياً عن حاضرة الأمبراطورية المغولية ما منع المغول من التخلص من الحكم المركزي، فأبقوا على الأجهزة الإدارية في الدولة بأيدي السلاجقة، واكتفوا بإشراف مباشر على تعيين السلاطين والوزراء وحكَّام الولايات، وبتركيز حاميات عسكرية لهم في المدن الرئيسية. والمعروف أنه لم يكن الإبقاء على الأوضاع الإدارية كما هي، بالشيء الجديد في سياسة المغول، بل كان من الأمور الأساسية. فقد حرصوا دائماً على أن تسودهم الروح العسكرية في كل ناحية من نواحي حياتهم، ولذلك، حرَّموا على أنفسهم تولي الإدارات المدنية في البلاد المفتوحة، وتركوها بيد أهلها، مكتفين بتعيين حكَّام عسكريين من قِبَلهم يشرفون على السياسة العليا فضلاً عن الحاميات العسكرية التي زوَّدوا بها المدن المختلفة[1]. إلَّا أنه حدث ما بدَّل هذه السياسة حيث راح المغول بعد مقتل بروانا، ونشوب الاضطرابات في الأَناضول، يتولون تدريجياً شؤون الإدارة، وشغلوا في أواخر عهد الدولة السلجوقية الوظائف الإدارية الرئيسية وأدخلوا نظامهم المالي.

والواقع أن صراع المغول الداخلي على أرض الروم وفساد إدارتهم، زاد من سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية وأضعف من مقاومة السكان على الاستقرار، وشجَّع على زيادة الانقسام في المجتمع السلجوقي.

---

(١) حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢٣٨.

كانت بلاد الروم تابعة من الناحية الإدارية لحاكم أذربيجان المغولي وحاضرته مدينة تبريز، فهو الذي يزكي المرشحين لتولي مناصب الدولة، ثم يصدر الإيلخان منشور تعيينهم.

وحدث في عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) أن عُيِّن بايجو حاكماً على أذربيجان والعراق بدلاً من جرماغون، وظل هذا الرجل محتفظاً بمنصبه حتى عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)[١]. وكان من أهم ما أسداه للاحتلال المغولي من فوائد، هو ما أجراه من القتال مع السلاجقة وقضائه على استقلالهم، كما رعى اتفاقية الصلح التي أقرَّت تبعية البلاد للمغول[٢].

حرص بايجو خلال مدة حكمه على استنزاف موارد البلاد وإفراغ الخزانة المركزية، مما أضعف الدولة السلجوقية. فكان يبعث برسله كل سنة إلى الأناضول يطلب الأموال والتحف والهدايا، حتى شعر القيمون بفداحة ما يتكبَّدونه من نفقات، وأيقنوا أن الحالة ستزداد سوءاً وتدهوراً إذا لم يوضع حد لشراهته. وبعد التشاور بين السلطان وأركان حكمه استقر الرأي على عرض الأمر على هولاكو. وفعلاً تفهَّم هذا الأخير أسباب الشكاية، مما انعكس ارتياحاً في الأوساط الحاكمة بدليل أنه أثناء عودة أعضاء الوفد عرَّجوا على بايجو وأعلموه بقرار الخاقان، فغضب، إلّا أنه قرَّر دخول بلاد الروم في أول فرصة تُسنح له[٣].

وفعلاً لم يمض غير وقت قصير حتى عبر بايجو إلى بلاد السلاجقة بحجة قضاء فصل الشتاء، وطلب من المسؤولين أن يعينوا له بعض الأماكن ليقضي فيها الفصل المذكور[٤]. ويبدو أنه هدف إلى تشديد قبضته على البلاد واستنزاف مواردها بما تقدمه له الدولة من خدمات ونفقات إضافية وهدايا.

وفي خضم النزاع بين الأخوين السلطانين كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، ساند بايجو هذا الأخير. ولما تقرَّر قسمة البلاد بينهما كانت ملطية من نصيب الثاني، فرفض حاكمها بهادر تسليمها له، واضطر بايجو إلى اقتحامها ودخلها عنوة، وأجبر سكانها على الاعتراف بالتبعية لقلج أرسلان الرابع[٥].

وفي عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) توفي هولاكو مؤسِّس إيلخانية إيران، وخلفه ابنه

---

(١) Howorth: vol III p 43.

(٢) ابن بيبي: ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٨٥.

(٥) ابن العبري: ص ٣٠٤.

آباقا، فعيَّن كلاً من تودان نوين وتوغو آغا قائدين للقوات المغولية المرابطة في بلاد الروم، وقد خلفهما بعد مقتلهما في معركة البستان، القائد سمغار ثم كهورتاي[(١)]. ونقرأ أثناء مهاجمة بيبرس لأرمينية الصغرى في عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) عن ذهاب الملك الأرميني هيثوم إلى قائد القوات المغولية في بلاد الروم واسمه نابشي لطلب المساعدة لصد الهجمات المملوكية[(٢)].

وفي عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) عيَّن الإيلخان أرغون، الطبيب اليهودي سعد الدولة وزيراً لماليته وكبيراً لمستشاريه. وما اشتهر به هذا الوزير من المكر والدهاء والذكاء والمرونة وطلاقة الحديث ودرايته بحياة البلاط، ما جعله يقف على كل ما يرضي الإيلخان الذي حفظ له تفانيه في خدمة الدولة، فأطلق يده في إصلاح الشؤون المالية.

استغل سعد الدولة مركزه لجمع المال، فعيَّن أهل ملته من اليهود في وظائف الدولة الرئيسية، ولجأ إلى توزيع التزام جباية الأموال على أقاربه. وعلى الرغم من استثناء خراسان والأناضول من مسؤوليته، بوصفهما إقطاعين للأميرين غازان وكيغاتو[(٣)]، فإن بلاد الروم لم تنج من حقده وتعصبه. فاحتقر الحكام والأمراء وأهانهم، وعزل الأقوياء منهم، أمثال فخر الدين القزويني ومجير الدين شاه، لأنه رأى فيهم منافسين خطرين. وعيَّن أولاد قلاووز مع الصاحب شمس الدين لاكوشي في حكومة سلاجقة الروم[(٤)].

تحكَّم أولاد قلاووز برقاب الناس وضايقوهم، وأهانوا الوزراء والأمراء وأعيان البلاد، حتى علت صرخة الناس، لعدم وجود من يسمعهم وغلب عليهم الشعور باليأس، وازدادت أعمالهم التعسفية عندما أطلق سعد الدولة يدهم في البلاد. وفشل القائد المغولي سمغار في وضع حد لتعدياتهم. ولم يُرفع هذا الكابوس عن البلاد والعباد إلَّا بعد مقتل سعد الدولة في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، واعتلاء كيغاتو العرش المغولي خلفاً لأرغون في العام نفسه[(٥)].

ونكتفي بهذا القدر من الشرح لتصرفات حكام المغول وقادتهم الشاذة، التي أفسدت الإدارة المغولية مما كان شؤماً على البلاد والعباد.

---

(١) Howorth: vol III p 219. (٢) Ibid: p 225.

(٣) برتولد، شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ص ٧٠. D'Ohsson: vol IV pp 33 - 34.

(٤) الآقسرائي: ص ١٥٦. (٥) المصدر نفسه: ص ١٦٣. شبولر: ص ٧١.

الصراع المغولي الداخلي في بلاد الروم

أدّت الصراعات الداخلية بين الحكام المغول في بلاد الروم، دوراً بارزاً في تراجع قوة السلطنة السلجوقية وإضعافها ثم زوالها.

ففي عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) انتُخب كيغاتو الحاكم المغولي العام في آسيا الصغرى، إيلخاناً بعد وفاة أرغون، وكان آنذاك في الأَناضول، فانتقل إلى مشتى آلاداغ، وصحبه السلطان مسعود الثاني[١]، وعارضه بايدو الذي التفَّ حوله أمراء التومانات ومنهم تُفاجار. وحدث أن انتقل كيغاتو من مشتاه إلى الأَناضول لإقرار الأمن بعد سلسلة الهجمات التي قام بها التركمان ضد الحاميات المغولية، فاستغل تُفاجار ذلك، وأشاع نبأ تدمير جيشه على أيدي الثائرين في أوج، فأحدث ذلك بلبلة بين المغول. ولوضع حد لتلك الإشاعة أسرع كيغاتو باتجاه تُفاجار وقبض عليه، وأرسله إلى أرزن الروم، ثم رأى أن يستقطبه، فعفا عنه وعيَّنه حاكماً مطلق الصلاحية على الأَناضول وديار بكر[٢].

انتخب بايدو إيلخاناً في عام (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) بعد مقتل كيغاتو، فأقرَّ تعيين تُفاجار على بلاد سلاجقة الروم، وعيَّن صدر الدين الزنجاني مساعداً ووزيراً مكان الوزير المخلوع جمال الدين[٣]، فمال هذا الأخير إلى غازان الذي ثار على حكم بايدو، إذ رأى في ذلك الفرصة لاستعادة مركزه، وأغرى غازان، تُفاجار فانضم إليه. وفي المعركة التي دارت بين قوات الطرفين، انتصرت قوات غازان بقيادة كتلغ شاه الأرميني الأصل، وجلس على عرش الإيلخانية، وقتل بايدو[٤].

وباعتلاء غازان عرش إيلخانية إيران، دخلت هذه الإيلخانية في طور جديد، بفضل مقدرة وزيره رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي أضفى عليها من نفحاته الإدارية والسياسية والتاريخية الناجحة[٥]. والمعروف أن تولي رشيد الدين هذا المنصب جاء عقب مقتل الوزير الخالدي الزنجاني[٦].

---

(١) الآقسرائي: ص ١٦٨. شبولر: ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٨، ١٧٠. D'Ohsson: vol IV pp 115-118. Howorth: vol III p 361.

(٣) Howorth: Ibid p 384.

(٤) الصياد: مؤرخ المغول الكبير ص ٦٩. Ibid: pp 385, 388, 395.

(٥) المرجع نفسه: ص ٨٤، Ibid: p 393.

(٦) المرجع نفسه: Ibid: p 399.

وقرَّب غازان القائد تُفاجار وعيَّنه في إحدى المناصب المهمة اعترافاً بفضله، غير أن الجفاء ما لبث أن وقع بين الرجلين بفعل ما اتصف به تُفاجار من سياسة متقلِّبة، فأبعده عن الإدارة المركزية وعيَّنه قائداً للقوات المغولية في الأناضول، وعلى الرغم من إبعاده، فإنه لم يأمن جانبه، فتخلَّص منه بواسطة خورمانجي[١].

استغل بالتو بن تابسين بن هولاكو، وهو أحد القادة المغول، مقتل تُفاجار، وأعلن التمرد على حكم غازان في عام (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م). والمعروف أن هذا القائد خدم في بلاد الروم منذ أيام أرغون، واشتد ساعده بعد وفاة حليفه سمغار، وسانده القرمانيون، ربما لأن الأهداف الثورية كانت مشتركة[٢].

أرسل غازان القائد كتلغ شاه، في العام التالي، إلى بلاد الروم على رأس جيش مغولي لقمع ثورته، فاشتبك معه في سهل أماسية وانتصر عليه، وكلَّف أحد مساعديه، ويدعى سولميش بن أفاك بن بايجو، بمطاردته والقبض عليه. ويُذكر أن السلطان مسعود الثاني ناصر بالتو في هذه الحرب، ولما انتصر كتلغ شاه اعتذر السلطان السلجوقي منه، فأمن جانبه. وتمكَّن سولميش بمساعدة القائد عرب بن سمغار من القبض على بالتو وأرسله إلى تبريز حيث أُعدم في الساحة العامة[٣].

عيَّن غازان، بعد مقتل بالتو، كلاً من كيور تيمور وتاينجار قائداً للقوات المغولية المرابطة في الأناضول، على أن يخضعا من الناحية العسكرية إلى سولميش، القائد العام للمنطقة[٤].

لم يكن سولميش بأفضل ممن سبقه، ففي عام (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) قام بحركة استقلالية بتشجيع من أعيان البلاد أمثال قاضي آقسرا وشقيقه، واستغل صعوبة التنقُّل والمواصلات بسبب حلول فصلِ الشتاء، واستقطب عدداً من الأمراء المغول في بلاد الروم، وأشاع بأن غازان قد أُقيل من منصبه من قِبل بعض المتمردين، ثم أعلن العصيان جهاراً، وانضم إليه بعض جماعات من التركمان، كما اكتسب تأييد القرمانيين.

لم يتمكَّن غازان من إرسال جيش مغولي من تبريز بفعل العوامل الطبيعية، فكلَّف القائدين كيور تيمور وتاينجار بالتصدي له بالوسائل المتوفِّرة، غير أن سولميش فاجأهما وتغلَّب عليهما وقتلهما، فأضحى بذلك الحاكم العام والفعلي،

---

(١) الآقسرائي: ص ١٨٩. Ibid: p 404.

(٢) D'Ohsson: vol IV pp 168-169.

(٣) الآقسرائي: ص ٢٠١. Ibid: pp 169-197.

(٤) Howorth: vol III p 427.

واستقلَّ بِبلاد الروم عن الإدارة المركزية، فعيَّن حكام الأطراف والولايات وأصدر أوامره إليهم توضح سياسته العامة(١)، لكن سيواس صمدت في وجهه، فحاصرها مدة شهر، دون جدوى(٢).

وأرسل غازان، بعد انقضاء فصل الشتاء، جيشاً جراراً بلغ خمسة وثلاثين ألفاً إلى بلاد الروم بقيادة كتلغ شاه، لإخضاع سولميش، فاصطدم بقواته في صحراء أرزنجان في آق شهر. وحدث خلال اللقاء أن تهيَّب أتباع سولميش الجند المغول، فانسحب أكثرهم، ولم يصمد معه سوى خمسمائة مقاتل. ثم رأى أن مصلحته تقضي بمغادرة مكان المعركة، فذهب إلى بهسنا على الحدود مع بلاد الشام، وكانت تحت السيطرة المملوكية. وأرسل أحد قادته وهو مخلص الدين الرومي إلى السلطان المملوكي الناصر محمَّد بن قلاوون يحثه على نجدته وإرسال قوة عسكرية مساندة.

استجاب السلطان المملوكي لنداء المساعدة، وأصدر أوامره بتجهيز خمسة آلاف فارس من حمص ومثل هذا العدد من حماة، وما تيسَّر جمعه من حلب، وإرسالهم إلى بلاد الروم مدداً لسولميش. ولما اكتمل عقد الجيش وأضحى متأهباً للانطلاق، وصل سولميش فجأة إلى دمشق، ثم توجَّه إلى القاهرة حيث اجتمع بالسلطان المملوكي وأجرى معه مباحثات. ويبدو أنها لم تؤد إلى نتيجة واضحة حيث خُيِّر سولميش بين الإقامة في القاهرة أو في دمشق أو أن يعود إلى بلاده، فطلب من السلطان أن يزوِّده بقوة عسكرية ليعود إلى بلاد الروم ويحضر أهله، فوافق السلطان على طلبه، فتوجَّه إلى حلب يرافقه الأمير بكتمر الحلبي، وتوجَّه منها إلى سيس، وأشاع بأنه عائد على رأس قوة عسكرية كبيرة، فمال إليه التركمان والقرمانيون وقد استبشروا بقدومه. لكن عندما علموا بقلة عدد جنوده انفضوا من حوله، ووقع أسيراً في أيدي القوات المغولية، فحمل إلى المعسكر المغولي في العراق حيث قُتل(٣).

ازدادت الفتن في بلاد سلاجقة الروم في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) على أثر وفاة السلطان مسعود الثاني، فعيَّن المغول آنذاك حاكماً جديداً هو آغا جري، ووزيراً هو الصاحب لاكوشي. وعارض إيرنجين الحاكم السابق، قرار التعيين وتصدى لآغا

---

(١) الآقسرائي: ص ٢٤٠. Howorth: vol III p 428.

(٢) الآقسرائي المصدر نفسه ص ٢٤١.

(٣) الآقسرائي: ص ٢٧٠ ـ ٢٧١. D'Ohsson: vol IV pp 200-207 .

جري، ودار بينهما صراع مرير على أرض الروم انتهى لصالح إيرنجين[1].

توالى على حكم بلاد الروم بعد ذلك، عدد من الحكّام المغول كانوا مثالاً للجشع، ودخلوا في صراعات من أجل السيطرة. والواقع أن استيلاء المغول على بلاد سلاجقة الروم، والصراعات الداخلية التي نشأت بينهم على أرضها كان مضرّاً. فبالإضافة إلى الخراب والدمار الذي نتج عن ذلك، فقد طمع قادة المغول بثراء البلاد، فأفرغوا خزائنها، وهدموا اقتصادها. وكانت المناصب الحكومية تباع كالسلعة، وتحمَّل الشعب الثمن بدفع الضرائب الباهظة والعديدة، الشرعية منها وغير الشرعية. وكان الجباة الذين يرسلهم المغول لقبض المستحقات أو المتأخرات يستعملون الشدة والقسوة، فكان الاحتلال شؤماً على البلاد والعباد.

---

(١) الآقسرائي: المصدر نفسه ص ٣٠٢ ـ ٣١٢، ٣٢٢ ـ ٣٢٤.

الخاتمة

تُعد المرحلة التاريخية بين زوال السلطنة السلجوقية في آسيا الصغرى وبين بعث الدولة العثمانية، من أصعب المراحل من حيث المعالجة بسبب ندرة المصادر وتفرق المادة التاريخية. والدراسات الحديثة قليلة جداً وقد جاءت ضمن سياق البحث عن قيام الدولة العثمانية. ويمكن تدوين بعض الملاحظات التي يمكن أن تشكِّل مدخلاً لدراسة مستقلة.

دخلت سلطنة سلاجقة الروم بعد هزيمة كوسى داغ في نفق مظلم لم تتمكَّن من الخروج منه، وانتهى الأمر بزوالها. وبرزت بعد ذلك طموحات الأمراء وحكَّام الولايات ورؤساء القبائل التركمانية، وكانوا على أهبة الاستعداد لملء الفراغ السياسي والعسكري. وانقسمت آسيا الصغرى إلى خمس مناطق جغرافية غير واضحة الحدود، لكنها تتمايز ببعض الفروقات السياسية، مما سمح لها بأن تستقل عن بعضها، وتنكمش على ذاتها. واستناداً إلى المصادر فإن المنطقة شكَّلت خليطاً من إمارات لم تعرف الوحدة السياسية.

تركَّز التركمان القرمانيون في المنطقة الجنوبية من طوروس مروراً بالمضائق القيليقية أي في أرمناك وآقسرا وقونية التي اتخذوها عاصمة لهم. ويُعد موقعهم الجغرافي أقرب إلى الجنوب الغربي، لذلك كانت تطلعاتهم نحو الجنوب، فتعاونوا مع المماليك في مصر كما تحكَّموا في الطريق المؤدي إلى بلاد الشام، وكانوا أكثر استقراراً من غيرهم من الإمارات.

وقامت إمارة ذو القدر في مرعش والبستان، وإمارة رمضان في أذنة، ولما كانتا واقعتين بين مناطق نفوذ الإمارة العثمانية بعد توسعها، وبين مناطق نفوذ المماليك، فإنهما كانتا تخضعان تارة لهؤلاء وطوراً لأولئك.

وتأسست في الجانب الشرقي البعيد حيث ديار بكر، مملكتا الخروف الأبيض والخروف الأسود، وشكَّلتا قوة لا يستهان بها، وكانت اتجاهاتهما السياسية أقرب

إلى الشمال الغربي لإيران من الأجزاء الأخرى في آسيا الصغرى.

وحكم المغول الهضبة الوسطى للأناضول مع القسم الشرقي لآسيا الصغرى، وهي سيواس وقيصرية وبلاد الدانشمنديين القديمة وبخاصة توقات حتى أنقرة. وعيَّنوا ولاة من قبلهم كان آخرهم تمورتاش الذي توسع مع مرور الوقت فضمَّ أرزنجان وأرزن الروم قبل أن يهرب إلى مصر في عام (٧١٧هـ/ ١٣١٧م) على أثر مقتل والده، وسلَّم حكم المناطق الخاضعة له إلى أرتنا وهو أحد ضباطه. وعلى أثر وفاة الإيلخان أبي سعيد في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) استقل الأول بالمقاطعات التي يحكمها وقطع صلته بالإيلخانيين.

حاول المغول فرض أنظمتهم وثقافتهم على هذه المنطقة، لكن التأثير التركي ظل واضحاً فيها، بل نتج عن امتزاج المغول بالأتراك أن ازداد نفوذ العنصر التركي بفعل سياسة التتريك التي ابتدأت في أواخر العهد السلجوقي، مما دعم الكيان السياسي للأتراك مع تراجع ملحوظ للثقافة المغولية أمام الثقافة التركية، بدليل أن قاضي سيواس برهان الدين أحمد، الذي خلف أسرة أرتنا في عام (٧٨٣هـ/ ١٣٨١م)، ومؤرخه عزيز الدين أردشير، وهو كاتب فارسي، أنجزا ثقافة لم يوازيهما فيها أحد في آسيا الصغرى. لقد كتب هذا القاضي أحياناً باللغة التركية، وأحياناً أخرى باللغة العربية. وبعد سقوطه أمام تيمورلنك، ظل الطابع التركي مهيمناً على إمارته، مع بعض التأثيرات المغولية.

وقامت في غربي الأناضول عشر إمارات تركمانية، من ضمنها الإمارة القرمانية، على أكتاف رؤساء القبائل الذين خدموا يوماً السلطنة السلجوقية كأمراء للحدود أو السواحل أو رؤساء للجند، كان من بينها إمارة العثمانيين، وقد تشابهت في حياتها الدينية والاجتماعية، في حين اختلفت في اتجاهاتها السياسية، وذلك بفعل الموقع الجغرافي والظروف المحيطة بها، وبُعدها أو قربها من مراكز الثقافة اليونانية وصلتها بالإيطاليين المقيمين في الجزر، واختلاط التركمان الحدوديين بالسكان النصارى، وهذا يفسِّر ما شاب شعائرهم الدينية من مبادىء نصرانية التي وجدت بين الطبقات الدنيا في الأناضول، وشاعت بين البابائيين والبكتاشيين. واستندت هذه الإمارات على قوة رجال القبائل، ومنها خرج الرؤساء الذين جمعوا بين السلطتين العسكرية والدينية، وتلقبوا في بعض النواحي بالغازي، منهم عثمان أوغلي، وتكة أوغلي، وآيدين أوغلي.

والواضح أن قيام هذه الإمارات حمل معه كافة المؤثرات من النظام السابق،

ونتيجة لذلك برزت في مجتمعاتها الآداب التركية في حين تلاشت تدريجياً الكتابة باللغتين العربية والفارسية.

ووجدت في المجتمع السلجوقي مؤثرات أخرى لم تعرفها أي من المجتمعات التركية خارج آسيا الصغرى، ولهذا لم يكن الشعب مخطئاً حين أطلق آنذاك اسم تركيا على المنطقة. فالعنصر التركي نجح في نشر عاداته ولغته في حين أخذت العادات واللغات الأخرى بالتراجع السريع.

صحيح أن السلاجقة تأثَّروا بجيرانهم، وبخاصة الفرس، إلَّا أنهم حملوا معهم البعث السياسي للعنصر التركي الحديث. وتهيأ التركمان لتأسيس أمبراطورية. وما ميَّز العثمانيين عن غيرهم هو روح التطور بفعل الموقع الجغرافي الملاصق للمناطق البيزنطية، والوعي السياسي والدافع الديني وبروز زعماء عظام، أمثال عثمان وأورخان وبايزيد الأول ومحمَّد الثاني وسليم الأول وسليمان الأول، الذين حملوا على عاتقهم مهمة التوسع باتجاه بلاد الصرب والبلغار. ولا يعني ذلك أن آسيا الصغرى لم تعد تعني لهم شيئاً لكن لم تعد بحاجة إلى إقامة توازن فيها كما كان الوضع في العهد السلجوقي، لأن السلاجقة سبق وأقاموا هذا التوازن ومهَّدوا للخطوة المقبلة وهي الانتقال إلى أوروبا.

وبدا وكأن دور آسيا الصغرى بحاجة إلى التوسع نحو الخارج بعد الاكتفاء الذاتي السياسي في الداخل. ورأى العثمانيون أنفسهم وقد دُفعوا نحو الخارج بعيداً عن مناطق السيطرة الإسلامية تماماً، كما دُفع السلاجقة في بداية عهدهم، وهذا يعني استمرار الجهاد ضد الكفار الذي حمل بذوره السلاجقة بعامة من قبل.

صحيح أنه كان على العثمانيين توحيد منطقة آسيا الصغرى، وقد نجحوا تدريجياً في ذلك، لكن اهتمامهم الأول كان الجهاد ضد الكفار. ومن المفيد دراسة الظروف السياسية والجغرافية والاجتماعية لمنطقة آسيا الصغرى في ذلك الوقت، والتي أتاحت لهم النهوض مع لفت النظر إلى أصلهم التركي، لأن قيام الدولة العثمانية هو دون شك إنجاز كبير حقَّقه الأتراك بعد زوال السلطنة السلجوقية.

لذلك، تركَّزت الفتوح العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين خارج منطقة آسيا الصغرى، ولم تكن طلائع غزوات قوم بدو، وإنما كانت تنفيذاً لخطط وُضعت مسبقاً.

قامت الإمارة العثمانية في كنف السلطنة السلجوقية، وتأثَّرت بها حين نشأت في مجتمع ديني على مذهب أبي حنيفة. وكانت آسيا الصغرى قد اصطبغت كما

أشرنا بالصبغة التركية في حين احتفظت المدن الكبيرة بالنظم الاجتماعية القديمة.

وثمة عامل آخر وهو حركة السكان المستمرة داخل كيان السلطنة السلجوقية ومدى تأثيرها على العهود اللاحقة. وكانت هذه الحركات السكانية ضخمة أحياناً وضئيلة أحياناً أخرى، وقد اقترنت بتسرب الأقوام التركية والقبائل التركمانية البدوية الوافدة من الشرق بصورة مستمرة سريعة أَو بطيئة. وما أن تمَّ ضم العثمانيين للجزء الأكبر من المنطقة حتى توجهت أنظارهم إِلى منطقة البلقان مستغلين تدفق التركمان من الشرق.

لقد كانت قبائل الغز، التي هاجرت إِلى آسيا الصغرى، موحدة، وأن لغة الأَتراك السلاجقة لم تتميَّز كثيراً عما يُعرف باللغة العثمانية القديمة. ووجدت اختلافات لهجية في لغة القبائل كانت تشتد وتختفي أحياناً، مما ساعد على امتزاج اللهجات وتساويها في آسيا الصغرى.

عاش العنصر التركي من غير الغز حياة بدوية أَو شبه بدوية وظل على ذلك أمداً طويلاً امتد طوال العهد السلجوقي، ولم تُدرس آثار هذه الحياة تماماً بعد.

وأخيراً يمكننا التأكيد بأن السلاجقة أنجزوا عملاً كبيراً حين انتزعوا منطقة آسيا الصغرى من أيدي البيزنطيين وأقاموا سلطنة تركية فيها، وهيؤوا للعنصر التركي الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي جعلته يستقر ويستمر. وهذا التكافل الذي حقَّقه السلاجقة طبع تاريخ الأَتراك في العصر الوسيط قبل أن ينتقل إِلى العصر الحديث.

ملحق

أسماء سلاطين سلاجقة الروم
ومدة حكم كل منهم

ـ سليمان بن قُتلمش	٤٧٠ ـ ٤٧٩هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٨٦م
ـ قلج أَرسلان داوود بن سليمان:	
قلج أَرسلان الأول	٤٨٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م
ـ ملكشاه بن قلج أَرسلان	٥٠٣ ـ ٥١٠هـ/ ١١٠٩ ـ ١١١٦م
ـ ركن الدين مسعود بن قلج أَرسلان:	
مسعود الأول	٥١٠ ـ ٥٥٠هـ/ ١١١٦ ـ ١١٥٥م
ـ عز الدين قلج أَرسلان بن مسعود:	
قلج أَرسلان الثاني	٥٥٠ ـ ٥٨٨هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٩٢م
ـ غياث الدين كيخسرو بن قلج أَرسلان:	
المرة الأولى	٥٨٨ ـ ٥٩٣هـ/ ١١٩٢ ـ ١١٩٦م
ـ ركن الدين سليمان شاه بن قلج أَرسلان	٥٩٣ ـ ٦٠١هـ/ ١١٩٦ ـ ١٢٠٤م
ـ عز الدين قلج أَرسلان بن ركن الدين سليمان شاه:	
قلج أَرسلان الثالث	٦٠١هـ/ ١٢٠٤م
ـ غياث الدين كيخسرو بن قلج أَرسلان:	
المرة الثانية	٦٠١ ـ ٦٠٨هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢١٢م
ـ عز الدين كيكاوس بن كيخسرو:	
كيكاوس الأول	٦٠٨ ـ ٦١٦هـ/ ١٢١٢ ـ ١٢١٩م
ـ علاء الدين كيقباد بن كيخسرو:	
كيقباد الأول	٦١٦ ـ ٦٣٤هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧م

ـ غياث الدين كيخسرو بن كيقباد:

كيخسرو الثاني ٦٣٤ ـ ٦٤٤هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦م

ـ عز الدين كيكاوس بن كيخسرو:

كيكاوس الثاني ٦٤٤ ـ ٦٧٨هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٧٩م

ـ ركن الدين قلج أَرسلان بن كيخسرو:

قلج أَرسلان الرابع ٦٤٤ ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٦٥م

ـ علاء الدين كيقباد بن كيخسرو:

كيقباد الثاني ٦٤٤ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٥٧م

ـ غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قلج أَرسلان:

كيخسرو الثالث ٦٦٤ ـ ٦٨٢هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٣م

ـ غياث الدين مسعود بن عز الدين كيكاوس الثاني:

مسعود الثاني: المرة الأولى: ٦٨٠ ـ ٦٩٦هـ/ ١٢٨١ ـ ١٢٩٦م

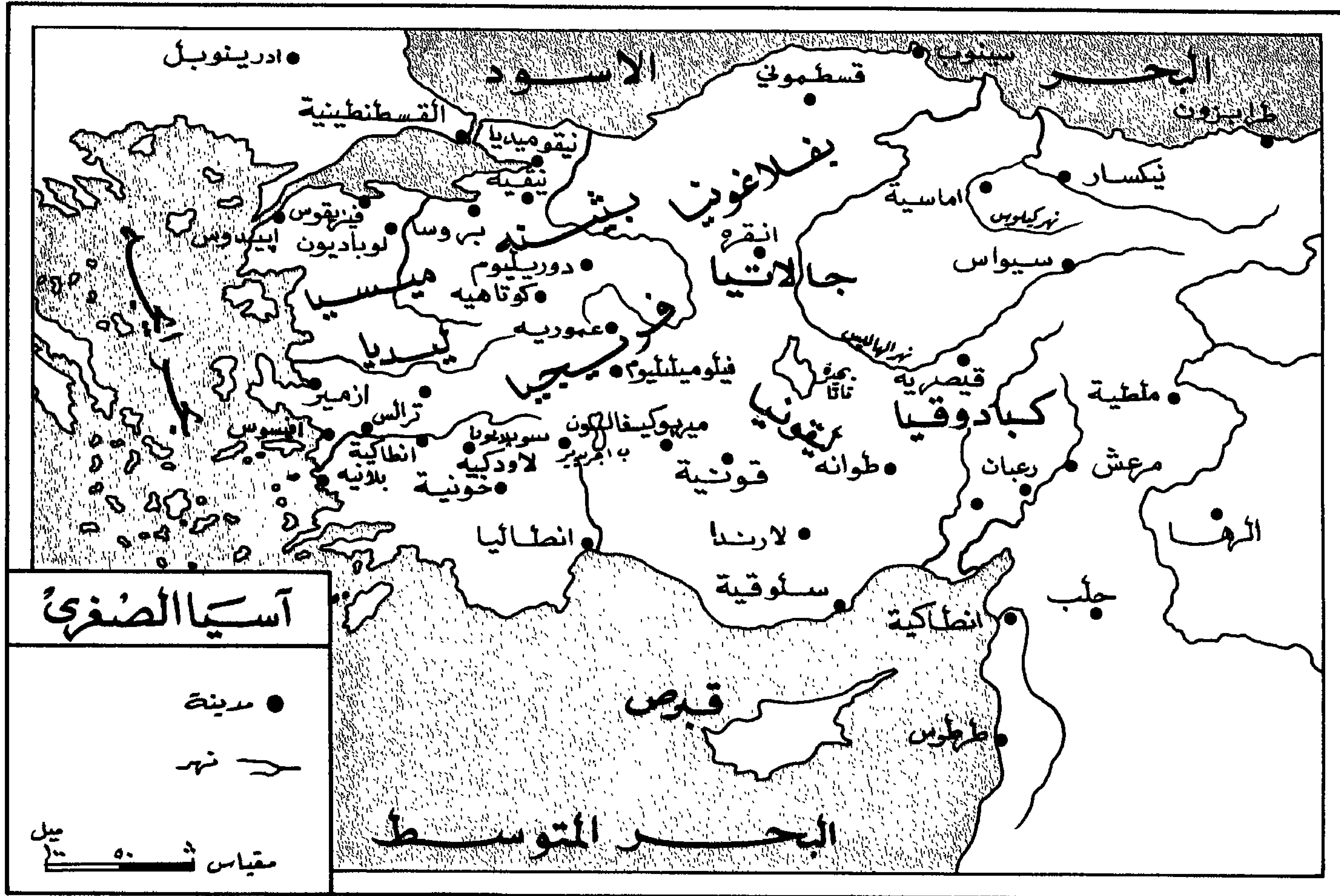
ـ علاء الدين كيقباد بن فرامرز بن كيكاوس الثاني:

كيقباد الثالث ٦٩٦ ـ ٧٠١هـ/ ١٢٩٦ ـ ١٣٠١م

ـ غياث الدين مسعود بن عز الدين كيكاوس الثاني:

مسعود الثاني، المرة الثانية: ٧٠١ ـ ٧٠٤هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٠٤م

فهرس الخرائط


آسيا الصغرى
مدينة
نهر
مقياس
ميل
البحر الاسود
البحر المتوسط
قبرص
ادرينوبل
القسطنطينية
نيقوميديا
نيقية
قسطموني
سينوب
طرابزون
نيكسار
اماسية
نهر كيليوس
سيواس
بفلاغونيا
بثينيا
جالاتيا
انقرة
فيزيقوس
ابيدوس
لوباديون
بروسا
دوريليوم
كوتاهيه
ميسيا
ليديا
فريجيا
عمورية
فيلوميليليوم
ازمير
ترالس
افسوس
انطاكية
بلاذيه
خونية
لاودكية
ميريوكيفالون
قونية
طوانه
ليكاونيا
قيصرية
كبادوقيا
ملطية
مرعش
رعبان
الرها
انطاليا
لارندا
سلوقية
انطاكية
حلب
طرطوس

الحملة الصليبية الاولى في آسيا الصغرى

امارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل
سلاجقة الروم
قيصرية
مزاكا
ملطية
البستان
ديار بكر
نهر دجلة
بهسنا
كيسوم
مرعش
نهر جيحان
سيس
هرقله
عين زربة
سرفندكار
رعبان
سميساط
الرها
قلعة الروم
دلوك
البيره
امارة الرها
سروج
حران
نهر الخابور
لمبرون
ادنه
المصيصة
عينتاب
تل باشر
ايسوس
راوندان
منبج
دربساك
عزاز
سلوقيه
الاسكندرونه
بغراس
بزاعة
انطاكية
السويدية
نهر الفرات
نهر البليخ
البحر المتوسط
معرة النعمان
اللاذقية
افاميا
قبرص
بانياس

اقليم أرمينيا والجزيرة

حدود القاطعات
حدود داخلية
مدن
المقياس بالاميال الانكليزية
٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ ميل

البحر الاسود
كرجستان
شروان
سلاجقة الروم
الران
اذربيجان
ارمينية
قاليقلا
طرون
الجزيرة
تفليس
قرص
طرابزون
بايبرت
ارزنجان
ارزالروم
اونيك
آنى
دبيل
شمكور
جنزه
برزعة
برذعة
البيلقان
نخوان
نهر الكر
الفرات الغربي
الفرات الشرقي
عربكير
نهر ارسناس
بابويه
شمشاط
اخلاط
ارجيش
باركيري
خوي
وان
بحيرة وان
موش
هاني
بدليس
ارزن
ميافارقين
آمد
تل فافان
سعرت
حصن كيفا
ملطية
زبطرة
حصن منصور
سميساط
الرها
سروج
حران
جسر منبج
باجدا
حصن مسلمة
الرصافة
الخانوقة
كفرتوثا
دنيسر
نصيبين
برقعيد
باعيناثا
العباسية
سنجار
الموصل
الحضر
الثرثار
السن
البوازيج
الزاب الاسفل
الحديثة
اربل
الثمانين
المعارية
ارمية
بحيرة ارمية
بسوى

دولة سلاجقة الروم
في اقصى اتساعها

حدود عام ١٠٨٦

حدود عام ١٢٤٣

مدن

مقياس
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
كلم

البحر الاسود

البحر المتوسط

القسطنطينية
سينوب
طرابزون
قسطموني
ازنيك
توقات
نيكسار
انقرة
سيواس
كوتاهية
ارزن الروم
ارزنجان
بحيرة وان
اخلاط
ازمير
اقشهر
ملطية
ديار بكر
قونية
الرها
ماردين
انطاليا
العلايا
رودس
انطاكية
قبرص
نهر العاصي
نهر الفرات
ارمينية الصغرى

بلاد الروم
بعد زوال الدولة السلجوقية

حدود مقاطعة
مدينة
الأنهار
ميل ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠

البحر الاسود
سينوب
قسطموني
القسطنطينية
قزل احمدلي
سمسون
ازميد
قوج حصار
كرهدي
خنجرة
مطرني
نيكسار
أماسيا
توقات
قرة حصار
زيله
اقشهر
سيواس
كمخ
الولاية العثمانية
برصى
نهر صاغره
قراصي
انقره
برغمه
قطيه
سيوري حصار
صاروخان
عمورية
ابروق
عرب كير
قوج حصار
قيرشهر
نهر قزل إرماق
ملطية
طرنده
نهر الفرات
فوجة
كرميان
اقشهر
قرة حصار
انطاكية
قره حصار
البستان
برگي
ازمير
لاذق
لاذق
حميد
اقسرا
طوانة
ارمينيا الصغرى
قرمان
مرعش
ايا سلوق
قونيه
حصن طواس
بحيرة ابريز
منتشا
اسبارطه
بردود
بقشهر
هرقله
عين زربي
لارنده
الكنيسة
ادنه
طرسوس
المصيصة
ميلاس
مقله
تكة
استنناز
انطاليه
الملوني
خليج ايا س
العلايا
ارمناك
سلوقيه
الشام
البحر المتوسط
بحر

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

- ابن الأثير، أَبو الحسن عز الدين. . . المعروف بالجزري:
- **الكامل في التاريخ** ـ دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٢.
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل** ـ تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أَبو المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ـ دار الكتب المصرية، ١٩٣٦.
- ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** ـ جـ ٨، تحقيق: دائرة المعارف الإِسلامية، الهند.
- **مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية** ـ المؤرخون الشرقيون، جـ ٣.
- ابن حوقل، أَبو القاسم النصيبي:
- **كتاب صورة الأرض** ـ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي:
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون** ـ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦.
- ابن خلكان، أَبو العباس أحمد:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ـ تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن شداد، بهاء الدين يوسف:
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** ـ القاهرة ١٩٦٢.
- ابن شداد، عز الدين محمَّد بن علي بن إبراهيم:

- **تاريخ الملك الظاهر** ـ باعتناء أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ڤيسبادن ١٩٨٣.
- ابن طباطبا، محمَّد بن علي، المعروف بابن الطقطقا:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** ـ دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين:
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ـ تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ١، ١٩٧٦.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان** ـ دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن هبة الله:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب** ـ تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٧.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمَّد بن عبد الرحيم:
- **تاريخ الدول والملوك الأجزاء، ٤، ٥، ٧** ـ تحقيق: قسطنطين زريق، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٤٢.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين:
- **التعريف بالمصطلح الشريف** ـ مصر ١٣١٢هـ.
- **مسالك الأبصار وممالك الأمصار** ـ تحقيق: كلاس لشي، ڤيسبادن ١٩٦٨.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد:
- **ذيل تاريخ دمشق** ـ تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٣.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمَّد:
- **لسان العرب** ـ دار صادر، بيروت.
- ابن واصل، جمال الدين محمَّد بن سالم:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الأجزاء ١ ـ ٣** ـ تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ .**الجزء الرابع** ـ تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٤.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** ـ تحقيق: محمَّد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٥٦م/ ١٢٨٨هـ.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمَّد:

- **المختصر في أخبار البشر** ـ تحقيق: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
- الأصفهاني، عماد الدين ابن عبد اللّٰه محمَّد بن محمَّد، المعروف بالكاتب:
- **الفتح القسي في الفتح القدسي** ـ تحقيق: محمَّد محمود صبح، القاهرة، من الشرق والغرب.
- الأيوبي، الملك المنصور عمر بن شاهنشاه:
- **مضمار الحقائق وسر الخلائق** ـ تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.
- باشي، منجم:
- **الدولة المنكوكجية**.
- البيهقي، أَبو الفضل:
- **تاريخ البيهقي** ـ ترجمة: يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢.
- الجويني، عطا ملك:
- **تاريخ قاهر العالم** ـ ترجمة: محمَّد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب ١٩٨٥.
- الحسيني، صدر الدين أَبو الحسن:
- **أخبار الدولة السلجوقية** ـ تحقيق: محمَّد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١ ١٩٨١.
- الحموي، شهاب الدين أَبو عبد اللّٰه ياقوت:
- **معجم البلدان** ـ دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
- الراوندي، أَبو بكر محمَّد بن علي:
- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية** ـ ترجمة: شواربي، الصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة ١٩٦٠.
- الشارتري، فوشيه:
- **تاريخ الحملة إِلى بيت المقدس** ـ ترجمة: زياد العلي، دار الشروق عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٠.
- الصوري، وليم:
- **تاريخ الأعمال المنجرة فيما وراء البحار** ـ ترجمة: وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.

- الطوسي، نصير الدين:
- **ذيل تاريخ جهانكشاي، واقعة بغداد** - رسالة ملحقة بكتاب الجويني: **تاريخ فاتح العالم**.
- العظيمي، محمَّد بن علي:
- **تاريخ حلب** - تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤.
- العيني، بدر الدين محمود:
- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ ١** - تحقيق: محمَّد أمين، ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الفارقي، أَحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق:
- **تاريخ ميافارقين** - تحقيق: عبد اللطيف بدوي عوض، القاهرة ١٩٥٩.
- الفيتري، يعقوب:
- **تاريخ بيت المقدس** - ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان ١٩٩٨.
- القرماني، أَحمد بن يوسف بن أَحمد الدمشقي:
- **أخبار الدول وآثار الأول** - تحقيق: محمَّد أمين، بغداد ١٢٨٢هـ.
- المقدسي، المعروف بالبشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** - تحقيق: محمَّد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧.
- المقريزي، أَبو العباس أَحمد بن علي بن عبد القادر:
- **السلوك لمعرفة دول الملوك** - تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
- القلقشندي، أَحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** - تحقيق: محمَّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.
- المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس** - ترجمة: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨.
- النسوي، محمَّد بن أَحمد بن علي:
- **سيرة جلال الدين منكبرتي** - تحقيق: حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٣.
- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله:

- **جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي إلى تيمورخان** ـ ترجمة: فؤاد الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب** ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جـ ٢٩ تحقيق: محمَّد ضياء الدين الريس، ١٩٦٣.
- اليونيني، موسى بن محمَّد. . . البعلبكي:
- **ذيل مرآة الزمان** ـ دائرة المعارف الإسلامية، الهند ١٩٥٤ ـ ١٩٦٤.

ب ـ المراجع

- أرملة، إسحاق:
- **الحروب الصليبية في الآثار السريانية** ـ بيروت، ١٩٢٩.
- أستارجيان، ك. أ:
- **تاريخ الأمة الأرمينية** ـ مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل ١٩٥١.
- بارتولد، ف. ف:
- **تاريخ الترك في آسيا الصغرى** ـ ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٥٨.
- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي** ـ ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، قسم التراث العربي، الكويت، ط ١، ١٩٨١.
- تاضروس، إسحاق عبيد:
- **روما وبيزنطية** ـ دار المعارف، مصر ١٩٧٠.
- توفيق، كمال عمر:
- **مملكة بيت المقدس الصليبية** ـ الإسكندرية ١٩٥٨.
- حسنين، عبد النعيم محمَّد:
- **إيران والعراق في العصر السلجوقي** ـ دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢.
- حمدي، حافظ:
- **الدولة الخوارزمية والمغول** ـ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٩.
- خليل، عماد الدين:
- **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام** ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٠.
- رستم، أسد:
- **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** ـ دار المكشوف، بيروت، ط ١، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.

- رنسيمان، ستيفان:
- **تاريخ الحروب الصليبية** ـ ترجمة: السيد الباز العريني. دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.
- زكار، سهيل:
- **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية** ـ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٢.
- سرور، محمَّد جمال الدين:
- **سياسة الفاطميين الخارجية** ـ دار الفكر العربي، القاهرة.
- شبولر، برتولد:
- **العالم الإسلامي في العصر المغولي** ـ ترجمة: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٢.
- طقوش، محمَّد سهيل:
- **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام** ـ دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة** ـ دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.
- **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام** ـ دار النفائس، ط ١، ١٩٩٧.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية** ـ مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط ١ ١٩٦٣.
- العريني، السيد الباز:
- **المغول** ـ دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩.
- **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى** ـ دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨.
- عمران، محمود سعيد:
- **السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل الأول** ـ دار المعارف، مصر ١٩٨٥.
- عنان، محمَّد عبد اللّه:
- **موقعة ملازكرد** ـ مجلة الثقافة، العدد ٤٠٠، سنة ١٩٤٨.
- غروسيه، رينيه:
- **جنكيزخان قاهر العالم** ـ ترجمة: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق ١٩٨٢.
- فامبري، أرمينيوس:
- **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر** ـ ترجمة: محمود الساداتي،

المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة: والطباعة والنشر ١٩٦٥.
- قاسم، محمَّد عبده:
- **ماهية الحروب الصليبية** ـ عالم المعرفة، العدد ١٤٩، شهر أيار ١٩٩٠.
- كلاري، روبرت:
- **فتح القسطنطينية على يد الصليبيين** ـ ترجمة: حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٤.
- كوبرولو، محمَّد فؤاد:
- **قيام الدولة العثمانية** ـ ترجمة: أَحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي، القاهرة.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإِسلامية

- ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمَّد:
- **الأوامر العلائية في الأمور العلائية، المسمى بسلجوق نامه** ـ تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢. (الفارسية).
- الآقسرائي، محمود بن محمَّد، المشتهر بالكريم:
- **مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار** ـ تحقيق: عثمان توران، أنقرة ١٩٤٣ (الفارسية).
- أمير خواند، غياث الدين بن همام الدين:
- **تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر** ـ تحقيق: محمود دبيرسياقي، طهران، ط ٢، ١٣٥٣هـ (الفارسية).
- باشي، منجم:
- **صحائف الأخبار** ـ إستانبول ١٢٨٥هـ (التركية).
- صفا، ذبيح اللَّه:
- **تاريخ أدبيات درإيران** ـ طهران ١٣٣٩ هـ. (الفارسية).
- كوبرولو، محمَّد فؤاد:
- **إيلك متصوفللر** ـ إستانبول ١٩٦٩. (التركية).
- المستوفي، حمد اللَّه أبو بكر بن أَحمد بن نصر المستوفي القزويني:
- **تاريخ گزيدة** ـ نشر: براون، بومباي ١٣٢٨ هـ (الفارسية).
- الهمذاني، رشيد الدين فضل اللَّه:
- **جامع التواريخ، تاريخ المغول** ـ المجلد الأول، الجزءان الأول والثاني، **الإيلخانيون، تاريخ هولاكو** ـ نشر: كارتمير، أمستردام ١٩٦٨ (الفارسية).

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Albirt d'Aix:
  - Liber Christianne Epedition pro Eroptions. Emundtione et Restions Sameta Hierosoluritanae Ecclesia - in Recueil des Historiens des Croisades. Paris 1841 - 1966. R. H. C occ vol IV.
- Allen, William:
  - A History of the Georgian people - London 1914.
- Archer, T. A and Kingsford, C. L:
  - The Crusades - London 1894.
- Berchem, Max Van et Edhem Halil:
  - Corpus Inscriptiorum Arabiarum, Asie Mineur - Vol 19 prt 3, Caire 1894 - 1903.
- Boase, Thomas Sherrer Ross:
  - Cilician Kingdom of Armenia - London 1878.
- Brand, Ch. N:
  - The Byzantines and Saladin 1185 - 1192. Opponent of the Third Crusade - Speculum 37, 1962.
- Brosset, M. F:
  - Histoire de la Géorgie - St. petersburg 1849.
- Cahen, Claude:
  - Pre-ottoman Turkey - Trans. by: J. Jones- London 1968.
  - La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté d'Antioch. Paris 1942.
- Cambridge Medieval History, Vol IV.
- Cambridge History of Byzantine Empire.
- Cambridge History of Islam.
- Casanova, P:
  - La Numismatigue des Danichmendites. 1894-1896. Paris 1986.
- Chalandon, Ferdinande:
  - Les Comnèes Jean II et Manuel. Paris 1913.
- Chamician, Michael:
  - History of Armenia - Trans by Johannes Avadalle. Calcutta 1827.
- Choniates, Nicetas:
  - Historia. in Corpus Scriptorum Historiae. Byzantinae, Bonn 1828-1897. (C.S.H.B).
- Comnena, Anna:
  - The Alexiad - Trans. by Elisabeth, A. S Dawes. London 1928.
- Curtin, J:

- The Mongols. Boston 1908.
- D'ohsson, Constantine:
  - Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'a TimourBey, ou Tamerlan. Amesterdam. 1834-1836.
- Diehl, Charles:
  - Histoire de L'Empire Byzantin. Paris 1910.
- Dozy, R.P.A:
  - Moslems in Spain. London 1913.
- Duggan, A:
  - The Story of the Crusades 1097-1291. London 1936.
- Eracles:
  - L'Estoire de Eracles Empereur et la Coquette de la Terre d'outre mer. R.H.C.H occ T II Paris 1859.
- Ernoul:
  - Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier. Ed Maslative. Paris 1871.
- Eugen III:
  - Letter to Louis VII in R.H.G.F. XV.
- Finlay, George:
  - History of the Byzantine Empire. London 1853.
- Gardner, Alice:
  - The Lascaris of Nicea. The Story of an Empire in Exile. London 1912.
- Grégoire de prêtre:
  - Chronique in R.H.C Doc Arm. Vol I Paris 1869.
- Grousset, René:
  - Histoire de Croisades et du Royaume. Paris 1934-1936.
  - Histoire de L'Arménie des origines jusqu'a 1071. Paris 1947.
  - L'Empire du Levant. Histoire de la question d'orient. Paris 1946.
  - L'Empire Mongols. Paris 1941.
  - L'Empire de la Steppes. Paris 1948.
- Howorth, Sir Henry Hayle:
  - History of Mongols from the 9th to the 19th Century, London 1876-1927.
- Kinnamos, John:
  - Epitome Historiarum-in C.S.H.B, Bonn 1836.
- Lamb, Harold:
  - Genghis Khan, the Emperor of all men. New York 1928.
- Laurent, J:
  - Byzance et les Turcs Seljoucides jusqu'en 1081. Nancy 1913.

- Mathew of Edessa:
  - Chronique in R.H.C, Arm Doc Vol I.
- Michel le Syrienne:
  - Chronique. Edited by J. B Chabot, Bruxelles 1899-1910.
- Manuel I:
  - Letter to the Pope Eugenius III dated 1146, cf, R.H.G.F, XV.
- Nicephorus Bryennius:
  - Historia. in C.S.H.B. Donn 1836.
- Odo of Deuil:
  - The Journey of Louis VII to the East. Ed by Virginia Ginjerick Berry. New York 1948.
- Oman, Charles william Chadwick:
  - A History of the Art of war in the Middle Ages. London 1924.
- Ostrogorsky, Georgiji:
  - A History of the Byzantine States. Trans by Hussey. Oxford 1956.
- Psellus, Michael:
  - The Chronographia. Trans by E.R.A Sexter. Baltimore, England 1966.
- Ramsey, Sir William Mitchell:
  - Historical Geography of Asia Minor. London 1890.
- Rice, Tamara Talbot:
  - The Seljuks in Asia Minor. London 1961.
- Robert the Monk:
  - Historia Hierosolymitana. in R.H.C occ Vol II.
- Sclumberger, Gustave Leon:
  - Récits de Byzance et des Croisades. Paris 1916-1922.
- Sempad Connetable. in R.H.C. Arm Doc Vol I.
- Setton, Kenneth Meyer:
  - A History of the Crusades. Wiscounsin 1969.
- Stevenson, William Barron:
  - The Crusades in the East. Cambridge 1967.
- Tournebiz, F:
  - Histoire Politique et Religieuse de L'Armenie. Paris 1910.
- Turan, Osman:
  - Lislamisation dans la Turque du Moyen Age. Studia Islamica Vol X 1959.
- Vasiliev, A. A:
  - History of the Byzantine Empire. Madison 1928, 1973.
- Wittek, Paule:
  - The Rise of Ottoman Empire. London 1958.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع
قلج أرسلان داوود بن سليمان: قلج أرسلان الأول
٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م

الموضوع **الصفحة**

الفصل الخامس
ملكشاه بن قلج أرسلان
٥٠٣ ـ ٥١٠ هـ/١١٠٩ ـ ١١١٦م

الفصل السادس
ركن الدين مسعود بن قلج أرسلان: مسعود الأول
٥١٠ ـ ٥٥٠ هـ/١١١٦ ـ ١١٥٥م

الموضوع | **الصفحة**

الفصل السابع
عز الدين قلج أرسلان بن مسعود: قلج أرسلان الثاني
٥٥٠ـ٥٨٨ هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٩٢م

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر

علاء الدين كيقباد بن كيخسرو: كيقباد الأول

٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧م

الفصل الحادي عشر

غياث الدين كيخسرو بن كيقباد: كيخسرو الثاني

٦٣٤ ـ ٦٤٤هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦م

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني عشر
مرحلة الحكم المشترك
٦٤٤ ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٦٥م

عز الدين كيكاوس: كيكاوس الثاني
ركن الدين قلج أرسلان: قلج أرسلان الرابع
علاء الدين كيقباد: كيقباد الثاني

الفصل الثالث عشر
السنوات الأخيرة من عمر السلطنة
٦٦٤ ـ ٧٠٤هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٣٠٤م

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع عشر
أسباب زوال سلطنة سلاجقة الروم

رقم: 399 - 02



تتناول هذه الدراسة تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جانبه السياسي . والسلاجقة أتراك اعتنقوا الإسلام ، وظهروا على المسرح السياسي مبكرين ، ثم اشتهر أمرهم، وقويت شوكتهم وحكموا آسيا الصغرى من (١٠٧١ - ١٣٠٢ م) .

وبما أن عصرهم تزامن مع اضطرابات وحروب سادت المشرق الإسلامي، وحيث أنه كان لهم دور بارز فيها، ولم يحظ تاريخهم بعناية المؤرخين المعاصرين، والدراسات العلميَّة عنهم قليلة جداً، فقد وضع الباحث هذه الدراسة التي بدأها بأصل السلاجقة ، والعلاقات السلجوقية البيزنطية المبكرة وتطرق إلى حروبهم مع الصليبيين ، وعلاقاتهم مع السلاجقة في بلاد الشام ، والأيوبيين ، حتى قيام دولة المماليك ، ثم زوال مملكتهم .

والمؤلف أستاذ جامعي متخصص في التاريخ الإسلامي بعامة، والتاريخ العثماني بخاصة، وله مؤلفات عدَّة، وأبحاث كثيرة في هذا المجال.

الناشر




ISBN 9953-18-047-4
9789953180472